مكتبة

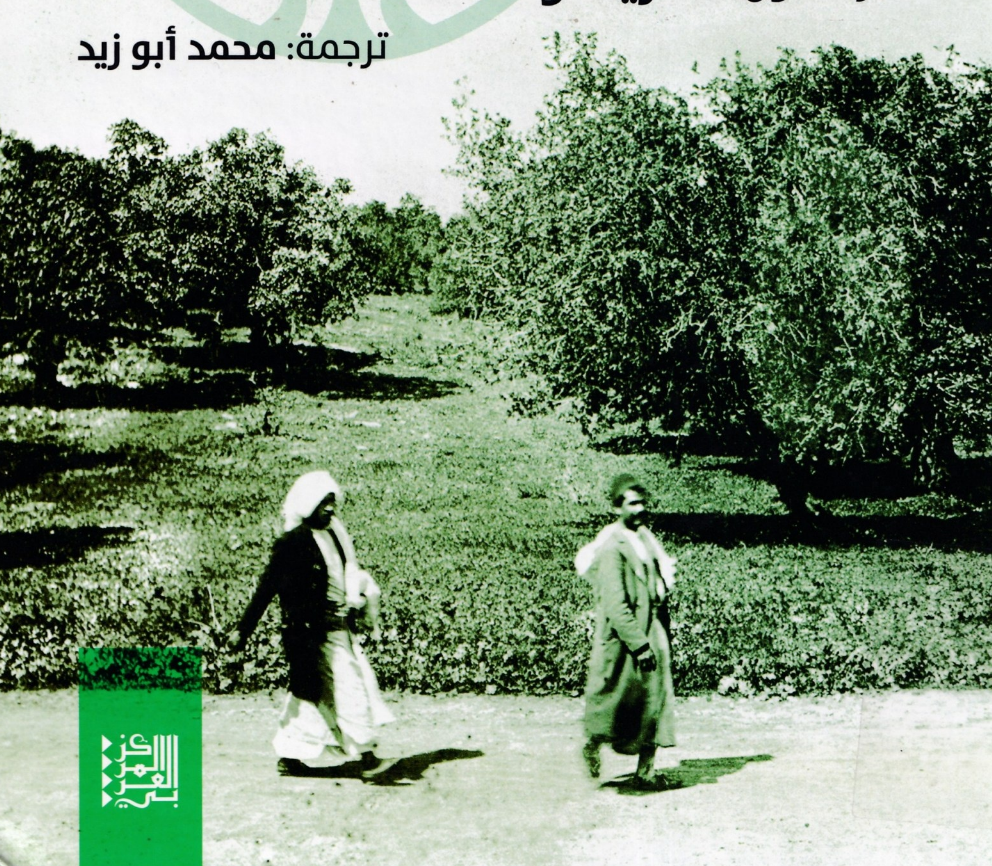
غوستاف دالمان

العمل والعادات والتقاليد في فلسطين

المجلد الأول: **سَيرُ السنة وسَيرُ اليوم**

الجزء الأول: **الخريف والشتاء**

ترجمة: محمد أبو زيد



العمل والعادات والتقاليد في فلسطين

المجلد الأول: سَيرُ السنة وسَيرُ اليوم

الجزء الأول: الخريف والشتاء

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى "سلسلة ترجمان" بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس "سلسلة ترجمان" وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

العمل والعادات والتقاليد في فلسطين

المجلد الأول: سَيرُ السنة وسَيرُ اليوم

الجزء الأول: الخريف والشتاء

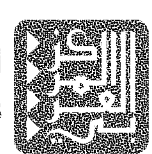
غوستاف دالمان



ترجمة
محمد أبو زيد

التحرير وضبط أسماء المواقع والتعابير باللهجات المحلية
صقر أبو فخر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

دالمان، غوستاف هيرمان، 1855-1941

العمل والعادات والتقاليد في فلسطين. المجلد الأول، سير السنة وسير اليوم، الجزء الأول، الخريف والشتاء/ غوستاف دالمان؛ ترجمة محمد أبو زيد؛ التحرير وضبط أسماء المواقع والتعابير باللهجات المحلية صقر أبو فخر.

383 صفحة: ايضاحيات؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

المحتويات: - الجزء الثاني. الربيع والصيف.

يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-556-2

1. فلسطين - العادات والتقاليد. 2. فلسطين - أحوال اجتماعية. 3. فلسطين - جغرافيا. 4. فصول السنة - فلسطين. 5. الزراعة - فلسطين. أ. أبو زيد، محمد (مترجم). ب. أبو فخر، صقر (محرر). ج. العنوان. د. السلسلة.

390.095694

هذه ترجمة لكتاب

Arbeit und Sitte in Palästina
Band I
Jahreslauf und Tageslauf
1. Hälfte: Herbst und Winter

By Gustaf Dalman

عن دار النشر

C. Bertelsmann Verlag, Gütersloh, 1928

Reprinted by Georg Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim, 1964

الناشر





شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر 2023

تنبيه من المحرر

1 - جميع العبارات الموجودة بين مركّنين [....] غير موجودة في الأصل الألماني، وهي من وضع المترجم أو المحرر.

2 - ترد في الكتاب عبارات كثيرة مثل "يهودا والسامرة" أو "القدس اليهودية" أو "صحراء يهودا" أو "الهيكل" وغيرها. وقد تعاملنا مع تلك العبارات بما يقتضيه سياق المعنى؛ فإذا كان النص يتحدث عن التاريخ القديم، وكانت الاستشهادات التي استند إليها المؤلف من العهد القديم مثلًا، تركنا عبارة "يهودا والسامرة"، كما هي مع إضافة جملة "الضفة الغربية" بين مركّنين، أي بين قوسين كبيرين. أما إذا كان الكلام يدور على الأزمنة الحديثة، خصوصًا منذ العهد العربي فصاعدًا نحو الفترة المملوكية والعثمانية، وصولًا حتى عهد الانتداب البريطاني، فأينما وردت عبارة "يهودا والسامرة" وضعنا بدلًا منها "الضفة الغربية"، وجعلنا الجملة بين قوسين كبيرين. وإذا وردت كلمة "الهيكل" جعلنا كلمة المسجد الأقصى، في محلها، أو "الحرم القدسي"، بحسب سياق الكلام.

3 - اكتفينا بإيراد أسماء الشهور السريانية (كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان ...إلخ)، ولم نضع دائمًا بعد كل شهر ما يقابله من الشهور القبطية (يناير، فبراير، مارس، أبريل ...إلخ) لأن المؤلف استرسل في كتابة أسماء الشهور العبرية، فصار لدينا أحيانًا اسم الشهر بالعربية والعبرية والقبطية، وإضافة اسم الشهر القبطي سيُثقل النص، ويجعل العبارة طويلة ومُربكة، مع ما في ذلك من احتمال الغلط في مطابقة أسماء الشهور العبرية والسريانية حيث أنها متقاربة وغير متطابقة، وبين هذه وتلك فروق يعرفها أهل الاختصاص.

4 – ترد كثيرًا عبارة "المصادر الربانية" و"الأدبيات الربانية" نسبة إلى الربيين، أي الحاخامات من ذوي المراتب العليا، أو الحكماء. وحتى لا يختلط المعنى بالربوبية (نسبة إلى الرب)، استعملنا عبارة "الأدبيات الحاخامية" أو "المصادر الحاخامية".

5 – كثيرًا ما ترد في متن الكتاب إحالات إلى النص الأصلي، مثل: "يُنظر ص 140 وما يليها". إن أرقام هذه الصفحات تعود حكمًا إلى النص الألماني وليس إلى النص العربي.

6 – فَاضلْنا بين مصطلح "الترجمة السبعونية"، وهو الرائج والمقبول، و"الترجمة السبعينية"، فاخترنا الأول.

7 – كل صورة لم يُذكر اسم المصور تحتها تعني أن المصور غير معروف.

8 – إذا كان اسم المكان يُلفظ بأكثر من صيغة (بير السبع – بئر السبع، طاليتا قومي – طاليثا قومي، دورميثيون – دورميسيون، درب الآلام – طريق الآلام، باطن الهوا – بطن الهوا، غولغوثا – الجلجلة – الجلجثة) فقد اجتهدنا في اختيار اللفظ الأكثر ورودًا في المصادر العلمية أو السجلات الرسمية، أو الأكثر شيوعًا على ألسنة الناس مما لا يتعارض والمصادر العلمية.

9 – وضعنا لكل مجلد فهرسًا شاملًا للأعلام والجماعات والموضوعات والأماكن، ولم نلتزم الفهرس الوارد في النص الألماني.

10 – جعلنا قوائم المراجع والمصادر في المجلد الثامن الأخير، ولم ندرجها في كل مجلد على حدة.

الاختصارات

PJB = *Palästinajahrbuch.*
ZDPV = *Zeitschrift des Deutschen Palästina - Vereins.*
MuN des DPV = *Mitteilungen und Nachrichten des Deutschen Palästina-Vereins.*
ZDMG = *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.*
ZAW = *Zeitschrift für Alttestamentliche Wissenschaft.*
PEFQ = *Palestine Exploration Fund Quarterly.*
JPOS = *Journal of the Palestine Oriental Society.*
BASOR = *Bulletin of the American Schools of Oriental Research.*

المحتويات

تقديم
غوستاف دالمان
واستعادة التاريخ الحضري لفلسطين

عزمي بشارة

ظلت النظرة الأوروبية إلى الأراضي المقدسة، حتى حروب الفرنجة على أقل تقدير، مقصورة على اعتبار فلسطين مجرد موقع توراتي، وبقيت فلسطين في وعي الأوروبيين تنتمي إلى عالم مجهول ومتخيّل في آن. واغتذت تلك النظرة من التوراة والحكايات المسيحية من جهة، ومن قصص ألف ليلة وليلة وروايات الشرق الغامضة والساحرة من جهة أخرى، علاوة على الرؤية الرومانسية التي تطورت تعبيراتها وأينعت في الأوساط الأدبية والفنية وكتابات الرحالة والمغامرين وحتى التجار.

عمومًا لم يكترث الفرنجة الذين عُرفوا لاحقًا بـ "الصليبيين" بالتاريخ التوراتي السابق للمسيح، وإنما اهتموا بالقبر المقدس في القدس أساسًا، فالصلب والقيامة كانا في جوهر العقيدة الكاثوليكية آنذاك. وانصبّ الاهتمام على مكان ميلاد المسيح في بيت لحم وترحله من الناصرة إلى القدس، وكذلك ترحلات بطرس وبولس الرسول في بلاد الشام. ومع ذلك تجاهل الفرنجة سكان البلاد المسلمين والمسيحيين واعتبروهم طارئين عليها.

أُغلق التنقيب عن الآثار، بأشكاله البدائية، بعد انتهاء حروب الفرنجة، ولم يُتح له أن ينشط مجددًا، بصورة فاعلة، إلا بعد الإصلاحات العثمانية في القرن

التاسع عشر ونشوء نظام الحمايات والامتيازات الذي أفسح في المجال أمام الأوروبيين، ولا سيما الدارسين والرحالة والمصورين والإرساليات التبشيرية ومراكز البحوث، كي يتقاطروا على فلسطين لافتتاح مراكز تُعنى بالتاريخ القديم والآثار، وأحيانًا للاطلاع على أحوال السكان، أي على المجتمع الفلسطيني باعتباره استمرارًا للمجتمع المسيحي أو اليهودي القديم. ولا شك في أن بعض هؤلاء الدارسين المدفوعين بروح البحث والاستكشاف أو لأغراض مختلفة، ومنها استخبارية، أو بحمية العلم، اختلطت لديهم المشاعر الدينية، أو على الأقل الثقافة الدينية، بالدوافع المعرفية. غير أن آخرين كانت لهم دوافع دينية تبشيرية. وبالتزامن، أباح حاكم مصر محمد علي باشا للإرساليات التبشيرية التنقيب والبحث الآثاري بعد احتلال ابنه إبراهيم باشا بلاد الشام في سنة 1831. وهكذا تجدد الاهتمام الأوروبي بفلسطين لكن في سياق استعماري هذه المرة.

غالبًا ما أدى البحث الأوروبي، والأميركي في ما بعد، عن إسرائيل القديمة المتخيلة إلى استبعاد التاريخ الفلسطيني، والحاضر الفلسطيني الماثل أمامهم، من نطاق البحث العلمي المستقل، بل اعتباره طارئًا على التاريخ "الحقيقي" للمكان الذي بحثوا عنه؛ فالحقيقي لديهم هو الأسطوري أو التوراتي. وكانت النتيجة الإخفاق في التحرر من سطوة اللاهوت والمصادر التوراتية اليهودية، وفي تشخيص الاستمرارية المادية والثقافية والبشرية لشعب هذه البلاد. واستُبعد أيضًا تاريخ فلسطين الحقيقي جراء الاعتماد على التوراة باعتبارها نصًا تاريخيًا بعدما تمكن المؤرخون التوراتيون وعلماء الآثار من إملاء آرائهم على البحوث الأكاديمية الغربية، وعلى البحوث التاريخية في الأراضي المقدسة.

وحتى في مرحلة التنوير والثورة العلمية، ظل تاريخ فلسطين خاضعًا للمصطلحات التي نحتها توراتيون أو باحثون ينتمون إلى مدارس الإيمان بالعهد القديم مثل ما يسمى **فترة الهيكل الأول** (أي منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى الغزو البابلي في سنة 586 قبل الميلاد، وفيها ظهرت مملكة داود وسليمان)، وما يسمى **فترة الهيكل الثاني** (من سنة 538 قبل الميلاد حتى سنة 70 بعد الميلاد، أي من الغزو الفارسي بقيادة قوروش حتى تدمير تيطوس الهيكل المتخيل في مدينة القدس). ورسّخت معظم الدراسات التاريخية

والآثارية النظرة إلى تاريخ فلسطين القديم ما قبل التوراتي باعتباره مجرد خلفية لتاريخ إسرائيل القديم، مع أن البرهان العلمي أثبت لاحقًا أن ما يُسمى **مملكة إسرائيل** إنما هي، إن صح وجودها فعلًا، لحظة عابرة في تاريخ فلسطين، ولم يكن ثمة مملكة بالمعنى الذي تشير إليه تلك الكلمة. ومملكة إسرائيل تلك التي أسسها عومري وجعل السامرة عاصمة لها، بحسب الموروث اليهودي، الشفوي والكتابي، كانت تدعى في الأصل، بيت عومري، أو ديار عومري بلغة القبائل، أي مكان سكن قبيلة عومري، ولم تكن مملكة حتى بمعايير تلك الأيام، وقد قضى عليها تغلات فلاصّر الأشوري بسهولة فائقة في سنة 732 قبل الميلاد.

كان من المفترض أن يؤسَّس تاريخ فلسطين، بدهيًا، كعلم قائم بذاته، لا كعلم مشتق من تاريخ إسرائيل الأسطوري القديم الذي تعتوره التحوطات والاحتراسات والشكوك والحيَدة عن العلم، لا بسبب أسطوريته فحسب، بل بسبب ما لحق به من أهداف أيديولوجية وسياسية ودعائية وتعبوية أيضًا، خصوصًا بعد أن زعمت الحركة الصهيونية الحديثة، وما برحت، أن دولة لليهود كانت موجودة في فلسطين القديمة، وبالتالي فإن لليهود اليوم الحق في إعادة تأسيس تلك الدولة، وكأن التوراة وثيقة مُلْكية عقارية، أو كانت لليهود دولة قبل عصر القوميات والدول، وكأن موقع تلك "الدولة" كان في فلسطين الحالية، وكأن تاريخ فلسطين كله يُختزل في تلك اللحظة التاريخية التي انتهت في سنة 70 للميلاد بحسب الصهيونية ذاتها؛ أما التاريخ، قبلها وبعدها، فنافل لا يُحسب ولا يُعد. ومع الأسف، وجدت تلك المزاعم صدى لدى الأوروبيين والأميركيين، ولا سيما لدى جماعات من البروتستانت المتأثرين منذ طفولتهم بقصص التوراة.

هل كان لليهود دولة حقًا في التاريخ المفترض لتلك الدولة؟ وهل اليهود الجدد هم ورثة أولئك اليهود القدامى؟ وإذا أُقيم البرهان على أن اليهود لم تكن لهم دولة في تاريخ فلسطين القديم، فهل تصبح إسرائيل بلا شرعية وتزول؟ إن وجود الدول تتحكم به حقائق قائمة تُصنع بالقوة لا بالتبشير، وسياسات قوة ومصالح واقتصادات ومنظومة دولية وموازين قوى. لكن التبرير الأيديولوجي والأساطير المشكِّلة للوعي تؤدي دورًا مهمًا في التعبئة والتعاطف، وتشكل مواجهتها جزءا من السعي لتحقيق العدالة. ولا تنتمي شرعية الدول في عصرنا

إلى مصادر دينية، ولا إلى حقوق تاريخية مستمدة من مرحلة لم توجد فيها لا دول ولا قوميات ولا منظومة دولية. لقد دعت الأيديولوجية الصهيونية إلى تأسيس دولة قومية لليهود بأدوات استعمارية استيطانية، وكلها مصطلحات حديثة، وبررت ذلك بحجج قومية معاصرة شبيهة بالخطاب القومي الأوروبي. لكنها ظلت أسيرة قوالب التفكير الدينية في المطابقة بين الانتماء الديني اليهودي والقومي، وفي الإصرار على فلسطين موقعًا لإنشاء دولة اليهود من منطلقات أسطورية توراتية.

في خضم الصراع مع سكان فلسطين ومحيطها الإقليمي، كان علم الآثار الإسرائيلي يقفز عن ألفي عام من تاريخ فلسطين، وعن تفاعل الشعوب والقبائل والديانات فيها؛ ذلك التفاعل الذي تولد منه الشعب العربي الفلسطيني، ويتخطى ذلك كله إلى إثبات ارتباط إسرائيل الحالية التي ظهرت في سنة 1948 بمملكة داود وسليمان، أو بمملكة يهودا، أو بمملكة عومري. وكلها، إذ وجدت فعلًا، عبارة عن مضارب قبلية لجماعات قليلة التحضر. ولم يفلح "علم الأركيولوجيا" الإسرائيلي في أن يأتي ببيّنة واحدة على وجودها. ولذلك يزعم الآثاريون التوراتيون أن ما يكتشفونه يعود إلى مرحلة الهيكل الأول أو الثاني من دون البرهان على أن الموجودات نفسها يهودية حقًا، أو أن هيكلًا كان موجودًا هناك فعلًا. وسعى علم الآثار الإسرائيلي أيضًا إلى البرهان على أن اليهود اليوم هم استمرار بيولوجي لليهود القدماء، وأن علاقة فلسطين باليهود هي علاقة مستمرة لم تنقطع. والواضح هنا تمامًا أن ثمة استدعاءً للتاريخ التوراتي القديم لمساندة الرواية الصهيونية الحديثة، وهو ما يترتب عليه اختلاق للماضي، أو إعادة صوغ الماضي بحسب أهواء الحاضر.

استكشاف فلسطين

بدأت حركة الاستكشافات في فلسطين، المعروفة لنا على الأقل في ما يتجاوز حجيج الزهاد والنساك، في صورتها الأولية، بعد انتهاء حروب الفرنجة في بلاد الشام في سنة 1291 ميلادي. وفي الإمكان القول إن فلندرز بيتري الذي ارتحل مرات عدة إلى فلسطين منذ سنة 1480 فصاعدًا كان طليعة هذه

الحركة. غير أن حركة الاستكشافات الآثارية لم تبدأ جديًا إلا في القرن التاسع عشر على أيدي أشخاص متفاوتي القيمة العلمية، أمثال القس البروتستانتي الأميركي إدوارد روبنسون وتلميذه إلي سميث. وقد جاء روبنسون إلى فلسطين أول مرة في سنة 1838، وبدأ رحلته الاستكشافية من بير السبع نحو الشمال، وكان يمسك التوراة بيده اليمنى وخريطة فلسطين بيده اليسرى، ثم يعكف على تجميع الأسماء العبرية القديمة الواردة في التوراة، ثم نثرها على المواقع الفلسطينية التي كان يجول في شعابها في عملية إسقاط على المكان والزمان. وظل روبنسون يتردد على فلسطين حتى سنة 1852 لغاية محددة هي البرهان على أن جغرافية العهد القديم مطابقة لجغرافية فلسطين الحالية. وشرع في تسجيل المواقع الواردة في التوراة على خرائط فلسطين الحالية، ولمّا لم يتمكن من مطابقة ما ورد في التوراة على الجغرافيا، راح يطابق الأسماء حتى لو لم تكن متشاركة في اللفظ والصوت، فجعل نابلس الفلسطينية شكيم التوراتية، والخليل حبرون، وتل الدوير (لاخيش). وفي سياق عملية المحو والطمس المتمادية واللاحقة، جُعلت عقرون الواردة في سفر يشوع هي نفسها قرية عاقر القريبة من يافا، حتى لو لم يبرهن علم الآثار صحة ذلك. وباتت إيلون هي قرية يالو بين القدس والرملة، وصارت جبعون قرية الجب، وأضحت صرفت الواردة في سفر الملوك صرفند... وهكذا. ولم يكن ذلك كله بلا أساس تمامًا. فقرب نابلس عاشت جالية سامرية صغيرة (وما زالت) تذكّر بزيارة المسيح لقرية سامرية في طريقه إلى القدس وفق العهد الجديد. وفي الخليل عاشت جالية يهودية. لقد وجدت في مراحل مختلفة حتى العصر العثماني جوالٍ يهودية صغيرة نسبيًا في القدس وصفد وغزة وطبريا، مثلما كانت هناك جوالٍ يهودية في اليمن والبصرة وبغداد والإسكندرية وغيرها. وتعزز وجود تلك الجوالي بالهجرة التي أتاحتها الدولة العثمانية لليهود الهاربين من الاضطهاد بعد طرد المسلمين واليهود من إسبانيا. وكانت جالية فلسطين اليهودية من أصغر جوالي بلدان المنطقة، وتألفت غالبًا من يهود متدينين وتقليديين. وغالبًا ما قدست عقائد السكان المسلمين والمسيحيين واليهود في بلاد الشام، بتدينهم الشعبي وتقاليدهم المختلطة بتقاليد كنعانية وسريانية متوارثة، الأماكن

ذاتها بأسماء مختلفة، أو بالأسماء نفسها التي تشابهت في النصوص المقدسة للديانات الثلاث. أما المستكشفون المؤدلجون ذوو الدوافع الدينية-السياسية فحاولوا أن يدمجوا الفولكور الشعبي بالخريطة الزمانية-المكانية المصممة وفق سرديتهم عن التاريخ الفلسطيني.

في سنة 1865 أُسس "صندوق استكشاف فلسطين" (the Palestine Exploration Fund) في لندن. وأصبح لورد شافتسبري رئيسًا للصندوق، وقال في خطاب الافتتاح أن جهود الصندوق سوف توجَّه إلى تحضير الأرض لمنحها لليهود، "أصحابها القدامى"، وأن موعد عودتهم إلى فلسطين لن يتأخر. وجاء تشارلز وارِن، مندوب ذلك الصندوق، ليبدأ حفرياته في القدس. ثم ظهرت "جمعية الاستكشاف الأميركية" في نيويورك في سنة 1870. وكان الذين اهتموا بدراسات العهد القديم والعهد الجديد في معظمهم لاهوتيين ودارسين للغات القديمة كالآرامية، وعلماء آثار وطوبوغرافيين وجيولوجيين، علاوة على مصوّرين ورسامي خرائط. وقد اهتمت بريطانيا بالتنقيب الآثاري في فلسطين لدوافع أيديولوجية واستعمارية في الوقت ذاته[1]. وكان كثير من البريطانيين الذين أكبوا على التنقيب موظفين في وزارة الحربية أمثال كلود كوندر واللورد هوراشيو كيتشنر وتوماس إدوارد لورنس بمن فيهم أيضًا المستشرق إدوارد هنري بالمر. وهؤلاء، علاوة على مهندسي الجيش البريطاني العاملين في صندوق استكشاف فلسطين، بدأوا منذ أواخر القرن التاسع عشر رسم خرائط طوبوغرافية تفصيلية لفلسطين وبلدانيتها. واشتُهر بين أولئك الآثاريين جيمس بريتشيد ووليام أولبرايت صعودًا حتى كاثلين كينيون. وقد تركز البحث الآثاري آنذاك على القدس وسبسطية وأريحا،

(1) عن هذه الموضوعات، ينظر:

Eitan Bar-Yosef, "Christian Zionism and Victorian Culture," *Israeli Studies*, vol. 8, no. 2 (Summer 2003), pp. 18-44; Michael Oren, *Power, Faith and Fantasy - America in the Middle East 1776 to the Present* (New York: WW Norton & Company, 2007); Barbara W. Tuchman, *Bible and Sword- England and Palestine from the Bronze Age to Balfour* (New York: NY University Press, 1956);

بول مركلي، **الصهيونية المسيحية** (1891-1948)، ترجمة فاضل جتكر (دمشق: دار قدمس، 2002). ينظر أيضًا ملحق الدين والسياسة والاستعمار في: عزمي بشارة، **الدين والعلمانية في سياق تاريخي**، المجلد الثاني، الجزء الثاني (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015)، ص 400-408.

ثم تل المتسلم (مجدّو) وتل الدوير (لاخيش) وتل السلطان (أريحا) وتل الفارعة (في بير السبع) وتل العجول (في غزة)، وغيرها من التلول الأخرى، مثل تل الحسي وتل الصافي وتل تعنك وتل زكريا. وكان البريطاني تشارلز وارن بدأ أول تنقيب له في أريحا في سنة 1868، ونُشرت نتائج ذلك التنقيب في سنة 1913 بعدما توقف العمل فيه طوال أربعين سنة قبل أن يستأنفه في سنة 1907 النمساوي أرنست سيلّين. وجاء في طيات تلك النتائج العجيبة أن أسوار أريحا الواردة في سفر يشوع انهارت آخر مرة قبل 300 سنة من العصر المفترض ليشوع بن نون.

لكن يسرائيل فنكلشتاين، رئيس قسم الآثار في جامعة تل أبيب، توصل، في ما بعد، إلى أن قصة يشوع بن نون تنتمي كلها إلى عالم الأساطير؛ ففي الزمن المفترض لاحتلال أريحا وعاي (أي في أواخر العصر البرونزي) لم تكن توجد في فلسطين، بحسب استنتاجاته، مدن محصنة، ولم يكن ثمة أسوار لتُهدم. وكان روبرت مكاليستر كشف في سنة 1952 أن من المحال أن يكون تل المتسلم هو قرية مجدّو التوراتية، لأن مجدّو لم تكن مدينة بل مجرد تجمع عشوائي لأكواخ بدائية. وقد حاول علماء الآثار الصهيونيون أمثال جوزف كلاوسنر وأليعيزر بن يهودا ورافي يونان وأليعزر سوكينيك وابنه يغآل (غيّر اسم عائلته إلى يادين كعرف المهاجرين الصهيونيين في عبرنة أسمائهم الأجنبية، والذي أصبح رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلي، ولاحقا نائبًا لمناحيم بيغين رئيس الحكومة في عام 1977) معاندة تلك الاستكشافات العلمية وتحريف نتائجها. غير أن ذلك كله باء بالفشل عندما أعلن زئيف هيرتسوغ في سنة 1999، وهو أحد أهم الآثاريين الإسرائيليين النقديين (يُنعتون عادة بالجدد)، أن علم الآثار الإسرائيلي الذي كان يهدف دائمًا إلى إثبات الرواية التوراتية استنادًا إلى المعطيات الآثارية، وصل إلى طريق مسدود.

وطوّر الثنائي نيل آشر سيلبرمان ويسرائيل فنكلشتاين، فضلًا عن زئيف هيرتسوغ ونداف نئمان، مكتشفاتهما، وتوصلا إلى أن أسفار التوراة كلها خيال وأساطير وخرافات وحكايات شعبية، خصوصًا حكايات الخروج من مصر

وشق البحر بالعصا. ووصف سيلبرمان وفنكلشتاين داود وابنه سليمان بأنهما شخصيتان أسطوريتان غير تاريخيتين. وكانت كاثلين كينيون قد عملت في ما يُسمى "مدينة داود" في القدس (حي سلوان) بين سنتَي 1961 و1967، ثم جاء بعدها الإسرائيلي بنيامين مازار من سنة 1968 حتى سنة 1978، ثم عمل في المنطقة نفسها نحمان أبيجاد من سنة 1969 حتى سنة 1983، وكذلك يغئيل شيلوّاح من سنة 1978 حتى سنة 1985، ومات الأربعة ليتبين من نتائج بحوثهم أنْ لا وجود لمدينة داود إطلاقًا؛ مع أن تلك الحجة كانت تخفي الدافع إلى الاستيلاء على بيوت أهالي سلوان والاستيطان فيها، والتخطيط لتحويل جزء كبير من الحي إلى "حديقة توراتية" بعد هدم بيوته.

في هذا الميدان يقول فنكلشتاين: لم تكن تلك القصة التاريخية التي ترويها التوراة وحيًا إعجازيًا، بل نتاجًا رائعًا للخيال الإنساني الخصب. كان الكتاب المقدس الذي تضمّن عبقرية أدبية وروحية فذة، رواية ملحمية نُسجت من مجموعة غنية من الكتابات التاريخية والمذكرات والأساطير والقصص الشعبية والحكايات والأوامر والنبوءات والشعر القديم، ثم خضعت تلك القطعة الأدبية لعمليات متكررة من التنقيح والتحرير والتفصيل لتصبح مرتكزًا روحيًا لأحفاد يهوذا وذريته[2].

غوستاف دالمان وتاريخ فلسطين الحي

على هذه الخلفية يبرز عمل غوستاف دالمان الذي وفد إلى فلسطين بدوافع بحثية ثيولوجية وفيلولوجية، ولكنه، على عكس الرحالة والأركيولوجيين المؤدلجين، درس حاضر البلاد بوصفه مفتاح فهم الماضي، بغض النظر عن استنتاجاته التاريخية. لكن دالمان لم يتجاهل أهل البلاد، ولم يعدّهم ظاهرة عابرة يمكن القفز عنها إلى ماضٍ سحيق تكتب عنه النصوص الدينية، بل أصبحوا شغله الشاغل.

(2) يسرائيل فنكلشتاين ونيل آشر سيلبرمان، **التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها**، ترجمة سعد رستم (دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، 2007)، ص 23-24.

في ما عدا مقالاته العديدة في اللغة واللاهوت والتاريخ، ترك لنا غوستاف دالمان وثيقة علمية نادرة في وصف المكان والسكان في بداية القرن العشرين هي كتابه **العمل والعادات والتقاليد في فلسطين** في ثمانية مجلدات: المجلد الأول سير السنة وسير اليوم (الجزء الأول عن الخريف والشتاء والجزء الثاني عن الربيع والصيف)؛ المجلد الثاني: الزراعة؛ المجلد الثالث: من الحصاد إلى الدقيق: حصاد، درس، تذرية، تنقية، تخزين، طحن؛ المجلد الرابع: خبز وزيت ونبيذ؛ المجلد الخامس: قماش النسج والغزل والنسيج والملابس؛ المجلد السادس: حياة الخيمة وتربية المواشي وتصنيع الألبان واصطياد الحيوانات وصيد الأسماك؛ المجلد السابع: البيت وتربية الدواجن وتربية الحمام وتربية النحل؛ المجلد الثامن: الحياة المنزلية والميلاد والزواج والموت.

كان غوستاف دالمان (1855-1941) عالمًا لاهوتيًا وفيلولوجيًا لوثريًا ألمانيًا. وكان أول أعماله البحثية عن لغة الإنجيل (العهد الجديد)، كما ترجم أقسامًا منه إلى العبرية (واضح أن ذلك جرى في سياق جهد لتيار انتمى إليه أستاذه في لايبزيغ لتبشير اليهود بالمسيحية). وقد توصل إلى أن لغة المسيح كانت آرامية لا عبرية.

حين وفد دالمان إلى فلسطين اختار، بدلًا من التنقيب في باطن الأرض، التجول فوق الأرض في فلسطين ومحيطها لاكتشاف تفصيلات الحياة اليومية لدى الفلاحين والبدو، علاوة على حياة سكان المدن، خصوصًا في القدس وجوارها خلال السنوات 1902-1917. ولم تُقتصر جولاته على فلسطين وحدها، بل امتد نطاقها ليشمل مرجعيون وسهل البقاع في لبنان اليوم، وحوران والجولان وشرق الأردن ودمشق وحلب. وهنا بالذات تكمن أهمية كتاب دالمان هذا الموسوم بعنوان **العمل والعادات والتقاليد في فلسطين**؛ إذ شغف المؤلف بحياة الفلاحين والبدو، وشمل اهتمامه، في ما شمل، الآلات الموسيقية والأغاني والنقود والملابس والحِرَف، وحتى النحل والحمام والجراد والأوبئة والمواسم الزراعية واللغات واللهجات، وأكبّ على جمع عينات من النباتات والأحجار والأدوات المنزلية ووسائل الفلاحة والخزفيات وغيرها من مستلزمات العيش والعمل. والمشهور أن **المعهد الألماني البروتستانتي لعلم**

التاريخ القديم للأراضي المقدسة أُسس في سنة 1900 في القدس. وعُيّن دالمان أول مدير له في سنة 1902، ورئيسًا لتحرير **كتاب فلسطين السنوي** (*Palästinajahrbuch*) الذي أصدره المعهد. وبقي في ذلك المنصب حتى سنة 1917، حين عاد إلى ألمانيا ليعيَّن مديرًا لمعهد بحوث فلسطين في جامعة مدينة غرايفسفالد الواقعة في شمال ألمانيا على ساحل البلطيق، وأستاذًا لـ"العهد القديم ودراسات فلسطين" فيها. وظل في تلك الأثناء يتردد على فلسطين ويتابع بحوثه ودراساته ويجمع الصور والمقتنيات والقطع الأثرية. كما أنه وضع عددًا من المؤلفات المهمة، مثل **اللغة الآرامية** و**مئة صورة جوية ألمانية من فلسطين** و**الديوان الفلسطيني** الذي احتوى نصوصًا من الغناء الشعبي الفلسطيني المنتشر آنذاك. وتضم مكتبة المركز المسمى باسمه في جامعة غرايفسفالد خمسة آلاف كتاب و20 ألف صورة جمعها خلال أبحاثه.

على الرغم من إيمانه ودوافعه الدينية، فإن عمل دالمان الإثنوغرافي، البحثي والتوثيقي، عن المجتمع الفلسطيني في فلسطين المأهولة النابضة بالحياة قبل تعرضها لمشروع استعماري استيطاني كان النقيض للأعمال الاستكشافية لموفدين بريطانيين قدموا إليها ليخرجوا بتقارير عن جاهزيتها لاستقبال يهود أوروبا، وإقامة دولة يهودية فيها تكون بؤرة للنفوذ البريطاني. ومن أبرز الأمثلة النقيضة التي تُظهر أهمية عمل دالمان دحض مقولات القسّ الاسكتلندي الدكتور ألكسندر كيث الذي أُوفد ليفحص حال اليهود في فلسطين (جنوب سوريا في حينه)، وإمكانيّة توطين يهود أوروبا هناك. وقد كان من تيّار "المسيحيّين الترميميّين" أو الإحيائيّين (مترجمةً بتصرف عن christian restorationists) الذين اعتقدوا بإمكانية ترميم مملكة إسرائيل بعودة اليهود الى فلسطين لأسباب دينيّة وسياسيّة. وكيث هذا هو من رفع في عام 1843 شعار "أرض بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرضٍ".

صدر المجلد الأول من كتاب دالمان **العمل والعادات والتقاليد في فلسطين** في سنة 1928، ثم صدر المجلد الثامن والأخير في سنة 1942، أي بعد وفاة المؤلف بسنة واحدة. وقد اعتمد دالمان في تأليف كتابه منهجًا متعدد الطبقات استخدم فيه عناصر شتى، كالآثار والأنثروبولوجيا والطوبوغرافيا والتاريخ،

بما في ذلك التاريخ اللاهوتي، واللغة (مع التشديد على العبرية والسريانية)، وكذلك الفلاحة والمواسم الزراعية ودورات المطر والجفاف وحركة الرياح والحِرَف والصنائع والثقافة الفلاحية والفنون والعلائق المتشابكة بين المدينة وريفها وباديتها، فضلًا عن الصور التي هي وثيقة بصرية ووسيلة لحفظ الماضي القريب. وإذا كانت الصور تعني التقاط حالة ما للإنسان أو الطبيعة أو العمران بوقف الزمن عند لحظة ما، فإن الأهمية تكمن في اكتشاف التاريخ المتضمن في الصورة الساكنة، وتأريخ تلك اللحظة؛ وكتاب دالمان هذا هو استعادة لتلك اللحظات بجميع تفصيلاتها. كما أنه، إضافة إلى ذلك، وبسبب دقته في الوصف واهتمامه بالتفصيلات، يُشعِر القارئ بأنه يتنفس مع أنفاس الحياة اليومية في فلسطين، وأن فلسطين تكاد تخرج من الصورة حية تمامًا؛ فالناس يتحركون بصخب هنا وهناك، والفلاح وراء محراثه يشقق الأرض، والبائع ينادي على بضائعه، والمياه جارية في سواقيها وجداولها، والهواء يهب حاملًا غبائره، والشمس تزهو بسطوعها الأبدي، والديكة تصيح من أرباض القرى، والنساء غاديات إلى الحقول أو عابرات بجرارهن إلى الينابيع والبرك وعيون الماء.

بدأب أستاذ جامعي (بتقاليد الجامعة الألمانية في تلك الفترة) وعين فاحصة ومراقِبة، وقدرة فائقة على التسجيل والتجميع والتصنيف، كتب دالمان كتابه هذا، متّبعًا طرائق المدرسة التاريخية الألمانية التي تنحو نحو تجميع المعلومات، ثم تقصّي الصحيح فيها، وتحرّي الدقة، ثم تصنيفها، وأخيرًا صوغ الرواية النهائية؛ فالتاريخ هنا حكاية وصفية، تتوخى الدقة والموضوعية العلمية بقدر إمكانات صاحبها، وهي فوق ذلك نابضة بالحركة والحياة. وقد أشار دالمان في تمهيده لهذا الكتاب إلى ضرورة العودة إلى سريانية الشرق الحية كما هي موجودة اليوم في بلدة معلولا السورية، لتوضيح كثير من المصطلحات. ورأى، في الوقت نفسه، أن من الضروري تقديم علم آثار توراتي غير مؤسس على المصادر الكتابية للأزمنة القديمة (اليهودية)، واستخدام ما هو فلسطيني لإيضاح كثير من الأمور بحيث يمكن البدء بشكل عكسي: من فلسطين اليوم

نحو الأزمنة القديمة[3]. وبهذا المعنى، فإن دالمان تخطى المنهج الوصفي الصارم إلى منهج التاريخ الشامل، فاستفاد من علوم وفنون شتى، كالاقتصاد والأنثروبولوجيا وتواريخ الأوبئة والهجرات وحركات السكان والعمارة والثقافة وحتى الترفيه ووسائله، لتحليل مَثَل شعبي أو حادثة تاريخية، أو لشرح ظاهرة ما، أو لإعادة تكوين مرحلة تاريخيّة معينة، أو إعادة اكتشاف بعض الوقائع ودوافعها. وقد كرس دالمان علمه وجهده لدراسة الأعياد الدينية الفلسطينية والاحتفالات الشعبية، مثل الفصح والصليب والميلاد وأربعاء أيوب والخضر الأخضر ومار جريس، وبرهن أن بعضها إنما هو انتقالات فلكية كعيد الميلاد، أو مناسبات زراعية مطابقة للمواسم الدورية اعتمدتها الكنيسة في مراحل قديمة وحوّلتها إلى أعياد دينية. وحاول دالمان بإصرار أن يجد وشائج قديمة سابقة لتلك الأعياد، فرجع إلى عهود ما قبل الرومان والإغريق صعودًا نحو الفترة المسيحية ثم العربية، الأمر الذي أثبت، بطريقة موازية، أن أسلاف الشعب الفلسطيني عاشوا على أرض فلسطين منذ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة، أي منذ الكنعانيين فصاعدًا، مع الأخذ في الحسبان التحولات البشرية والعقيدية والثقافية والسياسية المتراكبة والمتواكبة والهجرات القبلية واختلاطها بالسكان. وبهذا المعنى بات كتابه فائق الأهمية في هذا الميدان المعرفي، وما برح يتمتع بفرادته وريادته حتى بعد نحو قرن على صدوره. وهذا هو الدافع الأول والأخير لنشر هذا الكتاب اليوم.

استعان دالمان في كتابه بمعارف عرب فلسطينيين كُثر جمعوا له المواد، وربما كان أهمهم الدكتور (الطبيب والباحث) توفيق كنعان الذي دقق له كثيرًا من المواد، والذي استمر في مراسلته وهو في ألمانيا، وكان يتقن الألمانية

(3) نقل المترجم أصوات الكلمات كما هي في النص الألماني. فكلمة القدس مثلًا كتبها هكذا: اِلـ – قُدس، والكرك رسمها على النحو التالي: اِلـ –كرك، وحتى بطرس البستاني وقاموس **محيط المحيط** كتبهما المؤلف هكذا: بطرس اِلـ بُستانِ ومحيط اِلـ –محيط. وعلى هذا المنوال رسم بلدة الحولة هكذا: اِلـ حولَ، وعبارة أحد الشعانين صارت حد إش – شعانين، وقرية أبو قمحة كُتبت أبُ – قمحَ ...إلخ. وقد تركنا تلك الصيغ كما هي حين وردت أول مرة مع وضع الصيغة المعروفة بين مركّنين، ثم رسمناها بالصورة المعهودة حين كانت ترد لاحقًا في سياق معتاد. أما إذا جاءت في سياق الكلام على طريقة لفظها فنرسمها بحسب صوتها الأصلي الوارد في النص الألماني.

إضافة إلى الإنكليزية. ولد توفيق كنعان في بيت جالا ودرس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت (الكلية الإنجيلية السورية آنذاك)، وألف مقالات مهمة مثل "الزراعة في فلسطين"، و"التقويم عند الفلاحين الفلسطينيين" (1913)، و"الينابيع المسكونة" و"جن المياه في فلسطين" (1920)، و"تراث النباتات في المعتقدات الغيبية في فلسطين" (1928). وكانت له مساهمات مهمة في عمل دالمان، ويبدو من مراسلاته معه أنه لم يكن راضيًا عن المرات القليلة التي ذكره فيها دالمان في كتابه[4].

كان من المفترض أن تصدر ترجمة عربية لهذا الكتاب الفريد، بل هذه الوثيقة التاريخية الأنثروبولوجية والإثنوغرافية، منذ مدة طويلة. وقد انتظر كثيرون صدورها من دون جدوى، فلم يُقْدم عليها أيٌّ من المراكز البحثية أو المؤسسات الرسمية العربية والفلسطينية. وها هو المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات يتولى المهمة، ويُقْدم، كعادته، على ما لا يقدم غيره على الخوض فيه. ولم يكن ذلك ممكنًا لولا وجود مترجمين ومحررين أكفاء ومتحمسين لإنجاز هذه المهمة التي طال انتظارها. ولذلك نتوجه بجزيل الشكر إلى المترجمين عن الألمانية، محمد أبو زيد وعمر الغول وفيولا الراهب ومتري الراهب، وكذلك الباحث والمحرر صقر أبو فخر الذي قام، في إطار عمله في في فرع المركز العربي في بيروت، بمراجعة النص العربي علميًا، وضبط اللغة وأسماء الأعلام والمواقع والمصطلحات والأمثال الشعبية وغيرها. وكانت عملية الترجمة والمراجعة شاقة وعسيرة، حتى أنها تعثرت مرات عدة، لكنها أثمرت أخيرًا بفضل الجهود المتكاتفة، ومثابرة العاملين على المشروع، وإصرار المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات على إنجاز هذا الأثر المهم.

هنيئًا لفلسطين ولقراء العربية في كل مكان بصدور كتاب غوستاف دالمان بهذه الحُلّة الأنيقة.

---

(4) عن هذا الموضوع، ينظر:
Aharon Geva-Kleinberger and Jonathan Reich, "Tawfiq Cana'ans Briefe an Gustaf Dalman als linguistische Quelle für das Palästinensisch-Arabische," *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins* (1953), vol. 133, H. 2 (2017), pp. 205-236.

مدخل

تعود بداية عملي الجامعي في ما شرعتُ فيه هنا من عرض للعمل والتقاليد في فلسطين إلى سنة 1899. إن دعوة من القس الاسكتلندي (W. M. Christie D. D.)، الموجود آنذاك في حلب، علاوة على منحة من مدينة لايبزيغ، وفرتا لي إمكان زيارة فلسطين وتمضية سبعة أشهر في حلب من 27 حزيران/يونيو 1899 حتى 26 كانون الثاني/يناير 1900، وهي فرصة غنية لتسريح البصر في ما حولي صيفًا وشتاءً في هذه المدينة الواقعة في شمال سوريا، والتي احتك بها الغرب قليلًا، إضافة إلى إقامة علاقات بالفلاحين والبدو في محيطها. وبعد أن كنت قد جُبت فلسطين من 17 نيسان/أبريل حتى 22 حزيران/يونيو 1899، عدت إليها في 6 شباط/فبراير 1900 مرة أخرى، وأقمت فيها من 10 شباط/فبراير حتى 15 آذار/مارس في قرية بلاط الواقعة بين جنوب لبنان وجبل الشيخ، في بيت مضياف هو بيت الشيخ المسيحي فارس صبحية. وهناك تعرفت، في ظل حياة فلاحية تامة، إلى الاقتصاد الزراعي. ثم ارتحلت بعد ذلك جنوبًا مع مطيتين وصاحبيهما الفلاحَيْن، ونمتُ في بيوت الفلاحين وخيم البدو، مخترقًا فلسطين كلها حتى الخليل وعين جدي، ثم إلى شرق الأردن، وشمالًا حتى دمشق التي وصلت إليها في 10 أيار/مايو[1]. وبهذه الطريقة وضعت الأساس لمعرفةٍ ليست بالضرورة تامة، لكنها واسعة، في شأن الحياة الشعبية الفلسطينية، خصوصًا أن الفرصة كانت سنحت لي في حلب للتعرف

---

(1) يُنظر بهذا الشأن:

ZDPV (1900), pp. 21ff.; *Saat auf Hoffnung* (1900), pp. 82ff.

إلى حبيب صبحية، نجل فارس صبحية، والاطلاع منه على الفوارق بين الأعراف الفلسطينية والأعراف في شمال سوريا.

وبعد فراق حزين عن الشرق، والذي منحني فرصة أخرى غنية بالمعرفة للإقامة في مصر (حتى 2 حزيران/ يونيو 1900)، قُدِّر لي في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1902 أن تطأ قدماي أرض يافا للالتحاق بـ "المعهد الألماني البروتستانتي لآثار الأراضي المقدسة" في القدس وإدارته. ومنذ ذلك الحين وحتى 30 حزيران/ يونيو 1914، تابعت العمل الإثنولوجي الذي كنت قد شرعت فيه في سنة 1899، أَكان ذلك في أثناء وجودي في الموطن أم خلال رحلات سنوية إلى فلسطين؛ فكل تجوال أو ركوب مطية كان لخدمة هذا الهدف. لقد انتفعت من المبيت في الخيمة أو البيت الفلاحي أو الاستراحة في خيمة البدوي أو صحبة الخيالة الشبان من أهل المدينة، ومن الفلاحين الذين خدموني في أثناء ترحالي من غير امتهان هذه المهنة، إضافة إلى جمع المعارف في المدينة والأرياف. وأستذكر هنا بعرفان الجميل فضل البدوي حميد بالقرب من حلب الذي علمني النسج، والأصدقاء من قرية بلاط، والأستاذ فرح تابري في السلط ثم في الطيبة، والآن في القدس، والدليل خليل ميخائيل من رام الله الذي أبانت أحاديثه لي، أكان ذلك في أثناء الترحال أم في مسقط رأسه، أشياء كثيرة، وكذلك خادمي عودة صالح من جفنة. ويبقى عصيًا على النسيان بشكل خاص عبد الولي، شبه البدوي، الذي كان دائمًا على استعداد للتحدث عما تفيض به جعبته الغنية بالمعلومات الشعبية. وهو في الواقع من حزما، إلا أنه كان قد أمضى فترة من حياته بين البدو في شرق الأردن، وهنا يكمن السبب في إلمامه بعاداتهم وكلامهم. وكنت أقابله في معظم الأحيان في وادي فارة حيث كان يزرع الخيار والقرع في قطعة أرض صغيرة مستأجرة، ويعيش مع ابنتيه - إذ كان أرمل - في كهف في الشتاء وفي كوخ حجري في الصيف. وكان يخطط هناك، بجوار عين الماء التحتاني بالقرب من أرضه، كي يبني مكان إقامة جميلًا للمقدسيين، الا أن الحرب [العالمية الأولى] أفسدت عليه خططه. وفي آذار/ مارس 1916 علمتُ بوفاته. لقد كان مسلمًا بالمعنى الصحيح للكلمة؛ فـ"الفاتحة" كانت على

شفتيه عندما كان يصل راجلًا بجانب حصاني، إلى مكان مطل. بالطبع كانت له دائمًا غاياته الصغيرة عندما كان يأتي إلى بيتي حاملًا بعض التين أو الخيار، إلا أنه كان مستعدًا للخدمة، وللاعتراف في حال لا يعرف شيئًا ما، وراضيًا بمكافأة متواضعة. أما تحيته الأخيرة الموجهة إليّ، فكانت "قصيدة" أملاها في 29 نيسان/ أبريل 1914، يقول فيها:

"يا راكب فوق الطاير"	يا من يركب الطائرة[2]
"اِجداك البرق الساير"	مثل البرق الذي يمر
"دِربك عبحور وجزاير"	يمضي دربك عبر بحور وجزائر،
"ريّض منشاني شوية"	تمهل من أجلي برهة!
"تبعث معك قصيدة"	حتى أرسل معك قصيدة
"خط القلم بجريدة"	مخطوطة بالقلم على ورقة[3]
"دالمان يكتبهَا في اِيده"	دالمان سوف يكتبها بيده
"ونسوّي بيوت الرسمية"	ونبتدع أبياتًا منتظمة
"ساعة مَ يوصِل اِكتابِ"	حينما يصل كتابي
"من فضلك رد الجوابِ"	أرجو الرد عليه
"وأطلب مِني لا تهابِ"	أطلب مني من دون تردد
"واللي بتريده عليّ"	فما تريده هو واجبي
"قُولِ بِصلا كِن تمّ"	تنتهي كلماتي بالصلاة
"على عيسى ابن مِريم"	على عيسى ابن مريم
"يا قارِ لا شُفت الهم"	أيها القارئ، عسى ألا ترى الهموم
"هاذ إليّ عليّ"[4]	هذا كل ما أطلبه.

(2) رأى الناس في القدس الطائرة أول مرة قبل الحرب العالمية الأولى. (المحرر)

(3) كان من المفترض أن تُرسل الـ "قصيدة" إلى سفن ليندر (Sven Linder) السويدي الذي كان آنذاك مُمتحنًا في علم اللاهوت، والذي كان على تواصل معه في سنة 1912.

(4) بيت الشعر الأخير من أنشودة أخرى لعبد الولي.

أما ندائي: "هي يا عبد الولي هي"! والذي غالبًا ما نزلتُ إلى عين فارة وأنا أردده قاصدًا إياه من أجل مرافقتي، فصار لا يتردد. ولكن ذكراه وذكرى الجدول العابر إليه من خلال النعناع المعطّر، والذي ما عاد هو الآخر موجودًا منذ سنة 1926[5]، ومنحدرات عين فارة الجبلية التي تتلألأ صخورها عند وقوع أشعة الشمس عليها، ذلك كله يبقى مرتبطًا بشخصه وعصيًا على النسيان. إليه وإلى جميع الأصدقاء الآخرين في البيت الريفي وخيمة البدوي أتوجه بالتحية:

"لا تَحسِبو اِن طالت الغيبة نسيناكم
كلما طالت الغيبة ذكرناكم"

بعد الحرب [العالمية الأولى]، تمكنتُ من العودة مرتين إلى فلسطين، وإن يكن من دون منزل خاص بي، الأولى من 5 نيسان/ أبريل حتى 1 كانون الأول/ ديسمبر 1921، والأخرى من 4 آذار/ مارس حتى 8 أيلول/ سبتمبر 1925. وكنتيجة للالتزامات الأخرى الكثيرة الملقاة على عاتقي[6]، لم تكن الإقامة الأولى مثمرة بالنسبة إلى كتاب **العمل والعادات والتقاليد** مثل الإقامة الأخرى. وفي المرتين، كما كانت الحال في سنة 1900، شكّل مصح المجذومين [مستشفى الجُذام أو مستشفى البُرص] بالقرب من القدس معقلي الأكثر أهمية، خصوصًا أن موقعه في خارج المدينة، بين أرض صخرية مقفرة وأخرى زراعية، منحني الفرصة لجمع ملاحظات كثيرة، علاوة على أن نزلاءه كانوا على استعداد لوضع تجاربهم الحياتية المكتسبة من أنحاء فلسطين تحت تصرفي[7]. وحتى ذلك الوقت، لم تكن الإصلاحات ذات النيات الحسنة للحكومة الإنكليزية وللهجرة اليهودية قد دمرت سحر الشرق كله بعد. فكم كان جميلًا الجلوس مرة أخرى في بيت فلاحي على الأرض، دونما كرسي أو منضدة، والتمتع بالضيافة، أو أن تمد يدك

(5) تم تحويل مياه الجدول إلى القدس.

(6) يُنظر كتاب **فلسطين السنوي**: *PJB* (1921), pp. 3ff.

(7) تُنظر صحيفة **الآداب المشرقية**: *Orient. Literaturzeitung* (1926), العمود 822 وما يليه؛ *Christentum und Wissenschaft* (1926), pp. 522f.

إلى المنجل في حقل القمح، وإلى المذراة على بيدر الدرس، وأن تلتقط صوت مزمار رعاة الغنم في الأودية الصخرية، وأن تتأمل حجارة هذه الأرض، لا في إطار مجموعة [من الصور] تم جمعها فحسب، بل مباشرة حيث هي في مكانها أيضًا، وأن تقطف أوراق الأزهار الأرجوانية حيث هي في رياضها. لقد مدح لي أحد النرويجيين قوة الثقافة المعززة للحقيقة التي لم يتبين منها خلال الحرب وبعدها غير القليل. لقد أسعدني أنني استطعت أن أوسع أفقي [وأستفيد] من علم من يجهلون القراءة والكتابة ومن مقدرتهم، وأن أكون موجودًا في زمن لم يكن بالضرورة أقل حظًا، لأن الآلة والكهرباء لم تكونا بعدُ قد منحتا الحياة أشكالًا جديدة.

فمن خلال التأقلم مع عالم العمل والعادات والتقاليد في فلسطين وحده، وربما ليس هناك ما يمكن جنيه حقًا، يمكن دفع الدراسات الغربية قدمًا. ليس المزاج بل الواقع هو ما يجب إدراكه وترجمته إلى كلمة وصورة. لا يكفي استرجاع الشكل؛ فطبيعة الأشياء وصيرورتها ومعناها وتقنيتها وتطبيقها تحتاج جميعها إلى أن تُدرك وأن تصبح مفهومة. وقد سعيت لتحقيق ذلك، وهذا ما يؤمل أن يظهره هذا المجلد المتوافر وما يليه، وحبذا لو انضم آخرون إلى العمل. وعلى سكان فلسطين العرب، أولًا وقبل كل شيء، وبفخر له ما يبرره بشخصيتهم الفذة وماضيهم، إقامة معلم لثقافتهم من خلال رواية مطابقة للحقيقة دونما تلطيف أو تجميل قبل أن يقوِّم التأثير الأوروبي بتفسيخه والقضاء عليه.

وكل من يقوم بهذا العمل، مثلي كرجل دين، لا يسمح لنفسه بأن تغويه مسألة وقف البحث على النقاط التي تجعله، بنظرة سريعة وربما سطحية جدًا، لا يرى غير وجود علاقات توراتية. فكم من مرة أظهرت نظرة متأنية أن السياق الذي تقع فيه مثل هذه المسائل وطبيعتها المدروسة بشكل دقيق تشير نحو اتجاه آخر. ومن غير المسموح نقل ما يُساهم في توضيح التعابير والشهادات التوراتية من خلال الوصف وحده. فدلالة كاملة ورؤية صحيحة يمكن تحقيقهما عندما يرى المرء الأمور في سياقها الذاتي. إلى ذلك تضاف حقيقة أن المراعاة المقتصرة على المقارنة التوراتية، حيث يرد الكثير بمحض المصادفة أيضًا، ولا تُذكَر،

قد تعني التخلي عن مادة المقارنة الواسعة جدًا التي تقدمها الأدبيات اليهودية - الفلسطينية القديمة. وهذه متوافرة في شكل سلسلة من المقالات التي تناولتها بشكل كامل تقريبًا[8]، إلا أنه لم يجرِ حتى الآن مقارنتها مقارنةً كافية بأشكال العمل والعادات والتقاليد التي لا تزال حية في فلسطين، لأن ثمة افتقارًا إلى وصفٍ وافٍ يأخذ التعابير العربية ذات الصلة في الحسبان. هذه الثغرة يجب سدّها الآن، بحيث يقف في الواجهة الحاضر العربي، مع استبعاد ما يمكن إدراكه كالتأثير الأجنبي، خصوصًا في الآونة الأخيرة. وهنا استعنت بالماضي العربي، وعلى نحوٍ خاص بكتاب **عجائب المخلوقات**[9] لزكريا بن محمد بن محمود القزويني الذي ألّف كتابه على خلفية معرفته المتنوعة بالشرق الأدنى، وبسوريا أيضًا، في حوالى سنة 1263[10]. وبالطبع قام توفيق كنعان مشكورًا باستخدام ما تم القيام به في الوقت الحاضر مع آخرين أيضًا، من أجل استجلاء الحياة الفلسطينية، لكن مع الإشارة دائمًا إلى ما قمت باقتباسه من هذه المصادر.

أما المادة التوراتية واليهودية - الفلسطينية، وما كشفت عنه الحفريات، فيفترض ربطها بما هو مأخوذ من حاضر فلسطين، من دون أن يكون ثمة سعي نحو كمال مطلق. فما لُفت إليه من الأدب اليوناني وتاريخ أديان الشرق الأدنى لا يمنحنا الادعاء بأننا تعمقنا فيه تمامًا؛ ففهارس النصوص التوراتية والتعابير العبرية والآرامية والعربية، إضافة إلى فهرس للموضوعات، ستسهّل تفسير الأدبيات التوراتية واليهودية - الفلسطينية. كذلك يمكن الاستفادة من القواميس

(8) تُفتقد حتى الآن، من بين أمور أخرى، تربية الماشية ومنتوجات الألبان والمدينة والقرية، ومعظم الصناعات الحرفية والتجارة والأشجار المثمرة، فضلًا عن شجرة الزيتون وشجرة التين والكَرْمَة. وهنا ربما توافرت مهمات جميلة للقيام بعمل مفيد.

(9) منشورات ف. فيستنفيلد (F. Wüstenfeld)، غوتنغن (Göttingen) (1849)، حيث أقبلت على الاقتباس منها دومًا، ترجمة هـ. إيثه (H. Ethe)، لايبزيغ (1868). في المقابل ثبت أن كتاب **الفلاحة الأندلسية** الذي ظهر في إسبانيا لمؤلّفه ابن العوّام قليل الفائدة، لأن معلوماته ذات أصول يونانية كما أمكن التخمين دائمًا، وكما ثبت غالبًا.

(10) بحسب

Brockelmann, *Geschichte der arab. Literatur*, vol. 1, pp. 481f.,

فقد ولد في سنة 1203 وتوفي في سنة 1283.

ذات الصلة، ولا سيما العربية منها التي لا يزال يعوزها بشكل كبير توضيح دقيق لجميع المصطلحات الخاصة. وحبذا لو حصل في الحال عمل مماثل بالنسبة إلى سريانية الشرق الحية! حينئذ ربما أصبح مفهومًا بيقين أكبر كثير من الأدب الفلسطيني، ومحددًا بشكل أفضل. كذلك ربما أمكن للهجة بلدة معلولا المتجاورة مكانيًا، على الرغم من تأثرها الشديد بالعربية، أن تساهم في ذلك، خاصة إذا دُرست بشكل دقيق من هذا الجانب.

ربما كانت نتيجة عملي مرضية أكثر بالنسبة إلي لو أني استطعتُ إتمامها في فلسطين، والحصول على الجواب الضروري عمّا يخطر في بالي من أسئلة في المكان ذاته. لقد حالت دون ذلك ظروف لا داعي للخوض فيها هنا. ومع ذلك، يحدوني الأمل في أن يكون الواقع الفلسطيني قابلًا للتبيان في هذا المجلد وما يليه من مجلدات.

يتطرق المجلد الثاني إلى الزراعة ومعالجة إضافية للحبوب من طحن وخَبز. ومن المفترض أن يتضمن العمل كله عرضًا متعدد الجوانب للحياة الفلسطينية، وأن يقدم بالتالي علم آثار توراتيًا غير مؤسس، كما يحصل عادة، على المصادر الكتابية للأزمنة القديمة، وألا يُستخدم ما هو فلسطيني للتوضيح فحسب، بل يبدأ بشكل عكسي، أي من فلسطين اليوم، ومن هناك يشق طريقه نحو الأزمنة القديمة.

من بين الصور الملحقة، هناك صور يعود الفضل فيها إلى أعضاء سابقين في معهد فلسطين الألماني، ومن بينها بضع صور لا أستطيع تسمية أصحابها. آمل أن تعود هذه المشاركة التي حَظِيتْ بتقديري وشكري في منشورات المعهد إلى الغايات التي من أجلها وُضِعت الصور تحت تصرفي. وسيتم إلحاق الفهارس المشار إليها بالمجلد الثاني الذي من المفترض أن يتبع قريبًا.

غرايفسفالد، معهد فلسطين
1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1927

غ. دالمان

أولًا: مقدمة

1. عموميات

إن سَيْرَ السنة الطبيعية في فلسطين اليوم هو أكثر أهمية من السنة التقويمية عند المسلمين أو المسيحيين، وهي التي يجري حساب الزمن رسميًا على أساسها؛ فالفلاح والبدوي خاضعان لها. كما أن العربي قاطن المدينة يرتبط أيضًا بفصول السنة، على نحوٍ مغاير تمامًا لما هي الحال عندنا؛ فالحياة الشعبية تسير في ظل الظروف الناشئة عن السنة الطبيعية، ومن المفترض أنها لم تكن يومًا ما غير ذلك. ولا يعرف التاريخ التوراتي في نُصوصه المكتوبة احتسابًا زمنيًا يقوم على تقويم معيّن، ولم يحاول، إلا ما ندر، إدراك فترات زمنية طويلة من خلال تعداد السنوات. إن دراسة أكثر تفصيلًا توضّح أن هذه السنوات كانت تدرَك كسنوات طبيعية انبثقت منها تدريجًا السنة الزمنية، ما دام أنها لم تكن تُقاس بحياة أفراد أو فترة حكمهم. صحيح أن السنة الطبيعية بالنسبة إلى أجزاء الكرة الأرضية كافة تتحدّد من خلال وضع هذه الأخيرة في مواجهة الشمس، إلا أن تأثيرات الشمس في الأجزاء المختلفة ليست متشابهة. وبناء عليه، يفترض أن كل جزء من أجزاء الكرة الأرضية يمتلك سنته الطبيعية الخاصة به. وفضلًا عن العلاقة بالشمس، فإن المحيط وخصائص البلد يؤديان دورًا حاسمًا في تشكيل السنة الطبيعية؛ فهي مختلفة في المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية، وتختلف في المناطق الحجرية الجيرية عن المناطق الصخرية القديمة. في غضون ذلك بتنا نعلم جميعًا أن الإدراك الحسي وعقلية الناس وتصرفاتهم تتحدّد بشكل دائم وبأشكال مختلفة من خلال السنة الطبيعية؛ فقد دأبت الحضارة الآخذة بالتقدم

على تخفيف العوائق المختلفة التي تضعها الطبيعة في وجه البشر إذا لم تتمكن من إزالتها كليًا بوسائل مصطنعة؛ فالملابس والمساكن ووسائل المواصلات وإنتاج المواد الغذائية وتخزينها خدمت جميعها هذه الأهداف. فقد رُوي أن مائدة الملك سليمان لم تكن تخلو في الصيف من الشمندر الذي ينضج في الشتاء، ولم تكن تخلو في الشتاء من الخيار الذي يُطرح في الصيف[1]. وفي صيغة أخرى، يتم الحديث عن المُرّير الذي ينمو هو الآخر في الربيع بدلًا من الشمندر، البطيخ الصيفي بدلًا من الخيار[2]. وهنا افترض المرء أن بلاط الملك سليمان عوّض المنتوجات غير المتوافرة في بلده في أوقات معيّنة من السنة بالمنتوجات المتوافرة في مناطق أخرى والتي تحظى بسنة طبيعية مختلفة. وفي الوقت الحاضر يحدث عندنا [في ألمانيا]، ومن خلال الأحواض المغلقة والدفيئات واستيراد المنتوجات الأجنبية، تحقيق النتائج نفسها على نطاق أوسع. ولكن في حضارة أقل تطورًا، يكون الإنسان أكثر اعتمادًا على السنة الطبيعية. ومن ذلك ينبثق تأثيرها الكبير في حياة الشعوب البدائية لتشكل، جنبًا إلى جنب مع أماكن سكناهم، عاملًا مهمًا في تاريخهم. ولا يحدد سير السنة الطبيعية المسار الخارجي لتاريخ الشعوب في عملها السنوي المنتظم أو في ترحالها أو غزواتها فحسب؛ فذُرى الحياة الشعائرية التي قضى التاريخ الروحاني للإنسانية أن تتمثل لدينا في أعياد الميلاد وعيد الفصح وعيد العنصرة، ترتبط بالسير الطبيعي للسنة. كذلك المحاصيل الروحانية - الفكرية، من نتاج دنيوي وديني، إذ تفصح هذه، في صورها المتعددة، عن علاقة وطيدة بالسير الطبيعي للسنة. وربما كان علينا الافتراض أن السنة الطبيعية، في ما يتصل بذلك، قد وجدت طريقها إلى الإدراك الحسي والتفكير الديني بحيث خَبِرَ الفرد بشكل دائم، في تجلياتها المنتظمة وغير المنتظمة، الرب الأعلى المسيطر على الطبيعة. وكان لبعض الشعوب إله خصب وإله برق ورعد. لقد كان لذلك معنى. وعلى أرضية التاريخ المقدس قام آخر بتحدي مثل هذه العقيدة؛ آخر أخضع جميع ظواهر سير السنة لقوة واحدة.

---

(1) Deb. R. 1 (2a),

يُقارن:

Koh. R. 2, 7 (76a f.).

(2) Tanch. (Buber ed.), Jithro 5.

نحن لسنا هنا في صدد طرح السؤال التالي: كيف نشأت هذه العقيدة؟ إلا أن من الواضح أنه كان عليها دومًا أن تُثبت نفسها أمام سير الطبيعة الكلي القدرة[3]؛ فالتناقض الصارخ بشكل غير مألوف في فلسطين بين لفحة الشمس وانهمار المطر، بين العاصفة وسكون الرياح، بين الصحراء ووادٍ فيه ينابيع، بين منحدر صخري جيري وأرض زراعية مثمرة، شكَّل، ذلك كله، سببًا دائمًا لذلك بدرجة لم يعهدها سكان شمال الكرة الأرضية ولا سكان المناطق الاستوائية بالشكل نفسه. فخلف الاعتقاد بالله القدير، هناك بلا شك قصة وقف فيها هذا الإله في صراع حادٍ مع قوى الطبيعة. وسيكون من المفيد أن يضع المرء نفسه على الأرضية البدائية للبلد الذي نشأت فيه تاريخيًا هذه العقيدة، وأن يستحضر طبيعة سير فصولها مع كل ما هو عالق بها. فالكتاب المقدس كنص، والتاريخ الذي أنتجه، يجب أن يصبحا ملموسين ومفهومين بشكل أكبر، إذا ما جرى التعرف إلى أي طاقة حياة تلك التي تقف خلف روايته ونبوءاته ومقطوعاته الشعرية. ومن هذا المنظار يجب النظر إلى الفصول التالية في هذا الكتاب.

2. التقويم الشعبي

يجب دراسة العادات والتقاليد والعمل في فلسطين في سياق مناخ فلسطين وطبيعتها التي تبرز على أحسن وجه في علاقة الطبيعة بالإدراك الشعبي، خاصة إذا تتبّع المرء ظواهر الدورة السنوية. وثمة حاجة إلى الالتفات إلى التقويم الذي ينظم الفلسطينيون اليوم أحداث العام وفْقه. ومع ذلك، فإن تقويمًا بالمعنى الذي نعرفه [في ألمانيا] ليس هو بيت القصيد؛ إذ إن الفلسطينيين بعيدون كل البعد عن طرح السؤال عن تقويم ذلك على أساس يومي. إن التقاويم المطبوعة، مثل تلك التي نشرها اليونانيون حديثًا في اليونان، تبقى نادرة الاستخدام، والأغلبية لا تستطيع قراءتها؛ فالطبيعة في حد ذاتها، لا تزال اليوم كما في الأزمنة القديمة، تسير بحسب التقويم الأعظم

(3) يُقارن:
Hempel, *Gott und Mensch im Alten Testament* (1926), pp. 38ff.,
حيث كنت أفضّل استبدال عبارة "تأثير بلد زراعي" بِـ "تأثير سير الطبيعة في بلد صالح للزراعة".

الذي يسير وفقه كل شيء، ومنها يُستمد القول الشعبي: "الدنيا ما بِتخَبّيش أوانها" أي "الدنيا لا تخفي وقتها"، بل تتركه ليجري في دورات منتظمة. هكذا كان الأمر دائمًا في الزمن الذي يطوقه التاريخ منذ نشأته دونما تغيير جوهري. ومع أن هنتنغتون[4] يدّعي حصول تغييرات مناخية كبيرة في فلسطين منذ العهد الروماني، إلا أنه لم يأخذ في الحسبان تأثير الظروف السياسية وتغير طرق التجارة، وتوصل إلى استنتاجات غير منطقية تقوم على ملاحظات عَرَضية عن ظروف مناخية. وكثيرًا ما شدد اليهود قديمًا على أن الطبيعة والمناخ في فلسطين كانا مثاليين قبل تهديم الرومان الهيكل ونفي بني إسرائيل. وآخرون اعتقدوا، حتى في حاضرنا، أن "أرض السمن والعسل" لا بد أنها كانت تبدو مختلفة كليًا عن فلسطين اليوم[5]. ثمة هطل أمطار وافر وبالتالي فلاحة وتحريج أفضل كانت يومًا ما في صلب تلك الأرض. لكن العقاب الإلهي و"الاقتصاد غير الحقيقي"[6]، غيّرا كل شيء بعد أن رفض اليهود يسوع المسيح. على أن التعبير التوراتي (سفر الخروج 3:8 وهنا وهناك) المسرف في الغلو على النمط الشرقي، والذي يتخيل على ما يبدو وجود أنهار من لبن وعسل، يفترض، في واقع الأمر، فيضًا من حياة نباتية برية توفر كل ما تحتاج الحيوانات إليه، وتمنح الحليب والغذاء للنحل المانح للعسل[7].

---

(4) في:
Huntington, *Palestine and its Transformation* (1911).

(5) بشكل خاص في:
W. Möller, *Wie steht es um die einstige Beschaffenheit des Heiligen Landes?* (1925); "Reiseeindrücke aus Palästina" (1925).

(6) تُنظر الترجمة الإنكليزية التي أنجزتها نادية عبد الهادي سختيان:
Gustaf Dalman, *Work and Customs in Palestine*, vol. 1\1, Nadia Abdulhadi-Sukhtian (trans.) (Dar Al Nasher, 2013), p. 4;

حيث استخدمت تعبير "الاقتصاد التركي" (Turkish Economy). المقصود هنا بـ "Türkenwirtschaft" ليس "تركي"، بل تعني الكلمة الألمانية هنا "غير حقيقي أو مخادع" بحسب قاموس الألماني المشهور دودين:
Duden, *Deutsches Universal Wörterbuch A - Z*, p. 1571,

ولذلك اقتضى التنبيه. (المحرر)

(7) ليس هناك أي برهان أو حتى أي احتمال أن كلمة "دِبّش" العبرية الواردة في التوراة [دبس] تعني شيئًا آخر غير عسل النحل، "عسل"، كما يترجمها سعديا بشكل صحيح في التكوين 43:11 والخروج 3:8. يُنظر بشكل خاص:

Hänsler, *ZDPV* (1912), pp. 186ff.

وهذا ما يفصل هذه الأرض عن الصحراء التي تشح فيها الحياة النباتية، وعن أرض لا يقوى فيها النبات على النمو من غير ري صناعي، أي عن مناطق تفتقر إلى الماء، بينما تتمتع فلسطين بهطل منتظم للمطر[8]. إلا أن هذا الأمر لا يستثني حصول أوقات قحط، علاوة على وجود فترة زمنية منتظمة تكون فيها النباتات ساكنة النمو.

بناء عليه، من الواضح أن أقدار فلسطين المتبدلة خضعت لتحولات كثيرة، لا منذ بداية تقويمنا الزمني، بل قبله وبعده أيضًا؛ ففترات الإقفار تناوبت مع فترات البناء الأفضل حتى الأزمنة الحديثة، والتي هدمت الحرب العالمية الأولى فيها الكثير وبنت القليل القليل، ولم يبقَ ثابتًا على حاله غير طبيعة البلد ومناخه. فهما بالضرورة مرتبطان بشكل وطيد بالعوامل التي يتشكل منها البلد، التشكيلَ الذي جاء موقعه في نقطة محددة على الكرة الأرضية وحدوده مع البحر والصحراء، بحيث إن من دون تغيير هذه الشروط المحددة، ليس ثمة أي تبديل جوهري قابل للتصور في وضعه[9]. فما تفيد به التوراة والأدبيات اليهودية ما بعد التوراتية عن هطول المطر والري في البلد الذي سيأتي الحديث عنه لاحقًا، هو على اتفاق تام مع ذلك. وليس ثمة آثار موثوقة لزراعة أفضل وأوسع نطاقًا بشكل جوهري مما هي الحال عليه اليوم[10]، إلا إذا أضاف المرء أن من الممكن أحيانًا إدراك

---

(8) يقارن:

MuNdDPV (1905), pp. 27ff.,

الذي يختلف عن:

Krauss, *ZDPV* (1909), pp. 151ff.; Simonsen, *MuN* (1907), pp. 39f., *ZDPV* (1909), pp. 44ff.

(9) الرأي ذاته يمثله:

Hilderscheid, *ZDPV* (1902), pp. 101ff.; Schwöbel, *Die Landesnatur Palästinas*, vol. 1 (1914), p. 36; Hann, *Handbuch der Klimatologie* III 2^3, p. 95.

(10) يؤكد أستاذ الحلقة الدراسية د. برافر، القدس، أن مستوى أعلى من الزراعة في فلسطين في عهد الإسرائيليين الأوائل قابل، أثريًا، للتدليل عليه. في غضون ذلك، لا يمكن إنكار حقيقة أن الإسلام، شكّل، بفعل منعه شرب النبيذ، السبب وراء اختفاء زراعة كروم العنب في العديد من المناطق، ولم يكن ذلك قابلًا للتعرف إليه هناك إلا من خلال معاصر العنب المحفورة في الصخر. ولكن حيثما كان ذلك ممكنًا، فلا بد أن زراعة أخرى قد حلت في محل زراعة الكرمة. علاوة على ذلك، فإن زراعة الكرمة عادت وتقدمت، لأن العنب والدبس يتم تقديرهما هناك حيث يتم تجنب النبيذ. وما من شك في أن السماد قد أدى في فلسطين الرومانية دورًا أكبر مما هي عليه الحال اليوم. وقد يكون للأمر صلة بكون العرب لا يحبون لحم البقر =

أنه كانت في السامرة الغربية [شمال غرب الضفة الغربية] يومًا ما كروم عنب، وتحولت اليوم إلى غابات؛ فالتراصف الطبيعي للصخور في المناطق الجبلية شكّل سببًا لبناء المصاطب. ولكن ليس كل أثر لمثل هذا التراصف يمكن اعتباره دليلًا على أن جُدُرًا مصطبية كانت قد أُقيمت هنا في الأزمنة القديمة[11]. فشيء من هذا القبيل كان يعتمد في حينه، كما هي الحال اليوم، على مثابرة السكان، وعلى القوة المدمرة للمطر المنهمر في الشتاء. فليس هناك من كان قادرًا على أن يأخذ على محمل الجد الأخبار الخيالية الواردة في أدبيات علماء الدين اليهود، مع ذكر الأماكن والشهود[12]، عن أنهار حقيقية من اللبن والعسل يخوض فيها المرء حتى كاحله حتى في فترة ما بعد المسيح، ولا ادعاء أن الجبال تحولت في عهد حفيد آدم إلى كتل صخرية ("طِراشيم")، أي كانت متأكلة[13]، وهو ما يبين عرضًا أن السكان كانوا قد لاحظوا تحور بعض صخور فلسطين في القرن الثاني إلى صخور جيرية طبشورية.

يتألف التقويم الطبيعي للسنة الفلسطينية، التي ينظم كل فرد وفقًا لها كل شيء، من فصلين لا من أربعة فصول[14]، وهما الشتاء الماطر الذي يُسمى ببساطة "الشِتا" أي "المطر"، و"الصيف" الجاف. ولمزيد من التفصيلات، تُنظر

= والعجل، بحيث يغيب عندهم تسمين هذه الحيوانات في حظائر، وبالتالي يتوافر القليل من الزبل. وأخيرًا يعتبر في تاريخ الخزافة الفلسطينية كحقيقة قائمة أن خزافة الإسرائيليين الأوائل قد تخلفت عن خزافة الكنعانيين، وأن ارتفاعًا في المستوى قد حصل في العهد الهيليني فحسب. أما أهمية إسرائيل فتقع في مجال آخر.

(11) يعمد

Landauer, *Palästina* (1925), p. 84,

إلى تأويل آثار مجردة لتراصف طبيعي، فيعتبرها "بقايا مصاطب تعود إلى الأزمنة القديمة"، وبالذات في منطقة لم يقصر السكان الحاليون في بناء المصاطب حيث يجدر بناؤها. يُنظر ص 85 الصورة العليا.

(12) تعليق بيلربيك على:

Billerbeck, N. T. I. pp. 656f.

عن إنجيل متّى (13:8) يُقدم مجموعة من هذه الشهادات التي يمكن توسيعها. تُقارن ملاحظاتي في:
PJB (1926), p. 126.

(13) Ber. R. 23 (50^a).

(14) لأن ذلك ينطبق على دراسة علمية أيضًا، يُنظر:

Exner, *ZDPV* (1910), p. 116; Koschmieder, *Die Ergebnisse der deutschen Höhenwindmessungen in Palästina 1917-1918*, pp. 5ff.

فصول السنة الواردة أدناه. وإضافة إلى تقويم الطبيعة الكبير، هناك، بالنسبة إلى الفلاح بصورة خاصة، تقويم آخر، أي التسلسل المنتظم للأعمال؛ ففي الشتاء، يأتي موسم "الزيتون"، أي قطفه ومعالجته، وفلاحة الأرض الشتوية ("الحَرث")، وفي الصيف بداية المحصول ("الحصاد") و"الدرس"، ثم الكرمة ("العنب")، أي قطفه ومعالجته[15]. فالتقويم الطبيعي وتقويم العمل يظهران بشكل مختزلٍ جدًا في سفر التكوين (22:8)، حيث بذر الحبوب والحصاد، الصقيع والحر، الصيف والشتاء توصيف ثلاثي للشيء ذاته على افتراض أن الحصاد يشمل جميع الأعمال ذات الصلة به بالطريقة نفسها التي يشمل فيها البذر الحرثَ. فتسلسل العمل: درسٌ، قطف الثمار، بذر الحبوب (سفر اللاويين 5:26)، والتي يجب إضافة الحصاد إليها، وسلسلة: حراث، حصاد، عصر العنب، بذر البذور (سفر عاموس 13:9)، أو وقت البذار ووقت الحراث ووقت الحصاد ووقت الدرس ووقت التذرية، وفق مدراش تنائيم في سفر التثنية (14:11) (ص 35)[16]، أو حصاد الشعير، حصاد القمح، قطف الثمار، وجني الزيتون أيضًا، التي وفق يباموت (j. Jebamoth 14[d])، تملأ السنة، تعني فقط تفصيلًا أكثر دقة لتقويم العمل.

يظهر في التقويم الزراعي الذي وصل إلينا من عهد ملوك بني إسرائيل تفصيل مطول في شكل تقويم أيضًا، والذي كشف عنه بالحفر في تل الجزر [بالقرب من مدينة الرملة][17]، وهناك وُجدت سلسلة مؤلفة من 12 شهرًا:

---

(15) القُبيبة. أشير هنا إلى المكان الذي حصلتُ فيه على المعلومة في هذا الشكل المختصر من دون استثناء لإمكانية أن أكون قد سمعت ذلك في مكان آخر. وتفي بالغرض مقالة توفيق كنعان المفيدة "تقويم الفلاحين الفلسطينيين" في:

ZDPV (1913), pp. 266ff.;

يُقارن:

JPOS, vol. 3, pp. 21ff.,

كمصدر، حيث قمت باقتباسها.

(16) يُقارن:

Siphre Dt. 42 (80[b]).

(17) لمزيد من التفصيلات بشأن ذلك، يُنظر:

Macalister, *Gezer*, vol. 2, pp. 24ff.; Dalman, *PEFQ* (1909), pp. 118f.; Marti, *ZAW* (1909), pp. 222ff.

"آسيف" (حَصاد الغلال)، شهران [أيلول/ سبتمبر، تشرين الأول/ أكتوبر]،

"زِرَع" (بذر الحبوب)، شهران [تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الأول/ ديسمبر]،

"لاقيش" (بذر الحبوب المتأخر) [لقّيس]، شهران [كانون الثاني/ يناير، شباط/ فبراير]،

"عصيد بشتا" (حصاد الكتان)، شهر واحد [آذار/ مارس]،

"قصير سعورا" (حصاد الشعير)، شهر [نيسان/ أبريل]،

"قصيرين كُلام" (لُقاط الحصاد)، شهر [أيار/ مايو]،

"زامير" (توريق أو تقليم كروم العنب)[18]، شهران [حزيران/ يونيو، تموز/ يوليو]،

"قَيش" (قطف الثمار)، شهر [آب/ أغسطس].

إلى ذلك، يمكن إضافة ما يذكره مكاليستر (Macalister)[19] عن دورة العمل في أبو شوشة [قرب الرملة] التي تماثل تل الجزر القديم.

أيلول/ سبتمبر، تشرين الأول/ أكتوبر: فترة راحة، إذا لم يكن هناك عمل في الزيتون.

تشرين الثاني/ نوفمبر: بذر "كُرسنّة" وحرث الأراضي المخصصة للقمح.

كانون الأول/ ديسمبر: بذر[20] القمح وحرث الأراضي المخصصة للشعير.

---

(18) يود مارتي (Marti) قراءة "زامير" (يُقارن نشيد الأنشاد 12:2) "باصير" "قطف العنب"، إلا أن ذلك غير ملائم من حيث الوقت. ففي نشيد الأنشاد 12:2 يكون المطر قد انتهى والكروم قد أزهرت، لذا يكون حينئذ على الأقل شهر أيار/ مايو، في حين أن كلمة "زامير" هي، بحسب الترجمة السبعونية، سريانية، وتعني تشذيب الكروم وشيكة النضج (وفقًا للترجوم قطف الثمار المبكرة). وبدلًا من ذلك يستخدم سعديا كلمة "زابار"، والتي يستخدمها، بحسب **محيط المحيط** بستانيو الكروم من أجل قص غصون العنب السيئة [زبر الدوالي، وما تتركه يُسمى زِبارة]. وهذا يلائم الاستخدام أعلاه.

(19) Macalister, *Gezer*.

(20) على ما يبدو أن ذلك كان تقليدًا متبعًا في قرية "أبو شوشة"، أي الحرث مرتين، والمرة الثانية لها صلة بالبذار التي يجب بذره في التربة.

كانون الثاني/ يناير: بذر[21] الشعير.

شباط/ فبراير، آذار/ مارس: حرث الأراضي المخصصة لثمار الصيف.

نيسان/ أبريل: حصاد الشعير.

أيار/ مايو: حصاد القمح.

حزيران/ يونيو: بذر[22] محاصيل الصيف (الذرة البيضاء والسمسم).

تموز/ يوليو، آب/ أغسطس: حصاد محاصيل الصيف.

اللافت هنا أن الكتان والكروم والفاكهة غير مذكورة، ويعود ذلك إلى أن أبو شوشة تتمتع بالقليل من زراعة الفاكهة، وأن زراعة الكتان كانت قد اختفت كليًا من فلسطين آنذاك.

بالنسبة إلى المعطيات الزمنية، يستخدم العهد القديم بشكل خاص المحصول مؤشرًا على الزمن، ومن ذلك، مثلًا، سفر يشوع (15:3)، والمحصول بشكل عام سفر صموئيل الثاني (9:21)، سفر راعوث (22:1) حصاد الشعير؛ سفر التكوين (14:30)، سفر القضاة (1:15)، سفر صموئيل الأول (17:12)، حصاد القمح بعد ذلك بشهر.

يستخدم مسيحيو فلسطين أعيادهم مقياسًا للزمن، خصوصًا إذا وقع التشديد على مواعيد محددة ذات أهمية زراعية وهي: صوم الفصح "الصيام" و"العيد الكبير "الذي يعقبه، أي عيد الفصح الذي غالبًا ما يُسمى "العيد"، ثم عيد الخمسين "العنصرة". وفي شمال فلسطين هناك عيد اِلياس ("عيد مار الياس") في 20 تموز/ يوليو، وعيد الصليب في 14 أيلول/ سبتمبر، وعيد مار جرجس في اللد ("عيد لِدّ") في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، وأعياد الميلاد (عيد الميلاد) في 25 كانون الأول/ ديسمبر، وأخيرًا "عيد الغطاس" في 6 كانون الثاني/ يناير،

(21) Ibid.

(22) Ibid.

في حين أن رأس السنة الجديدة نادرًا ما يُحتفى بها[23]. وجميع هذه التواريخ تُستعمل بحسب التقويم الإغريقي الذي يتأخر عن تقويمنا [الألماني] بثلاثة عشر يومًا. أما عيد الفصح، فهو يستند إلى تحديد مختلف تمامًا. وقد وجد المرء أن فترات من خمسين يومًا تقريبًا تفصل بين هذه الأعياد. وفي القُبيبة يحتسبها المرء من عيد الصليب إلى عيد مار جرجس، ومن عيد مار جرجس إلى عيد الغطاس، على الرغم من أن الفترة الأخيرة مؤلفة في واقع الأمر من 64 يومًا. وربما استوجب الأمر استبدال عيد الغطاس بعيد الميلاد، كما يحصل في "السبع خمسينات" التي ينسبها كنعان إلى جنوب فلسطين[24]؛ فصوم الفصح وعيد الفصح وعيد العنصرة وتخزين العنب وعصر العنب ("المعصرة") وعيد مار جرجس وعيد الميلاد يتم التمييز بينها بهذه الطريقة. إلا أنه كان على عيدي مار الياس والصليب أن يحلا محل تخزين العنب وعصره، خصوصًا أن إعداد "الدبس"، علاوة على النبيذ، لا شأن لهما لدى الفلاحين في كثير من أنحاء فلسطين. وفي ما يتعلق بـ"المعصرة"، فإن المرء يُفكر عادة بمعصرة الزيتون.

استخدم المسلمون تقويمهم الرسمي الذي يقوم على الأشهر القمرية لا على السنة الشمسية. ومن غير الممكن أن يكون هذا التقويم حاسمًا لعمل الفلاحين والبدو منذ زمن ممعن في القدم، حيث اعتُمدت الأعياد المسيحية كمعالم للوقت أيضًا. وسبق أن ذكر المُقدَّسي[25] أن المسلمين استخدموا عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة (كبداية للبرد)، وعيد الفصح وعيد العنصرة (كبداية للحر)، وعيد الصليب (كبداية لقطف العنب)، وعيد مار جرجس (كبداية لبذر الحبوب)، وعيد البربارة (4 كانون الأول/ ديسمبر كبداية لمطر الشتاء).

---

(23) في التقسيم الزمني إلى فترات
F. Müller (ed.), *Die Chronologie des Simon Sanqlawaja* (1889), pp. 28f.,
يتم إبراز عيد الميلاد وعيد الغطاس وعيد مار جرجس (24 نيسان/ أبريل) وعيد مار الياس وعيد الصليب، إضافة إلى عيد الفصح وعيد العنصرة.

(24) *ZDPV* (1913), p. 272;
يُقارن أدناه V (فصول السنة).

(25) ترجمه:
Gildemeister, *ZDPV* (1884), p. 219.

يقوم تقويم العمل والطبيعة لدى الفلسطينيين، وفقًا لطبيعته، على السنة الشمسية ولا يأخذ أدوار القمر في الحسبان. وهو يتماثل في ذلك مع الرؤية اليهودية في أن "الشعوب" تحسب وفقًا للشمس، في حين أن بني إسرائيل يحسبون وفقًا للقمر(26)، ويربطون الأشهر بأدوار القمر، في حين ينظمها الآخرون بحسب دورة الشمس. والتقليد اليهودي مفترضٌ مسبقًا في المزامير (19:104): "خَلَقَ القمر لتحديد المواسم"، وفي سفر سيراخ(27) (7:43): "منه [أي من القمر] علامة العيد وآجال محددة". ومع ذلك، يبقى القمر في فلسطين، بضوئه الساحر الساطع، غير قابل اليوم لتجاهل غير اليهود أيضًا. ولأسباب عملية جدًا، يتمنى صاحب القطيع "كمرة وربيع"، أي "ضوء قمر وعشب أخضر"(28)، لأن ضوء القمر ليلًا ييسر حراسة القطيع. إلا أن القمر الجديد ("هلال")، هو شعار تركيا والمسلمين الذي يُطلق عليه خطأً اسم هلال، وهو الذي يُعتبر بشكل خاص ذا أهمية. وعندما يظهر بعد ليالٍ ظلماء في شكل إكليل ساطع مغلق تقريبًا في السماء من الغرب، لا يُقصر المرء عن الترحيب به، فيقول: "هلّ هلاله وعز جلاله، ريتك علينا شهر مبارك"(29)! ويقول أيضًا: "ريتك من ليالي السعود وكِل شهر علينا تعود!" (عبد الولي). أما الصيغة في إلجي [شرق الأردن]، فتقول: "الله اِهلال منِ هلالك - تكفلنا طوايح زمانك"، أي "ربنا، هلال من أهلّتك - كن لنا عونًا على نوائب دهرك". وهذه الأقوال التي تذكّرنا بأشهر القمر الإسلامية، تنم عن تأثير الدين الرسمي. والتشديد هنا كله على إبداع الله الخالق. إلا أن هناك أقوالًا ليس لها مثل هذا التأثير، والتي ربما كانت أقدم. يقول المرء: "هل اِهلال وجلاله، ريتك هلال مبارك علينا!". فالهلال ذاته بضوئه الجديد هو القوة التي تجلب الحظ. وعندما يراه المرء، يقوم بتقبيل إبهاميه ويمررهما فوق عينيه حتى تبقيا سليمتين (عبد الولي). ومن المفيد

---

(26) Mechiltha zu 2. Mos. 12, 2 (Friedm. 3ª ed.), Pesikt. 46ª, Pes. Rabb. 69ᵇ, Schir R. 5, 16 (62ª).

لكن في كتاب اليوبيلات (2:9) الشمس هي علامة الأشهر والسنوات.

(27) من أسفار الأبوكريفا (غير القانونية). (المحرر)

(28) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 212.

(29) في صيغة أخرى في:

Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 97,

"هِلّك وإسْتهلّك ويجعلك علينا شهر مبارك".

ترك وهج القمر يسقط على قطعة من الذهب أو الفضة، ولكن ليس على قطعة من النحاس. وحتى لا يبدد الحسد الحظ المأمول، يأخذ المرء عصا صغيرة بيده ويكسرها من الوسط ويقول: "كسرنا[30] عود في عين الحسود". ونذير نحس أن يلمح المرء في تلك اللحظة وجهًا عابسًا، وإنها بشرى سارة إذا تمتع المرء في تلك اللحظة بمزاج مرح. ولذلك يحسن بالمرء أن يغلق عينيه إذا رأى وجهًا غير ودي، وإبعاد يده عن عينيه إذا أصبح إنسان ودود على مرأى منه[31].

ثمة تقليد مشابه يتم افتراضه في سفر أيوب (26:31 وما يلي)، حيث الحديث ذو الصلة برؤية الشمس والقمر، يدور حول وضع اليد على الفم للتقبيل. كما يقام احتفال منزلي بالهلال تصحبه وليمة في سفر صموئيل الأول (5:20)؛ احتفال ديني في أسفار الملوك الثاني (23:4)، سفر هوشع (7:5)، سفر عاموس (5:8)، إشعيا (13:1). وفي حزقيال (6.1:46 وما يلي)، وسفر العدد (11:28 وما يلي)، وهو شأن منظم بشكل قانوني للهيكل. إلا أن كلمة "هِلّوليم" في سفر القضاة (27:9) لا تثبت أن الهلال كان يُستقبل بزغاريد تصك الآذان، لأن الكلمة لم تكن قد استُخدمت من أجل احتفالات القمر الجديد. ويتحدث سفر سيراخ (8:43) بسرور واضح عن القمر الجديد المدهش في عودته وإيابه، والذي يجعل قبة السماء تتلألأ مثل منارة. ودلّت تلك الاحتفالات على عادات وتقاليد شعبية تتعلق بفلسطين اليهودية في وقت لاحق أيضًا. وقد طالب يهوذا في القرن الثاني باستقبال الهلال بالدعاء: "سبحانك أنت، يهوه، يا من تقوم بتجديد الأشهر!"[32]. وحتى 7 أو 14 من الشهر، أي حتى اكتمال البدر، كان يُنصح بهذا الدعاء وقوفًا. ويُستحسن القيام به مع نهاية يوم السبت حين يفترض بالمرء أن يكون معطرًا ومرتديًا هندامًا جيدًا، وقد وضع قدميه ووجّه عينيه نحو القمر، ثم يقفز ثلاث مرات قائلًا: "فألٌ جيد، فأل جيد لكل

(30) كذلك "قصفنا".

(31) Abela, *ZDPV* (1884), p. 89.

(32) j. Ber. 13[d], b. Sanh. 41[b], 42[a], Schem. R. 15 (40[b]f.),

يُقارن:

Brück, *Rabbin. Ceremonialgebräuche*, pp. 33ff.; Levisohn, *Sepher Mekore Minhagim*, pp. 69f.,

حيث لا تتفوه النساء بهذا الدعاء.

بني إسرائيل! وكما أقفز نحوك، من غير أن أصل إليك، عسى ألا يصل إلي أيضًا من يقفز نحوي!"[33]. ويفكر الدين الرسمي بالأمر الإلهي للأشهر القمرية (سفر سيراخ 43:6-8؛ يقارن سفر التكوين 1:14 مع الترجوم اليروشليمي 1؛ المزامير 104:19)؛ إلا أن فأل النظر إلى الهلال على ما يبدو قد حافظ على أهميته.

في الأوقات اللاحقة، كان تحديد بداية القمر يجري شرعًا من خلال استجواب الشهود في شأن الرؤية الحقيقية للهلال، وهو أمر مهم كان يفرضه الفرّيسيون[34]، وهو ما أدى إلى رصد خاص للهلال[35]. وقد أراد الصدّوقيون[36] استبدال الرصد بنظام سارٍ بشكل دائم. ومن هنا سعوا من خلال شهود زور إلى بلبلة "محكمة الشهر". شاهد زور أفاد: "صعدت إلى مرتقى أدوميم (أي على الطريق من القدس إلى أريحا). وهناك رأيت الهلال عالقًا بين صخرتين؛ رأسه يشبه عجلًا، وأذناه تيسًا، وعندما رأيته أصبت بالفزع وجفلت". إلا أنه أضاف: وانظر، مئتا قطعة ذهب مربوطة في كيسي"، وعلى ذلك أجابه أحدهم: "تستحق الكمية نفسها هدية (لصراحتك) وحري بالذين[37] أرسلوك القدوم إلى هنا وتلقي العقاب"[38]. وقد حصل شهود القمر على وجبة[39]، والسلطات أيضًا على وليمة في نهاية يوم القمر الجديد[40]. فالتقليد اليهودي القديم تم إذًا الحفاظ عليه هنا. إلا أنه لم يترك في فلسطين أثرًا خارج نطاق الدائرة اليهودية، إلا إذا شمل المرء وجبة السنة الجديدة (يُنظر أدناه)؛ ذلك أن

---

(33) Sopher. XX 1. 2.

يُنظر:

Baer, *Seder Abodath Jisrael*, pp. 337ff.; Levisohn, *Sepher Mekore Minhagim*, pp. 69f.,

وبحسب بيئر ولافيزون، على المرء أن يقفز على أصابع قدمه من دون أن يثني الركبة.

(34) فريسي: واحد من مؤيدي الأحاديث الدينية المنقولة، خلاف الصدوقيين. (المحرر)

(35) R. h. S. I 3-8, II 1-8, Tos. R. h. S. I 14f. - III 2.

(36) صدوقي: واحد من فرقة يهودية عارضت الاعتراف بالأحاديث الدينية المنقولة وبفرقة الفريسيين في عهد الهيكل الثاني. (المحرر)

(37) إقرأ "شولِحِخَ" [أرسلوا].

(38) j. R. h. S. 57[d].

(39) R. h. S. II 5.

(40) Sopher. XIX 9. 10, j. Meg. 70[b].

القمر يمكن أن يُضلل، فهذا ما يُشدد عليه بدو الظُلاّم من خلال قولهم: "اِقمر اِتغوى" أي "كان في ضوء القمر فضل"[41]. إلا أن عبد الولي ادعى أن القول المأثور المعروف لديه "أقمَرِن عينه" ليس له علاقة بالقمر، بل يعني: "أن عينه قد بُهرت، وقد أظلمت الدنيا أمام عينيه". وفي حاضرنا لا يأبه الفلاح كثيرًا لنمو القمر واضمحلاله، إلا أن الزراعة حين يكون القمر مكتملًا تُعتبر مفيدة[42]. ويشدد القزويني (1263)[43] على أن الفلاحين، حتى غير المتمرسين منهم، يعرفون كم أن الزرع مفيد خلال فترة نمو الهلال حتى يصبح بدرًا. وفي المقابل يُروى في قرية صيدا[44] أن المرء يُطعِّم ويزرع ويبذر بنجاح طوال أيام الشهر القمري ما دام الاختلاف في أن تلك النباتات التي يستمتع المرء بتناولها يتم تدبرها في الأيام "التامة" (1-6، 11-15، 19-22، 25-27، 29)، والباقي في الأيام "الخاوية". كما يتحدث القزويني عن أن النوم في ضوء القمر يؤدي إلى الترهل ويُسبب الزكام والصداع[45]، مساهمًا بذلك في توضيح التأثير السيئ[46] للقمر (المزامير 121:6)، حيث يعتقد الترجوم [الترجمة الآرامية للتوراة] بالشياطين التي تقوى خلال الليل، في حين يتحدث الأستاذ جون دافيد كيمحي على نحو ملائم أكثر عن برودة القمر مقابل حرارة الشمس. ويتحدث موزل (Musil) عن ضياء النجوم المضر الذي يحمي المرء نفسه منه من خلال الغسل بماء مالح أو بوضع غطاء[47]. وفي صيدا يُعتبر الكشف عن الرأس في ضوء القمر مدعاة للقلق، لأنه قد يُصاب بالقشرة[48].

---

(41) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 313.

(42) يُنظر:

Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 97.

(43) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 21;

كذلك:

Geoponica, I, 6.

(44) Abela, *ZDPV* (1888), p. 96.

(45) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 20.

(46) لا يتحدث النص العبري عن "طعن"، بل عن "ضَرَب، أصابَ".

(47) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 146, 246.

(48) Abela, *ZDPV* (1888), p. 112.

ويُعتبر القمر المكتمل ("بدر") بضوئه الذي يماثل بسطوعه ضوء النهار تقريبًا عاملًا ذا وقع دافئ في النفس يمكن أن يُطلقه المرء اسمًا على ابن. وعبارة "وجهك بدر"[49] عبارة مديح وإطراء. كذلك يعرف المرء أن لا فائدة تُرجى من القمر، إذ يُقال: "اِنتِ متل القمر بتونِّس وما بتنفع"[50]، أو الحديث مباشرة عن القمر: "القمر بونِّس وما يحميش" (خليل من رام الله).

هناك مجموعة من النجوم تتمتع بأهمية عملية في حساب الوقت والزراعة، كما سيظهر ذلك لاحقًا بشكل أكثر تفصيلًا[51]. فالعنقود النجمي ("الثريا") والشعرى اليمانية (الـ"سُهيل") تقفان هنا في المقدمة، يتبعها التوأمان ("الجوزاء") وبرج الجدي ("سعد ذبح"). كما ساهم علم التنجيم في الأزمنة القديمة في مراقبة النجوم ولا يزال يفعل ذلك في الحاضر[52]، إلا أن قليلين هم المطلعون بشكل أكثر تفصيلًا على هذا الموضوع، مع أن بعضًا من هذه المعرفة يحدد جانبًا من التقاليد الشعبية؛ فالبدو الذين يُعيرون الأجرام السماوية اهتمامًا أكبر من الفلاحين، يمتنعون في "كانون" عن المضاجعة، لأن "البلدة"، أي المنطقة الخالية من النجوم، صارت في برج القوس[53] والتي تبرز للعيان في 7 كانون الثاني/ يناير[54]، وهي العلامة على إنجاب أبناء سيئين، في حين يُعتبر "القلب"، نجمة ساطعة في برج العقرب، علامة إنجاب على أطفال جيدين (عبد الولي)[55].

---

(49) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 227.
(50) Ibid. p. 181.

(51) يُنظر في هذا الصدد القزويني،
Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 88ff.;
Ideler, *Untersuchungen über den Ursprungen und die Bedeutung der Sternnamen* (1809), pp. 1ff;
والكتاب العربي الذي نشره:
Gladys Dickson, *PEFQ* (1908), pp. 142ff., 253ff., 317ff.; (1909), pp. 49ff.; Baldensperger, *PEFQ* (1893), p. 311.

(52) يُنظر:
Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, pp. 96ff.

(53) *ZDMG* (1891), p. 605.

(54) *PEFQ* (1908), p. 254.

(55) ينظر أيضًا:
Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 313.

في العهد القديم أيضًا يكمن بالتأكيد السبب في ورود بعض النجوم، فهي ذات أهمية عملية في تحديد الوقت (يقارن سفر التكوين 14:1 وما يلي)، مع عدم ذكر مما تتألف هذه النجوم على وجه التخصيص؛ ففي سفر أيوب (9:9، 31:38 وما يلي) (يقارن سفر عاموس 8:5) فإن "عاش" ("عيش") و"كِسيل" و"كيما" (بحسب سعديا "بنات نَعش" "دب عظيم" و"سهيل" و"الثريا") تتعامل، قبلًا وبعدًا، مع الأمطار في سياق أوسع، ما يجعل الطوالع التي لها علاقة بحدوثها قابلة للاحتمال كما سيظهر أدناه لاحقًا. وعلاوة على ذلك، يوجد هيليل في سفر إشعيا (12:14)، الذي يرد في السبعونية [الترجمة اليونانية للتوراة] وفي الترجوم، أي نجم الصباح (بالعربية "الزُهرة" أو "نِجمة الصبح") الذي كان معروفًا لدى اليهود باسم "كوخبتا" (كوكب)، وبالعبرية "هَك - كوخيببت"[56]، والذي أطلقوا عليه لاحقًا اسم "نوجه" "لمعان"[57]. والتبجيل المكرس، بحسب سفر إرميا (18:7، 19:44)، لملكة السماء، لا يُحَدَّد من خلال كعك يقدم قربانًا، بل من كوّات تُفتح في الشرق وتشير إلى الوقت الذي يتم فيه تبجيل الزهرة كنجمة الصبح[58]. إلا أن هذا الأمر يُرجح أن يكون فرضية فقهية، فليس هناك تقليد مناظر معلومٌ من الأواني اللاحقة، على الرغم من أن نجمة الصبح لا يزال في الإمكان ملاحظتها إلى يومنا هذا في فلسطين، وتتمتع بالأهمية كونها تبشر بقدوم الصباح. وعن الطوالع أو الأبراج ("مَزّالوت")، ربما تحدث سفر الملوك الثاني (5:23) والنص الحالي من سفر أيوب (32:38) ("مَزّاروت"). ولأن عددها اثنا عشر، فهو ما يتم تأكيده لاحقًا[59] (يقارن البوابات الاثنتي عشرة بالاثني عشر ملاكًا رئيسًا (Taxiarchis) في كتاب إينوخ[60] 3:72، 11:82)، والتي

(56) j. Ber. 2ᵇ f. Jom. 40ᵇ, Ber. R. 50 (107ᵃ), Tg. Jerem. 7, 18; 44, 17.

(57) Pes. Rabb. 20 (96ᵃ), Tg. Jes. 14, 12.

(58) Pes. Rabb. 31 (143ᵃ), Jalk. Schim,

عن سفر إرميا (18:7) (276).

(59) b. Ber. 32ᵇ, Ber. R. 10 (19ᵃ),

حيث يُستخدم الاسم "مَزّال" بمعنى أوسع أيضًا.

(60) من الأسفار المنحولة أو غير القانونية (الأبوكريفا). (المحرر)

يمكن عدها واحدًا واحدًا[61]. وقد حوّل المدراش[62] "مَزّاروت" (سفر أيوب 32:38) إلى برج ("مَزّال") "يُحيك" ("مِمَزّير") الثمار[63]. وفي ما يتعلق بالـ"مِزاريم" في سفر أيوب (9:37)، والتي منها يأتي البرد، انصرف ذهن الناس إلى الريح الشمالية[64] أو إلى نافذة فريدة في وسط السماء تتحرك من خلالها الشمس مرة واحدة في كل 28 سنة[65]. وليس بعيد الاحتمال أن كلمة "مِزاريم"، جنبًا إلى جنب مع "مَزّاروت" الواردة في سفر أيوب (32:38)، يجب إرجاعها إلى "مَزريم" الذي ربما كان طالعًا يهب مطرًا ("زِرْم") وبردًا، على غرار القلائص[66] [عنقود نجمي]. وبناء عليه، ربما كان لدينا اسم طالع لم يجرِ تناقله كالمعتاد؛ فالقلائص ملائمة لذلك، خصوصًا أن غيابها يعني موسم الحرث[67]، أي المطر، ولأنها تناظر "الدبران" الذي، بحسب القزويني[68]، يغيب في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 13 يومًا بعد الثريا، وهي تنتمي، في واقع الأمر، إلى زمن المطر والبرد. إلا أن "القلب" (قلب العقرب) الذي يطلع في اليوم نفسه، يُعتبر الجالب الحقيقي للبرد. وربما كان من الأفضل اقتراح هذا الأخير مرادفًا لكلمة "مَزريم"، وهو ربما سيفي بالمعنى في سفر أيوب (9:37).

وفي مفهوم الفلسطينيين للوقت، يُشكل أسبوع الأيام السبعة ("جمعة") المستقل عن مجرى الشمس والقمر مقياسًا معروفًا للوقت، والذي كان، وفق سفر التكوين (2:2 وما يلي)، قد بدأ مع خلق السموات والأرض؛ فصلاة المسلمين الجامعة يوم الجمعة، لذلك يُسمى "يوم الجُمَع"، مثل يوم الأحد المسيحي بطقوسه، ويوم السبت الذي يمتنع فيه اليهودي عن العمل ويستغرق

---

(61) Pirke R. Eliezer 6, Pes. Rabb. 20 (95^b).

(62) مواعظ لكبار الحاخامين. (المحرر)

(63) Ber. R. 10 (19^b).

(64) B. Bab. 6, 25^b,

الذي يستند إليه ترجوم أيوب (9:37)، ويتحدث عن كوة الـ"مِزاريم".

(65) Pirke R. Eliezer 6.

(66) هكذا س. موفنكل (S. Mowinkel) في رسالة خطية.

(67) Hesiod, *Opera et Dies*, pp. 615f.

(68) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 43.

في قراءة الشريعة، وكلها تشكل الأسباب التي تجعل من الأسبوع شيئًا معروفًا. فالمسلمون ربما كانوا يريدون وضع الجمعة كيوم خلق آدم والقيامة في مطلع الأسبوع[69]، في حين أن لدى اليهود، ومن خلال سفر التكوين (2:2)، أسبابهم في إنهاء الأسبوع بيوم الامتناع عن العمل. أما أسماء الأيام، هي:

"يوم الحد" - الأحد

"يوم الاثنين" - الاثنين

"يوم الثلاثِ" - الثلاثاء

"يوم الأربعَ" - الأربعاء

"يوم الخميس" - الخميس

"يوم الجُمعَ" - الجمعة

"يوم اِلسبت" - السبت

والتسمية اليهودية لأيام الأسبوع، بحسب أعدادها والمذكورة في العهد القديم وفي سفر التكوين وحده، هي ذاتها؛ ففي الآرامية يقول المرء: "حَد" ("بِشُبّا")[70]، "تِريّا"، "تِلاتا"، "أربَعتا"، "حَمِشتا"، "عَرُبتا"، "شَبِّتا"[71]. وحده يوم الجمعة كـ"عيْرب شَبّات" أو "عَرُبتا" يحظى بوضع خاص، ويتردد صداه في الكلمة اليونانية *παρασχευη* (إنجيل متّى 62:27؛ إنجيل لوقا 54:23؛ Jos. Antt. XVI 6.2) و*προσαββατον* (إنجيل مرقس 42:15؛ سفر يهوديت 6:8؛ المزامير 92).

---

(69) Ibid.

(70) يُقارن: *μια σαββατων* في متّى 1:28؛ لوقا 1:24.

(71) يُنظر:

Ber. R. 11 (23ª),

وثمة أدلة إضافية في:

Dalman, *Gramm. Des jüd.-pal. Aramäisch*, p. 247,

للصيغة العبرية، على سبيل المثال:

Sabb. II 7, XIX 1,

ولكن يُقارن أيضًا *τετραδι σαββατων* في المزامير 93 عنوان ترجمة التوراة السبعونية.

على المرء أن يعرف أيام الأسبوع، لأن المعتقد الشعبي يمنحها أهمية فريدة؛ ففي الوقت الذي يتجنب فيه المسيحيون العمل في يوم الأحد، يعتبره المسلمون أفضل يوم لكل نوع من العمل وللأعراس أيضًا. وفي المقابل على المرء في يوم الأربعاء ألّا يبدأ بشيء جديد ولا أن يستهل سفرًا أو يتزوج، وعنه يُقال: "يوم الأربعَ لا تصير اِبنية اِلا لأربعتين تِكون بِكور"، أي "يجب ألا تحصل بداية جديدة يوم الأربعاء، إلا إذا كان أول الشهر". ويفضل المرء استخدام الخميس يومًا لغسل الملابس لارتدائها نظيفة أيام الجُمَع، فالجمعة يوم يصلح للبر والإحسان عن أرواح الموتى، لكن ليس للسفر والعمل (عبد الولي)[72]. ويورد القزويني قصيدة لعلي بن أبي طالب يقف فيها على كل يوم من أيام الأسبوع ولماذا يصلح[73]. فالسبت يصلح للصيد، والأحد للبناء لأن الله شرع في خلق السماء في ذلك اليوم، والاثنين للسفر والتجارة، والثلاثاء للحجامة، والأربعاء (الذي عادة ما يُعتبر وفق القزويني يوم شؤم) لتناول الدواء، والخميس لإنهاء المعاملات التجارية، والجمعة للأعراس، في حين تبقى إرشادات توفيق كنعان الواردة من الناصرة المسيحية التوجه، مختلفة جدًا[74]: "كول بالدين ولا تسافر يوم الاثنين، يوم الثلاثَ شماته، يوم الأربعَ فيهَ ساعة من النحس، بيع القميص ولا تسافر يوم الخميس، يوم الجمعة جامعة، يوم السبت اِشلح أواعيك يا ابن الناس، يوم الأحد عيّد"، أي "كُلْ بالدين ولا تسافر يوم الاثنين، الثلاثاء يأتي بالشماتة (أي بسوء الحظ)، في الأربعاء ساعة نحس، من الأفضل أن تبيع قميصك على أن تُسافر يوم الخميس، الجمعة يوم تجمع (للأرواح الشريرة)، ويوم السبت إخلع

---

(72) يورد

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 308f.,

من الكرك ما هو قريب من هذا التصور. في حين أن القزويني في المرجع السابق، ص 132 وما يليها يختلف عن ذلك كثيرًا.

(73) Kazwini, *Kosmographie*, p. 66.

(74) *ZDPV* (1913), p. 277; Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 13;

يُنظر أيضًا:

Abela, *ZDPV* (1884), pp. 80f., 89.

ملابسك (للغسل) يا ابن الناس! الأحد يوم عطلة". وفي بيت جالا تُعتبر أيام الاثنين والثلاثاء والخميس أيام حظ. لكن، على المرء ألا يُفصل ملابس في أيام الثلاثاء. الأربعاء والجمعة والسبت هي أيام شؤم، باستثناء أربعاء أول الشهر. ومع ذلك، فإن الأربعاء يوم جيد للغسل. ومن يغتسل يوم الأحد يفقد معموديته. حمام الأطفال يوم الجمعة ضار. كما لا يقترب المرء من الماء في أيام الجُمع وليلًا خوفًا من خطر العفاريت[75]. ووفقًا لتوفيق كنعان، فإن ينابيع الماء تبقى خطرة مساءً وليل الأربعاء، لأن الشياطين تنزل إلى الماء بخراطيمها المائية[76]. أما في أسبوع الآلام، فإن المسيحيين يعتبرون يوم الأربعاء "أربعة أيّوب"، يوم غسل واستحمام، حيث يقضي المرء اليوم من شروق الشمس حتى غروبها على عين الماء (رام الله، جفنة). ويبقى تحديد الأيام الأربعة في السنة متعذرًا من ناحية زمنية، تلك التي تكون بلا مطر ولا ندى ولا تصلح للجماع (القُبيبة).

بالنسبة إلى "مِعونين" التوراتية في سفر التثنية (10:18)؛ يقارن سفر اللاويين (26:19)، والتي يدركها سعديا من علم التنجيم، فقد امتلك عكيفا التفسير التالي: "هناك من يلتفت إلى الأوقات[77] والساعات ويقولون: 'اليوم جيد للخروج، وغدًا جيد للشراء'"[78]. والأمر نفسه يتم بسطه على رصد حالة الجو حين يقال، من وجهة النظر ذاتها: "اليوم تحجب الغيوم الشمس، غدًا ستهطل الأمطار"[79]. وفي المكان نفسه تُفسر "بريتا" [براني، خارجي أي المشنا الخارجية وهي الفتاوى التي لم يدركها الحاخام يهوذا الناسي في كتب المشنا، وقد أدرج معظم هذه الفتاوى في ما بعد كلٌّ من الحاخام حِيا والحاخام أوشعيا]

---

(75) وفقًا لملاحظات مكتوبة لِبشارة كنعان. يُنظر أيضًا بصدد خطر العفاريت:
PEFQ (1908), pp. 245f.

(76) Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 12.

(77) في أي حال، لأن "عونا" هي وصف لوقت محدد.

(78) Tos. Sabb. VII 14, b. Sanh. 65b;

يُقارن اللاويين 26:19، التثنية 10:18 (107أ). يُقارن الخوف من أمارات السماء، إرميا 2:10.

(79) Ibid.,

يُقارن لوقا 54:12، حيث الحكم على الطقس لا يتم الطعن به.

وكلمة "مِنَحيش" [يتكهن]: "هناك من يقول: لا تبدأ من عندي (بطلب ما)، فالوقت وقت صباح، ووقت قمر جديد، ووقت نهاية السبت"[80]. لا يبدو الشروع في عمل جديد في هذه الأوقات ملائمًا، وذلك لأن الوقت لا يتمتع بهذه الخاصية. وربما كانت العفاريت قادرة على التأثير في أوقات معيّنة بشكل غير ملائم؛ ففي ليلتي الأربعاء والسبت لا يخرج المرء من البيت حتى لا يتعرض لأذاها[81]. وقد كانت هذه العقيدة راسخة إلى درجة أصبح معها هطل المطر في هاتين الليلتين مرحبًا به بشكل خاص لأنه لا يتسبب بالضرر لأحد[82]. والشروع في رحلة قبل صياح الديك يُعد انتحارًا[83]. وفصد العِرْق ليس جيدًا في يومي الاثنين والخميس لأنهما يوما حكم إلهي، ولا الثلاثاء لأن المريخ يحكم في هذا اليوم، ولا الأربعاء في حال صادف اليوم 4 و14 و24 من الشهر[84]. ويُعتبر اليوم الذي يسبق عيد الخماسين وقتًا خطِرًا، لأن ريحًا عاصفة ستهب في هذا اليوم تُدعى "الجَزَّار"، وسيُقتل جميع من لا يلتزم الشريعة من بني إسرائيل[85]. فمن يشرب في المساء ماءً، يسرقه الموتى من أقربائه الذين يُقتادون إلى الماء في هذا الوقت[86]. وبناء عليه، من الجائز الافتراض وجود تصورات مشابهة

---

(80) Tos. Sabb. VII 13, b. Sanh. 66ª,

التثنية 18:10 (107أ)، مدراش، تانيت عن المكان نفسه (110ب)؛

يُقارن:

Scheftelowitz, *Bauernglaube*, p. 136.

(81) b. Pes. 112ᵇ.

(82) يُقارن:

Raschi,

عن:

b. Taan. 23ª,
Vaj. R. 35 (97ᵇ),

يُقارن التثنية 42 (80أ)، سفر 110د.

(83) b. Jom. 21ª (Barajtha), Derech Erez R. 11.

(84) b. Schabb. 129b;

يُقارن:

Bischoff, *Babylonisch-Astrales im Weltbilde von Talmud und Midrasch*, pp. 120ff.

(85) b. Sabb. 129ª.

(86) Midr. Teh. 11, 6.

في فترة العهد القديم، حتى لو كانت الشريعة ترفضها. ولكن ليس من سبب لتطبيقها، مع بوده (Budde)، على سفر الجامعة (3:1-8)، الذي يذكر أن كل عمل إنساني له وقته، وكل نوع من العمل يُستبدل بنقيضه. وهنا لا يتم التمييز بين وقت ملائم ووقت غير ملائم، بل يتم تأكيد المحتوى المتبدل للأوقات كما يظهر في سياق حياة الشخص، على النقيض من عمل الرب الخالد (سفر الجامعة 3:14 وما يلي).

3. الأشهر

حري بالمرء ذكر الأشهر باعتبارها مقياسًا للوقت. صحيح أنها حاضرة في وعي السكان غير المتعلمين، إلا أن معظمهم ربما شعر بالحرج في ما لو سُئل أحدهم أي يوم في الشهر هو هذا اليوم. فحتى تاريخ ميلادهم، الذي لا يعرفه المرء في العادة، لا يُشكل مدعاة للتفكير في ذلك كما هي الحال في الكتاب المقدس، حيث لا ترد تواريخ شهرية للميلاد والموت وحوادث أخرى؛ فالأعياد المسيحية تحصل وفق التقويم الإغريقي الذي لم يتغير منذ العهد البيزنطي. وفي حالة الشك، على المرء طلب النصيحة من الكهنة. ولأن أشهر هذا التقويم لا ترتبط بالقمر، فإن مراقبة القمر هنا لا تفيد؛ فالأشهر القمرية لدى المسلمين، وهي المتنقلة عبر السنة الشمسية، لم تترسخ في وعي سكان فلسطين القرويين على الرغم من التأثير الجذري لشهر الصيام "رمضان" في حياة الناس، ولأن المسار الطبيعي للسنة الشمسية المرتبط ارتباطًا وثيقًا بعملهم يتطلب، بشكل إلزامي، تقويمًا مبنيًا على السنة الشمسية. وحتى البدو كانوا مرتبطين في تربية ماشيتهم بالسنة الشمسية، وظلوا مخلصين لتقويم الأشهر الشمسية الذي كان أصيلًا في فلسطين منذ زمن بعيد.

يستند التوقيت الشهري عند الفلاحين على ضفتي نهر الأردن، كذلك عند البدو، على تقويم قديم الطراز، يتخلف 13 يومًا عن تقويمنا[87]. صحيح

---

(87) يتحدث شتيفان:

= Stephan, *JPOS*, II, p. 160,

أن التقويم اليهودي الذي تعادل أشهره القمرية بالسنة الشمسية من خلال شهر كبيس بين وقت وآخر، له صلة بالعديد من أسماء الأشهر التي تشبه تقويم الفلاحين، لكنه يسلك مسارًا خاصًا به لا يمكن تحديده بأثر رجعي إلى ما قبل سنة 359 بعد الميلاد، لأن إدخال الشهر الكبيس في الحسبان كان يجري دونما أحكام ثابتة وفقًا لاعتبارات عملية تتعلق بوضع البذار والماشية الصغيرة[88]. ولأن الفارق بين السنة القمرية والسنة الشمسية هو 17 يومًا، فمن المفترض أن يلاحظ المرء ذلك من خلال إحداث شق في جدار عند محطة الشمس في تموز/ يوليو؛ إذ ستظهر الشمس في النقطة نفسها في السنة التالية متأخرة 17 يومًا[89]. إلا أن ذلك لا يعني أن في الإمكان حساب يوم محدد في الشهر. ووفق النظام الحالي للتقويم اليهودي، قد يصادف 1 تِشري، بين 5 أيلول/ سبتمبر و5 تشرين الأول/ أكتوبر، بحيث قد يُناظر شهر تِشري شهر أيلول/ سبتمبر بالبساطة ذاتها التي يناظر فيها تشرين الأول/ أكتوبر. وحين أستمر في ذكر الأشهر المسيحية إلى جانب الأشهر اليهودية، يكون التطابق بينها تقريبيًا فحسب. وبالنسبة إلى الأشهر العربية، فإن أسماء الأشهر المسيحية الموضوعة إلى جانبها حري بها أن تُدرَك كنمط قديم [تقويم يولياني]، إلا إذا ذُكر خلاف ذلك بشكل واضح.

من المحتمل أن التقويم البابلي الذي اعتمده اليهود خلال فترة السبي البابلي قد استند بدوره إلى مبدأ معادلة السنة القمرية بالشمسية. وفي المقابل، وكما يفترض مورغنشتيرن (Morgenstern)، فربما كانت حسابات الأشهر اليهودية القديمة حسابات شمسية بحتة[90].

= عن فلكي محلي يحدد لرعاة شرق الأردن بداية السنة الجديدة، وأن السنة تتألف أحيانًا من اثني عشر شهرًا وأحيانًا من أحد عشر شهرًا، وهو ما يُدلل عليه المثل السائر: "شهر بِهِلّ وشهر بِزِلّ"، ويعني ذلك "شهر يُضاف وشهر يُطرح"، ويمكن ترجمته إلى: "شهر يأتي وشهر يذهب."

(88) j. Sanh. 18^{d}, Maas. sch. 56^{c}, Tos. Sanh. II 6, b. Sanh.11^{b},

يُقارن:

Lewisohn, *Geschichte und System des jüd. Kalenderwesens*, pp. 19f.; Schwarz, *Der jüd. Kalender*, p. 37.

(89) Ber. R. 33 (67^{b}).

(90) Morgenstern, *Hebrew Union College Annual*, I, p. 76.

الأسماء الفلسطينية للأشهر هي كما يلي[91]:

	مسيحي	مسلم - فلاحي	بدوي	يهودي
كانون الأول	"كانون أول"	"كانون أول"	"اِجرد"	كيسلو
كانون الثاني	"كانون ثانِ"	"كانون ثانِ"	"كانون اِلأصم"	"طيبيت"
شباط	"شباط"	"شباط"	"شباط"	"شِباط"
آذار	"اِذار"، "أذار"	"اِذار"	"اِذار"	"أدار"
نيسان	"نيسان" ("اِيسان")[92]	"شهر الخميس"	اِلخميس"	"نيسان"
أيار	"أيار"	"جماد"	"جمادي"	"اِيّار"
حزيران	"حْزيران"	"اِقلاش"	"أول قيظ"	"سيوان"
تموز	"تموز"	"تموز"	"واسط قيظ"	"تموز"
آب	"آب"	"آب"	"أتلا قيظ" [تالي القيظ]	آب
أيلول	"اِيلون"، "اِيلول"	"شهر الصليب"	"أول صفر"	"اِلول"
تشرين الأول	"تِشرين أول"	"صفر"	"واسط صفر"	"تِشري"
تشرين الثاني	"تشرين ثانِ"	"اِجرد"	"اِتلا صفر"	"مَرِحشوان"

يُخبرنا المقدسي (985)[93] والقزويني (1263)[94] أن الأسماء المسيحية ذات أصل يوناني أو بيزنطي ("الروم")[95]، وعند كليهما يظهر "تشرين" الأول كشهر أول. ولقد سمعتُ ذلك بالقرب من القدس أيضًا كما في كفر أبيل في "عجلون". وسمعت الأسماء الإسلامية - الفلاحية القريبة منها في القُبيبة، والبدوية من عبد الولي، وفي إلجي بالقرب من البتراء[96] حيث يتم استخدام

(91) يُقارن:

T. Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 271.

(92) هكذا في السلط.

(93) *ZDPV* (1884), p. 219.

(94) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 74ff.

(95) ترجمها إيثه (Ethe) في ص 152 "سوري"، على الرغم من أن القزويني يُطلق على سوريا كلمة "الشام".

(96) من حيث الجوهر هو الأمر نفسه كما عند:

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 6f.

"الأربعانية" [المربعانية] بدلًا من "كانون". ويذكر باور (Bauer)[97] سلسلة تقع بين "البدويّ" و"الفلاحيّ". فـ"اِجرَد" مضاعف يُناظر "اِجرَد" و"كانون أول". وبعد "اِقلاش" يتبع "قيظ" عدد اثنين و"صفر" عدد اثنين. وقد أوضحوا لي اسم "اِجرد" كونه مشتقًا من الأرض الجرداء ("بجرِّد")، و"جماد" من "تخثر الخبز" ("اِلعيش")، أي تكوُّن الطحين في حبيبات القمح، و"اِقلاش" من استخدام المنجل ("قالوش") في الحصاد. والشهر الخامس يُدعى "الخميس" لا لكونه الشهر الخامس[98]، وإنما لأن أيام الخميس في هذا الشهر تتمتع بأهمية خاصة. ويحمل "شهر الصليب" هذا الاسم لأن عيد الصليب يصادف وقوعه فيه (القُبيبة).

أما أسماء الأشهر القمرية الإسلامية المحضة التي لا تربطها علاقة بالدورة الشمسية، فهي:

محرم	رجب
صفر	شعبان
ربيع الأول	رمضان
ربيع الثاني	شوال
جمادى الأولى	ذو القعدة
جمادى الثانية	ذو الحجة

وتُظهِر أسماء "صفر" "فصل أصفر"، و"ربيع" "فصل البراعم"، و"جمادى" "فصل الجفاف" الصلة الأصلية لأسماء الشهر مع السنة الشمسية التي كان يستوجب أن يكون شهرها الأول في أيلول/ سبتمبر، في حال كان "ربيع الأول" يُناظر تشرين الثاني/ نوفمبر. كما أن معرفة أيام الأشهر ليست أمرًا يفتقر إلى الأهمية، خاصة أن هناك أيام شؤم محددة؛ فالأيام 9 و19 و29 من الشهر ليست

---

(97) *ZDPV* (1915), p. 54.

(98) هكذا:

Cana'an, *JPOS*, III, p. 22.

أيام بداية جيدة للسفر، فيُقال: "التاسوع مكروه، مُش مليح"، "رقم تسعة لا يُسر، غير جيد!"[99]. ولكن اليوم الأول من الشهر غير ملائم أيضًا باستثناء بداية السنة التي تكون مصحوبة بالبركة (عبد الولي). وهكذا تتوافر للمرء وسيلة لتحديد أيام الشهر دونما معرفة التقويم، وهو ما لم يكن في متناول الجميع في الواقع؛ فقد استوجب الأمر مراقبة ظهور الثريا والقمر معًا ("تتقارن الثريا والقمر") ووجوب معرفة المرء متى يحصل ذلك وفي أي يوم من الشهر. وقد تلقيت من عبد الولي وفي كفر أبيل معلومات متطابقة من حيث الجوهر، وكان اليقين فيها باعثًا على الدهشة، خاصة أنها وردت إلينا ممن يجهلون القراءة. ويحصل الظهور المشترك ("قران"): في 13 "اِجرد"، وفي 11 "كانون"، وفي 9 "اِشباط"، وفي 7 "اِذار" (وهو ما أُطلق عليه "قران السباعي")، وفي 5 "خميس"، وفي 3 "جمادَى" (تغيب "الثريا" في حوالى اليوم 7)، 27 (عبد الولي: 25) "أول قيظ"، 25 (عبد الولي: 23) "واسط قيظ"، 21 "أتلا قيظ"، 19 "أول صفر"، 15 (عبد الولي: 17) "واسط صفر"، 17 (عبد الولي: 15) "أتلا صفر".

4. بداية السنة

تبدأ السنة مع فصل المطر، وهذه حقيقة للذين لا يحدد تقويمهم الدين أو الدولة. "آخر السنة، آخر الصيف، أول السنة، أول الشتا"، أي "نهاية السنة هي نهاية الصيف، وبداية السنة هي بداية الشتاء" (القُبيبة). ويعتبر الفلاحون المسلمون والبدو شهر "اِجرد" أول أشهر السنة، لأن مطر الشتاء الحقيقي يبدأ في كانون الأول/ ديسمبر[100]. لكن يُمكن المرء أن يتعامل مع بشائر مطر الشتاء كشيء حاسم، وبالتالي يمكن العودة إلى الخلف حتى تشرين الثاني/ نوفمبر إن

(99) كذلك الأمر في الشرق:

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 309,

حيث يُعتبر أول يوم في الشهر يومًا ميمونًا، والأيام 6 و16 و26 و21 مشؤومة إذا صودف وقوعها في يوم سبت. ومن أجل تعداد مختلف لأيام الشؤم في كل شهر. يُنظر:

PEFQ (1908), p. 258,

وشبيه بذلك الموجود لدى اليهود، يُنظر ص 19.

(100) مع "اِجرد" تبدأ فترة المطر والسنة، كذلك الأمر لدى

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 6.

لم يكن حتى تشرين الأول/ أكتوبر. واليوم الأول في تشرين الأول/ أكتوبر، أي في "تشرين"، هو سنة السريان الجديدة، وبالنسبة إلى اليهود، هو السنة الجديدة لسنوات الإعفاء من الالتزام أو المسؤولية، لسنوات الابتهاج، للمزروعات والخضروات، وللعُشر وللنذور(101) بما يتواءم مع سفر الخروج (16:23، 22:34)، حيث يصادف عيد الخريف هلول رأس السنة. وعلى النقيض من سفر الخروج (2:12)، حيث جُعِلَ الخروج في شهر الربيع أي الشهر الأول، وذلك، بلا أدنى شك، بسبب المعنى التاريخي لعيد الفصح [اليهودي]. وهذا يناقض التقليد الشعبي القائم على السنة الطبيعية، لكنه يتطابق مع السنة البابلية الجديدة في بداية نيسان/ أبريل ذات الصلة بالطلوع الشمسي لبرج الحمل، وقبل ذلك لبرج الثور(102). ويستند التقويم السرياني في المقام الأول إلى حقيقة أن تِشري، بالنسبة إلى الفلاحين، هو بداية البذار(103). وفي ما يتعلق باليهود، فإن أحكام التشريع الوارد في سفر الخروج (2:12) محصورة بتعداد الأشهر، وبسنوات الملوك وأعياد الحج(104)، في الوقت الذي يتم فيه إخفاء السبب الحقيقي، نظرًا إلى إشارات ضمنية مفترضة. إن ذكر النذور لسنة 1 تِشري الجديدة عند اليهود (يُنظر أعلاه) يعني أن السنة، بالنسبة إلى الاستخدام الشعبي، تبدأ وتنتهي في هذا الوقت. ويعتقد كثيرون أن السنة اليهودية الجديدة الخاصة بالعُشر المفروض على الماشية تعود إلى شهر سبق، أي إلى 1 اِيلول، لأن الحيوانات التي كانت قد حملت في أدار عادة ما تطرح مواليدها في أب(105).

بالعودة إلى تقاليد اسطنبول، فإن السنة الكنسية اليونانية(106) تبدأ في 1 إلول (أيلول/ سبتمبر). والسنة الجديدة لدى الأقباط تبدأ في 1 توت الذي

---

(101) R. h. I 1, Tos. R. h. S. I 7, b. R. h. S. 12ª.

(102) Zimmer, *Das babylonische Neujahrsfest* (1926), pp. 7ff., 13.

(103) Müller, *Chronologie des Simeon Sanqlawaja*, p. 43.

(104) Mechiltha,

عن الخروج 2:12 (Ausgabe Weiß 3ª)
يُقارن:

b. R. h. S. 2ª ff., j. R. h. S. 56ª ff.

(105) b. R. h. S. 8ª.

(106) *Horologian Mega* (1898), p. 227; Kazwini, p. 79.

يُماثل "اِلول" (أيلول/ سبتمبر)، آخذين في الاعتبار أن الأشهر في كل مكان تتخلف 13 يومًا عن تقويمنا [الألماني].

أما سنة "اليونانيين" المدنية الجديدة في 1 "كانون ثاني" (كانون الثاني/ يناير) التي تتبع السنة الرومانية اللاحقة، فهي تقوم على أسس أخرى، كما هي حال السنة الجديدة الرومانية السابقة في 1 آذار/ مارس (*mart*) التي تُعتبر ذات شأن لكثير من المسلمين، كونها بداية السنة المالية ("سنة المالية") للحكومة التركية، وسنة المواشي لأصحاب القطعان. وبشكل مشابه تعتبر السنة اليهودية الجديدة للأعياد، ولدفع الشواقل وأجرة البيوت في 1 نِسان (نيسان/ أبريل) كما يحددها القانون. وأخيرًا 1 "محرم" في التقويم الإسلامي هو الحاسم لأجور السكن عند السكان الفلسطينيين. وإذا علمنا أن السنة الجديدة عند الأرمن يُحتفل بها مدنيًا في 6 "آب" وكنسيًا في 11 "آب"، حينئذ يترتب على ذلك أن مواعيد السنة الجديدة عند السكان الفلسطينيين يختلط بعضها ببعض نتيجة أصولها شديدة الاختلاف. وتتصل بها، إضافة إلى أعمال السنة الكبيرة، أنواع شتى من العادات والتقاليد.

عادات السنة الجديدة وتقاليدها

نشأ الإحساس بالتنوع الديني للحياة الشعبية في القدس حين قمنا، نحن الألمان البروتستانت، في مساء 31 كانون الأول/ ديسمبر، بالسير على الأقدام إلى كنيسة موريستان الصغيرة، وهناك اختتمنا السنة محتفلين بوجبة الطعام التي جاد المسيح بها في هذه المدينة. وفي منتصف الليل، كانت جوقة عازفي الأبواق في دار الأيتام السورية تعزف أنغامها، وأجراس كنيسة القديس سلفاتور للفرنسيسكان الإيطاليين تقرع كي تؤذن للكاثوليك والبروتستانت من العرب في المدينة بأن السنة الجديدة قد بدأت. ولم يكن هناك أي تقاليد شعبية شرقية الأصول ذات صلة باحتفال رأس السنة هذا، باستثناء التبادل الاعتيادي للتهاني. أما تبادل التهاني بين القناصل الثلاثة عشر في القدس، فقد أضاف مسحة دولية انخرط فيها الحاكم التركي ليهودا [جنوب الضفة الغربية] وبطريرك اليونان وبطريرك الأرمن بكل كياسة.

شكّل ذلك تقليدًا شعبيًا عندما قام المسيحيون الروم عشية رأس سنتهم الجديدة ("راس السنة")، أي بعد رأس السنة بـ 13 يومًا، بإعداد وجبة طعام دسمة جمعوا فيها ما قدّر لهم من المأكولات حتى لا ينقص شيء في السنة الجديدة. وفي لبنان، يقوم المرء بالتحريك ("بِفور") في قدر الطبخ، لأن كل شيء يجب أن يفور في السنة الجديدة كي يبدو كل شيء جديدًا. حتى الرأس، ولو كان رأس دجاجة أو حمامة، يجب أن يكون موجودًا على المائدة، كي يكون كل شيء في السنة الجديدة في الأعلى. فالشرب من قدح نبيذٍ واحد مع قطعة ذهبية في قعره يعني منح الأمل بمستقبل لا يُفتقر فيه إلى المال. وفي دمشق، يعني تناول المرء في هذه الأيام "كبة" (نوع من اللحم والبرغل) واحتساء النبيذ من قدح ذي قعر وُضع المال فيه أن "تفور" السنة بكاملها[107]. كما يُفترض أن يفتح كل واحد الصناديق المخزنة كي تدخلها بركة السنة الجديدة[108].

ثمة تقليد عند اليهود له صلة بذلك، وهُم يمارسونه حتى في القدس[109] الحالية في يوم سنتهم الجديدة، متحققين من أن الله في هذا اليوم يحدد طعام الإنسان على مدى السنة بأكملها[110]؛ ففي وجبتهم عشية رأس السنة الجديدة، يتناولون تفاحة مغمّسة بالعسل، عسى أن تكون السنة المقبلة حلوة. ويُفترض أن توجد على المائدة ثمانية أطباق هي[111]: نوع من اللوبيا ("روبيا") كي يكون الربح كبيرًا ("رابا")؛ كراث ("كاراتي") كي يبيد الله الأعداء ("كارت")؛ سلق

(107) Bergsträßer, *Zum arab. Dialekt von Damaskus*, vol. 1, p. 68.

(108) Abela, *ZDPV* (1884), p. 91.

(109) يأكل المرء في القدس بحسب التعاليم التلمودية (يُنظر أدناه) قرع، كراث، سلق، تمور، Luncz, *Jerusalem*, vol. 1, p. 37.

(110) Vaj. R. 30 (80^b).

(111) من أجل تفسير أطباق العام الجديد، يُقارن:
Schick, *Siddur Minhagim* II 31^a, Schröder, *Satzungen und Gebräuche des talmudisch- rabbinischen Judentums*, pp. 98f.,

وبشكل استكمالي قد يتم أيضًا، في حال الـ"روبيا"، التفكر بكمية أو عدد الخدمات والأفضال المقدمة، وبكبش إسحق. وقد سبق لنوح، بحسب
Jubil. pp. 7, 2 ff.,

أن احتفل بعيد السنة الجديدة بقرابين وبتقديم النبيذ وشربه.

("سِلقا") كي ينصرف الأعداء ("سالَق")؛ قرع ("قارا") كي يمزق الله حكم الموت ("قارَع")؛ تمور ("تَمري") كي ينتهي الأمر مع الأعداء ("تامَم")؛ رمان وسمك لأن بذورها وبيضها تعني كثيرًا من الأعمال الحسنة؛ رأس خروف كي تبقى إسرائيل رأسًا لا ذنبًا، وكلها تكون في الأعلى وليس في الأسفل (سفر التثنية 13:28)[112]. ويتم ضمان التأثير الذي يُعتقد بيقين أنه سحري الطابع من خلال الإتيان بمعنى كل طبق في دعاء خاص أمام الله. وهذا التقليد قديم جدًا، وهو ما يظهر في آراء نطروناي الثاني (Natronay II)[113] (حوالى 860)، ولدى حاي (Hay) [رئيس جماعة يهودية في بابل في الفترة بين القرنين السادس والحادي عشر][114] (حوالى 1000)، التي كان على اليهود البابليين في يوم رأس السنة الجديدة طبخ رؤوس حملان في حساء شعير أو ما هو حلو، وتجنب ما هو مطبوخ في الماء، كي تكون السنة حلوة ومُسِرة. وقد سبق أن أورد التلمود[115] البابلي أن الخضروات المذكورة أعلاه تُتناوَل في يوم رأس السنة. ويذهب الأمر الوارد في سفر نحميا (10:8) بعيدًا ويفترض أن اليهود اعتادوا تناول شحم ولحم وشرب ما هو حلو[116]. أما لماذا يوزع الزيتون المخلل في يوم رأس السنة في الكنيس اليهودي الشرقي في القدس، وهو مالح ومر[117]، فهذا ما لا يمكنني تفسيره.

يتعلق التقليد المماثل لدى المسلمين بِاليوم العاشر من "مُحَرَّم"، وهو الشهر الأول في تقويمهم الرسمي؛ فهو "يوم اِلعواشيري" أو "اِلعاشورا"

---

(112) يُقارن:

Schulchan Aruch, Or. Chajjim, 583.

(113) *Chemda genuza* (Jerusalem, 1863), 17^{b}.

(114) *Teschuboth ha-Geonim* (Lyck, 1864), 6^{b}.

(115) هوراي 12أ، كِرت 6أ. جدير بالملاحظة أن التلمود البابلي أكثر غنى بالتقاليد الخرافية من التلمود الفلسطيني. وهذا ربما عائد إلى أن اليهودية الفلسطينية استنكرت كثيرًا التقاليد التي كانت منتشرة بين يهود بابل. وقد يكون بعض التقاليد بابليًا حصرًا وليس فلسطينيًا، على الرغم من التشابه الكبير في المعتقدات الشعبية في فلسطين وبلاد ما بين النهرين.

(116) إلى ذلك يُشير:

Schick, *Siddur Minhagim* II 31^{a}.

(117) Luncz, *Jerusalem*, I, p. 37.

[عاشوراء] الذي أعلنه النبي محمد يوم صيام ذات يوم، أسوة بـ 10 تشري الخاص باليهود حيث يقوم المرء بطبخ شتى أنواع الحبوب ("أربعين شكل حبوب") على غرار القمح والشعير والبازلاء والحمص في قدر مملوءة بشكل وافر، في حين يكتفي المرء في الريف بطاسة مليئة جيدًا بالرز. وبحسب لين (Lane)[118]، فإن طبق الـ"حبوب" في مصر يتألف من قمح منقوع في الماء يومين أو ثلاثة أيام ثم تُزال القشور عنه ويُطبخ، ثم يُحلّى بالعسل أو عسل السكر ("دبس")، ثم يُضاف إليه الجوز واللوز والزبيب. إنه طعام دسم يمنح السنة كلها وفرة الطعام. وهذا له صلة، وفقًا لرؤية المقدسيين، بأن الملائكة في هذه الليلة تقوم بزيارة البيوت وتتركها محملة بشكر الضيوف المعتاد: "دايمًا" أي "عسى أن تكون هكذا دائمًا!". ومن هنا يكون من المفيد أن يتوافر في البيت هذه الليلة قدر مليئة بالقمح.

وعن السنة الجديدة عند الفرس ("نيروز")، يحدثنا القزويني[119]: "من يقوم في الصباح ويتذوق السكر قبل أن يقول أي كلمة، وقد دهن جسده بالزيت، ستنتزع منه جميع أشكال سوء الطالع على مدى العام بأكمله".

كان على هدايا السنة الجديدة (*strenae*) لدى الرومان أن تكون مؤلفة مما هو حلو كالتين والتمر والعسل، كي تكون السنة الجديدة حلوة[120]. ويُفترض لدى كثير من الشعوب استمالة الأرواح الخيرة والشريرة من خلال وضع طعام طوال الليل[121]. ومن المحتمل أن وليمة القمر الجديد في إسرائيل القديمة (يُنظر أعلاه) كانت قائمة على اعتبارات مماثلة، ويفترض بذلك التأثير في الشهر لمصلحتهم.

---

(118) Lane, *Manners and Customs*, II, p. 149;

شيء شبيه بذلك يذكره

Doutté, *Magie et Religion*, pp. 544f., Merräkech, pp. 273f.,

بالنسبة إلى شمال أفريقيا يتحدث فيه عن وجبة طعام دسمة من الحبوب في 1 كانون الثاني/يناير، ومن اللحوم في 2 كانون الثاني/يناير، ووفقًا لذلك يتبع التقليد الإسلامي هناك التقويم الأوروبي.

(119) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 80.

(120) Ovid, *Fast.* I pp. 185ff.

(121) Scheftelowitz, *Bauernglaube*, p. 38.

وينتمي إلى عادات السنة الجديدة وسيط الوحي الذي يسعى المرء من خلاله إلى إنارة المستقبل المظلم. وفي شمال أفريقيا، يضع الناس في ليلة رأس السنة قبضة من البرغل (أو من القمح) أو صحن فيه ملح أو صوف على السطح، ليتسنى لهم، من خلال الرطوبة التي يمتصها القمح أو الصوف استنتاج ما يفيد بأن السنة خصيبة[122]. ويحصل الفلسطينيون على صورة أكثر دقة للمستقبل من خلال قيامهم عشية عيد الصليب (14 أيلول/ سبتمبر، بحسب التقويم اليولياني) الذي يُعتبر أول أيام فصل المطر، بوضع سبعة أكوام صغيرة من الملح، الواحد إلى جانب الآخر خارج المنزل[123]. ويمثل كل منها شهرًا من أشهر المطر السبعة من "تشرين أول" (تشرين الأول/ أكتوبر) حتى "نيسان" (نيسان/ أبريل). وفي الصباح يشاهد المرء أيًا من هذه الأكوام كان الأكثر رطوبة، مستنتجًا من ذلك كمية المطر التي ستهطل في الأشهر التالية. كما أن الريح التي تهب بعد ظهر العيد تحظى بأهمية، فهي مؤشر على اتجاه الريح في الشتاء[124]. وبالنسبة إلى القزويني[125] فإن سبعة أيام في "تموز" (من 12 حتى 18) هي الأيام المهمة في الأزمة (اِيام الباحور") التي تُحدد طقس سبعة أشهر من الموسم الماطر. ويروي القزويني عن الفرس القدامى أنهم يقومون، سبعة ليالٍ قبل 5 "تموز"، وهو اليوم الذي تطلع فيه الـ"شعرى" (الشعرى اليمانية)، بنثر أنواع مختلفة من الحبوب على لوح، ثم يوضع اللوح في 5 "تموز" على السطح. وما يكون مخضرًا في صباح اليوم التالي، سينمو بقوة في السنة المقبلة. إنها عينة بذور تنصح بها موسوعة

---

(122) Doutté, *Magie et Religion.*

(123) بحسب
Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 276,
هي ستة أكوام صغيرة، وبحسب
Abela, *ZDPV* (1884), p. 117,
هي اثنا عشر كومًا. يُنظر:
Bauer, *ZDPV* (1915), p. 56; Hanauer, *Folklore of the Holy Land*, p. 309.

(124) وبالنسبة إلى لبنان، تُعتبر "أيام الأزمة" ("بواحير") الأيام الاثني عشر بين عيد الصليب، بحسب التقويمين الغربي والشرقي، أي 15-26 أيلول/ سبتمبر بحسب التقويم الغريغوري. فكل يوم يحدد من خلال طقسه شهرًا من السنة المقبلة (**المشرق** (1905)، ص 692).

(125) Ibid., p. 78.

المعرفة الزراعية (Geoponica, II 15) في الأيام الأخيرة قبل 19 تموز/ يوليو، وهو يوم طلوع "الكلب"، أي الشعرى اليمانية. إلا أن على المرء القيام بترطيب البذور قبل ذلك بـ 20 إلى 30 يومًا حتى تنبت بسهولة أكبر. ومن المفترض أن زرادشت أوصى بذلك كله[126].

وبحسب رأي آخر، تُماثل 12 يومًا الأخيرة من "تموز" 12 شهرًا من السنة التالية. ويُفترض بقطع القماش المبسوطة في الخارج ليلًا أن تتنبأ بطبيعة كل شهر[127]. ويُذكِّر اختيار الشهر بأدونيس والزراعات الواردة في سفر إشعيا (10:17)، والتي من غير الممكن أن تكون "ورود أدونيس" في ذلك الوقت من السنة.

وفي اليونان اليوم، ثمة طقس يوم رأس السنة أو عيد التجلي. لكن الأيام الستة أو الاثني عشر الأولى من آب/ أغسطس تبقى حاسمة للسنة[128]. ولذا يُعَد آب/ أغسطس البداية الأولى للشتاء[129]. وهناك حوادث غير متوقعة قد تحدث خلال موكب رأس السنة في 8 أو ربما 11 نِسان (Nisan)، حيث كان يُنظر إليها في بابل ذات يوم كعلامات مهمة، لأنها تتحدد فيها المصائر[130]. وعند اليهود الذين خدمتْ سنتهم الجديدة الحكم الإلهي على مصير البشر أيضًا[131]، كان هناك اعتقاد بأن درجة حرارة هذا اليوم (1 تشري) تحدد درجة حرارة السنة بأكملها، في حين اعتبر آخرون أن طقسًا صافيًا في عيد الخمسين أو العنصرة يبشر بالخير[132].

---

(126) شبيه جدًا ابن العوام، كتاب الفلاحة [الأندلسية] XIV 4. في ما يتعلق بيوم سنة المسلمين الجديدة وزمنها، يُنظر:

PEFQ (1908), pp. 149f., 317ff.

(127) هكذا ابن وحشية وفقًا لِـ:

Clement-Mullet, *Le Livre de l'Agriculture d'Ibn el-Awam*, vol. 1, p. 55, note.

(128) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 9, 74f.

(129) Ibid., pp. 30, 75.

(130) Zimmern, *Das babylon. Neujahrsfest* (1926), pp. 16f.

(131) R. h. S. I 2.

(132) b. Bab. b. 147[a].

إن مراقبة الندى في صوف نعجة باتت في العراء لدى جدعون (سفر القضاة 37:6 وما يلي) ربما تكون ذات صلة مشابهة بتقليد متَّبع في مناسبة أخرى؛ ففي كتاب اليوبيلات (16:12)، يجلس إبراهيم في ليلة هلال الشهر السابع، أي السنة اليهودية الجديدة، لمراقبة النجوم واستشراف كيف ستكون حال المطر في تلك السنة. وهذا الأمر يترك المجال لاستنتاج ما هو بشير أو نذير وذو علاقة بالتنجيم، وكانت ملاحظة ذلك شائعة. وللتكهن بالطقس، استُخدم دخان الشعلة القربانية في اليوم الأخير من عيد العُرُش [عيد المظال] أو بشكل أدق الريح التي تحركه؛ فالرياح الجنوبية والغربية كانت تعني أمطارًا وافرة في موسم المطر المقبل، في حين أن الريح الشمالية والشرقية تعني العكس(133). وحتى لو افتُرض أن التقرير تعوزه الصدقية التاريخية(134)، فإنه شكّل دليلًا على أن مراقبة الرياح في بداية موسم المطر كانت ذات شأن مهم. وثمة نذيرٌ آخر ذو صلة بالتنبؤ بالسنة الجديدة هو رائحة التربة بعد الأمطار الأولى، والتي عرف كبار السن في تسيبورين [صفورية] كيف يفسرونه(135). كذلك يبدو أن ألعاب الحظ (نرد أو ورق)(136) المحبوبة لدى المسيحيين عشية رأس السنة الجديدة أو عيد العُرُش لدى اليهود في دمشق، تشير إلى أن من الجيد أن يبحث المرء عن حظه عشية رأس السنة الجديدة.

إن نحر الذبائح ليس مرتبطًا برأس السنة الإسلامية الهجرية. ولكن "سنة الملكية الجديدة" في 1 آذار/ مارس، حين كان المرء يدفع الضريبة الإجبارية ("زكاة") للفقراء عن القطعان ("شَرَفات")، يستخدمها مسلمو القدس كتضحية سنوية يُفترض بها توفير الحماية الإلهية للعائلة وللماشية في السنة الجديدة. وقد كان ياسين، الذي كنا نستعير منه الخيول، يحتفظ لمثل لهذا اليوم بخروف

---

(133) b. Jom. 21b, Bab. b. 147a (Jizchak bar Abdimi).

(134) أقل صدقية بالتأكيد هي المعجزة، Ab. II 5، هي أن الريح لم تتغلب على أعمدة دخان الشعلة القربانية. يُنظر أيضًا: Ab. d. R. Nathan (Schechter ed.), Rec. I, 35.

(135) j. Taan. 65b.

(136) Bergsträßer, *Zum arab. Dialekt von Damaskus*, vol. 1, p. 69.

مُسمَّن. أما الجزار الذي أُحضر لنحر الخروف، فإنه تمتم، بعد وضع عنق الخروف على عتبة البيت، باسم صاحبه "بسم الله" صارخًا "الله أكبر"، وقام بنحر عنقه ثم غمس كفه في الدم السائل على الأرضية وألصقها بباب البيت بأصابع ممدودة، حيث إن أثر الكفّ المدماة مهم في دفع العين الحاسدة، وكذلك مباركة البيت من خلال إشارة الذبح تلك. كما قام أحدهم بترطيب قطعة قماش بالدم ومسح بها أكتاف الأطفال العارية وجبين الخيول. ويُعتبر الذبح إحياء لِـ"قربان اِبراهيم الخليل"، أي أنه فداء مكرس لإبراهيم لأنه صاحب الفضل في ذلك، والغاية هي كسب شفيع فلسطين ليقف إلى جانب رب البيت المضحي. ويجري توزيع قسم كبير من اللحم على الفقراء إكرامًا لإبراهيم، وتحتفظ العائلة بقسم قليل لاستعمالها الخاص. وفي "عقّور"، في الوادي الذي يمر به القطار من الساحل إلى القدس، يتبع المرء التقاليد ذاتها، ويمنحها طبيعة دينية خاصة من خلال دعوة الـ"خطيب"، أي إمام المسجد ومعلم أبناء القرية، إلى قراءة الـ"مولد"، أي سيرة النبي محمد الأسطورية[137]. وقد اكتفى ياسين بإقامة صلاة استقدم إليها "شيخًا" عليمًا. وبجدية أكبر تعاطى أحدهم مع هذا التقليد في قرية "سوف" في شرق الأردن، حيث ترك المرء النحر يعقبه أحد عشر يومًا من الصوم. وهناك أيضًا غمس المرء كفّه في دم الذبيحة ونقش بها عتبة باب المنزل إشارة إلى أن هذا المنزل محصن ضد سوء الحظ والبلايا، ولحماية أصحابه ومباركتهم، إلا أنهم رفضوا مسح الأطفال به.

وعند البدو، الذي لا يعني لهم 1 آذار/ مارس شيئًا، تمثّل بداية موسم المطر بداية السنة، ولذلك يشعرون بالحاجة إلى القيام بشيء فداء لأحبائهم في كانون الأول/ ديسمبر ("أول كانون"، "اِجرد"). وعلى جبل نبّو، روى لي ابن "شيخ" عشيرة الـ"غنامة" أن المرء عندهم يذبح في هذا الوقت من السنة عنزة ويمسح جبين الأطفال بدمها[138]. وتضحي قبيلة الـ"رشايدة" في صحراء يهودا [جنوب الضفة الغربية] بحيوان حين يهبطون في بداية الشتاء إلى غور

(137) يُنظر بهذا الخصوص:

Kahle, *PJB* (1912), pp. 147, 175.

(138) كذلك في بلدة الكرك، حيث شوهد التقليد ذاته في الوقت نفسه.

الأردن حيث يضربون خيامهم بالقرب من قبر النبي موسى، بحسب التقليد الإسلامي. ومن دم الذبيحة التي تُذبح في المضارب، تُسكب نقطة بين عيون صغار الأطفال وثلاثة خطوط على جانبي سنام الجمل، وكذلك على جميع الأوتاد الثلاثة الوسطى لكل خيمة. وبعد أن يحصل ذلك، يصعد بعض الرجال والنساء في موكب احتفالي يتخلله إطلاق أعيرة نارية تعبيرًا عن السعادة إلى قبر موسى؛ فالذبيحة كانت إكرامًا "لسيدنا موسى". ويقوم المرء بتقبيل هذا القبر ويتضرع قائلًا: "يا سيدنا موسى داخلين عليك من الشر، تكفينا شر ولاد الحرام، خلِّ حلالاتنا وتخلي ولادنا، تركب سعدنا على عدانا وتكفينا شر من قاحدانا، "نتوسل إليك يا سيدنا موسى أن تقينا شر أولاد الحرام وأن تحمي ماشيتنا وأولادنا وأن تجعل قدرنا يتغلب على أعدائنا وأن تقي الشر (جِمالنا) ذات اللون الرمادي الفاتح" (المطلية بالدم)"[139]!

ومن الممكن أن يجري تقديم الأضحية السنوية نفسها في شهر الفصح، إذ يقوم الرعاة بذبح حيوان في أول خميس الفصح ("خميس النبات") كـ"فدية" (كفارة) كي يبقى باقي القطيع سليمًا ("بِتَمُّ طيب"). وإذا صودف وجود الرعاة في البرية، فإنهم حينئذ يقومون بتنقيط الدم ("بِنَقّطُ") على ظهور الشياه والماعز، وتكون اللحوم من نصيبهم. وفي البيت يذبح المرء على العتبة ويجمع الدم في حوض ويمسح باب البيت بالدم بقطعة قماش. أما اللحم، فيوزَّع بالقرب من ضريح أحد الأولياء (البيرة). وفي كفر أبيل [في منطقة إربد]، يحدد المرء أول حمل ذكر وُلدَ في الشتاء كفدية، ويُذبح في الربيع بعد أول زبدة من حليب الشياه الصغيرة إكرامًا لِـ"مار الياس". ويُطلق المرء على الذبح "القرينية"[140]. أما استخدام الدم، فلم يكن مألوفًا هناك.

أما عند السامريين، فإن بداية السنة في الأول من نِسان لا تزال تستدرج معها الذبح في عيد الفصح، حين يقوم المرء بمسح مداخل الخيم وجبين

(139) هكذا جرى توضيح الأمر لي.

(140) للمزيد عن الأبكار كأضحية وعن "القرينية" ووضع علامات حمر على الماشية، يُنظر أدناه. ويُقارن أيضًا:

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 286f.

الأطفال ببعض الدم[141]، ويُطبّق مسح مداخل الخيم وفقًا لما ورد في أحكام سفر الخروج (7:12 و22)، ومسح جبين الأطفال إنما هو تقليد شعبي ليس إلا[142]. ويبدو التشابه مع العادات والتقاليد العربية التي تم وصفها للتو جليًا، ويتضح، في الوقت نفسه أن ربط هذه الطقوس بذكرى فعل إلهي كما هي الحال عند بني إسرائيل، يسمو بها إلى منزلة أعلى. وفي هذا السياق يقتضي سفر الخروج (11:13 وما يلي) التضحية بالمولود الأول [البكر] من الحيوانات التي تستثنى منها الحمير كونها غير ملائمة كأضحية. كما يتبع ذلك تقديم ذبيحة الخطيئة للسنة الجديدة في الربيع لتطهير المعبد (سفر حزقيال 18:45)، في حين أن طقوس كفارة الشهر السابع على صلة ببداية السنة الجديدة في الخريف. وهكذا يجري تقديم القربان في الأول من هذا الشهر (سفر حزقيال 45:20؛ الأعداد 29:5)، وبشكل خاص طقوس الكفارة في العاشر من الشهر ذاته (اللاويين 29:16 وما يلي؛ 27:23 وما يلي؛ العدد 7:29 وما يلي)، بما في ذلك ذبح الديك[143] ذي الأصل البابلي اليهودي. لكن في القدس، فإن هذا التقليد صار في أيامنا مدعاة لأن يدعى عند اليهود "عيد الدجاج"، فاحتفالات السنة البابلية الجديدة امتلكت بدورها طقسًا من التكفير لتطهير المعبد[144].

إلى هنا تنتمي أيضًا صلاة الـ"تَشليخ" [عادة لدى بني إسرائيل تقضي بالذهاب في اليوم الأول من رأس السنة العبرية إلى ضفة نهر أو ساحل بحر أو إلى بئر ماء لأداء الصلاة وتلاوة الآيات الثلاث الأخيرة من سفر ميخا: "وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم". وهذه العادة ترمز إلى التطهر من الذنوب]

(141) تُنظر تقاريري في:
PJB (1912), p. 124.

(142) يذبح السامريون ديكًا أيضًا عشية عيد الغفران، وهُم يسمونه كفارة ("كافر")، ثم يأكلونه.

(143) يُنظر:
Dalman, *Jesaja* (2nd ed.), pp. 32ff.
حيث يتم الحديث عن الانتشار الواسع لهذا التقليد في:
Scheftelowitz, *Das stellvertretende Hahnopfer* (1914), pp. 47ff.;
جرى تجاهله كليًا في:
Elbogen, *Der jüdische Gottesdienst in seiner geschichtl. Entwicklung* (1913).

(144) يُنظر:
Zimmern, *Das babylonische Neujahrsfest*, pp. 7ff.

والتي يجب القيام بها بعد ظهر يوم رأس السنة (1 تشري) على الماء[145]. وفي القدس تقام الصلاة على الأحواض، وفي صفد على السطوح التي يُطل المرء منها على بحيرة طبرية[146]. وخلال الصلاة، يقوم المرء بقذف الخبز إلى الماء بغية التطهر[147]. أما أصل هذا التقليد غير المذكور في التلمود، فهو مبهم. ومن الجلي أن من غير الممكن البحث عنه في فلسطين شحيحة المياه كما تدل على ذلك ممارسة التقليد هناك، في حين أن الكبش الذي كان قد أُرسل إلى الصحراء محملًا بذنوب الناس في سفر اللاويين (21:16 وما يلي)، يلائم فلسطين بشكل أفضل. وربما فضَّل المرء افتراض طقس سيلٍ جارٍ مصدرًا للتقليد، وهو الذي رُفع إلى منزلة أخرى، مع صلاته المعتادة (ميخًا 7:18-20). وأغلب الظن أن الأمر يتعلق هنا بطقس التطهر في 5 نيسان/أبريل الذي كان مميزًا لعيد رأس السنة في بابل. وهنا يُقذَف إلى النهر بكبش ذبيحة[148]، بغرض تطهير المعبد. ولكن كما في حال التضحية بكبش التكفير في يوم الغفران في 10 تشري (سفر اللاويين 16)، والذي يعود هو الآخر إلى مطلع سنة جديدة، أمكن الوصل بين نجاسة المعبد وخطايا الناس. وحينئذ يكون الانتقال إلى صلاة التطهير على النهر قابلًا للتفسير.

5. فصول السنة

من البدهي للفلسطيني، وكذلك لليوناني في العصر الحاضر[149]، أن "الصيف" و"الشتاء" ("شتا"، "إِشتا") هما موسما السنة الأساسيان (ص 6). "ستِ شهور صيف"، "ستِ شهور شِتا" (القُبيبة). ولكن هذا لا يستثني امتداد موسم الشتاء، حين تحتسب تباشير فترة المطر وظواهرها، أحيانًا سبعة

(145) Baer, *Seder Abodath Jisrael* (1868), p. 407.

(146) Luncz, *Jerusalem*, vol. 1, pp. 37f.

(147) Brück, *Rabbinische Ceremonialgebräuche*, p. 25.

(148) Zimmern, *Das babylonische* (1926), pp. 10ff.

(149) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, p. 23;

يُقارن ص 75: "في آذار/ مارس انطلاق، من آب/ أغسطس انطلاق الشتاء".

أشهر[150]. وتقسيم السنة إلى جزأين يفترضه القول الوارد لدى القزويني[151]: "من لم يغلِ دَماغُهُ صايفًا، لم يغلِ قِدرُهُ شاتيًا"، أي "من لم يغلِ دماغه في الصيف (من العمل)، لا تغلي طَنجرته في الشتاء"، والمعنى: لن يكون لديه ما يأكله. تمامًا كما هي حال التقسيم اليهودي للسنة إلى "أيام مطر" ("يِمُوت هجِشاميم") و"أيام الشمس" ("يِمُوت هحَمّا")، حين يتعلق الأمر بمدة الإخطار للمستأجرين في المدن الصغيرة[152]، وبتخمين ثمن الماشية التي سيتم بيعها[153]، وكذلك بطقس الصلاة[154]. ويتعلق الأمر بـِ"أيام الجفاف" ("يِمي جاريد") و"أيام الإخصاب" ("يمي رِبيعا")، حين يمثل هذا الفارق، بالنسبة إلى فلاحة الحقل، أهمية عملية[155] بحيث يتم التفكير بوقت الفلاحة قبل المطر الأول وبعده، أي بالخريف، وليس بكلا قسمي السنة الكبيرين[156]. وفي بابل، اعتاد المرء أن يقول إن الصيف ("قيطا") يتميز من خلال رداء رقيق ("سِدينا") والشتاء ("سِتوا") من خلال معطف سميك ("سَربالا")[157].

وفي العهد القديم، قد تكون "هَجِشاميم" في سفر عزرا (9:10) قد عنت في ذلك الوقت من السنة 20 من الشهر التاسع (كانون الأول/ ديسمبر) حين لا يُنصح بالمكوث في العراء. إلا أن الأمارات الحقيقية على الصيف والشتاء هي "قَيص" و"حورِف" (التكوين 22:8؛ إرميا 22:36؛ عاموس 15:3؛ زكريا

(150) يُنظر أعلاه، ص 28.

(151) Kazwini, *Kosmographie*, p. 86.

(152) Bab. mez. VIII 8; Tos. Bab. mez. V 9.

(153) j. Bab. mez. 10^b.

(154) b. Taan. 6^b.

(155) Bab. mez. V 10; Tos. Bab. mez. VI 15.

(156) هكذا:
Klein, *ZDPV* (1914), pp. 223, 230;
إلا أن استخدام "رِبيعا" التي لا تشمل مطر الشتاء، و"يمي" بدلًا من "يِموت" يناقض ذلك. مستثنى بشكل كليّ ربط "ربيعا" بري الحقول من ماء العيون (هكذا: Krauß, *Talm. Archäologie*, vol. 2, p. 532) والذي يحدث في وقت الجفاف بالتحديد.

(157) b. Men. 41^a.

8:14؛ المزامير 17:74). كذلك في سفر إينوخ (3:2)، حيث لا بد للمرء أن يفترض أن هذه هي الكلمات العبرية الأصلية؛ فأصل كلمة "حورِف" غير معروف، ولكن من المؤكد أن العبريّ هنا لم يفكر بالخريف ولا بموسم القطاف. فكتب الترجوم والمسيحية الفلسطينية تترجمه إلى "سِتوا" (يقارن نشيد الأنشاد 11:2 "سِتاو"). وفي سفر إشعيا (6:18) يتم عرض قضاء الشتاء ("حارَف") إلى جانب قضاء الصيف ("قاص") بطريقة تبدو معها السنة بأكملها مليئة، وبذلك تستثنى فكرة الخريف. وهنا أيضًا يذكر الترجوم "سِتوا" و"قَيطا"، ويستخدم سعديا فعل "شَتا"، "يقضي الشتاء" و"صافَ"، "يقضي الصيف". وفي الأمثال (4:20) تعني "حورِف" وقت البذر طيلة الشتاء في مقابل موسم حصاد الصيف[158]، على الرغم من أن سعديا يعتقد، كما في سفر التكوين (22:8)، أن على المرء أن يفهمها كخريف ("خريف")، ربما لعلاقتها بالكلمة العربية ذات الصلة. وكوصف لأفضل وقت في حياة الإنسان، لا تصلح كلمة خريف في مخاطبة الإحساس الفلسطيني، حيث يتم استخدام كلمة "حورِف" في سفر أيوب (4:29)، في حين أن موسم الزرع وأول النبات النامي، أي الشتاء، هو الأكثر ملاءمة لذلك. إن القيام بترجمة "حورِف" إلى "خريف" (هكذا جزينيوس - بوهل Gesenius-Buhl) أو حتى إلى "وقت الحصاد"، (جزينيوس - براون Gesenius-Brown)، غير مبررة منذ أن أطلق العبرانيون على الفواكه اسم "قَيص" (على سبيل المثال عاموس 1:8)، والموسم الرئيس لقطف العنب والتين والرمان ينتهي قبل الخريف الذي يجري فيه قطف الزيتون فحسب. وحتى وقت متأخر لم تمتلك العبرية تعبيرًا أصيلًا لكلمتي"خريف" و"ربيع"، إلى أن تم دفع "حورِف" و"أبيب" إلى الخدمة من أجل ذلك[159]. وليس هناك من نظائر يهودية للكلمات السريانية "تِشرياتا" و"تَدا" ("تادا")، إذ إنهما مقصورتان على لغة الفقهاء.

تخضع بداية الانتقال من الفصل الجاف إلى الفصل الماطر في فلسطين لتقلبات غير قليلة. ومع ذلك، يتحدث التقليد الشعبي عن شطرين متساويين

(158) الحصاد والصيف هما الشيء نفسه في الأمثال 1:26.

(159) "آبيب". بالنسبة إلى المعنى المذكور لـ "حورِف"، يُقارن:
Schulbaum, *Deutsch- hebr. Wörterbuch.*

للسنة (يُنظر أعلاه)، تبدأ بالأشهر "اِجرَد" (تشرين الثاني) كانطلاق للفصل الماطر أو "أيار" أو اِجماد (أيار) كانطلاق للصيف. وهذا ينسجم مع الواقع، إذا كان الوقت الذي ينعدم فيه المطر قصيرًا ولم تُحتسَب الأمطار المبكرة أو المتأخرة. كذلك تحدث اليونانيون والرومان عن تقسيم السنة إلى شطرين متساويين(160)، مع أن الفترة الحقيقية التي تهطل فيها أمطار تستحق الذكر في أثينا وصقلية تبلغ ثمانية أشهر(161). ويشهد كتاب اليوبيلات (27:12) على موسم مطر يمتد ستة أشهر، ويضع المدراش الفلسطيني ستة أشهر للعيش في البيت وستة أشهر غيرها من العيش في الأكواخ(162). وفي التلمود البابلي(163) يحاول القيصر الروماني عبثًا إعداد وجبة طعام على شاطىء البحر طوال ستة أشهر الصيف ("شِتّا يَرحي قَيطا") وستة أشهر الشتاء ("شِتّا يَرحي دِستِوا")، لأن الريح الداخلية في الصيف، والمطر في الشتاء يرميان كل ما تم إعداده إلى البحر. وفي ما يتعلق بالنذور ذات الظرف الزمني، فإن بداية الصيف ("قَيص") تنطلق من الوقت الذي يبدأ فيه المرء بنقل السلال، حيث يجب التفكير بالموسم الرئيس لقطف التين المبكر الذي يصادف في بداية حزيران/ يونيو. أما النهاية، فتُحتسَب انطلاقًا من الوقت الذي تطوى فيه سكاكين التين(164). وحينئذ يصبح واضحًا أن المرء يعني بكلمة "قَيص" موسم التين في المقام الأول. أما موسم المطر، فيُحتسَب عند النذور

(160) Ideler, *Chronologie*, vol. 1, p. 241f.

(161) *ZDPV* (1902), pp. 61f.

ليس هناك في أثينا شهر دونما مطر، ولكن الفترة من حزيران/ يونيو حتى أيلول/ سبتمبر يهطل فيها سُبْعُ المعدل السنوي للمطر الهاطل. يُنظر:

Matthiessen, in: Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, p. 148.

(162) Ber. R. 78 (169[a]),

يُقارن:

b. Meg. 17[a], Pes. Zut.

عن التكوين 33:17.

(163) B. Chull. 60[a].

(164) Ned. VIII 4;

يُقارن:

Goldmann, *La Figue en Palestine*, p. 35.

من وقت السقوط الثاني للمطر حتى نهاية شهر نِسان، أو حتى نهاية عيد الفصح[165].

أما معدل فترة سقوط الأمطار، فقد حسبها هيلدرشايد (Hilderscheid)[166] في القدس بِـ192.2 يومًا، أي 10 أيام فوق نصف السنة، حيث تتفاوت الأيام الحقيقية بين 126 و227 يومًا. ويتحدث إكسنر (Exner)[167] عن معدل 6.5 أشهر من المطر. وقد حُسبت أيام الإمطار في القدس بِـ204 أيام، أي ما يراوح بين 156 و245 يومًا. أما حيفا الواقعة على الساحل، فقد حُدد لها 214 يومًا، وطبرية في الداخل 193 يومًا فقط، في حين كانت حصة بيروت الواقعة تحت جبل لبنان 230 يومًا. وهذا كله يعني أن ليس هناك أي تغيير في فترة هطل المطر منذ الأزمنة القديمة. ولكن يجب الأخذ في الحسبان أن الحساب الصحيح رياضيًا يعكس الواقع بشكل تام في حال كان فصل المطر منتظمًا. وفي فصل المطر الطويل، يجري، على الأغلب، احتساب أمطار متفرقة لاحقة. ولكن يبقى السؤال قائمًا: هل كان المطر فعلًا وفيرًا أم لا؟ وبناء عليه، إذا أراد المرء اعتبار كمية الأمطار الهاطلة مقياسًا فاصلًا، فلا يؤخذ في الاعتبار حينئذ أن درجة الحرارة والريح تشكلان عاملين مهمين أيضًا. أما القطرات الساقطة في بداية الصيف ونهايته على أرض جافة وساخنة في ظل هواء ساخن، فهي بلا تأثير تقريبًا؛ إذ إنها لا تتغلغل في التربة وتتبخر بسرعة. إن مليمترًا من المطر في أيار/ مايو وأيلول/ سبتمبر ليس هو نفسه في تشرين الثاني/ نوفمبر حتى آذار/ مارس. وفي الأوقات الأكثر برودة، يبقى تأثير الريح الشمالية وطبيعة الفواصل الزمنية التي تفصل أوقات سقوط المطر، على درجة كبيرة من الأهمية. وإذا اعتبر المرء أشهر الجفاف هي التي يقل فيها سقوط المطر عن 20 ملم، فيجري حينذاك تحديد فصل الشتاء في القدس من تشرين الثاني/ نوفمبر حتى نيسان/ أبريل، وفي الساحل، حيث يبدأ المطر مبكرًا، من تشرين الأول/ أكتوبر حتى نيسان/ أبريل، علمًا أن في الإمكان طرح نصف شهر من البداية والنهاية.

---

(165) Ned. VIII 5.

(166) *ZDPV* (1902), pp. 61ff.

(167) كما ورد في:

ZDPV (1910), pp. 126, 133.

ونتيجة للتأثير المكثف لجبل لبنان، تحظى بيروت بكميات أمطار أكبر تستمر أحيانًا من حزيران/ يونيو حتى آب/ أغسطس. ومع ذلك، يتحدث كوستليفي (Kostlivy) عن سبعة أشهر جافة وخمسة أشهر رطبة تميز مناخ بيروت[168]، في حين يحتسب إكسنر[169] معدل فصل الشتاء في بيروت بـ 230 يومًا، أي 7 أشهر ونصف شهر. وقد يكون من الصحيح تحديد خمسة أَشهر شتاء وسبعة أشهر صيفًا بحسب معرفة الفلسطيني في المنطقة الجبلية الداخلية في منطقة يهودا.

يعتبر غياب الثريا وطلوعها عند البدو حاسمًا لتغير كلا الفصلين الكبيرين: "يوم بِتغيب الثريا بصير اِشتَ، يوم تِطلع بِصير شوب"، أي: "يوم تغيب الثريا تبدأ فترة المطر، ويوم تطلع يبدأ الحر" (إلجي). أو كما يقول المثل: "الثريا بتغيب عسِدّ حابس وتطلع علَ غِمر يابس"، أي: "تغيب الثريا فوق وادٍ غير سالك (أي تحوّل قاعه إلى جدول) وتطلع فوق حِزم حبوب جافة" (إلجي). وتعني الأمثلة العربية الواردة لدى القزويني[170]، من حيث الجوهر، الشيء نفسه: "طلع النجم عشا - ابتغَ الراعي كَسا"، أي: "إذا طلع النجم[171] متأخرًا (وغاب مبكرًا)، يرغب الراعي في كسوة" أو: "طلع النجم غُديّة، ابتغَ الراعي شُكيّة"، أي: "إذا طلع النجم مبكرًا، أراد الراعي قربة ماء". وتتميز فترات الثريا بالبرد والحر؛ فرؤيتها في الليل تتسبب بالشتاء وبالتالي بالمطر، وهي تتساوق مع التصور اليهودي عن أن العالم بسبب برودة الثريا ("كيما") لم يكن ليقوم لو لم تكن هناك حرارة الشعرى اليمانية ("كِسيل")[172].

(168) Kostlivy, *Untersuchungen über die klimatischen Verhältnisse von Beirut*, p. 91.

(169) Ibid., p. 133.

(170) Kazwini, *Kosmographie*, p. 43.

(171) "نجم" أو "نجمة" يتكرر الآن استخدامها للثريا.

(172) b. Ber. 58^{b}.

ذلك أن "كيما" تظهر في:

Ber. R. 10 (19^{b}), Ber. R. 10 (72^{b}),

كمنضجة للفواكه، ويعود ذلك إلى التأثير الذي تمارسه الثريا في بداية الصيف، والذي سنتطرق إليه في مكان آخر. وبالنسبة إلى "كِيما"، ينصرف ذهن راشي إلى ذنب الحمل الذي تشكله الثريا وفق القزويني (المرجع السابق، ص 43) الثريا. وبحسب

= Ber. R. 10,

ويعتبر هيسيود (Hesiod)[173]، مثل يونانيين ورومانيين آخرين، الغياب المبكر للثريا (في 3 تشرين الثاني/نوفمبر) علامة على بداية فلاحة الأرض ونهاية الإبحار. والظهور المبكر (في 19 أيار/ مايو) علامة على بداية الحصاد[174]. وعند أراتوس (Aratus)[175]، تشكّل الثريا علامة على بداية الصيف وبداية الشتاء. كما يذكر يوسيفوس أن عند غياب الثريا قريبًا من موعد عيد العُرُش (أي في تشرين الثاني/نوفمبر)، كانت زخة مطر قد وضعت حدًا للنقص في المياه[176]. وحتى يومنا هذا، تمثل الثريا لشعب الماساي في أفريقيا بداية فترة المطر الرئيسة المسماة على اسمهم[177].

أما تاريخ طلوع الثريا (يقارن ص 14)، فيحدده القزويني في 13 أيار/ مايو وغيابها في 13 تشرين الثاني/نوفمبر. في حين يذكر علم الفلك العربي، الذي نشره غلاديس ديكسون (Gladys Dickson)، 20 أيار/ مايو و17 تشرين الثاني/ نوفمبر للطلوع المبكر والغياب المبكر[178] على التوالي. والتقليد اليوناني القديم (Geoponica، الفصل الأول) يتحدث عن 10 حزيران/ يونيو و2 تشرين الثاني/ نوفمبر.

وكحد بين فصلي السنة، لدى الفلسطينيين المعاصرين، يمكن ذكر الأعياد أيضًا[179]؛ ففي كفر أبيل، يقول المرء: "عيِّد واطلع، صَلِّب واعبر"، أي: "احتفل بعيد الفصح واخرج (مع القطعان لقضاء الليل في الخارج)، واحتفل بعيد

= لا تظهر "كيما" و"عقرب" السماء في الوقت نفسه، وذلك يتساوق مع حقيقة أن "الإكليل" (العقرب) يطلع في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، في حين تغيب الثريا (Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 48).

(173) Hesiod, pp. 619ff.

(174) Ideler, *Chronologie*, vol. 1, p. 241 f.; vol. 2, p. 143; Ilberg, in: Roscher, *Lexikon d. gru. u. r. Myth.*, تحت كلمة: Pleiades.
يُنظر أيضًا أدناه B I, 9.

(175) Aratus, *Phainomena*, 266ff.

(176) Antt. XIII 8, 2.

(177) Merker, *Die Masai*, p. 198.

(178) *PEFQ* (1908), p. 254.

(179) يُنظر أعلاه، ص 8.

الصليب (14 أيلول/ سبتمبر) وادخل (للمبيت في البيت)!". أما نهاية الصيف، فتُدفع إلى الخلف أكثر حين يقول المرء: "في عيد التجلي، الشتا بقول للصيف ولِّي" أي: "في عيد التجلي (6 آب) يقول الشتاء للصيف: انصرف" (رام الله). وهنا يقصد المرء الوقت الذي تبدأ فيه حرارة الصيف بالتناقص المتدرج، في حين يُفترض في عيد الصليب تساوي الليل والنهار [الاعتدال الخريفي] (في 18 أيلول/ سبتمبر)[180]، وهو بلا ريب يضع حدًا للصيف، لأن عيد مار جرجس في 23 نيسان/ أبريل يُعتبر حدًا بين الشتاء والصيف، وهو ما يورده كنعان[181]. وحياله يقف عيد قديس اللد [مار جرجس] في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر الذي يمكن عندئذ اعتباره الحد الآخر[182].

كان لليهود في عيد الفصح وعيد العُرُش (في 15 نِسان و15 تشري) حدود حتى أكثر دقة لفصلي السنة اللذين يقسمانها إلى نصفين متساويين. وقد حرس رصفة ذات مرة جثث نسل شاؤول الذين صُلبوا منذ بداية حصاد الشعير حتى أول المطر (صموئيل الثاني 21:10)، شريطة عدم تعرضها خلال هذا الوقت على البيدر المفتوح للمطر. ويحسب المدراش هذا الوقت من نهاية اليوم الأول للفصح حتى اليوم الأخير من عيد العُرُش[183]. وهنا يُفترض أن حصاد الشعير يبدأ مع عيد الفصح لأن حزمة شعير تُقَدَّم في اليوم الثاني للعيد[184]، وأن المطر يسقط في اليوم الأخير من عيد العُرُش لأن المرء يبدأ في هذا اليوم، بحسب الحاخام يهوشواع، في إقامة صلاة الإمطار [صلاة الاستسقاء][185]. وفي ذلك يتطابق من حيث الجوهر مع حساب الوقت من 16 نِسان حتى 17 مرحشوان [الشهر الثاني في السنة المدنية العبرية التي تبدأ في تشري][186]،

---

(180) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 79.

(181) *JPOS*, vol. 3, p. 32.

(182) يُنظر المزيد بشأن ذلك أدناه.

(183) Midr. Schemuel 28:6; Bem. R. 8 (41^b).

(184) اللاويين 23:10 وما يلي، يُقارن:

Siphra, Emor 12 (100^d), b. Men. 65^b.

(185) Taan. I 1.

(186) Midr. Schemuel 28:6.

والتي ترمي إلى تحديد الفترة بالضبط بين عيد الفصح وعيد العُرُش بسبعة أشهر يُفترض أنها استغرقتها. وفي الوقت الذي يعني هذا الصيف، فإن فصل الشتاء الذي لا يجوز خلاله إخطار أحد في مدن البلاد بفسخ عقد الإيجار، ويُحتسب من عيد العُرُش حتى الفصح(187). والنذور، التي عليها أن تبقى سارية المفعول حتى نهاية المطر، ينقضي أجلها مع الفصح أو في نهاية شهر نِسان(188). ومع ذلك، تتساوق حقيقة أن صلاة الاستسقاء تنتهي في أحد هذين الموعدين(189)، وأن بني إسرائيل، وفقًا للمدراش عن نشيد الأنشاد (2:7)(190) يختتمون عملهم من حصاد ودرس وتذرية مع عيد العُرُش، في حين أن الله ينتهي من عمله في ما يتعلق بالنباتات وثمار الحقل مع عيد الفصح. كما يبدو أن هناك علاقة بين بداية المطر وعيد العُرُش في المزامير (7:84) أيضًا، حين يغمر المطر المبكر طريق حجاج العيد بالبركات.

ربما يوضع حد مختلف بين الصيف والشتاء في عيد الخريف في 15 من الشهر الثامن (تشرين الثاني/ نوفمبر)، وهو الذي اخترعه يربعام كما يُزعم. ويعتقد ر. كيتل (R. Kittel) (في ما يتعلق بسفر الملوك الأول 32:12) أن مناسبة ذلك كانت وقت الحصاد المتأخر في المنطقة المقابلة للقدس والواقعة أكثر إلى الجنوب. لكن، ليس ثمة فارق في وقت الحصاد أو نضوج الفاكهة بين القدس والسامرة، فما بالك بين القدس وبيت إيل التي كان يجب ذكرها هنا. بل يمكن اعتبار السامرة في الواقع، ومقارنة بمنطقة يهودا العليا، أكثر دفئًا، وبالتالي يبدأ في وقت أبكر. إن أخذ نهاية الصيف في الحسبان، والتي يتم تحديدها على نحو مختلف، وكذلك الرغبة في اشتمالها على بداية قطف الزيتون، ربما كان ذلك حاسمًا في تحديد الموعد. ولكن يوم غياب الثريا أيضًا (يُنظر أدناه، مطر الخريف) وبداية موسم الأمطار المرتبط به، هو الذي حدد موعد العيد.

(187) Bab. mez. VIII 6.

(188) Ned. VIII 5.

(189) Taan. I 2.

(190) Schir R. 7 (68a);

يُقارن:

Pesikt. 195a.

لا يتوافر في مثل هذا اليوم تصور واضح لدى سكان الريف في فلسطين عن التأثير الحاسم لموقع الشمس المتغير في الأرض، فضلًا عن توافر فكرة لديهم عن قيامها بتحديد مناخ الدول الشمالية؛ ففصول السنة تأتي من ذاتها، أو كما ترد في سفري التكوين (22:8) والمزامير (17:74)، في أعقاب ترتيب إلهي، ثم يتم ربطها بالنجوم، خصوصًا الشمس والقمر. وكثير من الناس لا يزال يتخيل الأرض ("الِوطا") لوحًا تحيط به السماء كما البطيخة. والنجوم منتشرة في جانب قشرتها الداخلية، والشمس والقمر يتبعان مسارهما هناك. ولم يكن هذا الأمر مختلفًا في الأزمنة القديمة. كما أن قصة الخلق في الكتاب المقدس تفترض مثل هذا التصور حين تُكلّفُ في سفر التكوين (14:1) أضواء السماء أن تكون رموزًا للأوقات[191] والأيام والسنوات. وحتى سفر سيراخ (1:43 وما يلي) وأخنوخ (72-78) وكتاب اليوبيلات (8:2 وما يلي) وسفر رؤيا باروخ النبي (6-9) لا تذهب أبعد من ذلك. إلا أن هناك رأيًا للمعلم الفلسطيني ناثان القادم من بابل والقائل إن الشمس في الصيف تتحرك عاليًا في السماء، ولذلك يدفأ العالم، في حين تبقى الينابيع باردة. إلا أنها تتحرك في الشتاء في شريط السماء الأسفل بتأثير معاكس[192]. ووفقًا للفلسطيني يوحنان، يتحقق الشيء نفسه، لأن مكان الشمس في الصيف يقع في الأعلى خلف قبة السماء، وفي الشتاء أسفلها[193]، وربما جرى تخيل قبة السماء كرةً تحيط بالأرض. أما الرأي القائل بأن للشمس وجهين، أحدهما ناري في الصيف والآخر بارد في الشتاء، وكلاهما يعتدل بفضل تأثير الوجه الآخر المختلف، فليس أكثر عقلانية[194]. ويَعرِف القزويني ما هو أفضل حين يشدد على أن الشمس تميل في كل سنة، مرة نحو الجنوب ومرة نحو الشمال[195]. ولكنه حين يتعاطى مع فصول السنة[196]،

(191) من دون "يو" قبل "لِموعَديم".

(192) b. Pes. 94b.

(193) Ber. R. 6 (12b),

يُقارن:

Bacher, *Agada der Tannaiten*, vol. 2, p. 221.

(194) Pirke R. Eliezer 6.

(195) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 24, 52, 85.

(196) Ibid. pp. 85ff.

لا يخرج باستنتاج محدد، على الرغم من أنه يعرف حق المعرفة أطوال النهار والليل المتغيرة والمهمة بالنسبة إلى فصول السنة.

وليس خافيًا على أحدٍ اليوم أن نهار الصيف أطول من نهار الشتاء، لأن الشمس تشرق في وقت مبكر وتغيب في وقت متأخر. وعن "اِذار" يقول المرء: "بتوازَن الليل والنهار"، أي: "يتساوى الليل والنهار" (القُبيبة)، ويعرف المرء بالتالي تساوي النهار والليل في آذار/ مارس، وبالطبع في أيلول/ سبتمبر الذي يُحدِّده القزويني في 18 من هذين الشهرين[197]. إلا أن موقع فلسطين على الكرة الأرضية يحمل معه اختلافًا بين طول النهار وطول الليل أقل مما هو عليه في بلادنا [في ألمانيا]. فحين نحدد أطول نهارٍ بـ16 ساعة و45 دقيقة وأقصره بـ7 ساعات و34 دقيقة، أي بأقل من النصف، فهذا ما يُناظر في القدس 14 ساعة و14 دقيقة للأطول، و9 ساعات و55 دقيقة للأقصر، أي يبلغ الأقصر أكثر من ثلثي اليوم الأطول. وهذا طبقًا للمعطيات التي قدمها لي السيد دينسمور (J. E. Dinsmore) في القدس. وقد حدد برافر (Brawer) 14 ساعة و10 دقائق لمعدل طول النهار في حزيران/ يونيو، وفي كانون الأول/ ديسمبر 10 ساعات و8 دقائق[198]. وفي سفر أخنوخ (26 و72:14)، يُمنح النهار الأطول والليل الأطول 12 جزءًا من 18 جزءًا من اليوم الفلكي، أي 16 ساعة، الأمر الذي يشير إلى الأصل الشمالي للجزء الفلكي لسفر أخنوخ. والقزويني على صلة وثيقة بفلسطين حين يفترض للنهار الأطول من طلوع الـ"فجر" وحتى مغيب الشمس 15 ساعة في 17 حزيران/ يونيو، وللأقصر 9 ساعات في 17 كانون الأول/ ديسمبر[199].

ويورد دليل **فلسطين الرسمي** (*Handbook of Palestine*) (1922) الذي نشره لوك (Luke) وكيث – روخ (Keith-Roch) في ص 129 الأوقات التالية لشروق الشمس وغروبها:

---

(197) Ibid. pp. 77, 79.

(198) *The photochemical Climate of Palestine* (1927),

طبعة خاصة من هرفوآ، ص 322.

(199) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 64.

	شروق	غروب
1 كانون الثاني/ يناير	6:50	4:38
1 شباط/ فبراير	6:31	4:57
1 آذار/ مارس	6:03	5:25
1 نيسان/ أبريل	5:28	6:00
1 أيار/ مايو	4:58	6:30
1 حزيران/ يونيو	4:35	6:53
1 تموز/ يوليو	4:32[200]	6:46
1 آب/ أغسطس	4:49	6:39
1 أيلول/ سبتمبر	5:18	6:10
1 تشرين الأول/ أكتوبر	5:51	5:37
1 تشرين الثاني/ نوفمبر	6:24	5:04
1 كانون الأول/ ديسمبر	6:46	4:42

لذلك، يفترض أن يكون أطول نهار 14 ساعة و18 دقيقة، وأقصره 9 ساعات و56 دقيقة. لكن لم يطرح السؤال هل كانت هذه هي الأوقات الفلكية، أم رُصدت فعلًا، وعلى أي مكان يفترض بها أن تنطبق بالضبط؟ إلا أن ما هو حري بالملاحظة أن فترة الفجر في فلسطين أقصر مما هي عندنا، الأمر الذي يعني أن طول النهار يتحدد بشكل أكبر من خلال شروق الشمس وغروبها أكثر مما اعتدنا عليه. ولمزيد من التفصيلات، يُنظر "أوقات اليوم" في ما يلي.

من أجل الحكم على تأثير ضوء الشمس، فإن تَكوُّن الغيوم والرطوبة والزاوية التي تصيب بها أشعة الشمس الأرض يبقى على درجة من الأهمية إلى جانب مدته. وفي ضوء جميع هذه الأمور، تفرض ظروف فلسطين تأثيرًا أكبر كثيرًا للشمس مما هو في ألمانيا. ويذكر برافر الحد الأقصى والحد الأدنى لارتفاع الشمس في وقت الظهيرة فوق القدس ما مقداره 81° 40.5 و34 46.5′،

(200) خاطئ بالتأكيد. إقرأ 42 بدلًا من 32.

ولوارسو، التي تناظر برلين تقريبًا، 13.9َ 61ْ و19.9َ 14ْ، وكقوة الحرارة المشعة على الأرض، بالنسبة إلى القدس حد أعلى مقداره 0.76، وحد أدنى مقداره 0.37، والتي تُناظر في خط عرض وارسو 0.66 و0.095[201]. وبناء عليه، يمكن تحديد متى تتنقل الشمس التي يُنظر إليها كبطل، والتي تتخذ في العبرية صيغة المذكر، في السماء، بحيث لا يبقى هناك من شيء لا تصله حرارتها (المزامير 19:7).

عوضًا عن جزأَي السنة الرئيسين، يعرف الفلسطيني تقسيمًا آخر لها. ويعتبر مهمًا له بشكل خاص النصف الثاني من الفصل الماطر كـ"الربيع"، أي وقت النمو المفعم بالنشاط للنباتات فوق غلاف الحقول، وبالتالي وفرة علف الحيوانات اللبونة المدرة للحليب. والبهجة التي يبعثها هذا الربيع هي بشكل خاص من نصيب صاحب القطيع، لكنها بهجة تغمر كل فرد واعدة إياه بوفرة الحليب واللبن والزبدة. كما أن مشهد الأرض التي اخضرت بعد فترة طويلة من القحط يبدو للجميع كما لو أنها معجزة فاتنة. أما القول المأثور الذي سبق ذكره في ص 10، والذي يضع القمر في منزلة النمو الجديد ("ربيع")، فهو شاهد على ذلك، وهو بالكامل جزء من الوطن. ولهذا يقول المرء[202]: "اِرعَ من ربيع اِبلادك ولو اِنه قيحوان"، أي: "لترعَ من ربيع بلادك حتى لو كان أقحوانًا". ولذلك، ربما لم يكن من المحال كليًا التمييز بين ثلاثة فصول، كما فعل هومر (Homer)، شتاء وربيع وصيف[203]. إلا أن الفصل الرابع، أي الخريف ("خريف")، لا بد من فصله عن الصيف، وهو أمر ليس مجهولًا. لكن، في حين لا يصعب على الناس ذكر أشهر "شباط" و"اِذار" و"نيسان" كأشهر الربيع، إلا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم في ما يتعلق بفترة الخريف. فتقلّب الطقس يمنحها بداية مختلفة في كل سنة قد تتفاوت بما يصل إلى نصف شهر على

(201) Ibid. p. 321.

(202) يستخدم،

Baumann, *ZDPV* (1916), p. 161,

"البوصير" بدلًا من "الأقحوان". وإلى جانب ذلك يستخدم الأطفال الأقحوان (*Anthemis Cotula*) ليس كوسيط حب، بل للإجابة عن السؤال الشائن: "اِمك حرة ولا قحبة؟".

(203) Ideler, *Chronologie*, vol. 1, p. 243.

الأقل. إلا أن الخريف ينتمي بالطبع إلى الأشهر "اِيلول" و"تِشرين أول" و"تِشرين ثانِي"، ذلك الوقت الذي يستعد فيه عالمُ الأشجار للبيات الشتوي، في حين ينتهي وقت البيات الصيفي للنباتات الخفيضة. ويموضع التقويم البدوي أشهر "صفر" الثلاثة عند فترة الزمن الأصفر، مفترضًا أنْ ليس هناك من نمو أخضر يمكن مشاهدته في هذا الوقت. إلا أن المرء يدرك أن هذه الفترة تتسبب بالضرر لصحة الناس من خلال الإصابة بالمرض جراء رياحها الشرقية والانتقال إلى فصل السنة البارد (القُبيبة). كما أن التقليد اليهودي مدرك لذلك عندما يقوم بإرجاع حماية الرب للرأس في يوم النزال "("نِشِق") في المزامير (8:140) إلى الوقت الذي "يلامس فيه الصيف الشتاء" ("نوشيق" [يُقَبِّل])[204]. وفي "اِلجِي" يحتسب المرء شهري الـ"اِجرد" والـ"أربعانية"[205] من وقت الشتاء ("شِتِ")، والأشهر "شباط" و"أذار" و"خميس" من وقت الربيع ("ربيع") التي أضيف إليها كفترات خاصة الأشهر الثلاثة "قيظ": "صيف" وأشهر الـ"صَفريات"[206] الثلاثة، والتي عُرفت كأوقات ذات صلة.

يَعرِف القزويني "فصول" السنة الأربعة: "الربيع" و"الصيف" و"الخريف" و"الشتاء" التي يصف طبيعتها بشكل جلي، كتقسيم ثابت ودقيق للسنة إلى أربعة فصول، أي تقسيم مستقل عن الطقس يحدده الاعتدالان الربيعي والخريفي وانقلاب الشمس الصيفي والشتائي[207]. وهذا التقسيم يبدأ في 18 "أذار" و18 "حزيران"، و18 "اِيلول" و19 "كانون". وهذه الطريقة راسخة، من ناحية تقويمية، في وعي العرب المثقفين[208].

حظي التصور اليهودي في كتاب اليوبيلات (32:6 وما يلي) بأربعة فصول، يتألف كل منها من 13 أسبوعًا، فتقسم السنة التي تبدأ بشهر الفصح

---

(204) j. Jeb. 14d.

(205) يُنظر B II, 1.

(206) يُنظر فهرس الأشهر، ص 21.

(207) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 52, 85f.

(208) يُنظر:

Harfouch, *Drogman Arabe*, p. 69.

("نِسان") إلى أربعة أقسام. وبداياتها في [أوائل] الأشهر 1، 4، 7، 10 التي يجب أن تُحيا بشكل احتفالي. ويتضمن الفصل 72 من سفر أخنوخ التقسيم نفسه فأورد الأجزاء الأربعة لمسار الشمس بدقة أكبر في 82:11-20 كونها متصلة بسلطة "قادة" محددين الذين هم أفلاك تدور في مدارات ثابتة تحت رعاية ملاك أوكله الله (82:7-10). والنظام الإلهي حاسم في ذلك، وهو تفسير طبيعي لن تنجح أي محاولة أخرى للقيام به. وقد جرى لاحقًا تحديد الفصول الأربعة وفقًا لنقاط التحول الأربع في المسار الشمسي ("تِقوفوت" [فترات]) وتسميتها بحسب الأشهر التي تنتمي إليها: تقوفوت تشري وتيبيث نِسان وتموز[209]. ولأن الفصول تناظر هذه الأجزاء من مسار الشمس، يمكن تحديد اتجاهات السماء من خلال رصد مكان طلوع الشمس وغيابها في بداية تقوفتا تموز وتيبث[210]. وتبدو الخرافة التي تقول إن على المرء في بداية التِقُوفَا ألّا يشرب ماءً من نهر لأن قطرة دم ربما سقطت من السماء وسممته[211]، من أصل غربي[212]. فتِقُفَات تشري تُقدم موسم البذر، وتِقُفَات تيبيث تقدم وقت البرد التي تشكل العقوبة فيها سوء حظ[213] والتي سمح فيها للتلاميذ الطلب من يسوع عدم الهرب في هذا الوقت (متّى 24:20)، وتِقُفَات نِسان تقدم موسم الحصاد، وتقفات تموز تقدم موسم الحر الذي يستطيع المعاقَب خلاله النوم في الطرقات وفي الأماكن العامة من دون ضرر، وأن يجد في كل مكان عنبًا على الكرمة وتينًا على أشجار التين[214]. إن أقسام السنة الأربعة هذه تُذكر في

---

(209) Pirke R. Eliezer VI, VIII.

لا يتضمن سفر حكمة سليمان (18:7) أي إشارة في هذا الاتجاه.

(210) j. Erub 22c,

يُقارن:

b. Erub 56a, Tos Erub. VI 3.

(211) Schulchan Aruch, *Jore Dea*, 116, 5.

(212) بحسب الغاؤون (هاي) بن شريرا، يُنظر:

Brück, *Rab. Ceremonialgebräuche*, p. 43.

(213) Ech. R. I,

عن 1 و14 (33ب).

(214) Ibid.

برِكِ [فصول] الحاخام أليعازر، فصل 8، حيث تجد في الفصل 6 قائمة بالنجوم "نوجَا" (الزهرة)، و"شَبِّتاي" (زحل)، و"تَعلُمّا" و"نَعمون" كنقاط انطلاق الشمس. ووفقًا لذلك، قدم الترجوم اليروشليمي معنًى جديدًا لسفر التكوين (22:8) "بذور وحصاد" في تقوفات تشري ونِسان، و"برد وحر" في تقوفات تيبث وتموز، ثم "صيف وشتاء" دونما تعريف فصلي. وبالطريقة نفسها يقال إن التقوفا تأتي في موعدها. وفي مكان آخر، وبشكل شعبي، تُذكر الشمس كونها تجول في نِسان وإيّار وسِوان في الجبال لإذابة الثلج، وفي تموز وآب وإيلول في المناطق المسكونة كي تُنضج الثمار، وفي تشري ومرحشوان وكِسلو فوق البحار كي تجفف السيول والأنهار، وفي تيبت وشيبت وأدار في الصحراء كي لا تجفف زرع (الأماكن المسكونة)[215]. وبالتلميح مداورة إلى أسماء الأرض الأربعة بالعبرية، قال شمعون بن غملائيل[216]، إن التقوفا الأولى تعد ثمار الأرض ("مِريصا"، يقارن "اِيرِص")، والثانية تتبل الثمار (ثمار الأشجار) ("متبّيلت"، يقارن "تيبيل")، والثالثة تحول التربة إلى كتل ترابية ("بولين شِل - أداما"، يقارن "أداما")[217]، والرابعة تنظف الثمار على الأرض ("موريقِت"، يقارن "أرقا"). وهذا كله ليس بعيدًا عن طريقة التفكير الطبيعية. ولكنه ليس إلا تصنعًا أكاديميًا حين يتم احتساب ستة فصول من سفر التكوين (22:8): فترتين كل منهما مؤلف من شهرين للبذر، وللخريف ("حورِف")، وللبرد، وللحصاد، ولحمل الثمار ("قَيص") وللحر، ويفترض أن تتعاقب الفترتان بحيث يمكن احتساب بداية مطلع تشري أو وسطه أو نهايته[218]. وليس هناك شبيه بذلك في فلسطين اليوم إذا امتنع المرء عن العودة إلى سلسلة الأعمال الريفية، وهو شديد الالتباس في ما لو وقع وقت البرد ("قور") في أشهر الربيع، وهو ما يعارض الطبيعة. ولا يُظهر العهد القديم أي آثار لتقسيم رباعي أو سداسي للسنة.

---

(215) b. Pes. 94b.

(216) Ber. 13 (28b).

(217) بحسب Klein, *ZDPV* (1914), p. 225, من خلال المطر.

(218) Tos. Taan. I, 7, Ber. R. 34 (69b), b. Bab. mez. 106b.

وإلى منطقة اليونان ينتمي تقسيم غالينوس[219] للسنة إلى سبعة أقسام: ربيع (*ηρ*)، من اعتدال الربيع (26 آذار/ مارس) إلى ظهور الثريا (29 أيار/ مايو)، صيف (*ϑερος*)، من ذلك التوقيت حتى ظهور الشعرى اليمانية (28 تموز/ يوليو)، فصل الثمار (*οπωρα*) حتى ظهور السماك الرامح (21 أيلول/ سبتمبر)، فصل ما بعد حمل الثمار (*φϑινοπωρον*)[220] حتى غياب الثريا (5 تشرين الثاني/ نوفمبر)، فصل البذر (*σπορητος*) حتى الانقلاب الشتوي (26 كانون الأول/ ديسمبر)، الشتاء (*χειμων*) حتى الظهور المتأخر للسماك الرامح (27 شباط/ فبراير)، فصل الزرع (*φυταλια*). ومن حيث المبدأ، يتعلق الأمر هنا بتقويم اقتصادي. أما تقسيم أبقراط[221] القائم على المنحى الصحي، فهو أقرب إلى الواقع المناخي: شتاء من 14 تشرين الثاني/ نوفمبر إلى 28 آذار/ مارس، ربيع من ذلك الوقت إلى 14 أيار/ مايو، صيف حتى 14 أيلول/ سبتمبر، خريف حتى 14 تشرين الثاني/ نوفمبر. ويشكل غياب الثريا وظهورها (14 تشرين الثاني/ نوفمبر، 14 أيار/ مايو)، وظهور السماك الرامح (14 أيلول/ سبتمبر) والاعتدال الربيعي ترسيمًا للحدود بينها، أي إن ذلك يعني أن فترة الشتاء والصيف هي أربعة أشهر، أي شهران فقط لكلٍّ من الربيع والخريف. وقد يكون ذلك التقسيم للسنة مقبولًا جدًا في فلسطين؛ فهو يشدد على كون الربيع والخريف يشكلان معبرًا قصيرًا بين فصلي السنة الرئيسين: الصيف والشتاء.

في المقابل يتحدث التقليد اليوناني القديم (Geoponica) في الفصل الأول عن أربعة فصول متساوية في مدتها، وهي ليست على صلة بالنقاط الأربع الرئيسة في مدار الشمس؛ فالربيع هنا يمتد من 7 شباط/ فبراير حتى 7 أيار/ مايو، والصيف من 8 أيار/ مايو حتى 7 آب/ أغسطس، والخريف من 8 آب/ أغسطس

---

(219) *Comm. I in Hippocr. liber I Epidemiorum*, Kühn ed., XVII, pp. 17f.;

يُقارن:

Ideler, *Chronologie*, vol. 1, pp. 250ff.

الذي حدد حدود "الشتاء" بحسب التواريخ وبشكل أدق من غالينوس.

(220) في رسالة يهوذا على افتراض أنها المكان الوحيد المذكور في العهد الجديد لفصل يتعدى الصيف والشتاء.

(221) *De diaeta* 68.

حتى 9 تشرين الثاني/ نوفمبر، والشتاء من 10 تشرين الثاني/ نوفمبر حتى 6 شباط/ فبراير. ويجري بعد ذلك مباشرةً التلميح من خلال ظهور الثريا وغيابها في 10 حزيران/ يونيو و2 تشرين الثاني/ نوفمبر على التوالي إلى تقسيم السنة إلى جزأين، ولكن يتم التوضيح في الوقت نفسه أن التقسيم إلى أربعة أجزاء ليس له صلة بذلك.

وكتذكير بغالينوس، يُذكر في الختام تقسيم للسنة إلى سبع فترات غير محددة بالنجوم وإنما بتقويم الأعياد المسيحية، وكل منها مؤلف من خمسين يومًا ("خمسينات") يوردها كنعان على أساس أنها معروفة في جميع أنحاء جنوب فلسطين[222]. ووفقًا لذلك، يمكن وضع القائمة التالية: 1. من عيد اللد (3 تشرين الثاني/ نوفمبر) حتى عيد الميلاد (25 كانون الأول/ ديسمبر)، 52 يومًا؛ 2. حتى الصوم الكبير (حوالى 14 شباط/ فبراير)[223]، 51 يومًا؛ 3. من ذلك التاريخ حتى عيد الفصح (حوالى 11 نيسان/ أبريل)، 56 يومًا؛ 4. حتى عيد العنصرة (حوالى 29 أيار/ مايو)، 48 يومًا؛ 5. حتى عيد مار إلياس (20 تموز/ يوليو)، 52 يومًا؛ 6. حتى عيد الصليب (14 أيلول/ سبتمبر)، 56 يومًا؛ 7. حتى عيد اللد (3 تشرين الثاني/ نوفمبر)، 50 يومًا. ومن ناحية زراعية، يتم تحديد الـ"خمسينية" الأولى فترة للبذر، والرابعة والخامسة فترتَي حصاد البقليات والنبات الحبوبي [كالحنطة والشعير والذرة]، والسادسة فترة الـ"منطرة"، أي السكن في العرائش في كروم التين والعنب، والسابعة فترة الـ"معصرة"، أي قطف الزيتون وعصره. وربما أدت ملاحظة تتعلق ببعض الفترات التي حددتها الأعياد المسيحية للعمل الريفي وتبلغ نحو خمسين يومًا، إلى احتسابها على مدار السنة، والتي يمكن بسهولة تقسيمها إلى سبع فترات، تتألف كل منها من اثنين وخمسين يومًا.

---

(222) *ZDPV* (1913), p. 272;

يُقارن:

Stephan, *JPOS*, vol. 2, pp. 164f.

(223) أذكر الأعياد المنوطة بالفصح وفقًا للتقويم الإغريقي كما ورد عند القزويني. وبالطبع تبقى الانحرافات هنا واردة. ففي سنة 1912 صادف موعد بداية الصوم في 5 شباط/ فبراير، والفصح اليوناني في 25 آذار/ مارس والعنصرة في 13 أيار/ مايو.

بناء على ما تقدم، ربما يكون من المستساغ لنا تقسيم السنة إلى الفصلين الأساسيين: الصيف والشتاء، لو لم تكن هناك حاجة لتوجيه انتباه خاص إلى أوقات الانتقال بينهما. إلا أننا بهذه الطريقة نعود مرة أخرى إلى الفصول الأربعة. ولكن يجب التشديد مسبقًا على أن الربيع والخريف قُصد بهما مجرد الانتقال إلى الصيف والشتاء، الأمر الذي يترتب عليه عدم الفصل الحاد بين الفترات الأربع نحو الأمام ونحو الخلف. وهنا أحسب، كما فعل ابن العوام[224]، الخريف من أيلول/ سبتمبر حتى تشرين الثاني/ نوفمبر، والشتاء من كانون الأول/ ديسمبر حتى شباط/ فبراير، والربيع من آذار/ مارس حتى أيار/ مايو، والصيف من حزيران/ يونيو حتى آب/ أغسطس، وأطلب المسامحة مسبقًا، نتيجة التماسك الداخلي والمرونة القائمة بين حدود كل موضوع وموضع، على تكرار ما يستوجب حصوله بين الحين والآخر من إحالات إلى الأمام وإلى الخلف.

---

(224) *Kitab al-Felaha*, XXX 8.

كتاب: ابن العوام، **الفلاحة الأندلسية**، يُقارن أعلاه بداية السنة في 1 أيلول/ سبتمبر، ص 24.

ثانيًا: دورة فصول السنة

1. الخريف

أ. عالم النباتات الخفيضة [القصيرة] البائدة

يصف القزويني [مشهد] الخريف ("خريف") بالجمل التالية التي تنطبق على فلسطين كلها أيضًا[1]: "تصبح النباتات ذابلة، تتغير [ألوان] الأشجار وتتساقط أوراقها. يصبح الماء باردًا وتهب الرياح الشمالية، يتغير الطقس. يتناقص الماء، وتصبح السيول ضعيفة وتنضب الينابيع. تجف أصناف النباتات، تنتهي الثمار ويحفظ الناس الحَبّ والثمر". إلا أن التصور السائد فيعبّر عنه إكسنر[2] بتعبير مبالَغ فيه: "تجف في الصيف خلال فترة الجفاف الطويلة تربة (فلسطين) إلى درجة أن كل نمو للنباتات يتوقف". ويوجد في فلسطين كثير من النباتات التي تأقلمت مع التأثير القوي للضوء والحرارة من خلال الاستشعار ووسائل أخرى، لكن واقع الأمر هو عدم استكمال رطوبة التربة التي تم تخزينها بواسطة الندى خلال موسم المطر بشكل كافٍ؛ رطوبة لا تلبث أن تتراجع. هنا يموت في نهاية المطاف حتى عالم النباتات الصيفي الذي هو إلى حد كبير حولي [يعيش عامًا واحدًا أو موسمًا واحدًا]، وهو جاف إلى حد كبير، ويغطي شوك قصير أرض السلسلة الجبلية مع فروع القرطم الرقيقة (Carthamus glaucus) (بالعربية "قوص") وشجيرات القنطريون الخشنة (Centaurea pallescens) (بالعربية

---

(1) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 86.

(2) *ZDPV* (1910), p. 127.

"مُرّير"، "دُردار")، والتي يذكرنا اسمها بالزعرور والشوك (بالعبرية "قوص" و"دَردَر") كما في سفر التكوين (18:3). وتحيط بالطرق أصناف شوك هالكة أكثر طولًا قد تصل إلى ارتفاع رجُل. ويحتفظ الشوك الكروي ذو اللون الأزرق الرائع في الجبال (Echinops viscosus، بالعربية "خُمرة") بأزهار متناثرة، في حين تختفي أرضي شوكي السهول (Cynara syriaca، بالعربية "خُرفيش الحمير")، وهي الملكة بين نباتات الخرفيش بتاجها البنفسجي - الأرجواني. ويقول المثل عن الخرفيش وعن عائلته[3]: "حكيك زي الخرفيش"، أي إنه بلا معنى. ومع ذلك، تقف نبتة الخرفيش منتصبة حتى في موتها من دون أن تنهار، مثل ملكة حقيقية. وبشكل أكثر تواضعًا، تغطي المرقئة الشوكية (Poterium spinosum، بالعربية "نِتش"، "بلّان") على نحو واسع المناطق الصخرية في منتصف أيلول/ سبتمبر. وبأوراقها السُمر الصغيرة تسيطر على المشهد الطبيعي الجبلي، تمامًا كما تفعل نبتة الخلنج عندنا، إلا أنها ذات طبيعة مختلفة كليًا. وكما لو كانت غير قابلة للفناء، لا تزال نبتة شبرق أفعى الماء (Ononis Natrix)، بالعربية "بَسوا"، ذات الأوراق المشعرة تُبرز أزهارًا صفرًا في الحقول الجرداء التي تم حصادها، في حين كانت أختها Ononis antiquorum (بالعربية "شِبرُق") قد أصبحت مجرد شجيرة خفيضة شوكية. وتسمو أكثر ارتفاعًا بأزهار ضاربة إلى الحمرة نبتة البطباط أو عصا الراعي (Polygonum equisetiforme، بالعربية "قُضّاب")، ونبتة الرصاصية الأوروبية (Plumbago europaea، بالعربية "خامشة") ذات الأزهار الأرجوانية اللون، وأنواع مختلفة من رقيب الشمس (Heliotropium Bovei, Heliotropium rotundifolium) ذات الأوراق الفاتحة، وأزهار بيض صغيرة تنتصب كالسنابل. أما الأكثر لفتًا للانتباه، فهي سويقات الشمار البرية الطويلة (Foeniculum officinale، بالعربية "شومر" [شمرة]) التي قد يصل ارتفاعها إلى 2.40 م[4]،

---

(3) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 192;

أنواع متعددة من نباتات الخرفيش يُطلق عليها "حُرفيش". يُنظر فهرس:
Dinsmore & Dalman, nos. 982, 986, 993, 995.

(4) *Heiliges Land* (1916), p. 189;

يُقارن:
PJB (1921), pp. 76, 89

يجب تصحيح كلمة "بزر اليانسون" بِـ "شمار"، يُقارن 1922/ 1923، ص 105.

ولا تزال تحتفظ بأزهارها الصُفر. وتسمي الشريعة اليهودية نبات الشومر "قفنان" ("قُفنين")[5] أو "شُمرا"[6]. ومن ذلك يأتي المثل الآرامي في الجليل[7]: "شُمرا شامَر ماريه، مِن مِتَل لاخ عِم تِبلَيا"، أي: "شمرا، اسمك يعني: تنتظر سيدها. من قارنك بالتوابل؟"، أي على الرغم من رائحتك، لا زلت عبدة. أيها الإسكافي إلزم شغلك!

نباتات متدحرجة

يذكر سفر التكوين (3 :18) النبتة الشوكية (Gundelia Tournefortii، "عكّوب" أو "كعوب" العرب، أو "عَكّابيت" اليهود)، إلى جانب الخرشوف البري (Cynara syriaca، بالعبرية "قِنارَس"، يقارن أعلاه) كنباتات شائكة وأشواك[8]؛ فهي واسعة الانتشار وأخاذة نظرًا إلى أوراقها الواسعة والمنقطة واللافتة، نظرًا إلى أنها تموت من دون أن تذبل، ثم تقف منتصبة مثل شبح. فحتى في مماتها تفرد أوراقها الخالية من النسغ؛ تذبل سويقتها على مستوى التربة والريح يخلعها من الجذور دونما صعوبة. وعاجلًا تذهب الشجيرة بأكملها مع الريح، فتتدحرج عبر الحقول الجرداء بشكل سريع. ومن الممكن جدًا التصور أن الـ"جَلجَل" في سفر إشعيا (13:17) وفي المزامير (83 :14) الذي يقف بشكل مشابه للهشيم والقصل اليابس اللذين يطيران مع الريح، تُشير إلى هذه النبتة الشائكة[9]. وفي واقع الأمر أنها تتدحرج وتتشقلب وحيدة أو متكتلة مع أخرى، شبيهة بالعجل على الأرض. ويستمتع الأطفال بتركها تتطاير في مهب الريح. وفي أوقات أخرى تتقاذفها الزوابع عاليًا في الهواء ثم تتجمع في حفر في شكل أكوام كبيرة

---

(5) Tos. Kil. I 1;

يُقارن:

Dem. I 1.

(6) j. Dem. 21[d].

(7) Ibid.

(8) Ber. R. 20 (43[a]).

(9) في الترجوم تعني كلمة "جَلجِلا" الواردة في المزامير (83 :14) عجلًا، في حين أن كلمة "غُربالَ"، يقصد بها سعديا قشر الحنطة الذي سقط من غربال القمح. وقد ذكرها بوهل ومارتي بشكل خاطئ *Cynara syriaca* كنبتة متدحرجة، وهو ما لا يتلاءم مع السويقة الطويلة.

تُغري البعض بحريق سريع الاشتعال ذي فرقعة عالية (سفر الجامعة 6:7) وحرارة قليلة. وقد وَجدتُ هذه النباتات الشوكية المتدحرجة بشكل وفير في تشرين الثاني/نوفمبر 1906 في سهل مؤاب الواسع المرتفع. وقمت بجمعها لإعداد الشاي. فلا هناك ولا في أي مكان آخر رأيت نوعًا آخر من النباتات الشوكية يمكن وصفه بنبات متدحرج[10].

النبتة الوحيدة الأخرى في فلسطين التي يجب أن تعد من ضمن المتدحرجات هي وردة أريحا (Anastatica hierochuntica)؛ تلك الوردة الغريبة في المنطقة الجبلية، فمكانها الطبيعي هو ضفتا البحر الميت الشرقية والغربية[11]. وهي "كفّ العذرَة"[12] أو "كفيفة" باللهجة البدوية لأنها تنمو هناك حيث لامست العذراء مريم تربة الصحراء بقدميها. ويعرفها أغلب الفلسطينيين سلعةً من القدس، لأنها لا توجد بالقرب من أريحا ولم يشاهدها أحد البتة، وهي تنمو أو تتدحرج. لقد شاهدتُها إلى الشرق من البحر الميت في مرحلتي وجودها، كشجيرة ذات أوراق خضر معتمة وزهور بيض غير واضحة، ومفصولة عن التربة ككرة فاتحة اللون. إنها فروع خشبية صغيرة بلا أوراق بارتفاع 12 سم وقطر يصل حتى 22 سم. وقد انطوت النبتة التي أصبحت يابسة على نفسها بعد أن سقطت الأوراق والبذور التي نُثرت، وتحرر الجذر وتدي الشكل من الأرض. وفي هذا الشكل تصبح الوردة بجذرها ألعوبة للرياح. وإذا وضعها المرء في الماء تتمدد الفروع الصغيرة المنطوية على نفسها، وتفتح قشور حوصلة البزور التي تجلس عليها، كما لو كانت ورودًا حُمرًا. إلا أن "قيامها" هو موت في شكل مختلف، وإذا زُرعت في التربة من

(10) Fonk, *Streifzüge durch die biblische Flora*, pp. 86ff.,

يرفض هو أيضًا الخرشوف البري، ولكنه يقترح، إضافة إلى *Gundelia Tournefortii, Centaurea myriocephala* الخاصة بشرق الأردن، أصناف الـ *Eryngium* والـ *Gypsophila*، التي لم أرَ أيًا منها كنبتة متدحرجة.

(11) يُقارن:

Schick, *PEFQ* (1900), pp. 63ff. (fig.); Killermann, *Blumen des Heil. Landes*, pp. 73, 89, 122, (fig.); Blanckenhorn, *Naturwissenschaftl. Studien*, pp. 122, 136; Dunkel, *Heiliges Land* (1925), p. 149 (fig.).

(12) وليس "كف قدم العذراء" هو التسمية العربية لوردة أريحا. يُقارن:

Cana'an, *JPOS*, vol. 8; Crowfoot & Baldensperger, *From Cedar to Hyssop*, pp. 119ff.

جديد، فإنها لن تنمو مجددًا. أما في ليلة عيد الميلاد، فتعود إلى الإزهار من تلقاء نفسها، كما روى بعض الحُجاج[13]، وهذا بالطبع مجرد خرافة. إلا أن هناك ما يبعث على الدهشة في هذه الوردة، وهو ما يفسر لماذا النساء الحوامل في الصحراء بالقرب من القاهرة يستكشفن سلوك هذه الوردة في الماء، وهل ستكون عملية الولادة سريعة أم بطيئة[14].

ثمة طبيعة مشابهة للطبيعة الخاصة بوردة أريحا (Anastatica) تتمتع بها الوردتان Asteriscus pygmaeus وAsteriscus graveolens الموجودتان بالقرب من أريحا، والتي اعتبرها رحالة القرون الوسطى أنها هي وردة أريحا. وفي وضعها اليابس تحمل النبتة في نهاية سويقتها القصيرة قرصًا محوطًا بأغلفة ورقية متخشبة، ويظهر القرص كزهرة زائفة حينما ينعشها الماء. ولكن لا شيء يجمع بينها وبين وردة أريحا، في حين أن Anastatica المتكورة قد تذكّر بذلك.

ربما كان لودولف فون سوخيم (Ludolph von Suchem) أول من تحدث عن وردة أريحا (حوالى 1336-1341)[15]؛ فهو يروي في تقرير عن الصحراء الممتدة بين مصر وفلسطين: "هذه الصحراء عبرتها مريم العذراء المباركة مع الصبي يسوع حين فرت من هيرودوس. وعلى طول الطريق حيثما عبرت، كانت تنمو الورود اليابسة التي يُطلق المرء عليها في تلك الأماكن وردة أريحا. ويقوم المرء بجمع هذه الورود في صحراء بالدوين (Balduin)[16] وتُقدّم للغرباء

---

(13) Walch, *Calendarium Palaestinae oeconomicus* (1785), p. 48;

مع الإشارة إلى:

Tucher, von Neitzschitz, Korten, Le Bruyn.

(14) هكذا:

Forskal, *Flora Aeg.- Arab.* (1775), p. 117,

نقل أهل مالطا الفكرة إلى زهرة الآلام اليابسة التي يتم وضعها في البيت بغية تسهيل الولادة. يُنظر:

Il g, *Maltesische Schwänke und Märchen*, vol. 1, p. 128.

(15) طبعة لاتينية نشرها ديكس (Deycks) (1851)، ص 69 وما يليها؛ طبعة ألمانية بلهجة سائدة في شمال ألمانيا كوزِيغارتن:

Kosegarten (Greifswald 1861), p. 52.

(16) عن تسمية للصحراء على طريق الساحل نحو مصر، يُقارن:

PJB (1924), p. 52.

لقاء الخبز". يُضاف إلى ذلك أيضًا أن تُقبل النساء العربيات على الاحتفاظ بهذه الورود، ويشربن قبل الولادة ماء كان قد سُكب عليها (يُنظر أعلاه). وفي غضون ذلك، لم يبرهن رانغه[17] على وجود Anastatica أو Asteriscus طوال ذلك الطريق الساحلي، على الرغم من أن الأولى توجد في صحراء سيناء[18]. ومن المحتمل جدًا أن يكون المرء قد أتى بوردة أريحا (Anastatica) إلى الطريق الساحلي لبيعها من الحُجاج. والاسم بالتأكيد على صلة بورود أريحا المذكورة في سفر سيراخ (14:24)، والتي قد تشير إلى الدفلى، ولكنها شكلت السبب وراء إطلاق هذا الاسم على هذه النباتات الغريبة في أريحا، خصوصًا أن ذلك الاسم هو من ألقاب مريم الواردة في الابتهال الذي يُنشد في مكان الحج في لورتو [قرية إيطالية صغيرة]. ولقب مريم هو الوردة السرية (Rosa mystica)، ولعل ذلك كان الدافع وراء قيام الحُجاج بالسؤال عن الوردة، إذ يُوائم اسمها السلوك الغريب لهذه النبتة. وقد وجدها رجال راشدون مثل فابري في سنة 1483 في حدائق أريحا، وأغلب الظن أنها أزهار الدفلى. ولأسباب غير معروفة، جرى إطلاق اسم "كف مريم" على شجرة Vitex agnus castus في مكان قريب من الإسكندرية[19]، مع أن Asteriscus pygmaeus الموجودة في مصر يُطلق عليها "نُقد"[20].

لكن النباتات المذكورة أعلاه ليست مهمة كنباتات "متدحرجة"، والتي لا تنتمي Asteriscus إليها، بل هي أمثلة جيدة لنباتات امتازت بها فلسطين، إذ تموت في الصيف لكنها لا تتحلل بل تتيبس وتتخشب؛ ففي حقل بالقرب من القدس، زهت آذان الدب (ربما Verbascum sinaiticum، بالعربية "عَمَية")، بأوراق وصل طولها إلى 55 سم، وسويقة بلغ ارتفاعها 1.65 م، وقطر بلغ بفروعها الجانبية 1.20 م. وبالقرب من "الطابغة" [على بحيرة طبرية] جرى قياس

(17) Range, *Die Flora der Sinaiwüste* (1921).

(18) Kaiser, *Die Sinaiwüste* (1922), p. 69; Johan Tucher (1479), *Reyssbuch des heyl. Lands* (1584), p. 364a;

وفقًا لموزل:

Musil, *Arabia Petraea*, II, p. 256,

تنمو وردة أريحا في جنوب وادي عربة.

(19) Schweinfurth, *Arab. Pflanzennamen*, p. 67 (after Forskal).

(20) Ibid.

نباتات شوكية بلغ ارتفاعها 2.60 م[21]. وفي جرش شرق الأردنية، شاهدت في 18 نيسان/ أبريل 1925 السويقة اليابسة لنبة الشويكية السنارية (Scolymus) بطول 2.10 م، وآذان الدب بارتفاع 2.45 م وبعرض 4 سم للسويقة المتخشبة. وقد صمدت أمام عواصف الريح وزخات مطر الشتاء، وربما كان في إمكانها أن تمر بصيف ثانٍ لو لم يجرِ اقتلاعها واستخدامها مكانس، كما رُويَ لي عن آذان الدب.

ب. أشجار وحقول وأحواض في بداية الخريف

من بين الأشجار التي لا تمارس بَياتًا صيفيًا كأغلب النباتات الخفيضة في فلسطين، تنتصب واحدة تستبدل أوراقها، وتبقى جميعها تقريبًا مكتسية بحلتها كاملة. ومن بين الأشجار المثمرة شجرة اللوز (Prunus Amygdalus، بالعربية "لوز")، بقشرة ثمرتها المفتوحة التي تشير إلى أنها أتمت عملها لهذه السنة، ولو كانت على الساحل لكانت قد وقفت هناك جرداء بلا ورق. وتترك أشجار التين (Ficus carica، بالعربية "تين") أوراقها الكبيرة تتدلى، حيث تبدأ حوافها بالانقلاب إلى اللونين البني أو الأسود، وتغري ثمارها الخضر والزرق بقطفها. ولكن الظل الكثيف في صيف شديد الحرارة الذي توفره غصون الشجر التي تتدلى أحيانًا حتى الأرض، والتي توارى تحتها نثائيل (يوحنا 1:48)[22] والذي لا يزال المرء في فلسطين حتى اليوم يتغنى به[23]: "تحت التينة تباوسنا"، أي: "تحت شجرة التين تبادلنا القبل"، يصبح الآن مليئًا بالثغرات. وتتخذ الشجرة مظهرًا مضطربًا وغير وديّ. وفي أي حال، لا يحب العربي النوم تحت شجرة التين لاعتقاده أنها "مسكونة بالجن" ("عقّور")، وهو ما اعتقده المرء في الزمن التلمودي[24]. ومع ذلك، تُعتبر في سفر التكوين (3:7) شجرة من أشجار الجنة،

---

(21) *Heil. Land* (1916), p. 189.

(22) تُنظر مقالتي:
"Under the figtree," *Expos. Times* (1921), pp. 252f.; Dalman, *Orte und Wege Jesu*[3], p. 97.

(23) Stephan, *Modern Palestinian Parallels to the Song of Songs*, p. 50.

(24) b. Pes. 111[b],
وفقًا لمسودة ميونخ، فإن ظل شجرة التين، وكذلك أشجار النخيل والزعرور البري والكبر وشوك المسيح والحور الفراتي التي تقف منفردة هي مساكن العفاريت، وهي بالتالي خطرة.

لأن آدم ارتكب معصية بتناوله ثمرة شجرة التين، ثم وجد لاحقًا أن هذه الشجرة كانت مستعدة لمنح ورقها لتغطية عورته[25]، أو، كمخبأ لآدم وحواء، وهو ما تصلح له هذه الشجرة كثيرًا. فكان من البدهي أن يستخدما أوراقها لتغطية نفسيهما[26]. كما تُعتبر شجرة الخروب (Ceratonia siliqua، بالعربية "خَرّوب") على غرارها مسكونة بالجن، وبالتالي فهي ليست ملائمة للنوم[27] على الرغم من أن أوراقها الداكنة المتألقة محنية ودائمة الاخضرار، وتمنح ظلًا كثيفًا بشكل واضح. ولم يقبل عبد الولي حتى امتلاك عصًا من خشبها، لأنها قد تأتي بسوء الحظ، مطلِقًا على هذه الشجرة التي تزين محيطه، إضافة إلى الطَّرفاء الرقيقة في غور الأردن، عبارة "مكروه". أما حفيف أوراق الأخيرة، فيتم تفسيره كأصوات غامضة ("ألَّهَلَّه") تأتي من عفريت، وهو ما يُشكل سببًا كي لا ينام المرء في ظلها ولا في ظل شجرة الجميز[28]. أما ثمار شجرة الخروب التي يُفترض، وفقًا لاسمها [الألماني] Johannisbrotbaum، أن يكون يوحنا المعمدان قد استمتع بها، فتُذكِّر بالابن الضال، بحسب إنجيل لوقا (16:15) الذي كان مولعًا بالخروب (بالمسيحية الفلسطينية "خارّوبيّا")، على الرغم من أنه ربما فضّل فطيرة تين عليها[29]. فحلاوة الخروب الضعيفة، وقد عُرفت قيمته كعلف للخيول مؤخرًا فحسب[30]، يعرف قدرها الأطفال وحدهم. ويقول الكبار عن إنسان عديم

---

(25) Ber. R. 15 (33ᵃ), b. Sanh. 70ᵇ;

يُقارن:

Koh. R. 5 (95ᵃ), Pes. Rabb. 42 (175ᵃ).

(26) Pirke R. Eliezer 20.

(27) هكذا أيضًا بحسب

Baldensperger, *PEFQ* (1893), pp. 203ff.; Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 17.

(28) Baldensperger, *PEFQ* (1893),

وهو يُسمّي الطَّرفاء "كيتل"، ويقصد على ما يبدو "أثل" المستخدمة في: Tamarix articulata.

(29) Siphre Nu. 89 (24ᵇ);

يُقارن:

Dalman, *Jesus-Jeschau*, pp. 208f.; *Aram. Dialektproben* 2, p. 38; Billerbeck, *Kommentar zum N. T.*, vol. 2, p. 214.

(30) كعلف للحيوان، لوقا 16:15،

Sabb. XXIV 2.

الجدوى بشكل كليّ[31]: "زي قرن الخروب ما بينعضّ ولا بينمضغ"، أي: "مثل قرن الخروب لا يمكن عضه ولا مضغه". ويَدَّعي شانينا (Chanina) العثور في فلسطين على جذوع لم يكن في استطاعته تطويقها بحزامه وحزام ولده وحزام حماره. وحين كَسر أحد قرونها كانت يده قد امتلأت بالدبس. ومنذ ذلك الحين قيل إن العالم قد تغير[32]، لأن الخروب كما عرفه العالم كان من طبيعة أخرى، فهو الشيء الوحيد الثمين في هذا الوصف.

وفي ما يبدو، لا تقف أشجار الزيتون (Olea europaea، بالعربية "زيتون") غير قابلة للتغيير وغير متباعدة ومنفردة كما هي حال شجرة الخروب، بل في مجموعات كبيرة. وكونها دائمة الخضرة، يمكنها أن تكون صورة للشخص الورع الذي يحميه الرب (المزامير 52:10). وتقدم شجرة الزيتون المكسوة على نحو أنيق بأوراقها وثمارها منظرًا سارًّا يستخدمه سيراخ (50:10) كصورة لرجل رائع؛ فحقول الزيتون التي تشير دائمًا إلى أن على مقربة من تلك الحقول تقع قرية أو دير، تبدو عن بُعد داكنة في خضم مشهد طبيعي متألق. وعن قرب يُلاحظ المرء كثرة الأوراق الصغيرة المتيبسة والمنحنية نتيجة حرارة الشمس، والأوراق البيض تكون في السطح السفلي والأوراق الخضر غير اللامعة في السطح العلوي، وثمر الزيتون الذي لا يزال أخضر، يتحول لاحقًا إلى أزرق. وفي بداية أيلول/ سبتمبر يكون قد وصل طول الحبة إلى 2 سم، أي إلى حجمه الكامل تقريبًا. وفي هذا الوقت يتشكل الزيت في داخله. وعن ذلك يقول المثل الشعبي: "لِن هَلّ اِيلون – طاح الزيت في الزيتون "، أي: "في أيلول ينزل الزيت في الزيتون" (عبد الولي)، أو: "في اِيلون بدور الزيت في الزيتون"، أي: "في أيلول يدور الزيت في الزيتون" (رام الله). ويحب المرء ظلال أشجار الزيتون ويجلس بلا هاجس على الأرض الجافة تحتها حيث تهب النسائم دائمًا وتتخلل الأغصان دونما عائق. وعوضًا عن ذلك، فإن أشجار الزيتون تخلو كليًا من الرائحة الغريبة لشجرة التين. ومن هنا كان للعرب أسبابهم لإطلاق مَثَلِهم[33]:

---

(31) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 198.

(32) j. Pea 20ᵃ, Sot. 17ᵇ, Bem. R. 9 (55ᵃ), Midr. Schem. 13, 7 (43ᵃf).

(33) T. Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 296.

"في الصيف فَيّ الشجر ولا فَيّ الحجر، في الشتا فَيّ الحجر ولا فَيّ الشجر"، أي: "في الصيف ظلال الأشجار أفضل من ظلال الحجارة، وفي الشتاء ظلال الحجارة أفضل من ظلال الأشجار"، ويعني ظل الحجر هنا الحماية التي يوفرها البيت في الشتاء كملاذ ليس من الشمس وحدها، بل من المطر والعواصف. وفي أي حال، يتمتع ظل الشجرة في الصيف بميزة هي أن المرء يستمتع بالهواء الطلق في ظلها الذي يلطّف شدة الحرارة. بيد أن فلسطين هي في واقع الأمر بلد يفتقر نسبيًا إلى الأشجار، وغالبًا ما يكون المرء في الصيف سعيدًا إذا وجد "ظل صخرة كبيرة في أرضٍ حارةٍ قاحلةٍ" (إشعيا 32:2). فالراحة دونما ظل في لهيب الشمس طوال وقتَ الظهيرة عذاب (إشعيا 16:3). وقد حصل أني وَمن رافقني كان علينا أن نكتفي بما هو موجود حين يكون ظل الصخرة محدودًا، وأن نتحرك معه، إذا ابتعد قليلًا. ويستطيع المرء السير راكبًا أو ماشيًا تحت حرارة الشمس، ولكن لا يستطيع الراحة. فشعاع الشمس الذي يصيب خد النائم يمكن أن يحرقه. وكل فلسطيني يعرف أن الظل ليس راحة أو رفاهية فحسب، بل حماية من قوة شريرة، ولذلك يجد استخدامه كاستعارة للحماية الإلهية أمرًا طبيعيًا جدًا (إشعيا 4:25، 2:49، 16:51؛ المزامير 8:17، 8:36، 1:91)؛ ذلك أن الظل يحمي اليد اليمنى أيضًا (المزامير 5:121)، وحري به أن يعني أن العناية الإلهية توجه الإنسان الفاعل. فحين تقارن البنت في نشيد الأنشاد (3:2) حبيبها بشجرة تفاح يُتاق إلى الجلوس في ظلها، فإن الظل والحماية اللذين توفرهما ليسا هما الشيء المهم؛ فشجرة التفاح، وهي ليست شجرة برية، قادرة على توفير ما هو أكثر مما توفره أشجار الغابة المتاخمة لها، لأنها تحمل ثمارًا، ويقدِّر الشرقي الرائحة التي تفوح منها، فضلًا عن طعمها، حق قدرها. وقد خبرتُ في جلسة أنس كيف يتم تمرير التفاح على الحاضرين لشمّه. وفي فلسطين تُعتبر شجرة التفاح (Pyrus malus، بالعربية "تُفاح") التي عدها يوئيل (12:1) من الأشجار المثمرة المهمة في البلد، نادرة الوجود في البساتين. وعبثًا يبحث المرء عن ظل كثيف أسفل شجرة التفاح، بحيث يقول يوسي بن زمرا، وبحق، إنه لهذا السبب يتجنبها عند الظهيرة[34]، على الرغم من أنه يجب

(34) Schir R. 2, 3 (25b), Pesikt. 103b.

اعتبارها شجرة جميلة بين الأشجار الأخرى التي لا تصلح ثمارها للأكل[35]. ولكن في ظل شجرة الإجاص (Pyrus communis، بالعربية "نجاص")[36] التي تنمو بشكل بري في فلسطين، كثيرًا ما تناولت الطعام في القدس في أوقات الظهيرة. وفي أيلول/ سبتمبر، قد تكون أوراقها كلها لا تزال تكسوها وإن يكن لونها قد بدأ يبهت.

تُعَدّ أشجار الرمان أكثر انتشارًا (Punica granatum، بالعربية "رُمّان"). وهي قديمة قِدم الأزل في فلسطين، وتُعَد من أهم منتوجاته (التثنية 8:8؛ يقارن حغاي 19:2)؛ فثمرته الحمراء الداكنة بتُويج زهرها العجيب يبرز بين أوراق تضرب إلى الحمرة. وشجرته التي تبدو أشبه ما يكون بشجيرة خفيضة تقريبًا لا تقدم ظلًا، لافتقارها إلى إكليل واسع، ولذلك لا يمكن استخدامها كما في نشيد الأنشاد (3:2)، على الرغم من أن الشاعر عرف ثمرتها ذات الداخل الرقيق، وعصارتها الحامضة، وحلوة الطعم معًا (نشيد الأنشاد 3:4، 7:6، 2:8). والشاعر العربي كان يجد في ثمرة الرمان، كما تتدلى من الغصن وفي داخله المليء بالأنوية الملساء، ما يصلح للاستخدام كاستعارة للجمال. وبحبيبها تتغنى فتاة قائلة[37]: "خيِّ ماحمَر خدودُ – رُمان علَ إمّو مدلّي – رُمان على عيدانُ – لَحرُث على فِدّانُ"، أي: "أخي، كم هو أحمَر الخد، رمان يتدلى على أمه (الشجرة)، رمان على غصنه (أي لا يزال طازجًا)، أود حرث حقله!" وحين جلس شاؤول تحت شجرة رمان (صموئيل الأول 2:14)، لم يكن ذلك بسبب ظلها، بل لأنها شجرة مقدسة، كما هي حال الطرفاء في بئر السبع وجبعة ويابيش[38]. وإضافة إلى الرمان، يلفت السفرجل (Pyrus Cidonia، بالعربية "سفرجل")، الانتباه، لأن ثماره تضيء الآن بصفرتها اللامعة من بين

---

(35) Midr. zuta 2, 3 (Buber) 25ª.

(36) عن وجوده في زمن ما بعد التوراة تحت اسم "عُجاز". يُنظر:
Löw, *Flora der Juden*, vol. 3, p. 236,
وتستخدم [اللهجة] الفلسطينية العربية "عُجاس" للبرقوق أو الخوخ، ولكن "أُجاص" للإجاص.

(37) Dalman, *Haupt-Festschrift*, p. 383.

(38) التكوين 33:21؛ صموئيل الأول 6:22، 13:31؛ يُقارن أعلاه، ص 58.

أوراق داكنة. واسمها العربي وبالتالي الثمرة ذاتها، "اسبرجل"، يمكن إرجاعها إلى فلسطين اليهودية[39]. وشجرة الزعرور البري الفلسطينية (Crataegus Azarolus، بالعربية "زعرور") هي شجرة أصيلة في هذا البلد، كونها تنمو بشكل بري أيضًا، وربما كانت أقدم من السفرجل. وبحسب ابن ميمون، فهي تناظر "عُزرار" الواردة في Kil. I 4، في حين أن "حَزرار" في المكان نفسه (ابن ميمون "عِزران")، ربما عنت، بحسب الكلمة السريانية، "عِزراتا" (Zizyphus Spina Christi) أو شجرة السدر بثمارها الصالحة للأكل، في حال لم يميز المرء الثمر البري من الثمر المزروع.

وتقدم شجرة الجميز (Ficus Sycomorus، بالعربية "جُمّيز") ظلًا أوفر من أشجار مثمرة أخرى، نظرًا إلى إكليلها الواسع الكثيف. وهي لا تنمو أبدًا بشكل برّي، ولذلك فهي ليست طبيعية محلية في فلسطين؛ فجذوعها القوية وفرت في الماضي خشبًا مهمًا للبناء (الملوك الأول 10:27؛ أخبار الأيام الثاني 1:15، 9:27؛ إشعيا 9:9)[40] ولا تزال تُستخدم لهذه الغاية حتى اليوم. وما هو فريد يتمثل في الحق الخاص لجذع الجميز ("سَدّان")، الذي يستطيع المرء زراعة "الخضروات" عليه (Kil. I 8). وهي لا تباع مع الحقل، في حين أن شجرة جميز غير مقطوعة ("بِتولَت هشقما") (Bab. R. IV 8.9) تباع مع الحقل. وقد يصل عمر الجذع إلى 600 سنة (Pes. Rabb. 1 {4ª})، والطيور تستطيع التعشيش فيه Vaj. R. 22 {58ª}، (Koh. R. 5, 8{94ᵇ})). ويتخيل ابن ميمون (Bab. b. IV 8) جذعًا كانت فروعه قد قُطعت، بحيث نبتت براعم جديدة. ولكن على المرء أن يفترض أن تكرار استخدام الجميز كخشب بناء أدى إلى هذه الجذوع. واجتثاث مثل هذه

---

(39) J. Kil. 27ª, Maas. 48ᵈ.

وهناك يساوي بين الـ "إسبرجل" و"باريش" المشنا، حيث يوافق ابن ميمون على ذلك بشأن: Kil. I 4، على الرغم من ذلك يعتقد

Löw, *Flora*, vol. 3, pp. 240, 246ff.

أن ذلك خطأ؛ إذ إن الاسم القديم للسفرجل هو "حَبّوش". و"باريش" تعني المشملة التي هي غريبة على فلسطين.

(40) هكذا أيضًا:

Tos. Schebi. VII 14, Bab. m. VIII 32, j. Sabb. 10ª, b. Bab. m. 117ᵇ.

الشجرة القوية يجب أن يكون قد نُظر إليه كنوع من المعجزة (لوقا 17:6). ومن السهولة النظر من على أحد غصونها القوية إلى الطريق كما فعل زكا (لوقا 19:4). وتحتاج الشجرة إلى طقس حار، ولذلك تنعدم في المناطق الجبلية. أما في "وادي فارة"، فقد كانت هناك ذات يوم، كما ذُكر لي، شجرة جميز. والتقليد القانوني اليهودي على حق حين يعتبر البلوط ("ميلين") والجميز ("شِكميم") والنخيل ("دِقاليم") أشجارًا تميز المنطقة الجبلية، والـ"شفيلا" (أي المنطقة الهضبية) والساحل، كما يعتبر الجميز مميزًا بشكل حصري للجليل الأسفل. وتشكل يهودا معظم أراضي المنطفة الهضبية من بيت حورون حتى اللد، حيث تجذب النظر في كل يوم الأنواع الكبيرة منه. ويتساوق مع ذلك أن حاخامًا في اللد عاش على تين الجميز ("جَمزوز")، Ech. R. 1, 5 (29b). ويجب إضافة أن السهل الساحلي بالقرب من يافا وغزة حتى خان يونس في الجنوب[41] يُعتبر ثريًا بشكل خاص بالجميز الذي ينمو جنبًا إلى جنب مع أشجار النخيل.

يجري الحديث عن جميزة "وثنية" في إصبع الكرمل[42]، وهي تقع، على الأغلب، قرب البلدة الساحلية شيكمونا [تل السمك بالقرب من حيفا]، والتي سميت، على ما يبدو، نسبة إلى شجرة الجميز، في حين أن الاسم اليوناني Sykaminos يُحولها إلى "شجرة توت". وينمو الجميز اليوم كما في عهد المسيح أيضًا (يُنظر أعلاه) في غور الأردن بالقرب من أريحا، بحيث يستطيع المرء الحديث عن دعائم من الجميز أمكن ذات يوم الحصول عليها من هناك[43]. وقد وُجدت جذوع الجميز بالقرب من سدوم، وهو ما جعل أحدهم يعتقد أن في الامكان استنتاج المعنى من اسم سهول وادي السديم [المرتبط بالبحر الميت][44]. ويشهد سفر الملوك الأول (27:10) وأخبار الأيام الأول (28:27)

---

(41) *PJB* (1924), p. 61.

(42) Tos. Ab. z. VI 8,

يقارن:

PJB (1922/23), p. 19; Dalman, *Orte und Wege Jesu*[8], p. 11.

(43) Tos. Pes. II 22, Zeb. XI 17, Men. XIII 20, b. Pes. 57a.

(44) Ber. R. 42 (86b).

على وجود جذوع الجميز في الأزمنة القديمة في الشفيلا. وقد يكون عاموس قد قام بحز ثمار الجميز الشبيهة بالتين لتسريع نضوجها (عاموس 14:7) حينما كان أحد الرعاة يبحث عن غذاء لماشيته، هذا إذا لم يكن قد امتلك شيئًا خاصًا به هناك، كما يريد التقليد اليهودي[45]. ويفترض سفر المزامير (47:78) بشكل صحيح ارتباط الجميز بمصر الذي انتمى إلى ثقافتها منذ الأزمنة القديمة حتى اليوم.

والجميز، الذي يُطلق المرء عليه تين التوت لأن ثماره من حيث الطعم تُذكِّر بالتوت، له صلة وثيقة نباتيًا بالتوت، لكنه يختلف كثيرًا عن شجرة التوت (Morus nigra وMorus Alba) (بالعربية "توت شامي" و"توت بلدي"، وهو معروف في ألمانيا أيضًا) والتي لا تتغير جراء وجودها في المناطق الجبلية. وقد تكون قد انتقلت إلى البلاد في وقت لاحق، على الرغم من أن الشريعة اليهودية تعرفها كشجرة مثمرة[46]، وسفر المكابيين الأول (34:6) يشير إلى عصارة ثمرتها إلى جانب نبيذها. وهذا يُشير إلى التوت الأسود (Morus nigra) بثماره الحمر التي تحمل الاسم العربي "توت شامي"، كونها آتية من دمشق. أما التوت الأبيض (Morus Alba) بثماره البيض غير المهمة، فيُعتنى به في لبنان، لأن أوراقه تُعتبر طعامًا لدود القز. وفي الحدائق الفلسطينية تُعد شجرة التوت شجرة توفر الظل، لأن أوراقها الكبيرة التي تشبه، جزئيًا، أوراق العنب، تجعلها ملائمة لذلك.

وفي فلسطين اليوم لا يستطيع المرء التنقل ببساطة تحت أشجار النخيل (بالعربية "نَخل"). وبساتين النخيل الوحيدة موجودة على مصب نهر قيشون [نهر المقطَّع] بالقرب من حيفا، وبالقرب من "دير البلح" جنوب غزة، وبالقرب من "العريش" في حوض مصر[47]. أما غابة النخيل بالقرب من أريحا (التثنية 3:34)

---

(45) ترجوم عاموس 14:7 بحسب b. Ned. 38ª.

(46) Maaser. I 2, Tos. Ter. IV 5, Pes. I 10, مع الاسم "توت".

(47) *PJB* (1924), pp. 55, 61.

التي ذكرها يوسيفوس[48]، والمصورة على خريطة مادبا[49] وقام أركولف (Arculf) بزيارتها[50]، فتحتفظ اليوم ببضع أشجار مغروسة وأخرى برية. إلا أن شجيرات جديدة تنمو بعناية يهودية على بحيرة طبرية، تمامًا في المكان الذي مجدّه يوسيفوس[51]، وما زال الحُجاج المسيحيون يتحدثون عنها[52]. وفي بعض المدن والقرى في المناطق الجبلية، يتم غرس أشجار نخيل بشكل متفرق للزينة، على الرغم من أنها لا تحمل ثمارًا. وللمكان تحت شجرة النخيل المنفردة خاصية قدسية؛ إذ أصدرت دبورا حكمًا لحل الخلاف بين راما وبيت إيل (القضاة 4:5). وفي الزمن اليهودي ربما كان السؤال قد طُرح عمّا إذا كان يجب على المرء تجنب ظل الشجرة أشيراه [الإلهة الأم عشتار][53]، لأن الجلوس تحت نخلة وحيدة يجلب خطر العفاريت[54]. إلا أن القامة النبيلة للشجرة بثمارها الحلوة دفعت بناظم المزامير (المزامير 92:13) إلى استخدامها، جنبًا إلى جنب مع الأرز، كاستعارة للرجل العادل الذي باركه الرب.

ومن بين الأشجار البرية، لا يمكن بالطبع اعتبار شجرة العوسج (Lycium europaeum، بالعربية "عُسَج"، "عَسوَج") شجرة ظليلة، لا في الصيف ولا في الخريف، وحتى لو كان شكلها الذي يُشبه الشجيرة مُغطى بأوراق بالغة الصغر سينمو ذات يوم ليصبح أشبه بشجرة. وإنه لمن السخرية المُرّة أن يقوم شجر

---

(48) *Bell. Jud.* IV. 8, 3.

(49) تُظهر الخريطة أيضًا أشجار نخيل بالقرب من صوغر، بحسب Tos. Schebi. VII 15, b. Pes. 53[a], وتبقى التمور على الشجرة فترة طويلة.

(50) Geyer, *Itinera*, p. 263; يُقارن: Dalman, *Orte und Wege Jesu*[3], pp. 103f., 260,

(51) *Bell. Jud.* III 10, 8; يُقارن التثنية، 355 (147ب)، أونكيلوس التكوين 49:21، الترجوم إرميا 1، التثنية 33:23. يُنظر: Dalman, *Orte und Wege Jesu*[3], pp. 131, 133, 143.

(52) Geyer, *Itinera*, p. 113.

(53) Ab. z. III 8.

(54) b. Pes. 111[b].

"الآطاد"[55] (القضاة 9:15) بدعوة الأشجار التي جعلته مَلِكًا عليها للاحتماء بظله. وحتى لو وُجد "الآطاد" على نهر الأردن، حيث نبات الخروع (Ricinus communis بالعربية "خِروَع") الشبيه بالـ"قيقايون"[56] في يونان (6:4) ينمو مثل شجيرة تشبه أوراقُها أوراقَ الكستناء بارتفاع 3-5 أمتار، فلن يفكر المرء بالبحث عن حماية من الشمس في ظلها، على الرغم من أنها منحت يونان ظلًا له صلة بكوخ سبق أن شيّده وفقًا للآية الخامسة. ويتم ذكر الشجرة هناك، لأن من طبيعتها النمو بسرعة والموت بسرعة أيضًا عند أقل جرح تتعرض له، كما ذُكِر لي في "الطابغة". وقد كان معروفًا زيتها كقابل للاحتراق في الأزمنة القديمة. ويتم ذكره في المشنا بصيغة "شيْمِن قيق" الذي لا يجوز حرقه في يوم السبت[57]. وينصح آرنس (Ahrens)[58] بنوع من الخيار بالاستناد إلى حنظل السبعونية (colocynth) الذي لا يمنح أي ظلال، ويفترض أن الشجرة تقوم بتغطية الكوخ، وهو ما ليس صحيحًا.

وتقف أشجار البلوط بحلتها الكاملة من ورق الشجر، أكانت دائمة الخضرة (خاصة Quercus coccifera، بالعربية "سِنديان"، "بلوط"[59]، وهو غير السنديان الأخضر Quercus Ilex)[60]، أم طارحات الأوراق (Quercus aegilops وQuercus lusitanica، "مِلّ"، "مَلّول"، "مَلّول عقَبِ"، "مِعفاص"، "عفّاص"، "فِشّ")[61]، والمميزة بشكل خاص للجليل والشرق. وهذه الأشجار ذات الجذوع والفروع

---

(55) يستخدم سعديا "عوسج" بدلًا من "آطاد" في التكوين 50:10 وما يلي؛ المزامير 58:10. يُنظر أيضًا:
Löw, *Flora*, vol. 3, pp. 361ff.

(56) يُنظر في هذا الشأن:
Keimer, *Die Gartenpflanzen im alten Ägypten*, vol. 1, pp. 70ff., 164ff.

(57) Sabb. II 1,

تفسيرات متباعدة،

j. Sabb. 4[c], b. Sabb. 21[a].

(58) *Zeitschrift f. Semitistik*, vol. 4, no. 2 (1926), p. 256.

(59) يستخدم سعديا في إشعيا 44:14 "بَلّوط" للعبرية "ألون"، سنديان لـِ"أورن"، أي أن الاسم يُستخدم لأنواع مختلفة.

(60) Lundgreen, *Die Benutzung der Pflanzenwelt in der alttest. Religion*, pp. 20ff.,

أُطلقت على شجرة البلوط الفلسطينية.

(61) يُستخدم تفاح بلوط الأخيرة للتلوين، ولحاء الأولى للدباغة. ويشوي المرء ثمار السنديان، فِش، ويتناولها.

العالية التي تنحني أحيانًا حتى تلامس الأرض، والتي غالبًا ما يُحافَظ عليها نتيجة تكريسها على اسم ولي مسلم[62]، عمرها مئات السنين، وهي تُعتبر في فلسطين الغربية المفتقرة إلى الأشجار، الأشجار الوحيدة التي توفر ظلًا أو مكانًا للراحة تحت إكليلها الواسع. وقد عمد الدين الشعبي إلى ضمها مع الأولياء إلى حضن الإسلام الرسمي. وذات يوم كان يتم هنا تمجيد قوى كانت تزعج عقيدة التوحيد لبني إسرائيل. ويُحذّر العهد القديم عشر مرات (الأولى في التثنية 2:12) من العبادة الغريبة "تحت كل شجرة خضراء". وقد يكون هذا قد قيل بشكل ينم عن ثقة كاملة في العقيدة الدينية، ولكنه يصبح ذا معنى في ما لو كانت الأشجار ذات أكاليل شاملة نادرة مكرسة في الأغلب للعبادة "الغريبة". ويحرم المشنا حتى مجرد الجلوس في ظل مثل هذه الشجرة، مسوغًا أحكامًا دقيقة تتعلق بمحيط هذا الظل. وعلاوة على البلوط، يذكر سفر هوشع (13:4) شجرة "اِيلا" التي هي، وفقًا لرأي الوثنيين، شجرة يلائم ظلها الدخول في علاقة مع الألوهة (كنتيجة للظهور، كما في التكوين 6:12 وما يلي، 1:18). ولا يمكن أن تكون "إيلا" إلا البطم (Pistacia palaestina، بالعربية "بُطم")، والتي يصح قول إشعيا (30:1) عنها في أنها تطرح أوراقها. ويترجمها دوم (Duhm) "شجرة"، وكيتل (Kittel) لدى كاوتسيش (Kautzsch) "بلوط"، على الرغم من أن البلوط الذي يطرح أوراقه سنويًا يندر في فلسطين الجنوبية. وفي الترجوم والسريانية ترد "بُطما"، ولدى سعديا "بطمة". وفي أماكن أخرى لا يمكن استثناء قيام النصوص أو الرواة بالخلط بين "ألون" [البلوط] و"اِيلا" [البطم]. ومثل البلوط، يشكل البطم حين يتقدم في العمر أكاليل ضخمة ذات ظلال كثيفة مثل بطم بنات يعقوب في أعلى نهر الأردن، أو البطم بالقرب من خور الهيش إلى الشمال من البتراء[63]. وهو يجذب الانتباه لأنه يطرح ورقه في أيلول/ سبتمبر. وفي سنة 1908 كانت

(62) Kahle, *PJB* (1910), pp. 97ff.; Cana'an, *JPOS*, vol. 4, pp. 30 ff., 69ff.,

غالبًا ما يكون ظهور الوليّ هو السبب.

(63) *ZDPV* (1908), p. 267.

يُنظر أيضًا بطم "شيخ محمد":

PJB (1911), fig. 3.

أشجار البطم بالقرب من القدس قد طَرحتْ جزءًا من أوراقها في نهاية أيلول/ سبتمبر، وفي 18 تشرين الأول/ أكتوبر طرحت بعضها، وفي 29 تشرين الثاني/ نوفمبر طرحت أوراقها كلها. والأشجار المقدسة في شكيم [نابلس] (التكوين 4:35) وعفرا (القضاة 11:6) ربما كانت أشجار بطم. وفي وادي البطم الوارد في سفر صموئيل الأول (2:17)، لا تزال أشجار البطم قائمة[64]. وبالقرب من الخليل في عهد يوسيفوس وبعد ذلك بقرون، هناك شجرة بطم معمرة تدعى شجرة إبراهيم[65]. كذلك لا يُفتقر اليوم في فلسطين إلى أشجار بطم مقدسة، إضافة إلى تلك التي تم ذكرها آنفًا في أعالي نهر الأردن[66]. وبالكاد هناك نوع من الشجر لم يجرِ تكريسه وقفًا أو مكانًا لوليّ[67].

ليس من الواضح تمامًا ماذا يقصد هوشع (13:4) بلفظة "لِبنِة" العبرية، إذ هو قدّمها كشجرة بين البلوط والبطم؛ فكلمة "لِبنة" العربية قد تذكّر باللبنى (Styrax officinalis، بالعربية "عبهر" أيضًا)[68]، حيث إن الرائحة العطرة لأزهارها البيض تغري المرء بالراحة في ظلها الضئيل، لأن العبهر ينمو في كل مكان في المناطق الجبلية الفلسطينية، ويشكل مع البلوط والبطم غابات، وهو ما يجعله مقبولًا أكثر من الحور (Populus alba، بالعربية "حور") الذي يلفظه السرياني "حورا"[69]. والصنف المحلي في فلسطين موجود بالقرب من بانياس، وعادة ما يظهر كشجرة لا تنمو في قمم الجبال بل في المناطق الرطبة. وعلى تناقض غريب مع العبهر ذي الرائحة العطرة، يقف الأركوض (Anagyris foetida، بالعربية "عِطّيس") ذو الرائحة الكريهة بأزهاره الصفر، والذي أعرفه من الساحل

---

(64) *PJB* (1908), p. 11; (1909), p. 13.

(65) *Bell. Jud.* IV 9, 7; Eusebius, Onom. (Klostermann ed.), p. 6, Z. 13,

لا تزال في الخليل شجرتا بطم عظيمتان على قدم "الرُميدة" (*PJB* (1921), p. 87).

(66) *PJB* (1911), pp. 20, 23; (1912), p. 45; (1916), p. 131; Frazer, *Folklore in the O. T.*, vol. 3, pp. 48ff.

(67) يُنظر:

Cana'an, *JPOS*, vol. 4, pp. 31f.

(68) يُنظر أيضًا سعديا في التكوين 37:30 حيث يستخدم "خور" للكلمة العبرية "لوز".

(69) Löw, *Flora*, vol. 3, pp. 338 f., 394,

لا يتخذ لوف قرارًا.

والمنطقة الشرقية [من نهر الأردن]، في حين يشهد دينسمور على وجوده في المنطقة الغربية أيضًا.

كما يجب ذكر شجرة الميس الواسعة الانتشار (Celtis australis، بالعربية "ميس") كشجرة طويلة ظليلة. وقد رأيتها في الأراضي المزروعة، ولم أشاهدها قط في غابة. وبحسب بوست (Post)[70]، تُغرس هذه الشجرة لأنها شجرة ظليلة[71]. ويُشير التقليد اليهودي إليها تحت اسم "مَيش"[72] كشجرة مستثناة من صنع خشب المذبح[73]. وقد أُشير ذات مرة إلى أن ثمار هذه الشجرة، الصغيرة ذات السطح الخارجي الحلو، والتي ستكون في داخل نواة مستديرة يتناولها الأطفال، هي نفسها اللفاح المذكور في سفر التكوين (14:30)[74]. وعلى الرغم من الأوراق الكبيرة التي تُذكّر بالزيزفون، فهذه الشجرة تُغرس لا طلبًا للظل وحده، بل من أجل الأزهار ذات اللون القرنفلي الجميلة أيضًا التي تنمو في الربيع، ولا يمكن، في هذا الحقل، تجاهل الزمزريق الأثيبي (Cercis Siliquastrum، بالعربية "خِزرِق"، "شِبرُق"، "زِمزَريق"، "جِزَروق")[75] الذي ينمو في شرق الأردن وغربه كشجرة برية باستثناء منطقة يهودا. وثمة شجرة أخرى هي الصنوبر (Pinus Aleppica، بالعربية "كريش") التي تظهر اليوم كشجرة تتألف منها الغابات في شرق الأردن وغربه[76]، ولكنها كانت أكثر

---

(70) Löw, *Flora*, p. 729.

(71) يتحدث ابن العوّام عن زراعتها في كتاب **الفلاحة الأندلسية**، VII، 38.

(72) يطلب،

Löw, *Flora*, vol. 3, pp. 416f.

"مِياش" لا تتطابق والكلمة العربية "ميس"، وتُسمى الثمرة "قيقب"، وهو ما يذكره شفاينفورت (Schweinfurth) عن مناطق القبايل في الجزائر. وفي فلسطين تعني شجرة القيقب وحدها.

(73) يُقارن ص 86؛ و

S. Krauss, *Hebr. Union Coll. Ann.*, vol. 1, pp. 179ff.

(74) Ber. R. 72 (155^{b}).

(75) الاسم اليوناني الجديد هو χουτξουχια، v. Heldreich

لدى

Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, p. 555,

والتي تشير إلى χοχχυγεα و coccygia عند Theophrastus و Plinius.

(76) *PJB* (1908), p. 15; (1909), p. 12; (1913), p. 65; (1921), p. 99; Schumacher & Steuernagel, *Der ‘Adschlun*, pp. 79f.,

حيث يُذكّرنا الاسم "لِزّاب" بالعرعر.

انتشارًا في السابق. وفي نحو سنة 670 قبل الميلاد، يصف أركولف جبلًا مغطى بأشجار الصنوبر على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال من الخليل، شرق الطريق إلى القدس. ومن هناك كان يتم إحضار الحطب على ظهر الجمال إلى القدس لاستعماله وقودًا[77]. ولأن الكلمة العبرية "عيص شيمِن" يجب أن تُفهم كـ"شجرة الراتينج"[78]، خصوصًا أن شجرة الزيتون البرية التي لا تنتج الزيت كانت من فصيلة الصنوبريات التي مجّد سفر سيراخ (10:50) اخضرارها الدائم، هي التي ساهمت، بحسب نحميا (15:8)، خلال عيد العُرُش في توفير الظل للعرائش. ومن خشب الصنوبر صُنعت أبواب قدس الأقداس والقوائم الخشبية لمدخل الهيكل (الملوك الأول 31:6، 34)، كما أن خشب الصنوبر يُعتبر وقودًا مرغوبًا فيه لنار المذبح[79]. وفي b. R. h. S. 23a. يُعتبر "اِرز"، "قِتروس"، "عيص شيمن"، "بِروش"، أي الأرز والعرعر (يُنظر أدناه II, 8) والصنوبر والسرو سبعة أنواع من الـ"أرازيم" يجدها j. Keth. 31d في سفر إشعيا (19:41)، حيث يظهر خلف الأرز شجر الطلح والآس و"عيص شيمن"، ثم بحسب تفسير التلمود السرو والعرعر (يُنظر أدناه II, 8) والشمشاد، ومثل هذا المحيط لا يلائم شجرة الزيتون البرية. ووفقًا لغراف فون مولينن (Graf von Mülinen) ربما كان الصنوبر (Pinus Pinea، بالعربية "صنوبر بري") قد وُجد وحده كشجر أصيل في الكرمل، ولكن حل في محله مؤخرًا صنوبر حلب ("صنوبر جُوي") بنمو أكثر جمالًا وأنوية قابلة للأكل[80]. فهذه الصنوبرة بالذات تتمتع بالنمو وبالبذور التي يحب الناس طبخها مع الأرز. وهي تدعى "صنوبرة أليفة" ("صنوبر جوي")، وهو النوع الذي تكاثر على جبل الكرمل

---

(77) Geyer, *Itinera*, pp. 262, 313.

(78) هكذا، بحسب j. R. h. S. 58a ("دادينون")، سعديا في إشعيا 19:41 ("عود الدهن" أي "خشب الراتينج")، اروخ ("جِنس مِن الصنوبَر")، ودافيد كيمحي عن الفقرة نفسها ("بِن").

(79) Tam. II 2, Tos. Men. IX 14.

(80) *Beiträge zur Kenntnis des Karmels*, p. 18; *ZDPV* (1907), p. 134;

حيث وفقًا لِـ:

Löw, *Flora*, vol. 3, p. 41,

على الرغم من التصحيح في:

ZDPV (1908), p. 298.

آتيًا من لبنان. وبحسب سعديا ربما كان "صنوبر"، الذي هو الصنوبر الوحيد الذي يتم استخدامه في القدس، وهو "تِرزا" العبرية (إشعيا 14:44). ولن يتم التعاطي هنا مع الأرز والسرو والعرعر، لأنها ليست محلية - أصيلة في فلسطين اليوم[81].

وأكثر ما يلفت في الجبال في مطلع الخريف هو كروم العنب التي تمتد جذوعها على الأرض، ومنها تنمو الدالية مثل الشجيرة (يُقارن يوحنا 5:15)[82]، أو مثل حصائر مصفرة - مخضرة تقطع المشهد الطبيعي المقفر، لأن أوراقها الصُفر لا تزال تغطي الأرض، وقادرة على توفير الحماية لعناقيد العنب. ولكنها بالطبع ليست كثيرة العدد، ونادرًا ما تحظى بميزة الري الصناعي كما يتم افتراض ذلك في سفر حزقيال (8:17)، كي تتمكن من الاحتفاظ بنضارة لونها وقتًا أطول. وبين هذا وذاك تشع القرى مثل أكوام من حجارة فاتحة اللون التي يصعب أحيانًا تمييزها عن بعد، لولا أشعة الشمس على جُدُر طُليت بالحوّار والظلال العميقة بينها التي تبوح بوجود المنازل. صخور رمادية وبيض تتألق، وتظهر حقول حُرثت حديثًا بنية اللون مائلة إلى الحمرة ومفعمة بالحيوية. وكل ما عدا ذلك يكتسي ألوانًا رمادية وصفراء، فيما البني هو الأكثر حضورًا إذا لم تنثر الأشجار بقعها الداكنة بينها. وفي حقول الحبوب، حيث الجذامة [جذور ما بعد الحصاد] ترعاها الماشية جزئيًا، وجزئيًا تتفسخ بتأثير الشمس المتوهجة والريح الشرقية المُيبِّسة، بحيث تبدو الأرض قاحلة ما دامت غير مغطاة بالشوك. وتفسير اسم الشهر "اِجرَد" (تشرين الثاني/ نوفمبر) هو أمر صائب، إذ يجرد ("بجَرِّد") قبل أن يأتي المطر (القُبيبة). وحده الخبير هو من يستطيع التمييز بين الأرض الزراعية في هذا الوضع وبين الصحراء. لقد أصبحت أرضًا مجدبة تحتاج إلى التخصيب برطوبة جديدة؛ شقوق تعبر من خلال الأرض الجافة. وقد قُدِّر لأحدهم أن يلاحظ في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1921، حيث التربة عميقة كما هي الحال في سهل يزراعيل، شقوقًا تصل أعماقها

---

(81) لكن يُنظر أدناه II, 8.

(82) يُنظر أيضًا:

Ez. 17, 6; 19, 10f.

إلى 90 سم[83]. وهذا مرتبط أساسًا بطبيعة الأرض الجيرية ومناخها، وهو ما لم يكن في السابق على غير هذه الحال قط، حتى لو ميّزت صورة المشهد الطبيعي في الماضي غابة خفيضة على مرتفعات صخرية وفي الوديان ذات الحوائط القائمة التي تجعل من غير السهل زراعتها، أكثر ما تميزه الآن. وحين يعود المرء من الشرق إلى أوروبا في الخريف، يتعجب إلى أي حد تظهر كامل الأرض هناك في لون قاتم. فتربة أكثر رطوبة، وحياة نباتية خضراء نضرة، وغياب الانعكاسات الحادة لشمس فلسطين، كل ذلك يؤدي إلى تباين حاد لا تقوى أبدًا على إحداثه حتى قطعة أرض مزروعة ومروية بشكل طبيعي وتام في فلسطين.

ربما كان الخريف في فلسطين غير قابل للاحتمال لدى الناس والحيوانات الأليفة لو لم يكن هناك حياض[84] تخزّن الماء من موسم المطر الماضي احتياطًا. هناك حياض أسفل البيوت وبالقرب منها، في الحدائق وفي الحقول وعلى الطرق وحتى في الصحراء حيث القطعان والمرتحلون في حاجة ماسة إليها أكثر من أي مكان آخر. ويميز العربي بين الحياض الحقيقية التي يمكن الوصول إلى مائها من الأعلى، والتي كانت تتخذ في الماضي على الأرجح شكل قارورة منحوتة في الصخر ("بير")، والتي يمكن الوصول إلى مائها من الجانب ذي الطابع الكهفي ("جيع")، ومن الحفرة النازلة في الأرض في شكل ثقب ("جِلغوم"، "هَربَج" أو "قعير")، وهو ما يُناظر ربما التفريق الدارج في الشريعة اليهودية بين "بور" و"مِعارا" و"شيح"[85]. وكل واحد من أصناف مستجمَعات الأمطار الثلاثة هذه يتم حمايته من الضرر[86]، ويجوز قطع جذور شجرة عند حفر الحوض[87] أو البركة. ومما لا ريب فيه وجود شخص يقوم على هذه الأحواض[88].

---

(83) *PJB* (1922-1923), p. 40.

(84) يجب فصل آبار المياه الجوفية في السهل الساحلي والمنطقة الجنوبية عن الحياض، كما أُشير إليها مثلًا في أخبار الأيام الثاني (10:26) بالنسبة إلى وادي الخليل والساحل. وإلا يجب تمييز "بِير" من "بور" بالعبرية. ويستخدم سعديا بدلًا من "بير" "بئر"، وبدلًا من "بور" الكلمة الفارسية "صهريج" أي خزان [حوض].

(85) على سبيل المثال:

Bab. b. II 1.

(86) Bab. b. II 1. 11, Tos. Bob. b. I 1. 10.

(87) Bab. b. II 12.

(88) j. Bab. b. 13ᶜ.

ويؤمّن ذلك حياضًا تمتلكها البلدة بشكل خاص. وهناك أحواض موجودة على الطريق للاستخدام العام[89]. وقد كان بنو إسرائيل محظوظين لأنهم وجدوا أحواضًا حفرها آخرون قبلهم (التثنية 6:11؛ نحميا 9:25)، وهو ما يُظهر أن حال المياه في فلسطين آنذاك لم تكن تختلف عنها اليوم.

عادة ما يأخذ الماء المخزّن بهذه الطريقة بالتناقص في الخريف. ويعرف الفلسطيني بشكل جيد جدًا أن[90] "المية في البير بدها تدبير"، أي: "الماء في البئر يحتاج إلى الاقتصاد وعدم الإسراف". كذلك يدرك الأوروبيّ أن ماء الغسيل المستخدم في البيت قابل للاستخدام مرة أخرى، وأن حوض الاستحمام يجب ألّا يكون أوسع مما يسمح للمرء بالتمدد فيه. وما كان صيف 1925 شحيح الماء لو أن كثيرًا من الناس قليلي الخبرة لم يقوموا بـ"هدر" الماء ليجدوا أنفسهم فجأة أمام لا شيء. ويصعب في مثل هذه الأوقات إيجاد جيرانٍ يمكن شراء الماء منهم. وقد دفع أحدهم في القدس قبل الحرب [العالمية الأولى] في السنوات العادية مقابل وعاءٍ من الصفيح ("تنَكة") أي 17.5 لترًا "عَشِرة"، أي حوالى أربعة ملاليم ألمانية (Pfennig)، وكان عليه الدفع أكثر لو أن الماء نُقل من عين قرب لفتا، أو من أنبوب الماء في برك سليمان. وحيث يشح الماء على الأجنبي، في أي حال، عليه أن يشتري الماء، كما فعل الإسرائيليون في أرض الأدوميين (التثنية 2:6). وسعيد من "يستطيع شرب الماء من بئره" (إشعيا 36:16، يقارن الأمثال 5:15) و"مياهه مأمونة" (إشعيا 33:16). وويل لمن يركن إلى بئر مشققة لا تحتفظ بالماء (إرميا 2:13). لقد حان وقت القيام بإصلاحها قبل سقوط المطر، وصُنع مسارب الماء من أحواض الحقل ومن السطح الذي تصب فيه مياه الأمطار. وتُظهر صلوات الاستسقاء الشعبية أهمية ماء الحوض حين يُفتقد الماء في "الأحواض والحفر والمُغر"، على الرغم من أن الأشجار والبذور قد حصلت على الماء الكافي[91]. ويجب أن يحصل ذلك قبل 15 يومًا من

(89) Bez. V 5.

(90) Einsler, *Mosaik aus dem Heil. Land*, p. 80.

(91) Taan. III 2.

عيد العُرُش، أي في نهاية الخريف، ودائمًا على الفور، في حال افتُقد ماء الشرب[92].

أما البرك المفتوحة ("بِركة"، ج. "بُرَك") التي شُيدت، كالعادة، أحواضًا لتجميع المياه، فقد كانت في الأزمنة القديمة مستجمعات مهمة لماء المطر بالقرب من المدن مثل القدس والسامرة والخليل وجبعون وحسبون[93]، جنبًا إلى جنب مع الأحواض، في حال لم يسرّب الخزان الماء كما يفترض ناحوم (9:2)[94]. وهذه المستجمعات تفرغ في الصيف جراء الاستخدام والتبخر، وتجري العيون بشكل أضعف وتجف الجداول. وحتى في أحواض تجميع الماء لقناة الماء التي يسيل منها الماء في أنبوب خاص بالقدس، يكون الماء أخضر اللون، وقد أصبح بلا فائدة نتيجة غرق الحيوانات العطشى فيه[95]. وبعد فصول شتاء شحيحة، كما حصل في شتاء 1924/ 1925، تقفر في هذا الوقت قرى بأكملها، لأن سكانها يهجرونها إلى غور الأردن بغية إنقاذ أنفسهم ومواشيهم. آنذاك، يجري إحضار الماء بضع مرات من الساحل في عربات قطار. وقد اصطف الناس في صفوف طويلة على حنفية الماء أملًا بالحصول على قدر من الكمية المحدودة لقاء ثمن. وقد زادت الحاجة إلى الماء نتيجة عدم بناء أحواض ملحقة بالبيوت الجديدة للمهاجرين اليهود. أما ما حصل في سنة 1925، فقد تمثل في السنة التالية في أن الواحة الوحيدة في محيط القدس الشرقي، وادي فارة، كان عليها أن تقدم ماء ينبوعها لمساعدة العاصمة، وهو ما يظهر إلى أي حد تعتمد المنطقة الجبلية على الماء، ولكنها تطرح السؤال التالي: إلى أي حد تصح محاولة حل المشكلة من خلال اتخاذ إجراءات تزيد من إقفار الريف وحرمان قراه ومواشيه من أهم الظروف الحياتية؟

تُشكل مثل هذه الظروف الشرط الطبيعي للصورة التي كثيرًا ما تكرر استخدامها في العهد القديم في شأن ترطيب الأرض الجافة من أعلى من أجل

---

(92) Tos. Taan. 66^{c}, b. Taan. 19^{b}.

(93) إشعيا 3:7؛ الملوك الثاني 17:18؛ الملوك الأول 38:22؛ صموئيل الثاني 12:4، 13:2؛ نشيد الأنشاد 5:7.

(94) إقرأ: "كِبِريخة مَيم ميمِها يوصِيم"، أي: "بركة ماء ذهب ماؤها".

(95) *PJB* (1921), pp. 80, 91.

أن يخلص الرب شعبه من محنته الأقسى؛ فحين يقول الرب في سفر إشعيا (3:44): "إني أسكب ماءً على الأرض العطشى، وسيولًا على الأرض الجافة"، هكذا يشعر الفلسطيني وحده بتأثير هذه الاستعارة التي تتعزز أكثر حين تحل في محل الأرض الجافة الصحراء المعروفة لساكن يهودا، أي أرض من طبيعتها أن تكون دائمًا بلا ماء وتحظى بالقليل من المطر (إشعيا 6:35، 18:41، 20:43). ويقول المدراش اليهودي بشكل سديد[96]: "أرض وإنسان ومطر متساوون. فلا مطر بلا أرض، ولا أرض بلا مطر، ولا إنسان بلا أرض ومطر". واقع الأمر أنه حين ينتهي الصيف في فلسطين، يتم التطلع إلى المطر كونه الخلاص.

ج. الغابة

تشكّل جميع الأشجار البرية التي وردت في الفصل الثاني [أشجار وحقول وأحواض في بداية الخريف] الغابة الفلسطينية (بالعربية "هيش"، "حرج"، "غاب")[97] التي كانت، منذ إجراء مسح الأراضي الإنكليزي في سنة 1878، قد تقلصت بشكل كبير حتى قبل سنة 1914. وخلال الحرب العالمية الأولى، ونتيجة لاحتياجات خطوط سكك الحديد، مُحِيَتْ الغابات بشكل كلي في كثير من المناطق، أو تحولت على الأقل إلى غابة شجيرات (macchia)[98]. إلا أن غابة الصنوبر الصغيرة المسماة شيخ العمد بالقرب من بيت محسير التي أحب

---

(96) Ber. R. 13 (27^{b}).

(97) تقارير قيّمة عن الغابة وأرض الشجيرات وأرض الشجيرات الخفيضة أوردها، وفق رصد شخصي دقيق:

Eig, *On the Vegetation of Palestine* (1927), pp. 29ff.,

وهنا يذكر ص 30 غابة صنوبر صغيرة بالقرب من القدس أصبحت معروفة لديه من خلال موظف حكومي، غابة تبقى موضع شك إذا كانت قد نمت بشكل بري. وهنا يتعلق الأمر بغابة "شيخ العجمي"، الذي ذكرته في ص 74، 77. يُنظر:

PJB (1906), p. 7; (1909), p. 12

(مع صورة). ذلك أن الصنوبر كان منتشرًا في هذه المنطقة، وهو ما تظهره النماذج التي كانت موجودة ذات يوم في سريس. يُنظر:

PJB (1921), p. 98.

وليس هناك من آثار تدل على القيام بزراعة بقايا هذه الغابة.

(98) يُقارن:

Fischer, *Wirtschaftsgeographie von Syrien*, pp. 55ff.

أهل القدس ارتيادها، بقيت قائمة[99]. كما أن غابة البلوط الواقعة بين الساحل والمستعمرة الألمانية "أم العمد" (فالدهايم) تملك فرصًا للنمو من جديد[100].
وكأشجار ظليلة تعتبر أشجار الصنوبر الحلبي والسنديان القرمزي والخروب والقيقب والبطم والمصطقى [المستكة] في المقام الأول، ويأتي في المقام الثاني الملول والبطم والزعرور البري والنبق المسهل (Rhamnus)، والعبهر والأرجوان.
وبالطبع ليس الظل هو الأمر الأساسي الذي توفره الغابة للإنسان على الرغم من أن نعمة الظل في فلسطين تُعتبر، بشكل خاص، كبيرة. فحرارة الشمس هي من النوع الذي يمكن أن يتحملها المرء في أثناء المشي أو الركوب، ولكن ليس في أثناء الجلوس أو الراحة (يُنظر أعلاه، ص 59). ولذلك، فإن السفر في الصحراء القاحلة يُعتبر مشقة كبيرة، كما أن الجلوس تحت الرتم (Retama Roetam، بالعربية "رتم") المفتقر إلى الأوراق، والذي لا يمكن العثور عليه في كل مكان، نادرًا ما يكون منعشًا كما خَبِرَ ذلك إيليا (الملوك الأول 4:19). ومن هنا كانت الأمنية التي عبر عنها الأنبياء هي رؤية الصحراء مليئة بالأشجار (إشعيا 1:35 وما يلي، 19:41). ولم يجرِ التفكير بعد في أن الظل هو نعمة للأرض أيضًا، لأنه يقوّي أثر الندى والمطر، ويقدم الفرصة لجميع أنواع النباتات القصيرة كي تجد غذاءها وتكون بالتالي نافعة للماشية. إلا أن ذلك يعني في الوقت نفسه أن نمو النباتات هو عملية تبخر مستمرة للرطوبة التي امتصتها التربة. فالغابة تعيش من الرطوبة التي تحصل عليها من التربة. ولذلك يتسبب الأوكالبتوس السريع النمو في تجفيف المستنقعات، وتتم زراعته هناك عن حماقة، حيث التربة تعاني أصلًا نقصًا في الرطوبة، جاعلة إياها أكثر جفافًا[101]. وليس من المؤكد أن تربة غابة ما تحتوي رطوبة أعلى من تربة بلا أشجار. فالغطاء النباتي الذي تنشره الأرض المحروثة فوق التربة وتمنع من خلاله عملية التبخر قد لا يقل فاعلية عن ذلك. ولكن من المؤكد أن تربة الغابة لا يمكنها أن تجف، لأن جذور الأشجار،

---

(99) *PJB* (1921), p. 99.

(100) *PJB* (1922/23), p. 29.

(101) من المفترض أن يتم الآن، بناء على أمر حكومي، زراعة 39,000 شجرة أوكالبتوس على أرض مستنقعات بالقرب من قاقون.
Warte des Tempels, 28/02/1927, p. 32.

جنبًا إلى جنب مع النباتات الخفيضة، تعيق عملية تأكُّل التربة، في حين أن الأوراق المتساقطة تقوم بعمل السماد. فأرض جبلية، كما هي حال الجزء الأعظم من فلسطين، لديها سبب لمنع الانجراف المستمر للتربة، من خلال تحلل حجارتها الكلسية وجريانها نحو الأودية والسهول. وبناء عليه، من المهم الكشف عن كيف كان وضع غابات فلسطين في الماضي والحاضر، خاصة أن جيمس فريزر[102]، على النقيض من التصور الرائج عن فلسطين بأنها أرض قاحلة كليًا، تسبب في بعث تصورات خاطئة معاكسة من خلال مراكمة أوصاف متأنقة بشكل مبالغ فيه لدى تومسون (Thomson) وترسترام (Tristram).

في فلسطين غرب نهر الأردن، يكشف الكرمل، حتى في أيامنا هذه، عن أنه كان ذات يوم مكسوًا بغابة[103]، على الرغم من أن أحدًا قبل سنة 1860 لم يجد غابة حقيقية، كما ورد في سفر إشعيا (2:35)[104]. وثمة نوعان من البلوط والصنوبر والبطم والخروب والقيقب والزرود والمصطقى والغار والعبهر والزيتون البري واللوز والإجاص ما زالا موجودين كبقايا. وهناك زروع جديدة في الطرف الشمالي لسلسلة الجبال[105]. أما غابة الشارون المذكورة في إشعيا (2:35)، والتي أشار إليها أيضًا يوسيفوس[106] وسترابو[107]، فإنها كانت في سنة 1909 لا تزال ممتلئة بأشجار بلوط جميلة تطرح أوراقها سنويًا، ولكنها

---

(102) J. Frazer, *Folklore in the Old Testament*, vol. 3 (1919), pp. 32ff.

(103) وفقًا لملاحظاتي، فإن النبق (Rhamnus palaestina) والزعرور وAnagyris foetida يجب أن تُعزى هي الأخرى إلى الكرمل فوق "عين حوض". وكشجيرات خفيضة، وجدتُ هناك القندول (Calycotome) والقريضة البيضاء والحمراء والعنبرية في شكل شجيرات عالية. وعلى الأرض لفت الانتباه البابونج الألماني والكتان الأزغب.

(104) Thomson, *The Land and the Book* (1860), p. 487.

(105) يُقارن:
PJB (1910), p. 12; Graf von Mülinen, *Beiträge zur Kenntnis des Karmels*, p. 18,
(لا يمكن التعويل عليها كليًا).

(106) *Bell. Jud.* I 13, 2.

(107) Strabo XVI 27;
يُقارن:
Dalman, *Orte und Wege Jesu*[3], pp. 236f., G. A. Smith, *Hist. Geography of the H. Land*, p. 148.

اختفت بحلول سنة 1914. وعلى الرغم من الخراب الشديد الذي حل بها (يُنظر أعلاه)، كانت منطقة غابات الجليل الغربي، ولا تزال، هي الأهم، وهي التي كانت غابتها ذات يوم مفصولة عن الكرمل من خلال وادي المُقطّع. وقد لاحظت بالقرب من قلعة يوتاباتا (Yotapata) القديمة وجود أشجار البلوط والبطم والزرود والعبهر والخروب والقيقب والنبق المسهل والزعرور البري والإجاص واللوز والرتم كجزء من الغابة التي تكسو المرتفعات هناك[108]. وقد جرى التطرق إلى الغابة بالقرب من فالدهايم في ص 74. وفي الشمال، إلى الغرب من تِبنين، هناك غابة جليلية ثانية فيها البلوط والبطم والأرجوان والغار والعبهر والنبق المسهل والزرود[109]، والثالثة على جبل الجرمَق إلى الجنوب من سلسلة حيدر، ولكنها مدمرة بشكل شديد. والرابعة هي جبل طابور التي لا تزال تحتفظ حتى اليوم بأشجارها من البلوط والبطم والخروب والعبهر[110]. إلا أن شارون الجليل الممتد من هناك إلى بحيرة طبرية[111] كان احتفظ ببقايا أشجار بلوط تطرح أوراقها في المنطقة المجاورة له من الجانب الشرقي، في حين أن الغابات الواسعة المنتشرة على البحيرة التي تطرق إليها أركولف في سنة 1670[112]، كانت قد تحولت، منذ وقت طويل، أرضًا زراعية.

في القسم الشمالي الجبلي من الضفة الغربية، تبدأ منطقة الغابات الغربية في وسط المنطقة الجبلية الغربية تقريبًا، وتمتد من هناك نحو الغرب. وهناك كنت في سنة 1912 قادرًا على تحديد نوعين من البلوط والخروب والزعرور البري والنبق المسهل والزرود والعبهر والزيتون[113]. وربما كانت هذه بقايا الغابات الجبلية التي وردت في يشوع (15:17، 18). وبالقرب من سهل يزراعيل

---

(108) يُقارن:

PJB (1912), p. 47; (1913), p. 47.

(109) رأيتها بنفسي في سنة 1910. يُقارن أيضًا:

Robinson, *Palästina*, vol. 3, pp. 642f., Haefeli, *Syrien*, p. 305.

(110) يُقارن:

Barnabé, *Le Mont Thabor*, p. 128.

(111) Eusebius, *Onomast.* (Klostermann ed.), p. 162.

(112) Geyer, *Itinera*, p. 269.

(113) يُقارن:

Linder, *PJB* (1916), pp. 110ff.

[مرج إبن عامر] كانت آثار غابة ما زالت هناك في حين سار أمّان (Ammann)[114] في سنة 1613 في الطريق من جِنين إلى نَابلس عبر "غابة جبلية".

أما في يهودا [جنوب الضفة الغربية]، فإن الغابة الموجودة بالقرب من بيت إيل [بيتين] (صموئيل الأول 25:14 وما يلي؛ الملوك الثاني 24:2) اختفت منذ زمن. كذلك اختفت أشجار البلوط على جبل النبي صموئيل التي عرفها المقدّسي، حيث وصف المنطقة بأنها "قليلة الأبروط كثيرة البلوط"، أي: "قليلة الأداد – كثيرة البلوط"[115]. ومن الغابات في منطقة "مدينة الغابات" كريات يعاريم (يشوع 10:15)، فلا تزال هناك بقايا متواضعة في غابة شيخ العجم (يُنظر ص 74 والشيخ عبد الله[116]، ولكن في أرض الأشجار الخفيضة في الجهة الجنوبية المظللة لوادي سكة الحديد المتعدد الأسماء، يوجد البلوط والبطم والمصطقى والخروب وأشجار القيقب والنبق المسهل والقندول الشعري (Calycotome villosa، بالعربية "قَندول، قُنديل)[117]. ولم يبق شيء من الغابة على الجبل إلى الغرب من عين كارم التي شاهدها الرحالة دانييل (Daniel)[118] في سنة 1106، وأنطونيوس فون كريمونا (Antonius von Cremona)[119] في سنة 1330، هذا إذا لم يعتبر أحدهم أشجار البلوط التي زارها غ. هـ. فون شوبرت (G.H. von Schubert)[120] في الوادي أسفل عين كارم في سنة 1837 بقايا من تلك الغابة. ولا بد أن هذه الغابة بأكملها، الواقعة إلى الغرب من القدس، هي تلك "المناطق الجبلية"[121] التي أحضر منها أهل القدس، بحسب نحميا (15:8)، أغصانًا من الزيتون البري والصنوبر

---

(114) *Reiß ins Gelobte Land*, pp. 59f.

(115) Schwarz, *ZDPV* (1918), p. 158.

(116) *PJB* (1913), p. 16; (1914), p. 28 (1921), p. 98.

الصور في:

PJB (1909), table 1; (1911), table 5, figs. 14, 17 (1921), table 6.

(117) *PJB* (1922/23), pp. 11f.; (1924), p. 68.

(118) *ZDPV* (1884), p. 63.

(119) في المصدر السابق، (1890)، ص 173.

(120) Reise III, p. 50.

(121) يُقارن "الجبال"، لوقا 39:1؛

Dalman, *Orte und Wege Jesu*³, pp. 57f.

والآس (منقرض الآن في يهودا [جنوب الضفة الغربية]) وأشجار مورقة (ربما بلوط دائم الخضرة) ونخيل للسقائف، والتي بالطبع لا يمكن أن تكون قد نمت هنا بشكل برّي.

حلت زراعة أشجار الزيتون(122) واسعة النطاق في محل الغابة في منطقة بيت لحم، كما برهن على ذلك سيريل (Cyrill)(123)، والتي لم يبقَ منها غير بقية من أشجار البلوط والصنوبر في جبل الأقرع تحت حماية ألمانية في الطرف الجنوبي للمدينة الحالية. إلا أن الغابة المليئة بالحيوانات البرية على الجبل الكبير إلى الجنوب من وادي عيتام، والتي مر بها الرحالة دانييل في طريقه إلى بيت لحم(124)، ورآها أمّان أيضًا في سنة 1613، لم يجرِ استبدالها بالطريقة نفسها(125). ومن المحتمل أن يكون الأمر هنا متعلقًا بمنطقة النبي دانيان الجبلية التي تدل شجرة البلوط الصغيرة، "بلوطة اليرزة"، الواقعة على طرفها الجنوبي على الغابة التي كانت قائمة هنا يومًا ما. وإلى الجنوب قليلًا، على مقربة من الخليل، يقع جبل الصنوبر الذي ذكره أركولف(126)، والذي زوّد القدس بالحطب. ومن المفترض أن هذه الغابة كانت لا تزال قائمة في سنة 1845، إذ يورد توبلر (Tobler)(127) أن خشب البلوط والصنوبر والقيقب كان يُحضر من حلحول إلى القدس لاستخدامه حطبًا ولغايات أخرى. إلا أن بقايا كبيرة من هذه الغابة كانت لا تزال موجودة على نطاق واسع حتى سنة 1914. وثمة سلسلة من المرتفعات التي تكسوها الغابات امتدت من بيت شَعار إلى الشرق من طريق الخليل، والتي يعترضها وادي العرّوب وحده نحو عين ذِروة بالقرب من حلحول، أي على امتداد 6 كم. وقد كانت أشجار البلوط والبطم والقيقب

(122) يُنظر: Dalman, *Hundert deutsche Fliegerbilder*, fig. 33.

(123) Dalman, *Orte und Wege Jesu*³, p. 35.

(124) *ZDPV* (1884), p. 41; Khitrowo, *Itinéraires*, p. 42.

(125) *Reiß ins Gelobte Land*, p. 71,

يُنظر أيضًا الصورة 62 المأخوذة من:

de Bruyns Reizen, 1st ed. (1698).

(126) يُنظر أعلاه، ص 68.

(127) *Denkblätter aus Jerusalem*, p. 179.

واللوز والنبق المسهل، وربما الصنوبر أيضًا، لا تزال مرئية. كما شاهدت إلى الشرق من خِربة بِريكوت [إلى الغرب من بيت فجار] بالقرب من دار حسين عيد، بقية من غابة بلوط. وكذلك مجموعة من أشجار البلوط إلى الجنوب من خربة كوفين [قضاء الخليل]، وبعض أشجار البلوط والصنوبر إلى الشمال من الخليل. وبناء عليه يمكن أن يفترض المرء أن غابة من البلوط والصنوبر هي أمر طبيعي يُظهِر أن غابات فلسطينية كانت ذات يوم تكسو ربوة مستجمع الأمطار بأكملها من بيت لحم حتى أبواب الخليل. كما تثبت بقايا غابة إلى الغرب من الخليل في اتجاه تفوح ومنطقة غابة شجيرات خاراس الواقعة جنوب غرب الخليل أن وفرة الغابات في يهودا لم تكن مقتصرة على تلك المنطقة وحدها؛ فإلى الجنوب، هناك غابة خيرت (صموئيل الأول 22:5) التي هرب إليها داود، وكذلك غابة يارديس (Jardes) التي قطعها الرومان، لأن آخر اللاجئين اليهود تجمعوا هناك بعد الاستيلاء على القدس وقلعة مكاور[128]. ومن المحتمل أن يكون للاسم صلة[129] بـ"المدينة التي أطلق عليها اليهود اسم يورداس" على الحدود الجنوبية لمنطقة يهودا[130]. وقد كانت منطقة الغابات الكبيرة هذه في الجنوب والغرب في حينه تحت تصرف مدينة القدس، لتأمين احتياجاتها من الخشب، واختفت بشكل تدريجي في القرن الماضي.

ويستطيع المرء اعتبار الثروة الكبيرة من أشجار السدر (Zizyphus Spina Christi، بالعربية "سِدر") على الجهة الشرقية من غور الأردن الجنوبي، حيث حددت أشجار السنط الحقيقية وجه المنطقة، في حين أني كنت قادرًا على تحديد عينتين فقط من السنط الملتوي أو السيال ("سيال"، "طَلح") هناك[131].

---

(128) Josephus, *Bell. Jud.* VII 6, 5.

(129) Ibid., III 3, 5.

(130) Dalman, *Orte und Wege Jesu*³, p. 255, حيث فكرت، بشكل خاطئ، بسهل الأردن الشرقي. ويقترح Haefeli, *Samaria und Peräa bei Flavius Josephus*, p. 93, وادي الصير [السِيْر] في البلقاء، لأن من المفترض أن تكون يازر وياردس على صلة بذلك.

(131) يُنظر: *PJB* (1908), p. 19.

وقد انقرضت أشجار السنط التي كانت توفر ظلًا جيدًا بفضل تيجانها التي يتخذ الواحد منها شكل مظلة، على الرغم من أوراقه الدقيقة[132]. وقد طغت على السنط شجرة السدر، ربما لأن جذور الأخيرة وفرت لها مقاومة أفضل من تلك التي وفرتها أشجار السنط ضد الرعي الذي يمارسه البدو. وإلى المنطقة ذاتها تنتمي شجرة البلسم الزائفة (Balanites aegyptiaca)، بالعربية "زَقّوم"، والتي تنبت، وفقًا للقرآن، من نار جهنم، وثمارها التي تشبه رؤوس الشياطين التي يستمتع بها الملعونون[133]، في حين أن الـ"سدر" بتفاحه الصغير الحلو (بالعربية "دُوم"، "نبق") والـ"طلح" يُعتبران من أشجار الجنة[134]. وفي اتجاه آخر يُشغل الخيال كثيرًا حين يتعلق الأمر بشجرة العشار الباسق (Calotropis procera، بالعربية "عُشير"). فثمارها الخضر مليئة، وفقًا ليوسيفوس، بدخان ورماد، وتُذكّر بما حل بسدوم[135]. ويعتبرها البدو اليوم ليمونًا مسحورًا ("ليمون مسحور") ("عين جدي")[136]. وهناك مزارع نخيل بالقرب من الشاطئ الشرقي الشمالي للبحر الميت[137]. أما الأيكة [النباتات تحت الشجرية] عند ("زور") نهر الأردن، فسيتم التطرق إليها في B, I, 5 (قسم الإزهار قبل المطر).

وفي شرق الأردن تحتوي الزاوية الشمالية الغربية للجولان غابة بلوط خفيضة[138] شكلت في سنة 1908 آخر بقايا بلوط باشان القديمة [جبل العرب

---

(132) الصورة، يُنظر:
PJB (1909), table 2.

(133) السورة 37:60 وما يلي؛ 56:52.

(134) السورة 53:14؛ 56:27 وما يلي. يُفترض بالـ"سدر" أن يكون بلا شوك ("مَخضود")، والطلح "مجموع" ("منضود")، والتي صنع منها المفسّر موزة، على الرغم من أن اسم "طلح" يستخدم لأشجار السنط في كل مكان في شبه الجزيرة العربية. يُنظر:
Schweinfurth, *Arab. Pflanzennamen*, pp. 121, 189.

(135) *Bell. Jud.* IV 8, 4.

(136) تكمن صفتها المميزة في أن لب الثمرة متصل بقشرة الثمرة الداخلية بخيوط بيض تشكل الجزء الأكبر من الثمرة. وحين تجف تصبح أشبه بالصوف، بحيث يمكن حشو الوسائد بها.

(137) Blanckenhorn, *Naturwissenschaftl. Studien*, pp. 229, 238.

(138) *PJB* (1913), p. 56,

غائبة من خريطة شوماخر.

وحوران] (إشعيا 13:2؛ حزقيال 6:27؛ زكريا 2:11). وهنا رصد شوماخر (Schumacher) في سنة 1896 منطقة غابات هائلة تمتد من نهر السعار مجتازة الطريق من القنيطرة إلى جسر بنات يعقوب، حيث كان أمّان في سنة 1613 قد رأى "هضابًا غنية بالخشب"[139]. إلا أن الثروة الحرجية الأهم في فلسطين الحديثة موجودة في عجلون[140] التي لا تزال بقايا غابة إفرايم، حيث قضى أبشالوم نحبه (صموئيل الثاني 6:18، 8، 17)[141]، موجودة هناك. إنها مشاهد طبيعية مكسوة بغابات تُذكِّر بتورينغن (Thüringen) [إحدى الولايات الألمانية] التي تتيح ركوب الخيل في ظل بلوطها. وحري بنا التذكر أن الغابة البدائية الفلسطينية لا تنمو إلى الأعلى بقدر طول أشجار غاباتنا، وأن أشجارها الباسقة غالبًا ليست مصطفّة بشكل كثيف[142]. ويقدم شوماخر معلومات عن الحجم السابق للمنطقة الحرجية[143]. وقد سنحت لي الفرصة في سنة 1925 لرؤية ما كان لا يزال قائمًا منها آنذاك. فالثروة الحرجية تؤلفها الأشجار الدائمة الخضرة والمورقة، من بلوط وبطم وصنوبر وعبهر ونبق مسهل وقيقب وأرجوان وخروب وأركوض وإجاص ولوز وزيتون وسماق (Rhus coriaria، بالعربية "سُمّاق")[144]، مع غلبة إما للبلوط أو للصنوبر[145].

---

(139) *Reiß ins Gelobte Land*, p. 58.

(140) تُنظر صورة قلعة عجلون، في:
Dalman, *Hundert deutsche Fliegerbilder aus Palästina*, no. 86, cf. 85.

(141) يُقارن:
PJB (1913), p. 71.

(142) يُنظر:
PJB (1909), table 3, fig. 1, table 5, fig. 1.

(143) Schumacher & Steuernagel, *Der ʻAdschlun*, pp. 27ff.
إلا أن التقارير تحتاج إلى تصحيح المعلومات النباتية. يُنظر:
Theol. Lit.- Bl. (1926), pp. 130f.
يُقارن أيضًا:
Blanckenhorn, *Naturwissenschaftl. Studien*, pp. 312f.

(144) غالبًا في شكل شجيرة. إلا أن معهد فلسطين في غرايفسفالد يحتفظ بعيّنة لسويقة قطرها 6 سم من لفتا.

(145) يُنظر:
PJB (1908), p. 15.

وفي "البلقاء"، وُجدت منطقة الأحراج الرئيسة شمال شرق السلط، إلّا أنها كانت قد دُمرت قبل الحرب [العالمية الأولى][146]. وشكلت أشجار البلوط والصنوبر والقيقب الأشجار الأكثر أهمية[147]. وثمة منطقة أحراج ثانية في محيط وادي السير قوامها البلوط والزعرور البري. وقد حدثني عن أحراج جبل نبو أحد الأشخاص في ذلك المكان. ويذكر موزل تلًّا حرجيًا إلى الشمال من وادي الهيْدان [محافظة مادبا][148].

وقد دُهِشتُ في سنة 1906، حين وجدت أن منطقة حرجية يُمكن أن تكون موجودة حتى في المنطقة القديمة من وادي السير، ويُبرر ذلك اسمها الذي يعني "كثيف الشعر" (التكوين 25:25). وعلى خريطة موزل منطقة حرجية متواصلة في المنحدر الغربي لأرض الجبال والشيرا من سيل خنيزير [وادي خنيزير في محافظة الطفيلة] في منطقة بصيرا حتى بِدبدة (7 كم إلى الشمال من البتراء)، أي على امتداد 45 كم. ووفقًا لتقارير موزل، فإن أشجار التل هي من نوع البلوط، وبعيدًا إلى أسفل، هناك عرعر (لِزّاب)[149]. ووفقًا لمشاهداتي، يفترض بهذه المنطقة الحرجية أن تلتف أشجارها بصورة أقل. إلا أن واقع الأمر يتيح للمرء من أعلى نقب الضحل إلى الغرب من بصيرا أن يبسط ناظريه نحو منطقة مليئة بالعرعر تمتد مسافة أبعد إلى الجنوب. وفي الأعلى كان هناك حرج صغير من السرو ذي الفروع الأفقية. وبعيدًا أكثر إلى الجنوب، في خور الهيش، رأيت أشجار البطم والزعرور البري والبلوط التي يتشكل منها الحرج[150]. كما لفتتني جذوع بطم كبيرة. وقد قيل لي أن العرعر والسرو لا يصلحان للاشتعال، في حين يُقطّع المرء البلوط لهذا الغرض. ويكشف اسم البئر، بير الدباغات، في هذه المنطقة أن البلوط مهم أيضًا للدباغة[151].

---

(146) كان بلاكهورن قد شاهد حتى في سنة 1908، في الحافة الجنوبية للبقيعة، "غابة عظيمة" من البلوط والبطم والزعرور البري والنبق المسهل. وفي سنة 1925 ما عاد لها أي أثر.

(147) Eberhard, *PJB* (1905), pp. 39f.

(148) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 1, pp. 3, 135.

(149) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 2, pp. 289f., 294, 329; vol. 3, p. 14.

(150) يُقارن:

ZDPV (1908), pp. 264, 267.

(151) بالنسبة إلى برزخ الصحراء، يَذكر رنغه نباتات برزخ الصحراء وأثلًا نيليًا وأثلًا عديم الأوراق والسنط الملتوي والعرعر الفينيقي.

تبقى صورة الغابة الفلسطينية غير كاملة من دون الشجيرات التي هي جزء من طبيعتها، وإليها ينتمي البطم العدسي (Pistacia Lentiscus، بالعربية "سرّيس") الواسع الانتشار والدائم الخضرة الذي سبق ذكره مع الأشجار، ثم القندول الشَعري (Calycotome villosa، بالعربية "قَندول"، "قُنديل") ذو الأوراق الصغيرة الشعرية الشائكة، والهليون الشائك (Asparagus acutifolius، بالعربية "حليان")، الذي تؤكل براعمه الصغيرة مثلما تؤكل براعم الهليون عندنا. وإلى النباتات المتسلقة التي تُشبِّك الأشجار محولة إياها إلى أدغال لا تُخترق، ينتمي الفشاغ (Smilax aspera، بالعربية "عُلّيق") دائم الخضرة، وصريمة الجدي (Lonicera etrusca) المورقة، والياسمين البري (Clematis cirrhosa، بالعربية "غالقة")، والفاشرا (Bryonia multiflora، بالعربية "جَرموعة")، "عنب الحية"، والعلندي عديم الأوراق (Ephedra campylopoda، بالعربية "علندِي"، "قُضّاب")، والذي غالبًا ما يُثقل الأشجار. أما أكاليل اللبلاب التي وُضِعت في القدس خلال المهرجانات الديونوسيوسية الإجبارية [ديونيسيوس: إله الخمر عند الإغريق] (سفر المكابيين 7:6)، فكان يجب الحصول عليها من الحدائق. وقد شاهدت العشقة المتسلقة أو اللبلاب السام (Hedera helix) وقد نمت بشكل بري في البتراء المجاورة لفلسطين، في حين أنها تظهر كثيرًا في سوريا، على ما يبدو.

في الأزمنة القديمة، كان لبنان قد شكل بالنسبة إلى الفلسطيني المثل الأعلى للغابة التي تحدّث الأنبياء عن نقلها إلى بلادهم أو غرسها في الصحراء (إشعيا 2:35، 13:60، يقارن 17:29). وقد جرى آنذاك استيراد خشب بناء جيد. وجنبًا إلى جنب مع الفينيقيين والبابليين والرومان، عمل أيضًا عشرة آلاف من حطّابي سليمان على تدميرها (الملوك الأول 28:5؛ يقارن أخبار الأيام الثاني 7:2 وما يلي). فاعتداء طاغية غريب على غابة لبنان اعتُبر خطيئة في سفري إشعيا (24:37)، حبقوق (17:2)، وسقوط ملك بابل يُعتبر في سفر إشعيا (7:14 وما يلي) إنقاذًا لأشجارها. وهذا يعني أن قطع أشجار الغابة قد تجاوز جميع الحدود ولم يترك منها إلا القليل. وتذكّر نقوش بالتمدد السابق لمنطقة

الأحراج في العهدين البابلي والروماني[152]. ومن أشجار الأرز نجت بقايا صغيرة جدًا في أماكن أربعة[153]. ويقدر فيشر (Fischer)[154] أن 18 في المئة فقط من السطح الكلي للبنان لا يزال حرجيًا. وبحسب فلورا فون بوست (Flora von Post)[155]، فإن الأنواع التالية، علاوة على الأرز، لا تزال موجودة هناك: نوعان من الصنوبر (Pinus Halepensis وBrutia)[156]، ونوع من الشوح السوري (Abies Cilicica)، وأربعة أنواع من العرعر (Juniperus drupacea, macrocarpa, Oxycedrus, excels)، وسرو ذو فروع أفقية، وثمانية أنواع من البلوط. ويستطيع المرء أن يُضيف إليها في المناطق الواطئة القطلب والأرجوان واللوز والخروب والدلب والقيقب والدردار والغار والآس.

واليوم ما عاد لبنان مُورِّد خشب البناء إلى فلسطين الذي وصلت قيمته في السنة المالية 1921 إلى 3 ملايين مارك، بل تفعل ذلك أوروبا وحتى السويد بدلًا منه[157]. أما خشب النجارة، فكان يرد منذ زمن بعيد من آسيا الصغرى، وربما من كيليكيا وطوروس؛ فالخشب القطراني ذو الرائحة يؤكد أن الأمر يتعلق بخشب من الصنوبريات لا يمكن تحديد نوعه.

أما عدو الغابة الطبيعية، فهو، أولًا وأخيرًا، وفي أي مكان، الحضارة التي تستغلها عن قصد أو غير قصد، ثم تدمرها إلى أن تتعلم يومًا ما كيف تستوعبها في داخل حدودها. هذه المرحلة لم يُتوصل إليها بعدُ في فلسطين؛ فالغابات أُزيحت من المناطق التي تصلح بشكل مميز للفلاحة وغرس الأشجار المثمرة،

---

(152) بالنسبة إلى الحدود الشمالية، يُنظر:
Weißbach, *Die Inschriften Nebukadnezars II im Wadi Brisa und am Nahr el-Kelb*;
بالنسبة إلى الحدود الجنوبية، يُنظر:
Rustum, *PEFQ* (1922), pp. 68ff.

(153) Fischer, *ZDPV* (1919), p. 57;
خاصة:
Haefeli, *Syrien und sein Libanon* (1926), pp. 192ff.

(154) في:
Fischer, *ZDPV* (1919), p. 55.

(155) بحسب معلومات مشكورة أوردها ج. كونزلر (J. Künzler).

(156) ومن المحتمل أن يكون الصنوبر المثمر (Pinus Pinea) قد زُرع هنا.

(157) Luke & Keith-Roach, *Handbook of Palestine*, p. 168.

وبقايا تلك الغابات واقعة تحت خطر الزوال نتيجة للطريقة التي تُستغل بها، ولمقدار هذا الاستغلال. وهذه البقايا تستطيع تقديم القليل من خشب البناء، إلا أن خشبها لا يزال يشكل مصدرًا مهمًا للأدوات واللوازم الريفية، خصوصًا حطب التدفئة أو وقود الإشعال الذي يستخدمه أهل القرى والمدن في الطبخ. ومن أجل هذا الغرض، تقوم الحطّابات باقتلاع فروع الأشجار أو الشجيرات أو قطعها، ثم تجميعها ("حطب")[158]. كذلك يشمل عملها جمع النباتات Phrygana الخشبية، كما تُظهر المقاطع التالية الواردة من أفواههن (نقله عبد الولي):

"حَطّاب العلندة - لا بِخْجَل ولا بِندَ،
حطبْ الراعنة عَورور - وحَطَبِ قِرطَم وشيح،
حُطُّ حطب وحُطُّ على النار عيدان،
إلّي على اسم الزين لا توخِذونَه".

"من يقوم بقطع شجيرة العلندة - لا يعرف الخجل ولا التواضع،
حطب الرعناء هو آذان الدب (Verbascum)[159]
في حين أن حطبي هو دانة متموجة (Ballota undulate) وأفسنتين/ شيح أبيض (Artemisia herba alba).
ضعوا الحطب وضعوا على النار عيدان، ولكن لا تحرقوا العود المسمى على اسم الجميل!"[160].

علاوة على ذلك، من المفترض أيضًا ألّا يُحرق خشب اللوز لأنه مقدس، فمنه صُنعت عصا [النبي] محمد، ولا خشب الكَبَر، لأن المرء قد يصبح غير

(158) يُقارن:
Linder, *PJB* (1916), pp. 102f.

(159) خشب تصدر عنه رائحة كريهة عندما يحترق.

(160) اسم البنت المفترض هنا هو "عذبة". وعلى المرء ألّا يحرق "عذبِ" [جنيبة برية، زقوم مصري] (Zygophyllum dumosum).

قادر على الجِماع ("تِلفان"، وباللهجة البدوية "مطَربِل")، وهو ما يفترض ضمنًا أن خشب الكَبَر يجعل المرء قادرًا على الجماع، كما يُفترض في سفر الجامعة (5:12). وخلافًا لذلك، ليس هناك أي قيود أخرى على هذا النشاط. ومن أجل تلبية احتياجات أهل المدن للتدفئة، يجري تكسير الأشجار التي أضحت بلا غصون، واقتلاع قُرَم الجذوع ("قَرمِيّة"، ج. "قِرامي"). وفي شرق الأردن، يُحرَق الفحم بشكل كبير لتلبية احتياجات أهل المدن، وهو ما يؤدي إلى إتلاف الأحراج. وفي بقعة واسعة يشاهد المرء قُرَم أشجار محتطَبَة. أما دخان أتون الفحم النباتي ("مِفحمة")، فيغطي المشهد الطبيعي. وفي جفنة يُطلِق المرء على تقطيع الخشب "قَرمِل"، وعلى فلق الجذوع "فَسَخ"، وعلى قلامة الفروع "قَرَّط"، وعلى تقطيعها إلى قطع صغيرة للشاري من أهل المدن "كَسَّر"، وهي غالبًا عملية تحطيم ليس إلّا. وبشكل أساسي، يجري مثل هذا العمل في الخريف بعد أن يكون درّاس الحنطة قد انتهى من الدراسة. وبحسب القزويني[161]، فإن نسغ الأشجار يعود إلى جذورها في 20 أيلول/ سبتمبر. وعلى من يقوم بتقطيع الأشجار في 15 تشرين الأول/ أكتوبر ألّا يخشى على الأشجار لا من العفونة ولا من التسوس. كما أن الخريف هو الوقت الذي ترعى القطعان خلاله في غابات الأشجار والشجيرات، حيث تشكل أوراقها، في حال كان يمكن الوصول إليها في هذا الوقت، طعامًا مرغوبًا فيه لقطعان الماعز التي تجيد التسلّق، إلا أن ذلك يُعيق نمو براعم جديدة على نطاق واسع.

هذا كله لم يكن مختلفًا عن الأزمنة القديمة؛ فعلاوة على احتياج الفرد إلى الخشب لصنع الأدوات وبناء البيت وإشعال النار، كانت هناك حاجة إلى الخشب في جميع أماكن تقديم القرابين في البلاد، وآخرها الهيكل في القدس الذي ضُمنت احتياجاته بعد المنفى من خلال عقد خاص (نحميا 35:10، 31:13). ويخبرنا المشنا، تانيت 4/ 5، بالتفصيلات الدقيقة المتعلقة بتسعة أيام من توريد الخشب، والذي بموجبه تمتد ثمانية أيام من 1 نِسان

(161) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 75, 79.

حتى 20 اِيلول، في حين أن اليوم التاسع يصادف 1 تِبيت، وهذا في الشتاء. وقد اعتُبر موعد تسليم الخشب في 15 آب/ أغسطس (أب) احتفاليًا بشكل خاص، وكان معروفًا ليوسيفوس(162) بوصفه يوم تسليم الخشب الذي يحتفل به الجميع، وهو اليوم الذي ينكسر فيه المنجل (الأداة الهلالية الشكل لقطع الفروع)، لأن المرء يُقلع انطلاقًا من هذا اليوم عن قطع الأشجار؛ فقوة الشمس تتراجع ولا يعود الخشب جافًا(163)، أو أن هذا اليوم هو يوم جيد لتقطيع الشجر، لعدم وجود ديدان تنمو في الخشب(164) جاعلة إياه غير ملائم لنار المذبح(165). ولكن، عوضًا عن العائلات المحددة، رسميًا، والتي كانت مهمتها توريد الخشب، كانت هناك أعمال طوعية فردية(166) أدت في 15 آب/ أغسطس دورًا خاصًا، لأن جميع من كانوا على غير يقين من نسبهم إلى تلك العائلات، بمن في ذلك كهنة ولاويون، وجدوا فيه يوم توريدهم. لأن سلسلة أيام التوريد الرسمية تنتهي في 20 اِيلول (أيلول)، وهو ما يتوافق بشكل لافت مع تراجع النسغ في الأشجار لدى القزويني. فبداية الخريف مع الاعتدال الخريفي في 18 أيلول/ سبتمبر (وفقًا للقزويني)، ربما كان قد أثر في ذلك. وبحسب التقليد اليهودي(167)، كان كل نوع من الخشب ملائمًا لنار المذبح، عدا الزيتون والكرمة، لأنها مهمة لحياة الفلسطينيين. وقد اعتُمدت

---

(162) *Bell. Jud.* II 17. 6

هنا يُذكَر 14 لوس (Lous) من أجل ذلك، والذي يود تسايتلين:

Zeitlin, *Megallit Taanit*, pp. 94f.,

أن يصادف 10 أيلول/ سبتمبر، والذي ذُكر في المشنا وفق دليل مكتوب بخط اليد في الـ 20.

(163) b. Taan. 31[a].

(164) J.Taan. 69[c], Ech. R. Peth. (15[b]).

(165) Midd. 11 5.

(166) Men. XIII 3, Zeb. IV 5, Schek. VI 6, b. Men. 20[ab]. 106[b], j. Schek. 50[b], Siphra 7[b].

(167) Tam. II 3, Tos. Men. IX 14, Siphra 7[b],

اللافت هنا هو ترجوم إرميا 1 حول التكوين 22:3، والذي تُعتبر أشجار الزيتون والتين والنخيل بموجبه خشب تضحية، هكذا بحسب

MS. London, Gensburger edition,

حيث طبعات "زيتا" "شجرة الزيتون" تحظى بـ "قيتا" غير مفهومة.

الفكرة القائلة إن ثمارها[168]، أي النبيذ والزيت اللذين سيجدان طريقهما إلى المذبح[169]، قد أنقذت الشجر. أما المصادر المعتادة لخشب المذبح، فهي أشجار التين والجوز والصنوبر ("عيص شيمِن") التي اعتبرت من زاوية اقتصادية شعبية أقل قيمة[170]. وقد يكون الاختيار قد وقع عليها أيضًا نظرًا إلى سهولة احتراق الخشب من غير دخان كثيف أو رائحة[171]. واستُثني من ذلك الجميز والخروب والنخل والميس ("ميش")[172] كأشجار مثمرة، واستُثني البلوط أيضًا، ربما لعفصته الجوزية (باليهودية الآرامية "أفصا"، عربي "عفص") التي كانت مهمة لدبغ لفائف القوانين وكتابتها. وإن كميات أقل من حطب الوقود كانت ضرورية لإنتاج رماد البقرة الحمراء التي لا تُعتبر أضحية. أرز وسرو وخشب من شجرة تين ملساء وأورِن، أوردها ابن ميمون في التعليق على المشنا كنوع من الأرز[173]، ويتم تسميتها لهذا الغرض[174]، وهنا يؤخذ في الحسبان الاستيراد من لبنان. وفي أي حال، كان على الغابة الفلسطينية أن تقدم مساهمات كبيرة إلى مذبح الهيكل، لأن المرء لم يكن عليه أن يأتي بالخشب من الجليل البعيد. كما انتمت عائلات من منطقتي يهودا وبنيامين إلى الموردين

(168) تناخ عن سفر اللاويين 1 :7.

(169) مدراش أغادا. عن سفر اللاويين 1 :7.

(170) ولذلك فكر المرء بأشجار التين التي لا تحمل ثمرًا، b. Tam. 29b, ابن ميمون H. Jssure Mizbeach VII 3, أي بأشجار تين بري.

(171) كما حُدّد زند الخشب: ذراعان طولًا وعرضًا. يُنظر: j. Scheck. 50b, b. Zeb. 62b.

(172) Tos. Men. IX 14, في حين يفهم المرء من: Tam. 29b, Siphra 7b, أنه كان مسموحًا بها لنار المذبح. يُقارن: Krauß, *Hebr. Un. Coll. Annual*, vol. 1, pp. 204ff.

(173) سعديا، إشعيا 44 :14 "سنديان"، نوع من البلوط يجب تمييزه عن بلوط (بالعبرية "ألون").

(174) Par. III 8.

الرسميين الرئيسين[175]، فلا بد أن تكون غابة فلسطين الجنوبية بالذات هي التي حافظت على نار المذبح.

كان تقطيع الخشب يجري في الغابة، وهو ما كان يُعتبر أمرًا مسلَّمًا به (التثنية 19:5؛ المزامير 74:5؛ حزقيال 39:10؛ سفر المكابيين الثاني 2). ولا تشمل حماية الأشجار المثمرة في أثناء الحصار في فلسطين حماية الأشجار ذات الثمار غير القابلة للأكل (التثنية 20:19 وما يلي). ولكن لا يجوز وفقًا للتقليد القانوني قص أشجار العدو المثمرة، علاوة على تقطيعها، ولا حتى الاستيلاء على مورد مائها[176]. وحطّابو الجماعة (يشوع 9:23؛ التثنية 29:10) كانوا، على ما يبدو، أناسًا يُحضرون الخشب من الغابات، وإذا لم تكن منطقتهم كافية لقبائل يوسف، كان عليهم قطع غابة الجبل، أي تحويلها إلى أرض صالحة للزراعة (يشوع 17:15، 18). ويجري التمييز في أيام الراحة خشب الحقل من خشب مشارف المدينة ("قَرباف"، "قربيف") من دون التطرق إلى المسألة القانونية[177]. ونظرًا إلى الرعي، عرف المرء مرسومًا يعود إلى يهشواع ويفسح في المجال لاستخدام الغابة كمرعى للماشية الصغيرة بغض النظر عن مالكها، والتي لم يكن مسموحًا للمرء الاحتفاظ بها في مكان آخر[178]. وقيل أن أبناء منطقة يهودا سُمح لهم بالرعي في منطقة نفتالي، أي في الجليل[179]. وكان سكان إحدى مدن الجليل الأعلى يملكون غابة بالقرب من مدينتهم، إلا أنهم

---

(175) Taan. IV. 5;

يُنظر:

Schürer, *Geschichte*, vol. 2, p. 316.

(176) سِفر التثنية 203 (111ب)، مدراش، تانيت. عن التثنية 20:19.

(177) Bez. IV 2,

يُقارن:

Tos. Erub. VI 9, Jom Tob III 1.

(178) Bab. k. VII 7, b. Bab. k. 79^{b},

إلا أن العجول التي ترعى والنساء الباحثات عن الحطب تدمر الغابة الصحراوية في إشعيا 10:27 وما يلي.

(179) j. Bab. b. 15^{a}, b. Bab. k. 80^{b}, Erub. 17^{a},

يُقارن:

Bloch, *Instituitionen des Judentums*, vol. 1, pp. 54ff.

أرسلوا ماشيتهم إلى غابات أخرى، إذ إنهم ضلّوا الطريق الذي يقودهم عبر أحد الحقول(180)، فالمسألة إذًا لم تكن تتعلق بحماية الغابة(181). وتُظهر رسومات مصرية قديمة من القرن الثالث عشر قبل الميلاد أن المرء كان في حالة الحصار يترك الماشية تفر إلى الغابة(182). آنذاك، كان يُنظر إلى التدمير الحقيقي للغابات بأنه شيء مؤلم (يُقارن أعلاه، ص 82). ويعرف إشعيا ماذا يعني أن فتى يستطيع عد الأشجار حين كانت قبل ذلك غابة (إشعيا 10:19)، وحين تسقط أشجار تعتز بنفسها ضحية للفأس (إشعيا 10:33 وما يلي؛ "مَعدير" أو "عَدّير" بدلًا من "أدّير"، يقارن زكريا 11:2)، وحين يمتد حريق أشواك إلى الغابة (إشعيا 9:17؛ 10:17 وما يلي).

مع ذلك، تَماثل عدد السكان القليل مع قلة الحاجة إلى إيقاد النار. والحروب دمرت الغابات بالتأكيد كما تُظهر ذلك صورة مصرية قديمة لحدائق أشجار مثمرة لمدينة مقفرة(183). ولكن في الأوقات التي تتبع إقفار الأرض، تكون الغابات قد امتدت، وربما وصلت حتى الأراضي الصالحة للزراعة، كما لاحظتُ ذلك في غرب السامرة وهو ما افترضه الأنبياء في (إشعيا 27:10؛ إرميا 26:18؛ ميخا 3:12؛ هوشع 2:14). وقد أدت الأوقات الهادئة إلى زيادة عدد السكان، وبالتالي زيادة الطلب على الخشب وتوسع الأراضي الصالحة للزراعة على حساب الغابات. وفي الأزمنة الأكثر حداثة، أدت زيادة عدد السكان الأوروبيين وزيادة الطلب على التدفئة وإدخال الطواحين البخارية وصناعات صغيرة أخرى، إلى ازدياد الطلب على الخشب، ما ترك أثرًا مدمرًا على الغابات.

---

(180) b. Bak. k. 80ª,

شبيه

Tos. Bab. k. VIII 14.

(181) يجوز للمرء في وقت الحرب إحضار الحطب من أي مكان،

Erub. I 10,

لكن في الحرب الإجبارية فحسب يُسمح باستخدام الخشب الجاف والخشب الطري.

(182) Wreszinski, *Atlas z. altägypt. Kulturgeschichte*, vol. 2, Bl. 53 (Kadesch), 71 (Mutir).

(183) Ibid., p. 65.

وعندما طلبت الحكومة التركية منّي تقييم وضع الغابات في فلسطين، قدمت، علاوة على أمور أخرى، الاقتراحات التالية:

1. يجب توفير احتياجات الوقود الخاصة بالمدن بخفض سعر الفحم من خلال إيجاد ظروف استيراد ملائمة، بحيث يجد أهل المدن حافزًا للانتقال من استخدام الخشب كوقود إلى استخدام الفحم، وأن يصبح بيع الخشب أقل ربحية.

2. يجب وضع جميع بقايا غابات الأشجار والشجيرات تحت مراقبة الدولة التي عليها أن تتأكد من أن القرى التي تتبع لها هذه الغابات تقوم باستغلالها بطريقة تسمح ببقائها.

3. يجب أن تخصص الدولة منطقة غابات محددة، على أن تقوم فيها مدرسة تحريج مهمتها تدريب موظفين مدنيين للإشراف والمراقبة في القرى، وتقديم النصيحة الملائمة في إدارة الغابة أيضًا.

ينبع ذلك كله من زاوية الدفع قدمًا بمصلحة البلد بشكل عام، وبمصلحة تلك القرى التي تعود إليها الغابات. وكبؤرة لتجديد الغابة الفلسطينية، اقترحتُ المنطقة الواقعة إلى الشمال من بيت جبرين. وعليّ الاعتراف بأني لم أجد حلًا لمشكلة مراعي الماشية الصيفية. وقد طالب راب بابا (Rap Papa) [حاخام بابلي توفي سنة 375] ذات يوم بالسماح للماشية الصغيرة بالرعي في الغابة العالية ذات الأشجار الكاملة النمو، للحفاظ على الغابة، ولمصلحة أصحاب الغابة، وعدم السماح للماشية الكبيرة أن ترعى لا في الغابة ذات الأشجار ولا في الغابة ذات الشجيرات[184]. وتكمن المسألة، على أرض الواقع، في أن من غير الممكن الفصل بشكل واضح بين الغابة ذات الأشجار الكاملة النمو والغابة الصغيرة الأشجار. لكن ما هو مؤكد، أن التذمر المعتاد لدى الفلاحين وماعزهم، ومنع الرعي في الغابات لن يحلّا المشكلة المتأصلة في حاجة المواشي إلى العلف.

---

(184) B. Bab. k. 81a,

يُقارن ابن ميمون:

Hilkh. Nizke Mamon V 3.

ولم أعرف قط أي اعتبار حظي به التقويم الذي قدّمته. لكن يمكنني التخمين أن حكومة يكمن جل مصلحتها في إرضاء الدائنين الأوروبيين لم تكن تمتلك الشجاعة للقيام بشيء يمكن أن يعني في البداية زيادة في النفقات وتراجعًا في الإيرادات.

د. درجات الحرارة والندى في الخريف

يلاحظ كل امرئ أن "النهار" يُصبح أقصر في الخريف، كذلك ينخفض موضع الشمس. فحين تشرق الشمس في بداية تشرين الثاني/نوفمبر حوالى الساعة 6:30 وتغيب في الساعة 5:00، يكون قد خيم ظلام كامل عند اقتراب الساعة من 6:00[185]، وحينئذ يكون لدى المرء مسوغ للإحساس بأن النهار قصيرٌ، فيُقال[186]: "أيام الزيت طول الخيط"، أي: "أيام (تحضير) الزيت بطول الخيط"، و"أيام الزيت أصبحت اِمْسَتْ"، أي: "بالكاد يبدأ النهار في أيام الزيت حتى يأتي المساء". لكن، ربما أكثر من ذلك يشعر المرء بازدياد برودة الهواء في الخريف، كون الملابس والبيت، وبشكل خاص الخيمة، معدة لذلك بشكل غير وافٍ. وعن عيد التجلي في 6 آب/أغسطس يقول المرء: "عيد التجلي بقول للصيف ولّي"، أي: "إرحل عنا!" (رام الله). وفي الجليل يرجع المرء حتى 20 تموز/يوليو، فيُقال: "مار اِلياس بيقول للصيف مِكناس"، أي: "يقول القديس إلياس للصيف مكنسة (إرحل عنا)![187]"، وهكذا تنطبق القاعدة: "في آب عاب الصيف عاب"، أي: "في آب ينتهي عيب الصيف". وبحلول 14 أيلول/سبتمبر يكون الصيف قد انقضى نهائيًا، فيُقال[188]: "مَالَك صيفيّات بعد الصليبيات": "ليس لديك صيف بعد عيد الصليب"[189]. ويقال أيضًا: "طِلِع

---

(185) يُقارن ص 44.

(186) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 299.

(187) Ibid., pp. 297f.

(188) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, pp. 27, 31.

(189) كذلك في لبنان يعرف المرء المثل القائل بأن لا صيف بعد عيد الصليب، إلا أن المرء يتحدث كما في ص 106 عن "صيف ثانٍ"، أي عن وقت حارٍ وجافٍ يُفترض به أن يبدأ بعد هذا الوقت. وعن ذلك يُقال: "بعد الصليب الأخراني صيف ثاني"، أي: "بعد عيد الصليب المتأخر (الخاص بالروم)، يأتي صيف ثانٍ". وهذا الصيف الثاني لا يستثني أن تتمتع هذه الأشهر بأوقاتها الباردة أيضًا لأن: "برد التشارين بِهِرّ المصارين"، أي: "برد شهري تشرين يفسد الأحشاء"، أي يكون بداية ظهور الزحار. (مجلة **المشرق** (1905)، ص 689).

سهيل آوي الخيل": "ظهر سْهيل عليك أن تُؤوي الخيل". ويقوم ذلك كله على ملاحظة أن الليالي بدأت تصبح أكثر برودة، باستثناء أوقات الريح الشرقية.

بحسب إكسنر[190]، لوحظ أن معدل الانخفاض يصل إلى 4.1 درجات مئوية في الخريف، وقدّر الحرارة في يافا بِـ 21.3 درجة مئوية و18.2 في القدس و25.4 في طبرية. وإذا أضفنا أيلول/ سبتمبر إلى الخريف، وهو ما علينا القيام به، خاصة أن هبوط درجات الحرارة يبدأ فيه، نجد بالقرب من القدس معدل درجات الحرارة التالية للأشهر على انفراد: أيلول/ سبتمبر 21.5، تشرين الأول/ أكتوبر 19.5، تشرين الثاني/ نوفمبر 13.5، كانون الأول/ ديسمبر 9.4، أي هبوط حاد في درجة الحرارة بدءًا من تشرين الثاني/ نوفمبر. وهنا تتقلّب درجة الحرارة في أيلول/ سبتمبر بين 28.7 و15.9، وفي تشرين الأول/ أكتوبر بين 25.8 و14.3، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر بين 18.5 و9.5، وفي كانون الأول/ ديسمبر بين 13.3 و6.2، وهذه كلها اختُصرت إلى المعدل، في حين أن الأرقام الحقيقية قد تكون في الواقع أعلى أو أقل. وقد سُجِّلت أعلى درجة حرارة في السنة بحسب غلايشر (Glaisher)[191] في سياق 20 سنة أربع مرات في أيلول/ سبتمبر وبلغت 36.1 حتى 39.4 درجة مئوية. أما التقلب في الأشهر، كل شهر على انفراد، فقد بلغ في أيلول/ سبتمبر بين 35.2 و13.3، وفي تشرين الأول/ أكتوبر بين 32.2 و10.5، في تشرين الثاني/ نوفمبر بين 25.4 و5.3، في كانون الأول/ ديسمبر بين 19.9 و0.6. وبحسب جدول إكسنر، فإن متوسط تقلّب درجات النهار يتراوح بين 0.5 درجة تقريبًا في كانون الأول/ ديسمبر و0.6 درجة في أيلول/ سبتمبر، وذلك حين تُحتسب العلاقة النسبية بين أعلى درجة حرارة وأكثرها انخفاضًا. ويعني هذا التقلب فارقًا كبيرًا جدًا بين الليل والنهار، الأمر الذي لا يحصل عندنا [في ألمانيا]، وهو ملائم لتشكُّل الندى. ويعتبر يعقوب ذلك جزءًا من إنجازاته حين كان في خدمة لابان، حيث كان الحر يأكله في النهار ويأكله الصقيع في الليل (سفر التكوين 31:40). وفي حكاية يسوع (متّى 20:12) يتحسر العمال الذين كانوا قد استُؤجروا في الصباح على عبء اليوم وحرارته.

(190) *ZDPV* (1910), pp. 118f.

(191) Glaisher, *Meteorological Observations at Jerusalem*, p. 7.

من ضمن ما يتميز به الخريف هو التقارب الكبير بين درجة حرارة بعد الظهر ودرجة حرارة الصباح، أي اقتراب الحد الأعلى في ميزان الحرارة من الحد الأدنى؛ فبداية الخريف بالذات تُظهر أحيانًا تصاعدًا في الظروف المناخية المميزة للصيف. وقد أورد شابلن (Chaplin)[192]، مستندًا إلى متوسطٍ حسابي مقداره ثماني سنوات يتعلق بشهر أيلول/ سبتمبر، أن الفارق الأكبر بين الحد الأعلى والحد الأدنى في درجات الحرارة على مدى العام بأكمله بلغ 24.1 درجة فهرنهايت، أي 13.4 درجة مئوية. وانخفض هذا الفارق في تشرين الأول/ أكتوبر إلى 13.1 درجة مئوية وفي تشرين الثاني/ نوفمبر إلى 10.4 درجات مئوية. ووفقًا لمعدل درجات حرارة الصباح والظهيرة التي يوردها إكسنر[193] بالنسبة إلى القدس، يحصل الفارق الأكبر، ومقداره 9.5 درجات مئوية في آب/ أغسطس، في حين أنه في أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر تُظهر الأرقام 8.4 و7.9 و6.4 درجات مئوية على التوالي تراجعًا مطردًا[194]. إذًا ليس معدل درجة حرارة الشهر وحده هو الذي يتراجع في سياق الخريف، بل كلما مرت أيام أكثر يستطيع المرء توقّع أن بداية بعد الظهر الذي تبلغ أقصى درجات حرارة النهار فيه بين الساعة 1 والساعة 2، لن يكون مختلفًا بشكل كبير عن درجة حرارة الصباح. ويعود السبب في ذلك إلى موضع الشمس الواطئ، وبالتأكيد إلى زيادة الغيوم أيضًا، إضافة إلى تدني نفاذية أشعة الشمس للهواء. وعلى هذا النحو يخف الجهد البدني لأولئك العاملين في الخلاء، كما يشعر المرء في ظلال بيته بانتظام أكبر لدرجة حرارة النهار التي يظهر تأثيرها هناك بشكل أقوى، كون الهواء صارٌ لطيفًا.

هذه الظروف كلها تعني انخفاضًا عامًا في درجات الحرارة إلى مستويات نعرفها بالنسبة إلى بداية الخريف، ولكن بتقلبات عامة ويومية غير مألوفة عندنا

---

(192) *PEFQ* (1883), p. 39,

يُقارن ص 14.

(193) *ZDPV* (1910), p. 154.

(194) شيء شبيه بذلك كان قد رصده راسل في حلب. يُنظر:
Russell, *Naturgeschichte von Aleppo*, vol. 2, pp. 213ff.

[في ألمانيا]، والتي تتطلب من الجسم قدرة أكبر على التكيّف. أما حسنة الخريف فتكمن، في واقع الأمر، في أن المرء يشعر بتأثير الشمس في داخل البيت وخارجه ما يجعله لطيفًا، فيحجم المرء عن البحث عن الظل، مفضلًا حتى الجلوس حيث ضوء الشمس؛ فمناخ المنطقة المعتدلة، ولفترة قصيرة، أزاح تقريبًا المناخ شبه الاستوائي.

وعند القزويني[195] يحظى المرء بانطباع حيوي عن تناقص درجة الحرارة بشكل متزايد في سياق هذه الأشهر. "عند ظهور نجم الزُبرة (لموقعه على ظهر الأسد، في 24 "آب") يُصبح الليل باردًا، في حين تهب رياح السموم خلال النهار". ويعني طالع نجم الصرفة (قلب الأسد) في 9 اِيلول (أيلول/ سبتمبر)، التحول ("اِنصراف") من الحر نحو البرودة. وعن طلوع بعض نجوم برج العذراء في 22 اِيلول، يقول المثل: "اِذا طلعت العوا طاب الهوا وكرَّت الغِوا وشنّن السقّا وضُرِب الخِبا"، أي: "عند طلوع 'العواء' [النجوم الأربعة على منكب العذراء الأيسر] يطيب الهواء ويتوقف النوم في البرية[196]، وتفسد قربة الماء وتُنصب الخيمة". وعن 18 تشرين الأول/ أكتوبر يُقال: "اِذا طَلَع الغَفَر اِقشعرّ السقر ويَزيل النظر"، أي: "عند طلوع الغفر (نجوم ثلاثة أخرى من نجوم العذراء)، يرتجف السقر. ويختفي تألق (الطبيعة)". وعن 31 تشرين الأول/ أكتوبر: "اِذا طَلعَت الزُبانة فأجمع لأهلك ولا تِتْوانى"، أي: "إذا طلع "مقص" (العقرب)، إبقَ في البيت ولا تخرج بحثًا عن غنيمة!". أما 26 تشرين الثاني/ نوفمبر، فيتفوق على كل ما سبق: "اذا طِلِع القلب جاء الشتا كالكلب، وترى أهل البِدو في الكرْب"، أي: "إذا طلع القلب (قلب العقرب)، يأتي الشتاء كالكلب وترى أهل البداوة في خوف". ومع هذا، يتواءم القول الخاص بِـ 9 كانون الأول/ ديسمبر: "اذا طلعَت الشولا اِشتَدَّت مع العيال العولا"، أي: "إذا طلع ذنب (العقرب)، يشتد التذمر لدى الناس"، وهنا لا يتعلق الأمر بالبرد وحده، وإنما يتعلق أيضًا بموسم الأمطار الذي يكون قد بدأ.

---

(195) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 46ff.

(196) وفقًا لتفسير القزويني.

ليس هناك على ما يبدو من رصد علمي للندى المتساقط في فلسطين؛ فالمعدل اليومي لرطوبة الهواء في القدس، بعد حد أدنى في أيار/ مايو (49 في المئة)، يُظهر تصاعدًا تدريجيًا حتى آب/ أغسطس (60 في المئة)[197]، وهو مساوٍ لذلك في أيلول/ سبتمبر، في حين يعود فينخفض في تشرين الأول/ أكتوبر إلى 54 في المئة، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر يبدأ الارتفاع إلى الذروة الشتوية البالغة 65 في المئة[198]. وواقع الأمر أن الزيادة في البرودة والرطوبة الكبيرة تجعل من غير المريح والضار للصحة قيام أهل المدن بالنوم على سطوح منازلهم، والفلاحين في معرّشٍ أمام بيوتهم، والرعاة في حظيرة قطيع مفتوحة (بالعربية "صير") أو في العراءً، كما هو مألوفٌ في الصيف بدءًا من حزيران/ يونيو حتى لو قام المرء، كما اعتاد الشرقيون، بسحب الغطاء فوق الرأس. ولذلك يعود الناس إلى أماكن نومهم مرة أخرى إلى البيت الذي ينظم درجة حرارته، عند الفلاحين بشكل أساسي، من خلال الباب وثقوب هواء صغيرة، لأن ليس للنوافذ في الغالب شأن في الأمر، في حين ينسحب الراعي مع قطيعه إلى داخل مغارة، في حال لم يقم، جراء تغير في المناخ، بالارتحال إلى الساحل أو غور الأردن. وفي 14 آب/ أغسطس يُقال[199]: "طِلع سهيل آوي الخيل"، أي: "طلع السهيل، أَدخِل الخيل". إلا أن التاريخ الأكثر أهمية الذي يُشير إلى تغير درجات الحرارة والمعترف به لدى المسلمين أيضًا، هو 14-27 أيلول/ سبتمبر، أي عيد رفع الصليب ("عيد الصليب")، أي حفل تدشين كنيسة قسطنطين ذات الفن المعماري الخاص في القدس في سنة 336 ميلادية، والذي جرى خلاله، بشكل احتفالي، رفع خشب الصليب الحقيقي وتوجيهه نحو الاتجاهات الأربعة[200]، ومن أجله تدفق جميع الناس ذات مرة من المشرق نحو القدس. ويحتفل المسلمون سنويًا بعيد النبي روبين (بالعربية "مُوسَم") في جنوب يافا

(197) وفقًا لِراسل، يبدأ الندى الليلي بالتساقط بشكل ملحوظ في حلب في آب/ أغسطس.
Russell, *Naturgeschichte von Aleppo*, p. 213.

(198) Exner, *ZDPV* (1910), p. 137,

يُقارن ص 154.

(199) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 31.

(200) Dalman, *Orte und Wege Jesu*³, p. 375.

بالتزامن معه، تمامًا مثل الحج إلى مقام النبي موسى بالتزامن مع عيد الفصح المسيحي. وتعود خلفية عيد الصليب الفلكية إلى الظهور المبكر للسِّماك الرامح [نجم في كوكبة العواء] في 18 أيلول/ سبتمبر، والذي يُشير، وفقًا لأبقراط الزائف إلى نهاية الصيف(201). وعلاوة على ذلك، يصادف الاعتدال الخريفي، تبعًا للمنظور العربي، اليوم نفسه(202)، الذي ربما كان السبب وراء قيام الناس في دمشق بإشعال النار في عيد الصليب والقفز فوقها وإطلاق البالونات(203)، أي إنه نوع من الاحتفال بالانقلاب الشمسي جرى نقله إلى دمشق. ويتزامن توقيت الاحتفال مع بداية سيطرة نجم السهيل ("سهيل") في 14 "آب"(204). لذلك يقول المرء عن عيد الصليب: "عيِّد واِطلع صَلِّب واعبر"، أي: "احتفل بعيد الفصح وأخرج (بالقطيع) احتفل بعيد الصليب وأدخل" (كفر أبيل). أو: "بعد الصليب لا تّأمِن الصبيب"، أي: "بعد عيد الصليب لا تثق بالندى الغزير"(205)، أي لا تشعر أنك متحرر من أذاه ولا تنام خارج البيت (رام الله). فمن المؤكد أنه(206): "متى صَلّبت خَرَبَت"، أي: "حين ينتهي عيد الصليب يأتي القحط". ويورِد القزويني أن مع بداية سيطرة الـ"جِبهة" (جبين الأسد) في 14 "آب"، والتي تطلع مع "سهيل"، يبدأ الندى ("طَلّ") بالتساقط(207).

وبالنسبة إلى الفلسطيني، يُدعى الـ"صِبيب"، الذي يعود إلى دائرة تأثير السهيل، "سُهيل" أيضًا. والندى يتخذ شكل القطرة، ويكتسب صفة مميزة للصيف. ويتشكل الندى عند الاقتراب من نهاية أيلول/ سبتمبر مع ازدياد

---

(201) Ideler, *Chronologie*, vol. 1, p. 250,

يُقارن أعلاه، ص 48 وما يليها.

(202) يُنظر أعلاه، ص 46.

(203) Bergsträßer, *Zum arab. Dialekt von Damaskus*, vol. 1, p. 69.

(204) يُقارن أعلاه، ص 90.

(205) هكذا تم تفسير الصبيب لي، في حين أن توفيق كنعان يترجمها إلى "صقيع"، مع أن الصقيع يظهر في تشرين الثاني/ نوفمبر فحسب:

Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 273.

(206) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 298; Stephan, *JPOS*, vol. 2, p. 163,

حيث يتم التعاطي مع المطر على أنه الفاعل بدلًا من "الدنيا".

(207) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 46.

البرودة الليلية حتى بداية المطر، وبشكل مُغاير للندى، وهو الشكل المألوف للطلّ الذي له صلة بالغيوم أو الضباب. ولا يُشكل الندى عادة تلك القطرات التي يراها المرء في الخريف على أوراق النباتات في الصباح، أو تحت سماء صافية دونما سُحِب. ويخرج المرء ليلًا تحت ضياء نجوم ساطعة ويشعر كيف تتساقط قطرات على وجهه. حينئذ يقول العربي: "الدنيا ترمي صبيب"، أي: "يتساقط ندى غزير". وفي أعقاب مثل هذا الندى سال الماء من مزراب مصح المجذومين بالقرب من القدس في صباح 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1921. كما سمي ذلك "صبيبًا" في 5 نيسان/ أبريل 1909 في النبطية وفي الجولان، حين كانت جُدُر خيمنا قد انتقعت تمامًا بالندى الليلي، كما لو أن أمطارًا قد تساقطت. وربما يستند التكهن بحالة الطقس عشية عيد الصليب (ص 28) إلى أن الندى المتساقط على شكل قطرات لا يُصيب كل نقطة بشكلٍ مستوٍ.

ليس هناك من شكٍ في أن تشكُّل مثل هذا الندى يعتمد على الريح والطقس، ويستحيل تشكله في فترة هبوب الرياح الشرقية. ولكن إذا كان التقليد الشرعي اليهودي يمنع صيد الجراد غير المجنح في يوم السبت عند وقت الندى، ويجيز ذلك في وقت الحر[208]، حينئذ سيكون قد جرى الانتباه ليس إلى هذه الفترات بل إلى أوقات اليوم التي يحصل فيها الندى أو الحر، أي في الصباح أو عند الظهر[209]، خصوصًا أن للتشديد صلة بالسؤال: هل كان الجراد يتنقل أو يجثم هادئًا؟ ويصح القول العربي[210]: "بارد زي الجراد على الندى"، أي: "بارد مثل الجراد عند الندى". كما أن ناحوم (17:3) يعلم أن الجراد يجثم بشكل ساكن على الجُدُر الحجرية في المناخ البارد، ويطير عند طلوع الشمس.

---

(208) Tos. Sabb. XII 5, j. Sabb. 14b, b. Sabb. 106b.

(209) هكذا أيضًا:

H. Klein, *ZDPV* (1914), p. 302,

في حين أن

Krauss, *Talmud. Archäologie*, vol. 2, p. 154,

يفترض بشكل خاطئ الصيف والشتاء.

(210) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 185.

المقصود هنا قطيرات الندى، حين يتحدث الحبيب الذي يسعى ليلًا إلى الدخول إلى عشيقته عن قطرات الليل على خصلات شعره (نشيد الأنشاد 2:5). وقد ينتمي إلى ذلك أيضًا الندى المتقطّر من السماء في التثنية (28:33)؛ الأمثال (20:3)؛ سيراخ (22:43)؛ الندى المتساقط على الأرض في صموئيل الثاني 12:17؛ حيث هو صورة لغارة على عدو؛ ندى الأنوار في إشعيا (19:26)[211] الذي يأتي بالقيامة بعد الموت؛ ندى الشباب المولود من رحم الصباح في المزامير (3:110)؛ الندى فوق جبل الشيخ في المزامير (3:133). ليس هذا ندى الخريف الذي ربما فكر المرء فيه على الفور حين يستعرض هذه الأمثلة، لأن ندى الصيف يشكل صورة ملائمة أكثر للبركة الربانية. إلا أن صورة القطرات المتساقطة والمرئية لم تكن لتظهر لو لم يكن هناك ندى الخريف. ويمكن القول عن ندى الخريف[212]: "الندى فراش الشتا"، أي: "الندى هو فراش الشتاء"، فإذا وصل الأمر إلى تساقط مثل هذا الندى، فلا بد أن الشتاء صار وشيكًا.

هـ. نوّار قبل المطر

يشكل الندى الخريفي همزة وصل مهمة مع باكورة المطر. إنه السبب في بدء عالم النبات استعادة نشاطه من جديد. في نهاية آب/ أغسطس، أو في منطقة الشجيرات الصخرية[213] التي يجب تمييزها من الأرض الزراعية ومن مناطق الشجيرات الخفيضة والأحراج؛ هناك في كل مكان في الجبال تطلع البصيلات الكبيرة للعنصل البحري (Urginea maritima، بالعربية "بُصّيل"، "بوصَلان"، "غوصَلان"، "خوصَلان"، "غيصَلان"، "عيصلان"، "عُنصل") من التربة، وبشكل إعجازيّ، سويقاتها الجذرية التي يصل ارتفاعها إلى 1.25 م والمكسوة بأوراق

---

(211) عادة ما يستخدم سعديا "تلّ" للكلمة العبرية "طَل"، ولكنه استخدم هنا "ندى الأنوار"، كما يُترجم "اِجلي طَل" الواردة في أيوب 28:38 بـ "ندى الطل". هل فكر هنا بندى الغيوم؟

(212) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 286.

(213) φρυγανα هي في اليونانية الحديثة نباتات أشجار خفيضة تتميز من الأشجار الخفيضة (*macchia*) بأنها أشجار مُنعت جذوعها من النمو. يُقارن:
Heldreich in: Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 523, 533ff.

بيض صغيرة. وقد لاحظتُها في 15 آب/ أغسطس 1910 في وادي فارة، وفي 31 آب/ أغسطس 1921 و2 أيلول/ سبتمبر 1925 بالقرب من القدس، وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر على اليرموك في غور الأردن[214]. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر تظهر الأوراق العريضة الوارفة بعد أن يكون المطر قد تساقط[215]. وحين يُطلق المرء على السويقات الجذرية "خريف"، حينئذ ربما ينظر المرء إليها كعلامة لفصل السنة هذا. يتمتع "عود (قضيب) الري"، أي: "عود السقي" بأهمية تنبؤية؛ فأزهاره تعتبر رسول مطر الشتاء ونمو البذار. ويتوقف الأمر على ما إذا كان الجزء الأعلى أو الأوسط أو الأسفل من غشاء الزهرة ممتلئًا بوفرة ويطور بذورًا، ويخرج البذر المبكر أو الأوسط أو المتأخر للشتاء[216]. وهنا يستطيع المرء تدبير أَمر البذر وفقًا لذلك. والأمر ذاته بالضبط يورده أراتوس (Aratus)[217] في القرن الثالث قبل الميلاد، مشيرًا إلى أن العنصل البحري (σχιλλα) الذي تناظر أجزاؤه أوقات البذار الثلاثة في الشتاء، يتنبأ بالوقت الذي يتمتع البذار فيه بفرص النجاح الأفضل.

يحظى العنصل البحري بأهمية عملية كسُم للفئران، وكعلامة حدود بين الحقول على سواحل الصحراء السورية - المَصرية في أرض الفلسطينيين (Philistia)[218]. وعلى هذا النحو يحتل مكانه في الشريعة اليهودية اسم نبات يدعى "حاصاب" أو "حاصوب"[219]. ويُروى أن نوحًا نقله معه في سفينته

---

(214) *PJB* (1922-1923), pp. 44f.

(215) Killermann, *Die Blumen des Heil. Landes*, vol. 1, p. 41,

يجعلها تُطلق أوراقًا وأزهارًا في الربيع بعد فترة البيات الشتوي، وهو ما لا تقوم به. يُنظر أيضًا:

Post, *Flora*, p. 795; Bauer, *ZDPV* (1915), p. 56.

(216) وسيط الوحي هذا فهمه بشكل خاطئ:

Cana'an, *ZDMG*, vol. 70, p. 171.

(217) Prognostica 1059,

شبيه بذلك

Theophrast, *Hist. Plant.* VII 13, 6.

(218) لاحظت ذلك بنفسي في سنة 1921. يُنظر:

PJB (1924), pp. 56, 65.

(219) j. Pea 16[d], b. Bab. b. 55[a], 56[a], Pesikt 137[b], Pes. Rabb. 149[a],

يُقارن:

Löw, *Flora*, vol. 2, pp. 188f.

كطعام للغزلان[220]. وقد اكتشفتُ أن الغزلان تأكل أوراق العنصل البحري من دون أن يشكل ذلك شيئًا مميزًا لها. وفي هذا السياق يبقى في حكم الغامض هل أن المرء يستطيع أن يرى الغزلان ترعى "بين الزنابق" كما ورد في نشيد الأنشاد (5:4)[221]. وقد شكلت الأسماء العربية "غوصَلان" و"خوصَلان"، والتي تذكّر بـ "حَبَصّيْلِت" العبرية، أحد الأسباب التي دفعتني إلى القول إن هذا الاسم يُشير إلى العنصل البحري، جنبًا إلى جنب مع البروق [نبات من الفصيلة الزنبقية] الذي يظهر بعد سقوط المطر[222]. وهذه الزهرة (إشعيا 1:35 وما يلي) ترمز إلى صحراء عادت إليها الحياة من جديد، وفي نشيد الأنشاد (1:2) كصورة لعذراء جميلة، وهو ما تتلاءم معه بشكل جيد سويقة الزهرة الرفيعة، مع أنها بلا رائحة.

إن زهر اللحلاح الخريفي (Colchicum Decaisnei وSteveni) البنفسجي الباهت أكثر تواضعًا، لكنه منتشر جدًا. وقد شاهدته أول مرة في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1921، وقطفته في تشرين الأول/ أكتوبر 1912 و1913. وقد شوهد إلى جانب زعفران أبيض صغير (Crocus hyemalis، بالعربية "بزّيز"، "شُحيم")، في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1921 بالقرب من القدس. ومن أزهار العنصل الخريفي واحدة زرقاء باهتة (Scilla autumnalis، بالعربية "خزيم") كانت قد أزهرت في نهاية أيلول/ سبتمبر 1908. ويعتبر لوف[223] أزهار اللحلاح الخريفي هي نفسها "حَبَصّيْلِت" العبرية (يُنظر أعلاه)، استنادًا إلى اسمها السرياني "حَمصَلايتا"، إذ لا يلائم زهرها الصغير غير اللامع ذلك، لكن أهميته تكمن في أنه يستبق المطر. ومن هنا يُطلق اللسان الشعبي عليها "مبَشِّرة الشِتا" و"بِشيرة المطر"، أي "المبشرة بالشتاء وبشيرة المطر". أما الاسم الشعبي الآخر

---

(220) Ber. R. 31 (62b),

يُقارن:

Tos. Sabb. XIV 8, j. Sabb. 16b, b. Sabb. 128a.

(221) عن زنبق الكتاب المقدس، يُنظر:

PJB (1925), pp. 90ff.

(222) Marti, *Festschrift* (1925), pp. 62ff.

(223) Löw, *Flora der Juden*, vol. 2, pp. 156ff.

"سراج الغولة"[224]، الذي يطلَق على الزعفران أيضًا، فيوحي بأصل غامض. وإذا كان لسُمّية الزعفران علاقة بذلك، فهو موضع شك. ويحوّل الأطفال اسمه إلى واقع من خلال تعبئة كأس الزهرة بالزيت وإشعال فتيل صغير في داخلها. وإن جميع هذه الأزهار تنمو على تربة جافة بين بقايا ميتة من نباتات الصيف، وهذا ما يجعلها تبدو معجزة من معجزات الخالق. ولذلك لا يتعجب الفلسطيني من أن القدرة الإلهية على إعادة بعث الأموات كما ورد في إشعيا (19:26) تتمثل في صورة ندى يأتي بخضرة نضرة[225].

و. تلاوين الخريف وسقوط أوراق الشجر

على الرغم من أن أوراق أشجار الحور الأسود والسنط والبرقوق تبدأ بتغيير لونها في القدس في آب/ أغسطس، فإن الحديث، قبل تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر، عن الخريف كالحديث عن الزمن الأصفر ("صفر"). والخريف لدى البدو يشمل أيلول/ سبتمبر حتى تشرين الثاني/ نوفمبر. وبداية ينطبق الاسم على النباتات البرية الخفيضة ("عشب") الذي يخدم الماشية في حالة الاخضرار كمرعى، لكنه ينطبق أيضًا على القصب ("قُصيّب") وعلى شجر الصفصاف ("صفصاف") بالقرب من الينابيع والأودية. أما الألوان الحية النابضة التي تزيّن خريفنا [في ألمانيا]، فهي غريبة على فلسطين، إذ يغيب اللون الأحمر البني الداكن لأشجار الزان لدينا والأشجار الدائمة الخضرة التي تمتلك أهمية كبيرة. إلا أن شجيرات الرمان تصبح في تشرين الأول/ أكتوبر صفراء، وأوراق العنب خضراء مصفرة. وينطبق الأمر كذلك على أشجار الإجاص وعلى أشجار السنط الآتية من الخارج، وعلى الحور الأسود. وتتحول أوراق التين قبل تساقطها، أوراقًا ضاربة ألوانها إلى السمرة وإلى السواد. والخريف في فلسطين ليس هو وقت نضوج الثمار الفعلي. وحده الزيتون يصل

---

(224) التسمية العربية "وَدعة" التي فسرها كنعان

Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 300,

على أنها "وداع"، ربما بسبب لونها، وهي تشير إلى الصدفة الصفراء (Cyraea moneta) التي تحمل الاسم "ودعة".

(225) يُقارن:

j. Ber. 9[b], Taan. 63[d],

حيث يتم التفكير في الندى كمتسبب في حصول القيامة.

الآن إلى الاكتناز الكامل بالزيت ويحصل على لونه الأزرق. أما ثمار الصيف، إذا كانت لا تزال موجودة، فستصبح ناضجة أكثر مما ينبغي، ولذلك يُقال عن الخيار (Cucumis sativus بالعربية "خِيار"): "اِخيار تِشرين شِمّنِ ولا تِشترِينِ"، أي: "خيار تشرين الأول شمني ولا تشتريني!"، فالرائحة وحدها هي الجيدة فيه الآن. والعنب لا يزال موجودًا على الكرمة، خاصة إذا قام أحدهم بتأخير نضوجها بشكل صناعي من خلال تغطيتها، إلا أنها تبدأ بالذبول ("ذِبلُ"). ولا يخفى أن تراجع النسغ في الأشجار غير الدائمة الخضرة يتسبب في أن تصبح الأوراق باهتة وأن تتساقط في النهاية. ثمة وصف مناظر قدمه القزويني[226] لـ 20 أيلول/ سبتمبر: "يتراجع الماء من الجزء العلوي للأشجار إلى الجذور". وبلا شك يمكن تأخير هذه العملية في الشجر النامي بالقرب من الماء، أي القريب من الينابيع والأودية، وهو ليس بالأمر الغالب في فلسطين، أو المغروس في أرض تُسقى من الينابيع، وهو ما يحصل على نطاق واسع في غور الأردن. وهناك لا تتمتع حرارة الصيف والريح الشرقية بالتأثير نفسه الذي تتمتع به عادة، وجفاف الخريف يبدأ متأخرًا بعض الشيء. ولكن حين تأتي العواصف وبرد كانون الأول/ ديسمبر، تذعن الأشجار أينما كانت لقانون الطبيعة. ويظهر هذا واضحًا بشكل خاص في أشجار التين ذات الأوراق الكبيرة التي كثيرًا ما تنمو بشكل برّي؛ فجذوعها المنحنية فاتحة اللون، وأغصانها المتشابكة تكاد تكون في الصيف مغطاة بشكل شبه كلي بالأوراق. وفي 10 تشرين الأول/ أكتوبر 1908 تدلت الأوراق متراخية من فروعها، وفي 31 تشرين الأول/ أكتوبر تساقطت بشكل جزئي، وفي 29 تشرين الثاني/ نوفمبر بشكل كلي تقريبًا. وفي النهاية تقف الأشجار عارية، ويمكن اعتبارها في هذا الشكل سمة مميزة للشتاء، كما يُشار إلى ذلك في متّى (32:24) ومرقس (28:13) ولوقا (29:21 وما يلي). والأمر نفسه ينطبق على أشجار الرمان والسفرجل والتفاح والإجاص. كما تصبح شجرة الجميز (يُنظر أعلاه، ص 61 وما يليها) في الساحل الدافئ وغور الأردن جرداء من أوراقها. وقد شاهدت أشجار الجميز، وهي تكاد تكون قد تجرّدت من أوراقها كلها، في 5 نيسان/ أبريل 1921 في "دير البلَح" قرب

(226) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 79.

الشاطئ. وفي 28 نيسان/ أبريل 1908، كانت تُطلق أوراقًا جديدة بالقرب من غزة، حيث إن الشجرة التي تسلقها زكا بالقرب من أريحا قبل عيد الفصح كي يرى يسوع (لوقا 19:4) ربما كانت في أغلب الظن مورقة.

يدل التفسير القديم لاسم الشهر بول (تشرين الثاني/ نوفمبر)، بشكل مقنع، أنه هو الوقت الذي تسقط فيه أوراق الشجر (بالعبرية "نوبيل")[227]. ويُذكِّر إرميا (8:13) بذلك الوقت بقوله: "لا يعود هناك عنب على الكرمة، ولا تين على التينة، والأوراق سقطت". وهنا يجب الافتراض أن الكلمة العبرية "نابيل" لا تعني مجرد الذبول فحسب، بل السقوط أيضًا؛ فكلمة "نِتَر" في الترجوم وεχπιπτειν في السبعونية، و"سَقَط" عند سعديا تحمل المعنى نفسه. وفي إشعيا (40:7) "العشب يجف والزهرة تسقط"، وفي إشعيا (34:4) يستخدم النبي سقوط الأوراق من الكرمة وأشجار التين كاستعارة للسماء في يوم الحساب التي تلتف وتتساقط نجومها[228]. "أما الشجرة المغروسة قرب جداول المياه التي تنتج ثمرها في وقته، وأوراقها لا تسقط" (المزامير 1:3)، و"الشجرة المغروسة بجانب الماء، ترسل جذورها إلى قنوات السقي ولا تخاف من الحر عندما يأتي، بل تحافظ على ورق أخضر، وفي سنة القحط لا تقلق ولا تتوقف عن حمل الثمر" (إرميا 17:8)، فهي أقرب ما تكون إلى شجرة التين. وبذلك يمكن الافتراض أن هذا الوصف يتعلق بالصيف وليس بخريف متأخر أو بشتاء، حيث تنتصب في المناطق المروية من حديقة الملك [بالقرب من سلوان] في القدس وبالقرب من جدول "جِنين"، أشجار التين الخضر بلا أوراق ولا ثمر. ولا بد أن حزقيال كان ذهنه ينصرف إلى شجرة التين حين يصف (47:12)[229] كيف تنمو أشجار مثمرة في محاذاة جدول المستقبل الإعجازي، أشجار لا يذبل ورقها ولا تسقط ثمارها، لأنها تنتج في كل شهر ثمرة مبكرة (بالعبرية "يبَكّير")[230].

---

(227) j. R. h. S. 56d.

(228) في رؤيا يوحنا 6:13 تتحول الاستعارة إلى صورة شجرة تين تهزها ريح قوية تجعل ثمارها تتساقط. وربما كان المقصود هنا أولى عواصف الخريف التي تهز ثمار التين على الشجر ويتركها المرء تتدلى إلى حين نضوجها التام، بحيث تسقط بنفسها.

(229) شبيه جدًا بذلك رؤيا يوحنا 22:2.

(230) تُقارن الكلمة العبرية "بِكّورا" "تين مبكر".

وهنا تمثل قوة التبرعم المتصاعدة لعالم الأشجار معجزة إلهية، تمامًا مثل الجدول المنبثق في المكان المقدس.

وحتى على نهر الأردن، بالقرب من أريحا، حيث لا شتاء هناك، لا يسود ربيع سرمدي، كما يعتقد كيلرمان[231] بل الحور الفراتي (Populus euphratica، بالعربية "غَرَب")[232] أو أنواع الأثل [الطرفاء] المورقة (Tamarix Pallasii وT. Jordanis، بالعربية "طرفا") التي تدل على سناء الأردن (إرميا 5:12، 19:49، 44:50؛ زكريا 3:11) مع أنها تصبح هي الأخرى في نهاية الأمر بلا أوراق حتى لو كان الأمر يحدث في كانون الأول/ ديسمبر. وقد وجدتُ في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1921 شجيرات الأثل على نهر الأردن، وقد كانت لا تزال خضراء، والحور الفراتي وقد تحلى بلون خريفي أحمر وأصفر رائع لا يراه المرء بهذه الوفرة إلا هنا في فلسطين. وفي 5 شباط/ فبراير 1914 عادت أشجار الأثل لتطلق براعمها من جديد، في حين أن أشجار الحور الفراتي كانت لا تزال غير مورقة. وفي 31 آذار/ مارس 1925، كان الأثل أخضر والحور العراقي مزهرًا. وبالقرب من مجاري المياه في فلسطين الشمالية وعلى بعض الينابيع في المناطق الغربية الجنوبية التي سميت على اسمها[233]، تقف شجرة الدلب المشرقي (Platanus orientalis، بالعربية "دِلب"، التي يستخدمها سعديا بشكل صحيح كمرادفة للكلمة العبرية "عرمون" في سفر التكوين 37:30)[234]،

---

(231) Killermann, *Die Blumen des Heil. Landes*, vol. 2, p. 20.

(232) مثل كلمة "عَرابا" (يستخدم سعديا دائمًا "غَرَب"، كما يفعل سفر اللاويين 40:23 في طبعة القدس 1899، في حين أنها عند ديرينبورغ "عَرَب") في المزامير 2:137 بالنسبة إلى بابل، سفر اللاويين 40:23؛ إشعيا 4:44؛ أيوب 22:40؛ سيراخ 12:50 بالنسبة إلى فلسطين. لكن ليس كل نوع من الصفصاف يمكن استثناؤه، كما يفعل ذلك Gesenius-Buhl، إذ إنها في

Sukk. IV 5, j. Sukk 54b, b. Sukk. 45a,

كانت قد أُحضرت من منطقة لا ينمو فيها الحور الفراتي.

(233) كما في عين الدلب بالقرب من القريّة وفي شمال غرب رام الله، لكن ما عاد ثمة أشجار كبيرة.

(234) كذلك أيضًا في:

j. Keth. 31d, Ber. R. 15 (32a);

يُقارن:

= Löw, *Flora*, vol. 3, pp. 65ff.

وشجرة الدردار (Fraxinus oxycarpa، بالعربية "دَردار")[235]، وشجرة القيقب النادرة (Acer syriacum، بالعربية "دُبّ")[236] وجار الماء (Alnus orientalis، بالعربية "نَغَط") التي اكتشفها آرونسون (Aaronsohn) في وادي القرن بالقرب من تل كيمون في وادي الملح، وبالقرب من عين الميّتة إلى الجنوب من قرية سِنديانة، أي في الجليل الشمالي الغربي، وفي السامرة الشمالية[237]. ويوجد هناك أيضًا الحور الأبيض (Populus alba) والحور الأسود (Populus nigra)، في حين أن أشجار البوقيصا[238] والزان والزيزفون والبتولا تغيب بشكل كليّ. وفي النهاية تفقد جميعها أوراقها، مع أنها تنمو على مقربة من الماء، وبشكل جزئي في مناطق بلا صقيع. ومثل هذا المصير المحتوم موصوف في إشعيا (64:5): "نحن جميعًا نذبل كأوراق الشجر وآثامنا كريح تحملنا". والوضع الذي يعقب الإثمار في الفترة الواقعة بين 21 أيلول/ سبتمبر و5 تشرين الثاني/ نوفمبر[239]، كما ورد في رسالة يهوذا 5/ 12، يشبّه معلمي الضلال "بأشجار تعدت فترة الإثمار (φϑινοπωρινα)، أي بلا ثمر"، أي أن الثمار والأوراق ذهبت ولا يُرجى منها نفعًا ولا مسرة.

= والذي بشكل غير صحيح يقول إن الدلب المشرقي يُعَدّ من الأشجار دائمة الخضرة. وفي سيراخ 14:24، تناظر الكلمة السريانية "دُلبا" الكلمة اليونانية πλατανος.

(235) شاهدتها بنفسي بالقرب من "تل القاضي" ["تل دان"] و"خربة أبو لوزة" على نهر الأردن فوق بحيرة طبرية. يذكر:

Aaronsohn, *Bull. Soc. Bot. De France* (1913), pp. 588ff.

الـ "جولان" الشمالي، المنطقة إلى الجنوب من بحيرة الحولة وقرية الخضيرة.

(236) وجدها آرونسون بالقرب من القرينة شمال شرق عكا، وفقًا لتقرير شفهي.

(237) Ibid., p. 591.

(238) على الرغم من الدلائل التي جمعها:

Löw, *Flora*, vol. 3, p. 417,

يبدو أنها توجد بالقرب من حلب (بحسب بوست)، لذلك يجب عدم ذكرها في القواميس العبرية كمرادف للكلمة العبرية "تِدهار". وكمرادف لها يستخدم سعديا "ساج"، نبتة هندية،

j. Keth. 31^{d}, Ber. R. 15,

"إدرا"، ذات المعنى الغامض. وبين أنواع السرو ("بِروش"، "تِأشّور") يود المرء في الأغلب توقع العرعر في إشعيا 13:60.

(239) يُنظر أعلاه، ص 48.

حاولت رسم صورة خريف فلسطيني عندما رويت كيف ألقيت نظرة على القدس في 18 أيلول/ سبتمبر 1921 من جبل المكبر[240]. كان مشهدًا طبيعيًا بالألوان الأبيض والرمادي الفاتح والأصفر والضارب إلى السمرة، وفي وسطه تقع المدينة الجليلة؛ فالزيتون على التلال في الغرب والجنوب وعلى منحدر التلة الغربية للمدينة، وأشجار التين وأحواض الخضروات المروية في حدائق وادي الجوز هي وحدها مَن منح الصورة المشرقة اخضرارًا؛ تلك الصورة التي صارت لا تخطف الأبصار، لأن الشمس كانت قد شارفت على الغروب. وفي وادي قدرون بدأت الظلال بالصعود إلى منحدر جبل الزيتون. سُمرة مصفرة وُجدت في المناطق المسكونة، وعلى مسافة منها، وفي لون ضارب إلى حمرة ساطعة، انحدرت الصحراء في الشرق نحو غور الأردن، حيث خَطَّ النهر ضفتيه المحرّجَتين عبر شريط سطحها الداكن. وأيُّ صفار ولون بني ضارب إلى الذهبي هما ذانك اللذان كانت تتلون بهما المنطقة حول التلال الغربية والشرقية لبحيرة طبرية في 6 تشرين الأول/ أكتوبر! لون رمادي فاتح ضارب إلى الحمرة سدل غطاءه على الجبال في الشمال. سهل طبرية وحده في الشمال الغربي وصفوف شجر "عين الطابغة" كانت مثل شريط أخضر يلتف حول البحيرة التي كانت قد لمعت في ذلك اليوم بضوء أخضر مميز[241]؛ فالصورة التي استغرقتُ فيها من مكاني في القارب كانت ذات جمال خريفي، ولكنها تختلف كليًا عن الخريف في نطاقنا [في محيط ألمانيا].

ز. الريح الشرقية وبداية المطر

الخريف هو الحدث العظيم الذي يتطلع إليه كل شخص بتلهف بعد خمسة أشهر من الجفاف، وهو أول الغيث. أما بشائره، فهي في العادة فترات مطولة من الريح الشرقية المُجفِّفة ("الشِرقية")[242] أو فترة ريح ساكنة ذات هواء شرقي

(240) *PJB* (1921), pp. 18ff.

(241) يُنظر:

PJB (1922/23), p. 46.

(242) لا أعرف لماذا تُصبغ الريح الشرقية دائمًا بصيغة المؤنث، في حين يتحدث المرء عن "هوا شمالي وقبلي وغربي". هل يقف عفريتٌ مؤنثٌ خلف ذلك؟

("سَموم") مماثل لها في التأثير. ويُقال: "الشرقية مُحراك الشِتا"، أي: "الريح الشرقية هي التي تحرك المطر"، أو[243]: "الشرقية اِتجيب الغربي"، أي: "الريح الشرقية تأتي بالريح الغربية" التي تجلب المطر. وبذلك يُذكِّر أيوب (24:38 وما يلي)، بالريح الشرقية وهطول المطر معًا في ما يتعلق بالسؤالين: "في أي طريق يتوزع النور وتتفرق الشرقية على الأرض؟ مَن فتح مجرى للمطر الهاطل وطريقًا للصواعق؟". ويتحدث المثل العامي الدارج عن القواعد الخاصة بقدوم الريح الشرقية: "اِن تِطلع الشرقية قَبل النهار تالي النهار بِتخور، اِن تِطلع بَعد الشمس بتضلّ تِلات اِيّام"، أي: "إذا جاءت الريح الشرقية قبل الفجر، تخف حدتها في نهاية اليوم؛ وحين تأتي بعد طلوع الشمس، تبقى ثلاثة أيام". ويضيف المرء: إذا لم تتراجع ثلاث مرات في ثلاثة أيام، وحين لا تأتي ريح غربية بعد تسعة أيام، حينئذ تهب ثلاث مرات تسعة أيام، أي 27 يومًا، كما حصل فعلًا في تشرين الأول/ أكتوبر 1904[244].

ففي الخريف تعود الرياح الشرقية والجنوبية الشرقية إلى الهبوب، بعد أن كان الصيف قد خلا منها تقريبًا، وهو ما يصح على غزة وحيفا والقدس والناصرة[245]. ثلاثة أيام شهريًا في الخريف من الريح الشرقية يعتبرها هول (Holl)[246] متوسطًا مثبتًا مقابل 0.6 يوم في الصيف. أما حساباتي، مرتكزًا إلى شابلن[247]، فيخرج منها 0.6 يوم في الشهر من الريح الشرقية في الصيف، و5.56 أيام في الخريف. وبالنسبة إلى الريح الشرقية المصحوبة برياح شمالية شرقية وجنوبية شرقية 2.49 من الأيام في الصيف مقابل 12.33 يومًا في الخريف. أما التقدم في الرياح الشرقية في الخريف، فيظهر من خلال الأرقام التالية[248]:

---

(243) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 4.

(244) هكذا أيضًا:

Georgii, *Meteorolog. Zeitschrift*, vol. 36 (1919), p. 193.

(245) Exner, *ZDPV* (1910), p. 142.

(246) *Handbuch für Klimatologie* IV 2, p. 91.

(247) *PEFQ* (1883), p. 39,

يقارن أدناه، 6 II [الأمطار المتبلورة].

(248) Koschmieder, *Ergebnisse der deutschen Höhenwindmessungen in Palästina 1917-1918*, pp. 26f.

	آب/ أغسطس	أيلول/ سبتمبر	تشرين الأول/ أكتوبر	تشرين الثاني/ نوفمبر
ريح شرقية	0.37	1.18	4.62	6.56
ريح شمالية - شرقية	1.37	1.87	3.75	5.06
ريح جنوبية - شرقية	0.50	0.68	2.93	1.81
المجموع	2.24	3.73	11.30	13.43

يبقى الاختلاف الكبير بين أيلول/ سبتمبر وتشرين الأول/ أكتوبر هو الشيء المهم هنا، لأن رياح تشرين الأول/ أكتوبر الشرقية تكون لا تزال ساخنة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر تتراجع الرياح الجنوبية الشرقية الشديدة القوة التي بدأت في تشرين الأول/ أكتوبر، لتعود في كانون الأول/ ديسمبر بقوة 3.12 أيام. وهذا يعني كتلة هوائية شرقية أكثر برودة، وهو ما قد يكون ملائمًا لبداية المطر. أما القول إن الريح الجنوبية الشرقية هي ما يأتي بالمطر، فالحقيقة هي أن لهبوب الريح الشرقية في الخريف والشتاء صلة بمنطقة انخفاض جوي قائمة في هذا الوقت فوق الجزء الشرقي من البحر المتوسط، والتي تشكل بالنسبة إلى فلسطين، كنتيجة طبيعية، موسم الريح موسمية[249].

عن الانتقال الكارثي إلى موسم الأمطار، يتحدث كوشميدر (Koschmieder)[250] عن سهل يزرعيل في سنة 1917؛ فبعد فترة حر شديدة في الأيام الأولى من تشرين الثاني/ نوفمبر، ازدادت وطأةً بفعل أربعة أيام من الريح الشرقية، بحيث بات الوضع لا يُحتمل، ثم تلتها ستة أيام من انهمار أمطار غزيرة رافقها انخفاض شديد في درجة الحرارة. وغالبًا ما يحصل التقاء كتل هوائية غربية وأخرى شرقية، بحيث تتحرك كتلة الهواء الغربية الرطبة وغيومها في مناطق عليا في الجو، في حين تسيطر كتلة الهواء الشرقية على الأرض. كما تتشكل زوابع وتصعد غيوم مغبرة حتى تهبط أخيرًا كتلة الهواء الغربية وتكون لها اليد

(249) يُنظر:

Koschmieder, *Ergebnisse der deutschen.*

(250) Ibid., p. 29.

العليا[251]. هذا الصراع تُظهره ملاحظاتي في القدس في خريف 1908: في 24 تشرين الأول/ أكتوبر: كتلة هوائية شرقية، نسبة الرطوبة 36 في المئة باكرًا، 39 في المئة ظهرًا، 45 في المئة مساءً. في 25: 45 في المئة ظهرًا، 52 في المئة مساءً. في 26: 27 في المئة ظهرًا، 18 في المئة في منتصف الليل. في 27: فقط 18 في المئة باكرًا، 19 في المئة مساءً. في 30: 82 في المئة باكرًا، 100 في المئة في منتصف الليل. في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر: 100 في المئة مساءً وكميات كبيرة من المطر، وهي الأولى من حيث الأهمية. أما درجة الحرارة التي تأرجحت في الأيام السابقة بين 27 و17 درجة مئوية، فقد هبطت الآن إلى 14 و12 درجة. ولكن بعد أيام ثمانية باردة، هبّت في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر من جديد كتلة هوائية شرقية ("سموم")، وهبّت في 10–12 ريح شرقية، وهبطت نسبة الرطوبة حتى 26 في المئة، وارتفع ميزان الحرارة إلى 26.5 درجة مئوية. وقد جاء يوم 13 تشرين الثاني/ نوفمبر بريح غربية ورطوبة بنسبة 100 في المئة، وجاءت الفترة 15–17 تشرين الثاني/ نوفمبر بالمطر الثاني في ثلاث دفعات، أي ما مجموعه 15.5 مم، وهبوط درجة الحرارة حتى 3.5 درجات مئوية ليلًا. وامتدت فترة ثالثة من الريح الشرقية زمنيًا لتشمل 19–22 تشرين الثاني/ نوفمبر، ولكن بدرجة حرارة باردة نسبيًا، ارتفعت ظهرًا إلى 22 درجة مئوية فقط. وفي 23–25 تشرين الثاني/ نوفمبر تصارعت الريح الغربية والريح الشرقية، وفي 26 تشرين الثاني/ نوفمبر سكنت الريح، وفي 27 و28 تشرين الثاني/ نوفمبر جلبت الريح الغربية الشديدة المطر 46.5 مم ودرجة حرارة بلغت 9 درجات. وهكذا يصبح مفهومًا ما يعنيه اللسان الشعبي حين يقول[252]: "بين تِشرين وَتشرين صيف ثانِ"، أي: "بين تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر هناك صيف ثانٍ". وبحسب المشنا، يجب فحص النبيذ الجديد للتحقق هل أصبح حامضيّ الطعم خلال هبوب الريح الشرقية

(251) يُقارن:

Chaplin, *PEFQ* (1883), p. 15.

(252) Harfouch, *Drogman Arabe*, p. 70.

بعد نهاية عيد العُرُش الذي يُعتبر عاملًا ثابتًا[253]. وقد انتظر الجليليون هذه الريح الشرقية قبل الإقدام على قطف عنبهم، ربما لتزداد حلاوته[254]. وتؤكد الإحصاءات صحة ذلك، من حيث إظهارها مقدار رطوبة أقل بالنسبة إلى تشرين الأول/ أكتوبر منه في الأشهر من تموز/ يوليو حتى أيلول/ سبتمبر[255].

مثل هذه الفترات من الريح الشرقية يصعب تحمّلها؛ فقد تهبط رطوبة الهواء حتى 10 في المئة، وهو ما لاحظته في 18 أيلول/ سبتمبر 1913، في الواحدة ظهرًا، حيث بلغت درجة الحرارة 25.5 درجة مئوية؛ فمجاري التنفس تضعف من خلال الهواء الجاف والغبار الذي يملؤها، والأعصاب مفرطة في التوتر والانفعال لدى البعض، ومنهكة مستنزفة لدى البعض الآخر. وحتى العرب، الذين ما رقّ جلدهم من كثرة الاغتسال، يشكون: "الشرقية بتنِشِّف وبتِقشبر الوجه"، أي: "الريح الشرقية تجفف الوجه وتغطيه بالبثور"، لأَن في تشرين الأول/ أكتوبر تظهر أعلى الأرقام في الإصابات بالملاريا[256]، ولذلك صلة بالإرهاق البدني الذي تتسبب به الريح الشرقية، ولكن له صلة أيضًا بحقيقة أن لدى البعوض في هذا الوقت نزوعًا أكبر للقرص والتسبب بعدوى جديدة، ويُفترض أن الأمر لم يكن مختلفًا في الأزمنة القديمة. وبالنسبة إلى "قدّاحت" و"دَلّيْقِت" في سفر التثنية (22:28)، ربما كان سعديا يفكر حين استخدم الكلمتين العربيتين ("حادة" و"ربِع") بالملاريا الاستوائية والربعية، في حين أن "حمى" حَمَاة بطرس (متّى 14:8) وحمّى ابن خادم الملك (يوحنا 52:4) لا يمكن تحديدهما بشكل دقيق. وبناء عليه، ربما هو نتيجة لحمّى الفواصد [الفاصدة] "ذبابة الرمل" (Phlebotomus pappatacii) التي ألمت بي في 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1921 وجعلتني طريح الفراش حتى 4 تشرين الثاني/ نوفمبر.

---

(253) Gitt. III 8.

(254) Gitt. 45[b]

(تُقرأ مع ياستروف "قديمتا" بدلًا من "قدمايتا")

Bab. b. 15[c].

(255) Exner, *ZDPV* (1910), p. 137.

(256) Mühlens, *Bericht über eine Malariaexpedition nach Jerusalem* (1913), p. 13; P. Schneller, *Die Krankheiten Palästinas*, p. 9.

ما من شك في أن غلبة الريح الشرقية في أي سنة هو أمر ضار؛ إذ يترتب على ذلك بقاء المطر والندى غير كافيين. ويُقال: "سِنِة الشراقِ بِتدَوِر وما بِتلاقِ"، أي: "في سنة الريح الشرقية، تبحث ولا تجد"، والمقصود الحبوب (عبد الولي). ولكن في أواخر الخريف يأمل المرء في التحول من الريح الشرقية الشديدة إلى الريح الغربية الشديدة، جالبة المطر الغزير؛ إذ إن "أول سنة الشراق مِليح"، أي: "في بداية السنة الرياح الشرقية جيدة". وغالبًا ما تتصارع الريح الشرقية والريح الغربية (يُنظر أعلاه). وإذا سادت كتلة هوائية شرقية ساخنة، يتحدث المرء عن "شرقية مخبوطة". وقد هبّت مثل هذه الريح الشرقية في القدس في 9 تشرين الأول/ أكتوبر 1913؛ فبعد يوم حارٍ سادته رياح ساكنة، وتشكلٍ شديدٍ للغيوم، وبوجود كتلة هوائية غربية ضعيفة في المساء، هبت في الرابعة صباحًا ريح شرقية قوية. وفي الشرق كانت هناك غيمة كبيرة صدر عنها برق يصاحبه رعد. وفي الغرب كانت السماء صافية ودرجة الحرارة 18.5 درجة مئوية ونسبة الرطوبة 35 في المئة. وبعد ذلك بساعتين، هبّت عاصفة من الغرب، وغيّمت السماء، ولمدة عشر دقائق هطل مطر غزير مصحوبًا ببرق ورعد. وفي الساعة السابعة سكنت الريح وبلغت درجة الحرارة 16.5 درجة ونسبة الرطوبة 60 في المئة. وفي الساعة 8:30 عادت الريح الشرقية لتسود، حيث درجة الحرارة 19 درجة ونسبة الرطوبة التي عادت إلى 35 في المئة، أي انخفضت إلى الوضع السابق. وفي العاشرة مساء بلغت نسبة الرطوبة 20 في المئة فقط في ظل حرارة بلغت 19.5 درجة وسكون الريح.

إن الريح الشرقية في الصيف والشتاء، خلافًا للريح الغربية، "سيئة" (بالعبرية "قاشِي")، وهو أمرٌ كان معروفًا في الماضي في المدراش الفلسطيني[257]. وحين يتحدث المرء عن أنها تجعل السماء مكفهرة مثل التيس[258]، حينئذ لا بد من استذكار الضباب الكثيف (بالعربية "قِتام") الذي يطوق أحيانًا أرجاء

(257) مدراش تانيت. عن التثنية 32:2 (306)، غيرت بشكل غريب إلى العكس سفر التثنية 306 (132أ). يُقارن:

Klein, *ZDPV* (1914), p. 325.

(258) Ibid.

السماء ويُظلِم الشمس، كما حدث عند صلب المسيح (لوقا 23:44)[259]. وفي 10 نيسان/ أبريل 1913 لاحظت ذلك في بحيرة طبرية: ضباب كثيف ساكن يغطي البحيرة بحيث غاب الشاطئان الغربي والشرقي عن النظر في ما لو نظر المرء إليهما من الشاطئ الشمالي، والشمس قد أظلمت. وفي بئر السبع خَبِرَ جيورجي (Georgii) في 13 و14 نيسان/ أبريل 1916 إظلامًا تامًا للسماء دام 24 ساعة، وبغطاء بلغ عشر درجات خلال هبوب الريح الشرقية[260]. وقد علل جيورجي ذلك بأن الغبار عُصِفَ من شرق الأردن إلى المناطق العالية خلافًا لغيوم الغبار التي تكون قريبة من الأرض، كما لاحظها في المكان نفسه خلال فترة الريح الشرقية التي امتدت من 12 إلى 18 أيار/ مايو 1916، حتى أن بالكاد استطاع المرء رؤية ما يبعد عنه مسافة مترين[261]. وفي مثل هذه الريح يفكر التقليد اليهودي الذي يلفت إلى أن الريح الشرقية تسوق العالم بأكمله مثل التيس (عفريت)[262]. وتبقى الريح الغربية بالطبع ذات طبيعة مختلفة، فهي التي تحرك الكثبان الرملية. وإذا استعرضها المرء من مناطق فلسطين الجبلية، يراها أحيانًا وقد كست الساحل بما يبدو غيومًا. إلا أن الهبوط السريع لكتلة هوائية مهتزة لا بد أنه مسؤول عن ظاهرة قتامة السماء خلال هبوب الريح الشرقية، فهي التي تجعل السماء معتمة وبالتالي قاتمة.

في العهد القديم يعرف هوشع (13:15) الريح الشرقية كريح صحراوية ذات تأثير مجفف، بحيث تنضب الينابيع. كما أن وصف ناحوم للرب الغاضب (1.3 وما يلي): "الزوابع والعواصف تتبعه في سيره، والغيوم هي الغبار الذي تثيره قدماه. وتجف أراضي باشان والكرمل وتذبل نباتات لبنان"، وهذا مبني على كون "الريح اللافحة [الآتية] من الهضاب الجرداء في الصحراء" (إرميا 4:11)،

---

(259) Dalman, *Jesus-Jeschua*, p. 184,

يُقارن أدناه، III 5.

(260) *Meteorol. Zeitschrift*, vol. 36 (1919), p. 197.

(261) تُقارن أيضًا الريح الرملية في الصحراء العربية التي يصفها موزل في:

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 3f.,

كريح جنوبية شرقية.

(262) b. Bab. B. 25a, Pes. Zut. (Buber), Dt. 55b.

و"ريح الصحراء تبدد القش أمامها" (إرميا 13:24). ويبدو كما لو كانت "الريح الشرقية" أقرب ما تكون تسمية إلى كل ريح شديدة ذات تأثير مُهلك (هكذا إشعيا 27:8؛ إرميا 18:17؛ حزقيال 27:26؛ المزامير 48:8؛ أيوب 27:21)، على الرغم من أن أشد رياح فلسطين، في واقع الأمر، هي الرياح الغربية، على النقيض من المدراش الذي يدّعي انطباق ذلك بالضبط على الريح الشرقية بالإحالة إلى إشعيا (27:8)، طبقًا لطرقه العلمية الخاصة التي لا تأخذ الطبيعة كثيرًا في الاعتبار[263].

دأب سعديا على ترجمة الكلمة العبرية "روَح قَاديم" إلى "ريح القبول"، أي "ريح شرقية"، أو إلى "ريح الجنوب"، "الريح الجنوبية" في المزامير (48:8). كذلك الاستخدام المسيحي الفلسطيني "روحا دِداروما" في الخروج (10:13) التي عززتها السبعونية بِـ δ ανεμος δ νοτος، وهي الريح الجنوبية، وعلى وجه الدقة الجنوبية الغربية. كذلك الأمر لدى الحاخام البابلي الذي يعتبر الريح الجنوبية الأسوأ بين الرياح[264]، في حين يقال في أماكن أخرى إن تلك الرياح تكون خلال فترة إزهار الزيتون ذات فائدة، والريح الشرقية هي دائمًا جيدة والريح الغربية هي دائمًا سيئة[265]. ويُطري القزويني[266] الريح الشرقية ("الصَبا")، وبشكل أدق الريح الشمالية الشرقية، لأنها رقيقة ومنعشة، وتتوافق مع التصور العام للعرب الذين تُشكل الريح الشرقية لهم نسيمًا عليلًا[267]، في حين تثير الريح الجنوبية الرطبة - الحارة، وبشكل أدق الريح الشرقية الجنوبية، البحر وتجلب المطر. أما الفيصل هنا، فهو التجربة الذاتية التي حكمت ترجمة الكتاب المقدس. وبالنسبة إلى فلسطين، فإن الأمور تبقى واضحة بحيث لا يبقى هناك مجالٌ للشك فيها، كما يثبت ذلك استخدام عبارة "روح قاديم" من المشنا[268].

---

(263) مخيلتا عن الخروج 14:21 (طبعة فريدمان، 30ب)، مخيلتا شمعون بار يوحاي، ص 50.

(264) b. Gitt. 31b.

(265) b. Bab. b. 147a.

(266) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 96.

(267) Jacob, *Altarab. Beduinenleben*, p. 8.

(268) Gitt. III 8, Kel. XX 2, Machsch III 8, =

ح. غيوم وبروق

إن من يلقي نظرة من جبل الزيتون أو من النبي دانيان على المشهد الطبيعي الفلسطيني في الخريف، بعد الصيف، هذا الذي كان يتألق فيه كل شيء في ظل الضوء ذاته، يُصاب بالدهشة من هذا التنوع الساحر الذي تُلون به ظلال الغيوم المشهد الطبيعي. ويُحدد الفلسطيني عيد النبي الياس في 20 تموز/ يوليو (2 آب/ أغسطس) وقتًا للبداية الأولى لمثل هذه الغيوم. فيقول[269]: "في عيد مار الياس بِتخَلّق الغيم"، أي: "في عيد مار الياس تُخلق الغيوم". وواقع الأمر أن الإحصاءات الخاصة بالقدس تُظهر أن تموز/ يوليو هو الوقت الذي تكون فيه الغيوم في أضعف حال (0.8) في السنة. ولكن سرعان ما يبدأ التقدم في آب/ أغسطس بِـ 1.0، في حين يبقى التقدم الحاصل في أيلول/ سبتمبر بِـ 1.3 معتدلًا. ولكن انطلاقًا من تشرين الأول/ أكتوبر (بِـ 2.5) يزداد بدرجات أكبر حتى يُوصل إلى الذروة في كانون الثاني/ يناير بـ 5.2، ليعود مرة أخرى في آذار/ مارس، بعد هبوط خفيف في شباط/ فبراير (4.8)، إلى 5.1[270]. ومن حيث الجوهر، لا يختلف الأمر كثيرًا عن معطيات شابلن التي توجز 16 عامًا[271]؛ فالتقدم يحصل في أيلول/ سبتمبر بِـ 1.2 ويزداد حتى يصل إلى 4.6 في كانون الأول/ ديسمبر. وبعد تراجع في كانون الثاني/ يناير إلى 4.4 يتبع ارتفاع ثانٍ حتى آذار/ مارس بِـ 5.0. والأيام التي تكون الساعة التاسعة صباحًا لا غيم فيها ويصل عددها في أَيلول/ سبتمبر إلى 17.5، تهبط في كانون الأول/ ديسمبر إلى حتى 6.7 ثم تعود فتصعد مرة أخرى إلى 6.8 في كانون الثاني/ يناير ثم تصل إلى نهايتها الصغرى في شباط/ فبراير بِـ 5.1، لتعقب ذلك بداية تزايد منتظم.

في 15 آب/ أغسطس 1910، عشت يومًا كان الجو فيه غائمًا جدًا من الصباح حتى المساء، وهو الأول من نوعه، في حين كانت سُحب الصباح

= يُقارن:

H. Klein, *ZDPV* (1914), pp. 322ff.

(269) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 28.

(270) Exner, *ZDPV* (1910), p. 154.

(271) *PEFQ* (1883), p. 40.

حتى ذلك الوقت قد تلاشت عند الظهيرة. وفي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر، ثمة أيام تكون السماء فيها مكسوة بالسُّحب ("قاطِب غين")، [أي الغيوم مقطبة السماء]. يوم غائم، ليلة شديدة السواد تغيب فيها النجوم التي تتألق عادة في سماء فلسطين بأعداد كبيرة غير مألوفة(272)، وبألق نادرٍ أيضًا ("النجم غاطس")، يتم الإحساس بالنجوم الآن كشيء جديد لم يعشه المرء منذ زمن.

أما إلى أي حد يكون فيه الوضع الحقيقي للغيوم متقلبًا في هذه الفترة، فربما أفصحت عنه مشاهداتي في خريف 1921؛ فمن 26 إلى 28 تموز/ يوليو، هناك غيوم ندية مبكرة في الغرب، وفي 29: لا ندى، وفي 30: مرة أخرى في 6:30 صباحًا غيوم تكسو أفق القدس الغربي بأكمله. غيمة داكنة ممتدة انفصلت عنها ومنها تطايرت خيوط غيمية رقيقة بشكل مستمر وسريع نحو الشرق، إلا أنها تغيب فوق الحد الفاصل نتيجةَ الهواء الأكثر سخونة الذي يصعد في الجانب الآخر. وفي الأفق الشرقي تحوم غيمة بيضاء طويلة ونحيلة، ضباب رقيق في أعلى التلال في الجنوب. وفي الساعة 2:00 بعد الظهر تهب ريح غربية شديدة، تخف شدتها في الساعة 5:00. وفي 6:00 كانت جميع الغيوم قد اختفت، في حين تمتع الليل بسماء بلا غيوم أو رياح. وفي 31 تموز/ يوليو غابت الغيوم تقريبًا في ظل ريح غربية. ولا يسقط الندى. كما كان 1 آب/ أغسطس بلا غيوم في ظل سكون الريح. وفي 15 و16 آب/ أغسطس، هناك، في ظل ريح غربية، كتلة غيوم كثيفة في الغرب، وغيوم تتحرك مجددًا نحو الشرق تنقشع فوق الحد الفاصل، في حين يبقى المساء بلا غيوم. وذلك كله في ظل درجات حرارة صباحية تقارب 21 درجة. ثم تبع ذلك من 27 إلى 31 آب/ أغسطس فترة أكثر دفئًا، حيث درجة الحرارة الصباحية تقارب 26 درجة لتصل عند الظهيرة إلى 45 درجة، والتي سخنت ماء الصنبور الجاري في ماسورة معدنية في الجهة الغربية من المنزل إلى 53 درجة. ومنذ 1 أيلول/ سبتمبر

(272) ذلك أن الرب يستطيع عدها (المزامير 147:4)، أما الإنسان فلا (التكوين 15:5)، وهذا يبدو أمرًا مسلمًا به في ليلة صيف فلسطينية.

فصاعدًا، يرافق الجو الأكثر برودة ضباب صباحيّ، وفي ليلة 9/ 10 هبّت عاصفة مع شيء من المطر، وفي 11 ثمة غيوم وندى. وفي 17 صباحًا طبقة كثيفة من الضباب بدأت تنقشع عند الساعة 7. وفي الجهة الغربية من البيت على مشابك الشبابيك قطرات من الندى.

يعبّر الفلسطيني عن تزايد حدة الغيوم بالأقوال المأثورة[273]: "غَيَّمت"، "رَتَّمَت"، "اِسودَّت"، أي: "أصبح الجو غائمًا، معتمًا، أسود". ويُفرِّق المرء بين الغيوم العادية ("غيم"، ج. "غيوم") والغيوم الخفيفة غير المتحركة الساكنة فوق الجبال ("شحّاطة") من جهة والضباب العادي الساكن والخفيف ("عريجة"، ربما أيضًا "عجاج"، "اِغطيطة") وضباب الصباح الخفيف المتحرك ("ندى") والضباب الكثيف ("ضباب") من جهة أخرى. كما يفرق المرء بين الضباب المرتبط بمطر خفيف ("رَهام") والضباب العالي الجاف في ظل هواء شرقي ("قَتام")[274]. أما غيمة المطر الحقيقية، فتُميَّز في شمال فلسطين كـ"سحابة" من "غيم"، كتغيُّم خفيف. وفي الجنوب تُستخدم كلمة "غيم"، وباللهجة الفلاحية "غين"، لوصف غيمة المطر أيضًا. وبالقرب من القدس تُشير كلمة "سحابة" إلى أشرطة المطر المتدلية من الغيوم. ويستخدم سعديا الكلمة العبرية "عانان"، وهي الكلمة المعتادة لِـ"غيمة" "سحاب" في الخروج (19:19)، و"غمام" في التكوين (13:9)؛ وللكلمات العبرية "عَرافيل" في الخروج (21:20) والتثنية (11:4) "ضباب". ولِـ"شَحَق"، "شِحاقيم" في المزامير (12:18) والأمثال (20:3) شَواهق "ارتفاع". وعن ذلك لا يخرج شيء أكيد في ما يتعلق بالتسميات العبرية لكلمة غيمة. ولكن حين يرد في إشعيا (22:44): "أمحُ ذنوبك كغيم ("عاب") وخطاياك كسحابة ("عانان")"، فإن المرء قد رأى من مصح المجذومين بالقرب من القدس تلك الحقيقة الطبيعية المفترضة كما

---

(273) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 29;

يُقارن:

Harfouch, *Drogman Arabe*, p. 210:

"عَم بتغيم، طَبّقِت، اِسودت الدِنيا".

(274) يُقارن أدناه III, 4.

لو كانت ملموسة، حين تسرع بشائر الغيوم المعلقة فوق قرية "المالحة" عبر السماء، وعلى الجانب الآخر من طريق الخليل. وهناك، حيث يبدأ الانحدار إلى الصحراء، تتبدد فجأة، وعند ذلك يُلاقي كل رتل غيم المصير نفسه وتغيب في النهاية الشمس على الجانب الآخر من حي القطمون خلف المرتفعات الغربية في ظل سماء صافية، بحيث تكون الغيوم الكثيفة المعلقة في الغرب قد تبددت هي الأخرى (يُنظر أعلاه).

غالبًا ما يكون تشرين الأول/ أكتوبر هو أول ما يأتي بأيام غائمة كليًا، حين يكون المطر على الأبواب. وحينئذ تنطبق القاعدة[275]: "لَن بِدّها تِشتِ غيّمت"، أي: "لو أنها تريد أن تمطر فيجب أن تُغيِّم". و"ما بِيُقعُب الغباش اِلا الرشاش"، أي: "بعد جو مكفهر تأتي دائمًا زخات مطر". وعندما تحلق في نهاية المطاف غيوم داكنة ("غين الأزرق") من الجنوب أو الجنوب الغربي ويُظهر نزوعها إلى الأسفل أن المطر يهطل في مكان آخر، يقول المرء: "الدنيا سحايب"، أي: "غيوم ماطرة في السماء". ويمكن الحكم: "الدِنيا شتّاية"، أي: "ستمطر السماء" (جفنة). وبالطبع تنتمي الريح إلى عملية تراكم السُّحب، مع أن هناك سُحبًا تدفعها الريح ولكنها ليست ممطرة (الأمثال 25:14، يهوذا 12)، فيما تحتاج جملة يوحنان التي بموجبها تعني الغيوم المندفعة مطرًا[276]، إلى تحليل جدي. أما تراكم السُّحب بلا ريح، فيطلق المرء عليه "خشار المطر"، أي "إعاقة المطر"، لأن مثل هذا الطقس يمنع المطر ("بِخشُر"). ويقول المرء عن الريح الشديدة التي بلا غيوم: "الهوَ قِوي اِسمو دَرَجة، مُش بِجيبا شِتا"، أي: "يُسمى الريح القوي درجة، لأنه لا يجلب المطر" (إذنا)[277]. ولكن عندما تهب الريح مثل "هوَ مَصرِ"، أي: "ريح مصرية" من الجنوب الغربي، حينئذ يمكن، بشكل مؤكد، توقع سقوط المطر. فاتجاه الريح هو بوابة المطر ("باب الشتا"). ويؤكد العلم من خلال الرصد أن شدّة الريح الجنوبية الغربية في الأشهر الماطرة

(275) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 28.

(276) b. Taan. 9b.

(277) وفقًا لملاحظات شفوبل (Schwöbel)، وربما كان المقصود أن الريح تدفع المطر نحو الأعلى بدلًا من تركه يسقط.

تعني أمطارًا غزيرة[278]. أما العرب، بحسب القزويني[279]، فيثمنون عاليًا الريح الجنوبية ("جَنوب")، لأنه يترك الغيوم ("سَحاب") ترتفع والرياح الملقحة ("الواقح") تأتي منه، وما من ريح أخرى تجلب المطر. ويُنقل عن الهذلي قوله: "إذا كان عام مانع القطر ريحة صبا وشمال قرّة وِدَبور"، أي: "إذا أمسكت سنة عن المطر، تهب الريح الشرقية والريح الشمالية الباردة والريح الغربية".

بعد فترة طويلة من الرياح الشرقية، تعلو غيمة من البحر، فمن المؤكد أن التغير المنشود في الطقس على وشك الحدوث أخيرًا، كما يحصل في الملوك الأول 18:44. وحينئذ، كما في لوقا (12:54)، فإن غيمة تظهر في الغرب تشكل بالفعل أمارة على المطر، شريطة أن يكون الوقت هو الوقت الذي يسقط فيه المطر. وفي الصيف، فإن أقصى ما يُمكن توقعه هو الندى. وبالطبع يجب أن تتبع الغيمة المنفردة سماء تظلمها الغيوم وريح (يُنظر أعلاه). حينئذ، وفقًا لوصف الملوك الأول (18:45)، يسقط "مطر شديد". سُحب داكنة ثقيلة في فلسطين تلفت النظر بشكل خاص بعد موسم صيف ساطع يكاد يخلو من الغيوم. ويمكنها أن تبدو مثل ليل يُقصي النهار. وهكذا تستعد السُّحب لعاصفة قوية ومطر شديد. هذا الطقس يصفه صفنيا (1:15؛ يقارن يوئيل 2:2) كـ"يوم زوبعة عاصفة، كيوم ظلمة وقتام، كيوم سحب مظلمة كثيفة". وفي أيوب (38:34) يناشد الإنسان: "أترفع صوتك إلى السُّحب فيغطيك فيض الماء؟" فالله "هو الذي يغطي السماء بالسحاب ويرسل مطرًا على الأرض" (المزامير 147:8).

يعتبر البرق ("بِرق")، الذي حاله غريبة مثل حال العواصف على الصيف، علامة مسبقة مؤكدة على المطر الآتي، فيقال[280]: "اِن بَرَقَت على الصليب ما بتغيب"، أي: "حين يكون هناك برق في عيد الصليب، فالمطر لا يغيب".

(278) Exner, *ZDPV* (1910), p. 143;

يُقارن أدناه B, II, 7.

(279) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 96.

(280) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 27,

الذي يُترجم "المطر لا يغيب".

وعندما يكون هناك برق طوال الليل في الأفق، والسماء صافية، يقول المرء بارتياح: "أبرَقَت الدنيا"، أي: "أبرقت السماء"، ويعلن بصوتٍ عالٍ: "الشِتا قريب"، أي: "المطر وشيك"؛ إذ إن "البرق علامة المطر". وقد ثبتت صحة ذلك في سنة 1908؛ ففي 30 تشرين الأول/ أكتوبر لاحظت البرق الأُول، وفي 1 تشرين الثاني/ نوفمبر سقط أول مطر غزير.

إلا أن قطرات مطر قصيرة متقطعة قد تستبق ذلك، كما حدث في 10 و15 و20 تشرين الأول/ أكتوبر 1908، وأحيانًا غيمة واحدة فقط هي التي ترسل الماء، على الرغم من أن المرطاب [أداة قياس الرطوبة] لا يزال بعيدًا عن نقطة الندى [الحرارة التي عندها يبدأ البخار في التكاثف]. وعن مثل هذه الزخات التي تستمر دقائق معدودة يُقال: "بتِتمَخِّض الدِنيا"، ويقصد بذلك أن الزبدة، المطر الحقيقي، على وشك أن يكون جاهزًا. وأخيرًا تهب الريح الغربية الشديدة، ويهبط المرطاب، وينهمر مطر حقيقي. وبسرور يُنصت المرء إلى موسيقى تهطاله المُفْتَقَدَة منذ زمن أي "صوت صخب زخة المطر" التي سمعها إيليا قبل قدوم المطر (الملوك الأول 18:41). "اِجا الشتا"، أي: "قَدِم الشتاء"، هو تعبير عن ارتياح عميق جدًا لا يخفف منه حتى الرياح الهوج التي تدفع بالمطر نحو المسافرين من أحد الجوانب.

مع باكورة هذا المطر الحقيقي [الطل] يتنفس المرء الصعداء ويصفو الذهن ويصبح النوم أكثر عمقًا. والجميع يفرح بغض النظر عن المعتقد الدينيّ، كما أجاب ذات مرة يهوشواع بن كورخا على سؤال وثني هو: متى يستطيع الوثنيون واليهود الفرح معًا؟ أجاب: "عندما يهطل المطر"[281]. وقد قرأ يهوذا من مجدلا دعاء الشكر بعد المطرة الأولى[282]: "نحن مدينون بألف بركة مضروبة بألف منها وعشرة آلاف منها مضروبة بعشرة آلاف لاسمك على كل قطرة وقطرة تسقط علينا. فأنت من يكافئ المذنب بالبركات". "كل شيء مبارك، كذلك التجارة، التجار يتنفسون الصعداء، كذلك المرضى، وأطرافهم تسترخي.

---

(281) Ber. R. 13 (27^b^).

(282) Ibid., 29^a^ f.

وحين سأل عن أحواله بعد مطر غزير، أجاب: "نِنّوحُ"، أي "لقد أصبح وضعهم أفضل"[283]، وربما سرى هذا في يومنا أيضًا؛ ذلك أن الله هو من يرسل المطر، فهو أمر لا شك فيه بالنسبة إلى الفلسطيني اليوم، كما كان الأمر بالنسبة إلى كاتب سفر أيوب الذي يُعتبر إحدى معجزات الله وأعماله الجليلة (10:5 وما يلي): هو "المُنزِّل مطرًا على وجه الأرض والمرسل المياه إلى البراري، الجاعل المتواضعين في العلى فيرتفع المحزونون إلى أمن".

ولا يجد هوشع (2:6 وما يلي) صورة أكثر جمالًا لإحياء شعب حُكم عليه على ما يبدو بالدمار أكثر من ظهور الرب كمطر. وهنا بالذات يجد المدراش اليهودي المطر وقيام الأموات في مستوى واحد[284]، فكلاهما معجزة إلهية. وإلى المفاتيح الثلاثة التي يمسك بها الخالق، إلى جانب خصوبة المرأة، هناك المطر والقيامة[285]، ومن كليهما تنشأ الحياة الأبدية[286]. واقع الأمر أن المطر كباعث من الموت يُعايش سنويًا في فلسطين؛ لأن هذه التجربة رافقت تاريخ بني إسرائيل، فلا يمكن أن تكون بلا تأثير في إيمانهم بالله.

ط. مطر الخريف وموعده الملائم

قد تتساقط زخات مطر متفرقة مبكرًا في الخريف. وعن 14 آب/ أغسطس يقول المرء: "لَ طِلِع سهيل لا تأمِن السيل لِون تالِ الليل"، أي: "عندما يطلع السهيل لا تثق بالسيل حتى لو كان في آخر الليل" (الطفيلة)؛ فمطر مفاجئ يمكن أن يملأ الجدول. ومع ذلك يمكن أن ترتبط بذلك منفعة أيضًا، إذ يقول القزويني عن هذا اليوم[287]: "ما امتلا وادِ مِن نَو الجبهة إلا امتلا بالعشب"، أي: "لا يمتلئ وادٍ عند طلوع 'جبهة الأسد' بالماء إلا امتلأ بالعشب أيضًا".

---

(283) Ibid., 29^{b}.

(284) Deb. R. 7 (30^{a}).

(285) Ibid.; Pes. Rabb. 42 (178^{a}).

(286) j. Ber. 9^{a}, Taan. 9^{c}.

(287) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 46,

الذي وفقًا له يطلع "الجبهة" في وقت واحد مع "سهيل" في 14 "آب/ أغسطس".

ولكن زخة متفرقة ليست هي ما يعقد الفلاح ومربي الماشية أملهما عليها. وحين يسقط المطر قبل عيد الصليب (14 أيلول/ سبتمبر، بحسب التقويم اليولياني)، وهو نادر الحدوث بالقرب من القدس، يُطلق المرء عليه "مطر هِرفِ" (رام الله) أو "مطر هريف"[288] (الكرك)، أي: "مطر قبل الأوان"، ويقصد أن مثل هذا المطر ربما يعود بالفائدة على المواشي ولكن لا يعني شيئًا لفلاحة الأرض. و"شِتوة المساطيح"، أي: "مطر الأماكن الجافة" هو أمر غير مرحبٍ به للتين والعنب قط. وقد يكون هو المطر ذاته الذي يُطلِق عليه البدو بالقرب من حلب "مطر مِظِلّة"، لأنه في ذلك الوقت يكون قد بدأ تظليل الغيوم. والمطر الذي يهطل ابتداء من عيد الصليب، أو "مطر عيد الصليب"، ضار بشكل واضح بالمواشي ويُطلق المرء عليه في إلجي [بلدة في وادي موسى في الأردن] "مطر عفير"، لأنه يسقط على الأرض المفلوحة ("عفير") قبل سقوط مطر الشتاء. وإذا كان المطر السابق لأوانه وافرًا، تصاب المواشي في هذه الفترة بالمرض المعوي "جِعام" الذي يصيبها جراء الأعشاب السريعة النمو، والذي يستطيع إهلاك قطعان بأكملها من الأبقار والجمال والأغنام، ولكنه لا يُصيب الحمير والخيول (إلجي)[289]. والانتقال المفاجئ من علف الصيف الجاف إلى العشب الأخضر، سرعان ما يتلاشى، وربما تناول الحيوان علفًا جافًا فاسدًا، حينئذ ربما كان المرض هو السبب. ويتحدث القزويني[290] عن مطر مرغوب في ذاته، ففي 5 تشرين الأول/ أكتوبر تتسبب نباتات خضراء ("نِشر") فوق أعشاب جافة بإصابة الجِمَال بالمرض. ولذلك يُسمي المرء في القدس مثل هذا المطر القوي السابق لأوانه "شِتوِة (مطر)، اِنطوح"

(288) هكذا أيضًا:

Jaussen, *Coutumes*, pp. 323f.

يكتب موزل:

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 7,

"خريف" (مطر الخريف) بشكل خاطئ بدلًا من كلمة "هريف".

(289) بحسب

Bauer, *ZDPV* (1915), p. 55,

يظهر المرض في السنة التالية.

(290) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 47.

("اِمطوح")[291]، وكذلك في "الطفيلة"، أي "مطر سوء الحظ". وحتى في تشرين الثاني/ نوفمبر تُعتبر عشرة أيام من المطر وخيمة العواقب. وبحسب عبد الولي، يجري الحديث عن الشهر "اتلا صَفَر" (تشرين الثاني/ نوفمبر)، أي الذي يعقب صفر كالتالي:

"أول يوم ثانِ يوم وثالث يوم اِفتوح
رابع يوم وخامس يوم وسادس يوم اِذبوح
سابع يوم وثامن يوم وتاسع يوم أُمطوح
وسعد الذابح عاشر يوم للظهر".

"في الأول والثاني والثالث افتتاح،
في الرابع والخامس والسادس ذبح،
في السابع والثامن والتاسع سوء حظ،
و'سعد الذابح' هو اليوم العاشر حتى الظهر".

تُعتبر الأيام الثلاثة الأولى غير مؤذية، ولكن منها فصاعدًا يجلب المطر للمواشي الشؤم، ويتصاعد حتى ظهيرة اليوم العاشر. ويطلع "سعد الذابح" (كوكبة الجدي)، وفقًا للقزويني[292]، في 17 كانون الثاني/ يناير (تقويم يولياني) ويغيب في 17 تموز/ يوليو. أما لماذا يظهر هنا كمسيطر على اليوم العاشر حتى وقت الظهيرة، فلا علم لي بذلك. وفي أي حال، يعني اسمه "الذابح" شؤمًا، ربما بسبب ما تجلبه تلك الطوالع.

ومع هذه المعلومة تنسجم قاعدة أخرى[293] هي أن مطر الأيام العشرة الأولى في الشهر الأول من موسم المطر يعني أمراضًا ("اِطروح"). والأيام العشرة الثانية تجلب مطر النطحات ("اِنطوح")، أي مطر البراعم الصغيرة التي تشق طريقها من خلال التربة. والأيام العشرة الثالثة تجلب مطر الافتتاحات

---

(291) وهذه أيضًا تقال فعلًا، على الرغم من أنها، بحسب كنعان، غير صحيحة.

(292) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 49.

(293) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, pp. 30f.

("اِفتوح")، أي الحظ، وفقًا لتأويل كنعان. ولكن يبدو أن التعابير تنطبق أكثر على المطر ذاته، وحينئذ ربما كانت "اِطروح"، أي "طروح"[294]، "اِنطوح"، أي "نطحات"، "اِفتوح"، أي "افتتاحات" تعني أن المطر يسقط بكمية قليلة، ثم يندفع بشكل أقوى، وفي الختام يهطل بشكل غير مقيد. وفي الكرك والطفيلة وُصِفَ لي "مطر النْطوح" الضار كبشير لمطر الثريا الجيد للمحصول، والضار في الوقت نفسه بالمواشي، ويتبعه في 9 "اِجرَد" (كانون الأول/ ديسمبر) "مطر الفْتوح" ("الطفيلة").

بالنسبة إلى الفلاح، يجب على مطر الخريف ألا يأتي مبكرًا جدًا ولا متأخرًا جدًا؛ فالمطر المبكر جدًا ضار لأنه متبوع بفترات انقطاع مطر طويلة تعرض للخطر عملية نمو الزرع. إلا أن الزرع قد ينمو هو الآخر بشكل سريع جدًا وينضج في وقت مبكر جدًا؛ فالسنابل القوية تتشكل خلال وقت النضوج العادي في نيسان/ أبريل[295]، في حين أن المطر المتأخر جدًا يؤخر الزرع كثيرًا، أو أنه بلا فائدة للزرع في حال قام أحدهم ببذره في الأرض في الوقت المعتاد على أمل أن يكون المطر وشيكًا. والظروف نفسها تسود حين يؤكد العهد القديم على المطر الذي يمنحه الله قد جاء في وقته (بالعبرية "بِعِتّو")، كما في سفر اللاويين (4:26)؛ التثنية (14:11، 12:28)؛ إرميا (24:5)؛ حزقيال (26:34). ويفترض أن يكون هناك تصور معيّن في شأن الوقت الصحيح التي يحدده الترجوم اليروشليمي 1 للتثنية (12:28)، حيث يضع المطر المبكر ("بَكّير") في تشرين الثاني، والمتأخر ("لَقّيش") [بالعربية لقّيس] في نيسان (يُنظر أدناه). ويُطلق العربي على موعد مطر الخريف "الوسم". و"وسم المال" هو وقت المطر الملائم للأراضي المملوكة، أي الأرض الصالحة للزراعة وفلاحتها مقارنة بـ"وسم الحلال"، أي الوقت الملائم للمواشي وإطعامها؛ فالأول يلائم رغبة الفلاح. وعبارة "أوسمت الدنيا"، أي: "جاء المطر في الوقت الملائم"، هي صرخة نصر كما هي صرخة عرفان بالجميل أيضًا. وقد تم تحديد

(294) يُقارن أدناه، ص 126 وما يليها.

(295) يُقارن:

Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 11.

هذا الوقت الملائم بالطريقة التالية. يقال في غرب فلسطين: "الوسمي البدري لمليح هو قَبل عيد اللد بِخَمستعشر يوم: الوسمي الموخر بعدو بِخَمستعشر يوم، عِزّ الوسمي عليه"، أي: "الوقت المبكر الملائم هو خمسة عشر يومًا قبل عيد اللد [مار جرجس]، والوقت الملائم المتأخر هو خمسة عشر يومًا بعده، ويقع الوقت الملائم الحقيقي في العيد ذاته"(296). وبناء عليه، فإن عيد مار جرجس في اللد، أي تقديس كنيسته هناك وذكرى دفن عظامه فيها(297)، في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر هو الوقت الأفضل والحقيقي الذي يمكن دفعه إلى الأمام أو إلى الخلف خمسة عشر يومًا، بحيث إن الفترة الواقعة بين 18 تشرين الأول/ أكتوبر وحتى 18 تشرين الثاني/ نوفمبر تُعدُّ الوقت الملائم للمطر. كذلك يحدد القزويني "أول أوقات المطر" في 2 "تشرين الثاني"(298)، على الرغم من أنه يضع "المطر الساقط في الوقت الملائم" ("المطر الوسمي") تحت سيطرة نجم يظهر أصلًا في 9 "اِيلول" (أيلول/ سبتمبر)(299). وتتطابق مع ذلك القاعدة التي تحدد "وسم الملك" 35 يومًا بعد عيد الصليب الذي يعني 18 تشرين الأول/ أكتوبر (تقويم يولياني)، والوسم الثاني خمسون يومًا بعد عيد الصليب، وهو عيد اللد (القُبيبة). وعلى صلة بهذا العيد قواعد حراثين مشهورة ترد في الخريف/ الفصل 14.

في الأصل، لم يكن عيد مار جرجس مجرد مقياس للزمن؛ إذ يبدو أن اعتقادًا ربوبيًا قديمًا [الإيمان بالله بغير الإيمان بديانات سماوية] يتعلق بجالب المطر قد انتقل إلى قاتل التنين المولود في اللد. ووفقًا لتصور بابلي، كان هذا

---

(296) يُقارن أيضًا:
Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*², p. 135; Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 274; Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 11.

(297) *Horolgion mega* (Athen 1898), p. 268.

(298) *Kosm.* I, p. 75,
وعند
Ethe, p. 154,
غير دقيق: "بداية موسم المطر".

(299) Ibid., p. 46;
لدى إيثه، ص 96، لها صلة بـ "أولى أمطار الربيع".

أداد خالق الطوفان وإله الرعد والصواعق الشبيه برمون في بعلبك الذي كان معروفًا في فلسطين في الماضي ككبير آلهة مدينة الشمس، وقد وجد شكلًا متأخرًا له. وفي بعض المناطق يقول الفلاحون المسيحيون عندما ترعد: "فرس مار جِريس بِطارِد في السما"، أي: "فرس مار جريس تطارد في السماء". والقول نفسه يقوله المسلمون عن إبراهيم: "الخليل اِطارد بالسما". ومن غير ريب، يتم هنا استخدام مار جريس وإبراهيم بدلًا من قوة أخرى تقع خارج نطاق الدين المعترف به. ولا يزال قوس قزح يُدعى حتى اليوم كما لدى القزويني[300] "قوس القزح" أو "قوس قزح"، مع أن من المفترض أن ابن عباس كان قد نبه إلى أنه يُفضل القول "قوس الله"، لأن "قزح" شيطان[301]. ومن المفترض أن قزح كان في الأصل هو الرب الراكب أو المسافر عبر السماء عندما ترعد، والذي انتقل اسمه إلينا في يوسيفوس في شكل قوز (Koze) (*Κωζαι*) إله قدماء الأدوميين[302]. قزح هذا كان إذًا إله عواصف ورعد. وإله إسرائيل لم يكن هذا فحسب، بل كان إله عواصف ورعد أيضًا، إذ هبط في سيناء في عاصفة رعدية (الخروج 19:16-18)، وهو مَن تحرك في السماء تاركًا صوته القوي يدوي في شكل رعد، ومطلقًا سهامه في البرق (المزامير 18:11 وما يلي، 68:5، 34؛ التثنية 33:26). وهو يمتلك قوسًا، ولكنه ما عاد ليستخدمه، بل وضعه بدلًا من ذلك في الغيوم، كعلامة على عقد سلام مع الإنسانية (التكوين 9:12 وما يلي).

إن للخضر عند المسلمين صلة وثيقة بالقديس مار جرجس في فلسطين اليوم، ذلك الرحالة الخالد الذي بُنيت على اسمه محطات كثيرة مقدسة في فلسطين[303]. وفي بانياس حل في محل نبع الألوهية القديم وجرى تبجيله خلال العهد الروماني باسم **بان** الذي هو بقية إله الطبيعة المخضوضرة. وبحكم

---

(300) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 98, 100.

(301) **محيط المحيط**، يُنظر "قَزَحة".

(302) Antt. XV 7, 9.

(303) عشرة منها مدونة على خريطة فلسطين الإنكليزية، يُنظر:
Stewardson, *General Index*, pp. 105f.
يُقارن:
PJB (1914), p. 127.

ذلك، فهو قريب من إله العواصف والرعد. وإذا كان زكريا (11:12) يقرن نوح هدد - رمون في بقعة مجدون بأسطورة أدونيس، فربما كان هذا دليلًا على دمج قديم لإله العواصف والرعد مع إله النمو الجديد المتبرعم التابع له. وربما كانً عيد مار الياس في 20 "تموز"[304] هو بقية عيد كان مكرَّسًا للنوح على الطبيعة الزائلة، ثم طُبقت تلك الطقوس على الإله الموجود على جبل الكرمل كجالب للمطر، والذي أرسل نارًا من السماء وأشعل نار المذبح (الملوك الأول 38:18).

أما المرادف المصري لعيد مار جرجس، فهو عيد إيزيس الذي كان منتشرًا في الإمبراطورية الرومانية، والذي، وفقًا لتثبيت قديم للتاريخ، ينتهي بعيد فرح وسرور يُحتفل به في 1-3 تشرين الثاني/ نوفمبر[305] في مناسبة العثور على أوزيريس. وإلى ذلك ينتمي عيد صاو [سايس بالإغريقية] في 17-20 أثيس (Athys) (13-16 تشرين الثاني نوفمبر) المكرس للنوح على أوزيريس والابتهاج بالعثور عليه[306]، والمرتبط به حرثٌ وزرع. وهو يعني في فلسطين قدوم مطر الخريف، وهو في مصر على صلة بنقصان مياه النيل. ويحدد القزويني[307] بداية نقصان مياه النيل في 18 "تشرين" الأول/ أكتوبر، وبداية البذر على النيل في 21 من الشهر ذاته. وفي أزمنة أكثر حداثة يحصل أقصى ارتفاع للنيل عادة بين 10 أيلول/ سبتمبر و25 تشرين الأول/ أكتوبر (نمط جديد [أي بحسب التقويم الغريغوري])[308].

وعيد مار جرجس يقابله عند اليهود عيد العُرُش الذي يبدأ في 15 تشري (تشرين الأول/ أكتوبر) وينتهي في 22 تشري. وقد سبقت الإشارة إلى أهميته

(304) يُحتفل بهذا العيد منذ القِدم بحسب التقويم اليوناني. يُنظر:
Baumstark, *Festbrevier und Kirchenjahr der syr. Jakobiten*, p. 279,
ويورد القزويني (ص 89) 4 "آب" يومًا لذكرى إلياس.

(305) Wissowa, *Religion und Kultur der Römer*, pp. 294f.

(306) Frazer, *Adonis*, pp. 318ff., 320ff., 328.

(307) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75.

(308) Anderlind, *Landwirtschaft in Ägypten*, p. 73.

كموعد لبداية موسم المطر في ص 40 وما يليها. ولا يتحدث قانون العهد القديم في سفر الخروج (16:23، 22:34) عن عيد جمع[309] ما حُصد في نهاية السنة، أو عن أي صلة تربط العيد بالمطر الآتي. إلا أن السؤال هو: لماذا القانون الكهنوتي (سفر اللاويين 33:23 وما يلي، العدد 12:29 وما يلي) يقضي بأن يصادف العيد في منتصف تشري؟ ربما الجواب يكمن في أن العمل في البيدر ومعصرة العنب يجب أن يكون قد انتهى في هذا الوقت، ولأن المطر المستهل أو الندى الشديد يجعلان من غير الممكن الاستمرار في ترك الحبوب والعنب في العراء. وحلول رأس السنة، تلك الخاصة أيضًا بالقانون القديم (يُنظر أعلاه)، تعني نهاية سنة الحبوب والعنب التي حددتها الطبيعة من خلال المطر. ولذلك كان من الطبيعي خلال عيد الشكر التضرع حتى لا يكف هطل المطر في بداية السنة. وإلا لن يكون هناك حبوب أو ثمار. وليس عصيًا على الفهم أن القانون الكهنوتي الذي يحاول أن يمنح العيد معنًى أسمى، من خلال التذكير بالحياة في المعرشات خلال التيه في الصحراء (سفر اللاويين 43:23)، لا يشير إلى طقوس ترتبط بصلوات الاستسقاء. ومع ذلك، ربما كانت تلك الصلوات قديمة، ولم تكن قد اختلقتها اليهودية التي كانت تعيش تحت قيود القوانين الكهنوتية. وهذا ما سيجري التعاطي معه في سياق صلوات الاستسقاء في فلسطين اليوم في الفصل 11 الخاص بصلوات الاستسقاء.

لا ريب في أن مطر تشرين الثاني/ نوفمبر الذي به يبدأ فصل المطر، هو المطر المبكر (بالعبرية "يورِ") لبني إسرائيل (التثنية 14:11؛ إرميا 24:5؛ يقارن "مورِي" يوئيل 23:2؛ المزامير 7:84)، كذلك المطر المتأخر - "مَلقوش" الذي يتركه الله يسقط، إذا كان رحيمًا، "في موعده"، أي في الوقت الملائم له. ولذلك يترجم سعديا "يوري" (التثنية 14:11) بشكل صحيح إلى "الوسمي"، أي "المطر الساقط في موعده". ويُسمي التقليد الرباني شهر مرحشوان (تشرين الثاني/ نوفمبر) الوقت الملائم، في حين أن تشري (تشرين الأول/ أكتوبر)

(309) ليس "الحصاد" كما تُترجَم الكلمة عادة، لأنه، وفقًا للتثنية 13:16، يجري إحضار كل شيء من البيدر والمعصرة.

وكسلو (كانون الأول/ ديسمبر) قد يعنيان مطرًا مبكرًا جدًا أو متأخرًا جدًا[310]. والتقليد الحاخامي يفسر الاسم "يوري" بطرق مختلفة: فهو "معلم" ("موري") لأنه يُعلِّم الناس إدخال ثمارهم إلى (داخل البيت)، ورأب سقوفهم (من أجل تمتينها)، كمشبّع يقوم بإشباع التربة (مروي) والتخلل فيها عميقًا، ولكن أيضًا كقوس يصوب نحو الأرض، ولكن لا يطلق [سهامه] غضبًا[311]. والتفسير الأخير سوف يكون هو الصحيح[312]. فالمطر المبكر هو مطر "القوس" ("يوري"، أخبار الأيام الأول 3:10؛ أخبار الأيام الثاني 23:35)، الذي يبدأ حين يدخل مجرى الشمس في دائرة برج "القوس" (بالعبرية اللاحقة "قَشَّات"، بالعربية "القوس"، أيضًا "الرامي"). وهذا يحدث الآن في كانون الثاني/ يناير، ولكن التنجيم العربي[313] ينسبه إلى كانون الأول/ ديسمبر. وفي الألف الأول قبل الميلاد، كان مجاله تشرين الثاني/ نوفمبر، وقبل ذلك تشرين الأول/ أكتوبر. وحينئذ ربما وُجد هنا في الخلفية رب العواصف والرعود أيضًا، ذلك الذي تأتي رمية سهمه، أي برقه، بالمطر.

الآن يكون المطر المبكر قد انفصل عن "كوكبة القوس والرامي"؛ فبرجه هو الثريا التي يُشير غيابها المبكر في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر إلى بدايته، كما بيّنا ذلك في ص 38 وما يليها. ولذلك يُطلق المرء في فلسطين وشرق الأردن على المطر الأولي المهم "الثرياوي" (الطفيلة والكرك) أو "مطر الثريا" (إلجي)[314].

---

(310) سِفرِ التثنية 42 (80أ)، مدراش تانيت. عن التثنية 11:14-35؛
Vaj. R. 35 (97^{b}f.), b. Taan. 6^{a}

ترجوم يروشليمي 1 عن التثنية 11:14.

(311) هكذا صيغة سِفر، كذلك طبعة فيينا 1545، مقابل تانيت. 6أ "يوريد".

(312) الجذر الخاص "يارا" "ينفجر" المفترض في Gesenius-Buhl، يجب الشك فيه مع Gesenius-Robinson-Brown. في هوشع 3:6، "يارا" مشتقة من "يوري"، في هوشع 10:12؛ الأمثال 11:25؛ النص غامض.

(313) *PEFQ* (1908), p. 254.

(314) يُنظر أيضًا:
Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 7,
حيث يشير الاسم "الثريا" إلى باكورة المطر الوفير والملائم، في حين أن مطر الثريا، "الثرياوي"، يظهر ثانيًا وأكثر أهمية.

وعن هذا المطر يُقال[315]: "وَسم الثريا عَجَب مِن عَجَب – في البر مال وفي البحر ذَهب"، أي: "الوقت الملائم للثريا هو من العجب العجاب – ففي البر تعني مالًا، وفي البحر تعني ذهبًا"[316]. ويُعتبر ذلك مؤشرًا جيدًا على مطر شتوي وافر حين تقف الثريا والميزان وجهًا لوجه في وضعية جنوب شمال[317]. ووفقًا لـِ Geoponica (I 5)، يُشير المطر قبل غياب الثريا إلى سنة ملائمة، والمطر خلال غروبها إلى سنة متوسطة، والمطر بعد ذلك إلى سنة متأخرة. وفي الحالة الأخيرة، على المرء أن يبذر على نطاق واسع، لأن جزءًا من البذور سيتلف.

على توافق مع هذا التفسير للثريا، تقف الصلة اليهودية المتعلقة ببداية الطوفان في 17 الشهر الثاني (التكوين 7:11) في 17 مرحشوان (تشرين الثاني/ نوفمبر) كونه يوم الغياب المبكر لطالع "كيما". وعلى ذلك يشير التلمود الفلسطيني[318] بالكلمات: "الجميع يعترف أن 17 (مرحشوان) هو وقت غياب 'كيما'، لأنه معها أتى الطوفان إلى العالم". ووفقًا للتلمود البابلي، كان الحاخام أليعيزر هو الذي حدد 17 مرحشوان يومًا تغيب فيه "كيما" خلال النهار، فتضعف الينابيع، وهو الذي اختاره الرب بدايةً للطوفان، وهو ما يُفترض حين يُفسَّر اسم الشهر بول الذي يناظر تشرين الثاني/ نوفمبر، كونه اختصارًا لكلمة "مَبّول" (طوفان). وإلى أن أتم سليمان في هذا الشهر بناء الهيكل (الملوك الأول 6:38) بقيت أيام المطر الأربعون للطوفان قائمة كعلامة. حينذاك شُطبت الـ"ميم" (= 40) من "مَبّول"، وبقي فقط "بول"[319]. وقد تخيل المرء العملية فلكيًا من خلال قيام الرب وكعقاب للناس الذين قاموا "بتغيير" أعمالهم (يقارن

---

(315) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 31,

حيث تعبير "وسم المال" المذكور في ص 118 لا يفسره هذا القول تفسيرًا صحيحًا.

(316) لأن القمح المشحون على السفن يأتي بالذهب.

(317) Bauer, *ZDPV* (1915), p. 56,

ولكن من دون أن يقال هل كان يجب فهم "الميزان" باعتباره برجًا يمثل هذا الاسم، أم باعتباره حزامًا للجوزاء.

(318) j. Taan. 64^a,

كذلك الترجوم اليروشليمي 1 التكوين 7:11، ترجوم أستير 2 3:7.

(319) Midr. Tanchum, Noach 17,

(طبعة بوبر).

التكوين 12:6)، بتغيير نظامه الكوني وترك "كيما" تطلع في اليوم الذي كان من المفترض أن تغيب فيه. وعوضًا عن ذلك قام بحذف نجمين من كوكبة "كيما" المؤلفة بحسب مدراش تَدشا من سبعة نجوم، فاسخًا بذلك أواصرها (أيوب 31:38). ثم من المفترض أنه جرى ترميم هذه الفجوة من خلال نجمي عايش[320] الذي يحاول منذ ذلك الحين يائسًا البحث عنهما (أيوب 32:38). وهذا ما وضع حدًا للطوفان[321]. ويدّعي التصور الذي يمثله الحاخام يهوشواع في التلمود البابلي الأمر نفسه بخصوص 17 إيّار؛ إذ تحول طلوع "كيما" إلى مغيب واضعًا بذلك بداية الطوفان بما يتوافق مع المعنى الحقيقي في التكوين (11:7) واليوبيل (23:5)[322]، حيث يعني الشهر الثاني بالتأكيد اِيار، في بداية الصيف، بحيث يتم التذكير بنهاية موسم المطر الذي يصادف الطلوع المبكر للثريا. إذًا اعتبرها التصور القديم مطرًا صيفيًا غير طبيعي، في حين انصرف الذهن إليها كونها لاحقًا مطر شتاء غزيرًا. (يُنظر أيضًا أدناه III, 3).

ربما تفسر الخلفية فلكية المطر المبكر المتغيرة اختفاء اسمه القديم لدى اليهود اللاحقين. وحين يجري في سفر اللاويين (4:26) تفسير نزول المطر في موعده الموعود، يستخدم المرء حينذاك "رِبيعيّوت"[323]، أي التي تحدد مواعيد معيّنة لذلك. وصيغة المفرد منها "رِبيعا" "إخصاب"، وهو ما سيكون له صلة باسم

---

(320) وهذه ربما كانت، بحسب سعديا، "بنات نَعش" (كوكبة الدب الأكبر)، وبحسب السريانية، "عيوتًا" التي يفهمها الدبران والذي يبدو ملائمًا، لأن القلائص قريبة من الثريا.

(321) b. Ber. 59ª,

يُقارن:

b. R. h. S. 11ᵇ.

(322) استخدم هنا

Littmann in: Kautzsch, *Apokr. u. Pseudepigr.*, vol. 2, p. 49,

27 بدلًا من 17، والذي ربما كان غلطة مطبعية، يُقارن:

Rönsch, *Das Buch der Jubiläen*, p. 241,

على الرغم من أن

Syncellus, *Chronogr.*,

يتحدث عن 27 أيار/ مايو، والذي من المفترض أن يعادل 20 أيار/ مايو عند الرومانيين. يُنظر

Rönsch, *Das Buch*, p. 288.

(323) Siphra 110ᵈ, Vaj. R. 35 (97ᵇ).

الشهر العربي القديم "ربيع" الواقع بين "صَفَر" و"جُمادى"؛ فالمطر الساقط في موعده يعني إخصاب الأرض[324] استنادًا إلى معنى الجذر "رابع" الذي يُذكَر في سفر اللاويين (16:20، 23:18) كإخصاب للحيوانات[325]. كما أن المطر في إشعيا (10:55) يجعل الأرض تَلِد[326]. وقد أطلق الحاخام يهوذا على المطر بعل الأرض حين قال[327]: "مِطرا بَعلَه دِ- أرعا هو". على المرء أن يبدأ بتمجيد الرب مرسل المطر "حالما قارب العريس العروس"[328]. وبحسب الوقت الذي يهطل فيه المطر، يكون الـ"رِبيعا" مبكرًا أو متوسطًا أو متأخرًا، وهنا يتم ذكر 3 و7 و17، أو 7 و17 و23، أو 17 و23 و30 مرحشوان (تشرين الثاني)[329]، بحيث إن 17 مرحشوان كيوم الطوفان (يُنظر أعلاه) ينتمي دائمًا إلى الأوقات المحتملة. والإتيان إلى ذكر لافت لثلاثة مواعيد تبدو كما لو كانت قد اختيرت بشكل عشوائي، وتجد تفسيرًا لها من خلال معطيات هيسيود[330] الذي يربط بداية موسم الزرع والشتاء بِالغياب المبكر للثريا وبالقلائص والجوزاء، أي بـ3، 7، أو 15 تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو ما قد يتوافق على أبعد حد مع أولى التقديرات المذكورة آنفًا. وعند القزويني[331] يُصادف الغياب المبكر للثريا في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، والقلائص ("الدبران") في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر،

---

(324) Tos. Taan. I 4, j. Ber. 14ª, Taan. 64ᵇ.

(325) يعزو "رابع" إلى الجذر العربي "رَبَصَ" أي "يروي". وإليه تنتمي الكلمة العبرية المتأخرة "رِبّيص" "يرش". إلا أن الكلمة العبرية المتأخرة "رابَص" تعني "خزَّن" ويجب وصلها مع "رابع"، بالكلمة العربية "رَبَض" "يضع".

Krauß, *Tal. Arch.*, vol. 2, p. 532.

(326) وبحسب

Pirke R. Eliezer 6; Jalkut Machiri,

عن إشعيا 10:55، تُخصب الأرض بالمطر، مثلما العروس يُخصبها عريسها، إذ إن "السماء تعني ماء الرجولة (حيوانات منوية)".

(327) b. Taan. 6ᵇ.

(328) b. Ber. 59ᵇ.

(329) Tos. Taan. I 3, j. Taan. 64ª, b. Taan. 6ª.

(330) Hesiod, *Opera et Dies*, pp. 383, 615f.

(331) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 43,

أيضًا الترجوم اليروشليمي 1 التكوين 11:7، ترجوم أستير الثاني 3:7.

ورأس الجوزاء ("الهقعة")[332] في 9 كانون الأول/ ديسمبر، وقوس الجوزاء ("الهنعة") في 22 من الشهر ذاته.

وعلى ما يبدو، فإن مفهوم إخصاب الأرض بالمطر المبكر له صلة بحقيقة أن الأرض وحدها التي كانت قد سُقيت مطرًا قد سمّاها اليهود "بيت ('سِدي') هبعل"، خلافًا للأرض التي تُسقى بشكل صناعي وتسمى "بيت هشِلاحيم"[333]. لذلك، لم يفكر المرء هنا، مثل بودنشتاين[334]، استنادًا إلى سميث وفلهاوزن[335]، في المياه الجوفية والينابيع والجداول، بل مثل العربي عندما يتحدث عن "أرض بَعِل"، أي عن الأرض ذات الطبيعة الجافة ("ناشِفة")، ولكنها نتيجة للمطر تصبح قابلة للفلاحة ومفلوحة. أما الأرض التي تُروى من العيون أو الأنهر بواسطة القنوات، فهي "أرض سقي"، ولا يوجد كثير منها في فلسطين. والتناقض ذاته يقع في التثنية (11:10 وما يلي)؛ ففي مصر تُسقى حديقة الخضروات بالقَدَم، مقابل "أرض المرتفعات والوديان التي تشرب الماء من مطر السماء". لقد كان بعل هو من قام المرء في عهد آخاب (الملوك الأول 18:26 وما يلي) بدعوته. وتتمتع الأرض المروية بشكل صناعي بإمكانية فلاحتها في الأماكن التي لا تسقط فيها الأمطار. وقد ذُكر لي أن بعض الثمار التي تنمو في أرض لا تروى بشكل صناعي مثل الرمان والبندورة، تتمتع بنكهة أقوى[336].

إذا كان المطر في موعده خفيفًا ("بَخّاخ")[337] يُطلق المرء عليه "طَرح"،

---

(332) تُدعى هذه الكوكبة بالعربية "الجوزاء" أو "الجبار".

(333) Bab. b. III 1,

وهنا وهناك.

(334) Bodenstein, *Die Landschaft in Palästina zur Zeit der Misnah*, pp. 96f.

(335) Smith & Wellhausen, *Religion of the Semites*, p. 98.

(336) يُقارن أيضًا:

Wetzstein, *ZDMG*, vol. 11, pp. 489f.

(337) ربما كنت قد دونت خطأ "بَخّاش". وكلمة "بخاخ" معروفة كـ "تقطير". ووفقًا لكنعان

Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 29,

فإن "نَقّط" عند سقوط المطر تعني نقاطًا بطيئة، و"رشرش" تعني نقاطًا سريعة، و"بخّ" تعني مطرًا شديدًا في شكل نقاط صغيرة، و"زخّ" تعني مطرًا شديدًا في شكل نقاط كبيرة.

ويتحدث عنه قائلًا: "طَرحَت الدِنيا، أي: قامت الدنيا بالصب باتجاه آخر. مثل هذا المطر يعود بالضرر أكثر منه بالنفع؛ فالمطر يجب أن يكون وافرًا، و'يروي' الأرض حقًا كمطر أول الري". كذلك يقول أيوب (11:37) عن الرب: "بروِيّ (بالعبرية 'ري')، يُحمِّل الغيم". ويؤكد إشعيا (10:55) أن المطر "يروي ('هِروا') الأرض، يجعلها تلد وتنبت". ويتم تحقيق ري كافٍ ("أروَت الدِنيا") حين لا يصل المحراث إلى تربة قاسية غير لينة وغير مخصبة ("السكة ما تِلحَقش"، أي "اِلقاسي"). وهذا يعني تغلغل الرطوبة في التربة غير المحروثة بعمق يصل إلى 30 سم؛ فعمق أقل ربما يجعل حراثة الأرض غير مضمونة، لأن البذور المنثورة في التربة اليابسة قد لا تنمو إذا لم يتبع ذلك مطر وشيك. ومثل هذا الأمر يخبرنا به زونن من الجليل[338]؛ إذ تُعتبر الأرض "مروية" في حال تغلغل الماء إلى عمق شبر كامل ("شِبر") ونصف شبر ("فتر")، أي 35-40 سم.

وفقًا لرأي يهودي، يجب أن يكون الماء قد تغلغل في الأرض الجافة مقدار عرض كف اليد، حتى يمكن اعتباره "رِبيعا". وفي حال الأرض العادية، هناك حاجة إلى ضعف عرض كف اليد، وفي حال الأرض المفلوحة تحتاج إلى ثلاثة مقادير[339]، وهو ما يشكل حوالى 9 و18 و27 سم على التوالي. والكلمة الفصل، بالنسبة إلى رأي آخر، تكمن في علو الركبة ("بورِخ") للمحراث والبالغة ثلاثة مقادير عرض كف اليد[340]، وهو ما يصل في وضع عمودي إلى حوالى 29 سم، لأن الحديث هنا عن "اكتمال" الـ"بورخ"، وفي المقاطع الموازية[341]

(338) *Heil. Land* (1921), p. 11.

(339) يجري في:

b. Taan. 25ᵇ. Ber. R. 13 (29ᵃ),

الحديث عن تربة قاسية ومتوسطة ومروية.

(340) هكذا:

b. Tann. 25ᵇ.

(341) "أداة الحرث" في:

Ber. R. 13 (28ᵇ)

فقط "أداة" في:

Tos. Taan. I 4, j. Ber. 14ᵃ, Taan. 64ᵃ.

ثمة كلام على اكتمال أداة (بالعبرية "كِلي") يبلغ طولها ثلاثة مقادير عرض كف اليد؛ فقد دفع ذلك فوغلشتاين[342] إلى أن يختار مقياس مطر يحدد قوة المطر المبكر العادي بثلاثة مقادير عرض كف اليد = 54 سم، وهو ما يناظر إلى حد ما قياسات المطر الحالية في القدس. إلا أن حاصل مطر الشتاء الكلي يبلغ عادة حوالى 60 سم فقط. حينئذ يكون هذا القياس بلا معنى؛ فالأمر لا يتعلق هنا إلا بتعبير ناقص تمت إساءة فهمه في النصوص؛ إذ إن تغلغل المطر في التربة الذي من المفترض أن يقاس في أثناء الحرث على مسند المحراث، وبالطبع ليس على شفرة المحراث الموضوعة بشكل أفقي تقريبًا. وقد سبق لراشي [الحاخام شلومو بن يتسحاق، أكبر مفسري الكتاب المقدس والتلمود من اليهود في القرن الحادي عشر] أن فهم ذلك[343]. وقد تكون "كلي" في الأصل، مثل "بورِخ"، قد قصد بها مسند المحراث، تمامًا مثلما يُدعَى مسند المحراث بالعربية "العدة" ("عدّة الفلاحة")، "الأداة". كما أن مطرًا بلا انقطاع لمدة سبعة أيام يُعتبر كافيًا إذا تعلق الأمر بالمطر الأول خلال الفترة العادية الوسطى[344]. وبعد هذا الهطل في الشتاء، يُعتبر تمجيد الرب باعث البركات واجبًا، في حين تكفي في النهاية كمية أصغر من ذلك كثيرًا[345].

---

(342) Vogelstein, *Landwirtschaft*, p. 3;

حيث بحسب

Klein, *ZDPV* (1914), p. 233; Holl, *Handbuchder Klimatologie* III 2^3, p. 95.

(343) يُنظر راشي [الحاخام شلومو بن يتسحاق] عن:

b. Taan. 25^b, Ber. R. 13,

كذلك لونتش (Luncz) في تعليق على:

j. Berachoth 14^a, (Jerusalem ed., 1908).

(344) Tos. Taan. I 4, Schebi. VII 18, j. Schebi. 39^a,

وبحسب

b. Taan. 6^a,

يُعتبر مثل هذا المطر ممثلًا لجميع الأوقات العادية الثلاثة، وبحسب

b. Ned. 63^a,

فقط لأول اثنين منها.

(345) Ber. R. 13 (29^a), j. Taan. 64^a,

(ما يكفي لترطيب قرميد السقف أو فتحة (السماء الماطرة) التي قد تبدو رخوة).

وقد يعني مطر مبكر كامل الغزارة بلية من البلايا، خصوصًا عندما "يطرح الثمر (من الأشجار) ويغرق الزرع والبيادر"[346]. حينئذ يكون المطر قد هطل بشدة كبيرة، ويجب أن يرى فيه الإنسان تعبيرًا عن غضب الرب، حتى أن حزقيال (26:34) يشدد، وبحق، على أن المطر الملائم يجب أن يكون مطرًا مباركًا، لأن عليه أن يخدم هدفه[347]. لذلك فإن مطرًا معتدلًا بكامل قوته هو المطر المبكر الصحيح لرب رحيم.

وتقدم الإحصاءات معلومات عن الوضع الحقيقي للأمطار التي يتم اختصارها إلى أمطار شهرية وسنوية. إلا أن الوقت الدقيق لترطيب كافٍ [للأرض] لا يتم تحديده ببساطة وسهولة. ومع ذلك يمكن تحديد طبيعة المطر المبكر؛ فبحسب هيلدرشايد[348]، كانت بداية المطر في 35 سنة 20 مرة في تشرين الأول/ أكتوبر، 15 مرة في تشرين الثاني/ نوفمبر. والأبكر كان في 1 تشرين الأول/ أكتوبر[349]، والأخير في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر الذي يظهر شاذًا عن القاعدة، لأن 15 تشرين الثاني/ نوفمبر يظهر كأنه الموعد الأخير. وبحسب غلايشر[350]، لم يكن هناك خلال 41 سنة مطرًا في أيلول/ سبتمبر 36 مرة، وفي تشرين الأول/ أكتوبر 15 مرة، وخمس مرات فقط يوم واحد ماطر في تشرين الثاني/ نوفمبر. وقد راوح عدد الأيام الماطرة في أيلول/ سبتمبر بين 0 و2، في المعدل 0، وفي تشرين الأول/ أكتوبر بين 0 و7، في المعدل 2، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر بين 1 و13، في المعدل 7.

تقلبت كمية المطر في الأشهر، بشكل غير ضئيل. فشهر آب/ أغسطس، الذي سقط فيه المطر خلال 39 عامًا مرة واحدة فقط، يمكنه أن يبقى خارج

(346) Siphre,

التثنية 42 (80أ)، يُقارن الأمثال 3:28.

(347) Siphre,

التثنية 42 (80أ)، يُقارن الأمثال 3:28.

(348) *ZDPV* (1902), pp. 63, 65.

(349) وهنا لا تؤخذ في الاعتبار أمطار آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر من الأعوام 1875، 1878، 1889، 1890 الخارجة عن المألوف.

(350) *Meteorol. Observations at Jerusalem* (1901), table III to p. 24.

الحساب. وبالنسبة إلى أيلول/ سبتمبر، يُورد هيلدرشايد[351] 0.8 مم كمتوسط لِـ 39 سنة، وهذا ممكن لأن 20 مم سقطت في هذا الشهر في سنة 1878. وبناء عليه، بالنسبة إلى القدس، يجب اعتبار أيلول/ سبتمبر بلا مطر. وهناك في تشرين الأول/ أكتوبر تقلبات بين 0 و58 مم، في المتوسط 9.4، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر بين 1 و203 مم، في المتوسط 61.0. وعلى هذا المنوال يأتي تشرين الأول/ أكتوبر بـ 1.4 في المئة من المعدل السنوي لكمية المطر، وتشرين الثاني/ نوفمبر 9.3 في المئة، أي عُشر كمية المطر السنوية تقريبًا. وبذلك يكون تحديد موعد سقوط المطر المبكر في تشرين الثاني/ نوفمبر مبررًا بشكل كافٍ، ولكن يُظهر أيضًا أن في الإمكان اعتباره بشيرًا أو أول غيث مهم لمطر الشتاء[352].

هل كانت قواعد الفلسطينيين التقويمية صحيحة أم لا؟ هذا سؤال آخر؛ فعيد اللد [مار جرجس] يُصادف في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر (بحسب التقويم الغريغوري)، وغياب الثريا في 26 أو 30 تشرين الثاني/ نوفمبر (بحسب التقويم الغريغوري). وقد دونت في 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1913 في ساعات المساء برقًا من الشمال والشرق، وفي الليل بداية مطر آت من الغرب. وفي 28 و29 تشرين الثاني/ نوفمبر سجلت مطرًا شديدًا بلغت كميته 20 مم تقريبًا. في 1 كانون الأول/ ديسمبر بداية البذر في لفتا، وفي 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1920 أتى المطر الشديد الأول بكمية بلغت 58 مم، وبالتالي وفر الشرط المسبق لبداية البذر. وفي 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1924 كان في إمكان المرء الشروع، وبثقة، في عملية البذر، بعد أن تساقط من الأمطار في تشرين الأول/ أكتوبر 15.2 مم، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 28.6 مم. وبذلك يمكن اعتبار تلك القواعد مبرَّرة، خصوصًا أنها لا تسعى إلا إلى تحديد الوقت الملائم للمطر الأول، ولكنها لا تسعى إلى القول: متى يسقط عادة.

---

(351) Ibid., pp. 23, 39.

(352) وفي جميع الأحوال، يحسب المثل حساب المطر الغزير في تشرين الأول/ أكتوبر أو تشرين الثاني/ نوفمبر، حين يقال: "اِلّ ما شبع عنب وتين يشبع مية تشرين" (**المشرق** (1905)، ص 866).

ي. الغياب الموقت للمطر

يتمنى الفلاح مطرًا غزيرًا في تشرين الثاني/ نوفمبر، ثم توقفًا موقتًا لثلاثة أسابيع تقريبًا قبل مطر الشتاء، كي يستطيع البدء بفلاحة أرضه. إنها فترة فاصلة، إذا طال أمدها قد تتعرض البذور التي بُذرت في الأرض إلى الهلاك بفعل الفئران والطيور. إلا أن إلقاء نظرة عامة على سلسلة طويلة من سنوات المطر التي لا توضح بشكل كافٍ طبيعة فترات انقطاع المطر، يؤكد أن هذه الأمنية بقيت غالبًا دونما تحقيق. ويلفت هيلدرشايد إلى أن تقلبًا منتظمًا بين الفترات الجافة والرطبة ليس قابلًا بعدُ للتظهير بوضوح، ولكنه محتمل[353]. وإذا نظر المرء إلى السنوات، كل سنة على انفراد، حينئذ يجد المرء أن سنة 1860 كانت سيئة بشكل خاص، حيث بلغ حاصل المطر الأول المتساقط في تشرين الثاني/ نوفمبر (من 12 فصاعدًا) 3 مم فقط. وفي كانون الأول/ ديسمبر سقط 56 مم، وهي كمية كانت لا تزال دون المعدل. ولم تكن سنة 1878 بأفضل منها؛ ففي أيلول/ سبتمبر، سقط - خلافًا لجميع التوقعات - 20 مم، ثم لم يكن ثمة أمطار في تشرين الأول/ أكتوبر، وسقط في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1 مم فقط، وفي كانون الأول/ ديسمبر 76 مم، أي نصف معدل الكمية. وفي كلتا الحالتين، كان "المطر المبكر" غائبًا، ومن المفترض أن معاناة الفلاح كانت كبيرة. مرة أخرى كانت الظروف مختلفة في الشتاء القاسي 1924/ 1925[354] الذي عايشتُ نهايته في فلسطين؛ ففي تشرين الأول/ أكتوبر سقط 15.2 مم، أي كمية وافرة، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 28.6 مم، أي نصف معدل الكمية البالغ 61 مم، ثم بعد انقطاع دام 14 يومًا، من 10 كانون الأول/ ديسمبر فصاعدًا، 68.4 مم، أي بالكاد نصف المعدل السنوي البالغ 141.7 مم. وفي المقابل، كان شتاء 1920/ 1921 الذي عايشتُ نهايته في فلسطين أيضًا، طبيعيًا. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، من 4 حتى 27، سقط 104.2 مم، أي 1 و2/ 3 من المعدل، وسقط في كانون الأول/ ديسمبر، بعد انقطاع دام 12 يومًا، 41.6 مم

---

(353) *ZDPV* (1902), pp. 79f.

(354) وفقًا لرسالة من السيد دينسمور في القدس.

فقط، أي 2/ 7 من المعدل. ولكن عدل ذلك شهرا كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير بشكل وافر، بحيث إن مجموع الأمطار الساقطة في ذلك الشتاء تجاوزت المعدل 700.3 مم بـ 1/ 16.

إن الفرصة مواتية كي يسقط المطر بشكل اعتيادي في جزء من البلاد، في حين يُعاني جزء آخر شحًّا فيه. وعلى ما يبدو، فإن هذا ما حصل في الشتاء السيئ جدًا في سنة 1924/ 1925 بالنسبة إلى القدس والأراضي الواقعة شرق الأردن؛ فوفقًا لتقارير بلانكنهورن[355]، سقط في بيت لحم في الجليل في تلك السنة، وبالتحديد في تشرين الأول/ أكتوبر، 28 مم، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 79.5 مم، وفي كانون الأول/ ديسمبر 171 مم، بحيث بلغت كمية الأمطار المتساقطة 520 مم، بحيث كان ممكنًا توفير محصول جيد في هذه المنطقة. وبالطبع، يمكن أن تكون الزخات المنفردة قد سقطت في بعض المناطق، حيث يسقط المطر بشكل متفرق هنا وهناك (بالعربية "طُرُق طُرُق")، كما يحصل بسهولة في أثناء هبوب الريح الجنوبية المصحوبة بعواصف رعدية، والتي لا تؤدي إلى انخفاض دائم في درجة الحرارة، وحينئذ يرى المرء سحابة حبلى في مكان ما. يسقط أيضًا مطرٌ غزير بشكل خاص، إلا أن جزءًا صغيرًا من البلاد يتأثر بذلك. ومن هذا النوع كان المطر الذي بلغ خلال ساعة 25 مم في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1921 بالقرب من القدس، على الرغم من أن ذلك لم يعنِ شيئًا للأرض التي تنتظر المطر؛ فقد عاشت بيت لحم الجليلية ثلاثة أيام ماطِرة من 24 إلى 26 تشرين الثاني/ نوفمبر من السنة نفسها[356]، وشاركت فيها القدس في يوم 25 بمطر شديد مصحوب بعواصف رعدية.

أما الوضع الذي يترتب على سقوط أمطار متفرقة، فيوصَف بشكل صحيح في سفر عاموس (4:7 وما يلي): "منعت عنكم المطر قبل الحصاد بثلاثة أشهر (أي في شباط/ فبراير) وتركت المطر يسقط على مدينة واحدة، وعلى مدينة

(355) Blanckenhorn, *ZDPV* (1926), pp. 186f.

(356) مصدر سبق ذكره، 1925، ص 164 وما يليها.

أخرى لم أتركه يسقط، فهربت مدينتان أو ثلاث إلى مدينة لتشرب الماء ولكنها لم ترتوِ". ويفترض المشنا في تانيت 3 (Taanith III) أن مثل هذه الأزمات تتكرر، كما يتم التفكير في الخطايا الواردة في التلمود التي قد يتسبب بها ذلك[357]. وما يحدث في هذه الأيام في مثل هذه الحالات يبينه لنا خبر يعود إلى شباط/ فبراير 1927، حيث رحل في أعقاب انقطاع المطر في المنطقة الجنوبية آلاف البدو إلى الشمال لأنهم لم يجدوا مراعيَ لمواشيهم وعادوا في بداية آذار/ مارس إلى ديارهم الأصلية[358].

كذلك بالنسبة إلى سكان المدن الذين يملكون ما يكفي من الماء في الأحواض، تبقى تبعات مثل هذه الانقطاعات الموقتة ملموسة، فترتفع أسعار الحبوب، وسرعان ما ينشأ احتمالٌ ألا يكون المحصول التالي طبيعيًا. ولمّا لم يكن قد سقط مطر في السلط من 22 كانون الثاني/ يناير حتى 21 شباط/ فبراير1902، فقد بلغ سعر "صاع" القمح (حوالى 15 لترًا)، على الرغم من المطر الساقط في آذار/ مارس ووضع الزرع الجيد في 19 نيسان/ أبريل، 8-8.5 قروش (1.28-1.36 مارك) بدلًا من 3.5-4 قروش، وكان لا يزال في 10 حزيران/ يونيو خلال الحصاد 5.5-6 قروش. كذلك في السنة السابقة، 1901، نتيجة انحباس المطر فترة طويلة، ارتفع السعر إلى 7-7.5 قروش، بل وصل الأمر إلى حد قيام التجار بإخفاء القمح، أملًا منهم ببيعه بـ 12 أو 15 قرشًا. وهنا في 17 نيسان/ أبريل سقط مطر متأخر غزير أدى إلى هبوط السعر إلى 4.5-5 قروش[359]. وبهذه الطريقة يرتبط الغلاء ("غلا") وانحباس المطر بصلة وثيقة. وحتى لو أن الـ"جدب" ("محل") كان حقيقيًا في سنة حبوب، أي ما يُعتبر سوءًا في الحصاد، فهو لم يكن إطلاقًا قد اتضح بعدُ. ولم يكن الأمر ليختلف عنه في الأزمنة التوراتية؛ فالوصف القديم لتأثير

(357) j. Taan. 66ᶜ.

(358) *Warte des Tempels* (1927), p. 32.

(359) وفقًا لرسائل من فرح تابري من السلط، مؤرخة في 15 أيار/ مايو 1901 و19 نيسان/ أبريل و10 حزيران/ يونيو 1902. يُقارن أدناه III, 22.

الرياح المختلفة في مزاج الملّاك والفقراء[360] في عيد العُرُش يفترض أن ثمن الحبوب في السنة القادمة يعتمد على هذه الرياح. وفي أي حال، فإن على تصورنا "فترات الجوع" (بالعبرية "راعاب") في التاريخ أن يأخذ هذه الغرابة في الاعتبار.

ك. دعوات الاستسقاء[361]

في الأوقات التي يغيب فيها المطر، تبدو السماء كالنحاس والأرض كالحديد كما يُصوّر ذلك سفر التثنية (23:28)، أو معكوسًا كما في سفر اللاويين (19:26): السماء كالحديد والأرض كالنحاس. بالطبع ليس لأن السماء والأرض تبدوان كما النحاس أو الحديد، كما يعرض ذلك كلاين (Klein)[362]، بل لأنهما منغلقتان (سفر التثنية 17:11)، كما لو كان معدن محكم لا ينفذ الماء منه موضوعًا عليهما، بحيث لا تترك السماء مجالًا لمطر يتكون ولا الأرض لنباتٍ ينمو. وفي مثل هذه الأوقات يزداد الغبار (بالعربية "غَبَرة") على الطرق المألوفة لدى المسافرين، أو التي يتم سلوكها بكثرة، كذلك في أزقة القرى الضيقة، بحيث تصبح لعبة "الغبار قدام الريح" (المزامير 43:18) مألوفة ويتغلغل الغبار إلى داخل كل بيت، حتى لو كانت النوافذ مغلقة، إلى درجة يغطي معها خلال ساعات قليلة كل شيء. ومن الشوارع المسلوكة التي يمكن أن يبلغ الغبار فوقها عرض الكف، تعصف الريح بسحب غبار ضخمة فوق الحقول، بحيث تظهر الأشجار والأعشاب كما لو كانت مكسوة بالثلج. وحتى في حال سكون الريح، يبقى الغبار الذي تثيره العربات والخيول فوق الشوارع، بحيث يسير المرء خلال ضباب من الغبار. ومثل هذه الأوقات هي المقصودة في التثنية (24:28)، حين يقرأ: "يهوه يحول مطر بلدك إلى مسحوق ("آباق")

---

(360) B. Jom. 21ᵇ,

يقارن أعلاه، ص 30.

(361) يُنظر بهذا الشأن:
Dalman, *Palästinischer Diwan*, pp. 56ff.; Jaussen, *Coutumes des Arabes*, pp. 326ff.; Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 8f.; Kahle, *PJB* (1912), pp. 162 ff.; Cana'an, *ZDPV* (1913), pp. 290ff.; Sonnen, *Heil. Land* (1921), pp. 11f.; Hanauer, *PEFQ* (1925), pp. 35ff.

(362) *ZDPV* (1914), p. 246.

وغبار ("عافار")[363] يهبط عليك من السماء حتى تقضي". ولهذا السبب، لا يحتاج الأمر إلى أن يتعلق بمطر حقيقي من الغبار، وهو ما لم يسبق لي أن جربته قط. والجدير بالملاحظة أيضًا أن التربة الجيرية الحمراء لا تتحول إلى غبار بالطريقة نفسها التي تحصل فيها على سبيل المثال في منطقة سيليزيا العليا (Oberschlesien). وقد يحدث أن تكون درجات الحرارة والسماء عادية في الخريف. ومع ذلك، ليس هناك من "مطر مبكر" بعد. وفي حينه، يشعر المرء أن قوة عليا تغلق السماء، ويفهم ما هو المقصود، بعد سرد مثل هذه التجارب، حين يقرأ في عاموس (4:8): "ولكن لم تعودوا إلي بعد، يقول يهوه".

وفي فلسطين اليوم، لا يكف المرء عن التوجه إلى الله حين يغيب مطر الخريف أو حين تطول فواصل انقطاع المطر في الشتاء. وقد حدث ذلك في السلط في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1900، لأنه لم يسقط مطر في "البلقاء"[364]، ولم يكن في الإمكان فلاحة الحقول[365]، وما يحصل حينئذ يبقى بشكل جزئي محض طبيعة شعبية شائعة، ولذلك فهو جدير بالملاحظة.

خلال دعوات استسقاء شعبية مثل هذه، تقوم الفتيات، والأطفال الصغار أيضًا، بالطواف في القرية في الظلمة بعد العشاء. ويتحرك الموكب الصغير بشكل زوجي، مصحوبًا بالغناء وأحيانًا برقصات دائرية ("سَحسيل")[366] من خلال الأزقة (على سبيل المثال عابود وقلقيلية)؛ فالأطفال المتوسلون مؤثرون بشكل خاص، وهُم أنفسهم يشهدون على ذلك حين ينشدون[367]:

"يا رَبِّنَ يا رَبِّنَ"	يا ربنا، يا ربنا!
"اِحنَ صغار اِيش ذِمبِنَ"	نحن صغار، فما ذنبنا؟

---

(363) يترجم سعديا "غَبار" و"تراب".

(364) كان موسم المطر في سنة 1900/ 1901 شحيحًا في جميع أنحاء فلسطين؛ إذ سقط في القدس 340 مم، أي نصف المعدل السنوي. يُنظر:
Exner, *ZDPV* (1910), p. 135.

(365) بحسب رسالة خطية من السيد فرح تابري.

(366) عن هذه الرقصة الدائرية، يُنظر:
Dalman, *Pal. Diwan*, p. 270.

(367) Kahle, *PJB* (1912), p. 163.

وأحيانًا تسير في مقدمة الأطفال امرأة تحمل على رأسها مطحنة يدوية ("جاروشة") يجلس عليها ديك في سلة صغيرة ("قَدَح") يُفترض بصياحه جذب انتباه الرب (جفنة). وبدلًا من المطحنة يمكن وضع إناء شرب ("بريق") مملوءًا على الرأس، وهو يوضح هدف الأمنية. كما يمكن أن تحمل النساء ديكًا أبيض ودجاجة سوداء، ثم يقمن بضربهما من أجل أن يصيحا. كما يُظهر غربال طحين وغربال حبوب يحملهما المرء على الرأس دلالة على نقصان الدجاج والناس[368].

ويعتبر وضع امرأة مسنة على ظهر حمار في القرية تقليدًا واسع الانتشار[369]؛ فهي تجلس بشكل معكوس[370] على ظهر الدابة وأمامها مطحنة يد وتقوم بالطحن ("تِجرُش")، وبالطبع من دون حبوب. وأحيانًا يجلس في حضنها طفل صغير ("عين كارم")؛ فعفة المرأة الكبيرة في السن التي "ما عادت قادرة على ارتكاب المعاصي"[371]، والطفل الذي "لم يرتكب معصية بعدُ" يُفترض بهما أن يجعلا التوسل من أجل سقوط المطر أكثر فاعلية، وجلوسها بالمعكوس يفترض أن يُثير شفقة الله. كما يمكن ربط ديك يمثل صياحه محنة الحيوانات. وعنه يقول المرء: "الديك بجعق[372] في الليل - بِدُّو مطر وسيل"، أي: "الديك يصيح ليلًا طلبًا للمطر والسيول" (القُبيبة). وغالبًا ما يُفهم استخدام المطحنة بأن صوت مطحنة بلا حبوب يُفترض به أن يُعبِّر عن حاجة أولئك المهددين بالجوع نتيجة لنقص الخبز. إلا أن آخرين يعتقدون أن ركوب المرأة يعبّر عن الرحيل إلى بلد آخر هو الخيار الأفضل، حيث يجري في الطريق طحن الحبوب من أجل طعام السفر (القُبيبة). وهذا ما يلائم سطر أغنية يقتبسها كنعان

(368) وفقًا لِكاله:

Kahle, *PJB* (1912), p. 162,

ربما من بيت إكسا.

(369) كما لوحظ ذلك في داخل شبه الجزيرة العربية، وفي عين كارم، القُبيبة، يطا، الزيب.

(370) في الُقبيبة ليس معكوسًا.

(371) بحسب

Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 292,

لأنها طاهرة نتيجة بلوغها سن اليأس.

(372) "الديك يصيح" تعني [بالعربية] "بِصيح".

من القُبيبة: "يا ربِ بِلّ القصر - وإلا بنرحل عَ مصر"، أي: "يا ربي بلل برج المراقبة، وإلا علينا الرحيل إلى مصر"، وذلك في انطباق لافت على سبب رحيل الآباء إلى جرار ومصر (سفر التكوين 10:12، 1:26، 1:42، 1:43 وما يلي). ويقول بدو الصحراء أن قَلبَ المطحنة يؤدي إلى قَلبِ قبة السماء وبالتالي الإتيان بالمطر ("حتّى الفلك بِدور وبجيب مطر").

وفي يطا في جنوب منطقة يهودا [جنوب الضفة الغربية] يتم اختيار عجوز فقيرة للموكب وتزويدها بحلة كاملة كهدية لها. وخلال الموكب تنشد بلا انقطاع: "مِن شان الله"، مشددة بذلك على أن الهدية ليست من أجلها وإنما من أجل الله. وفي النهاية تنزل في بيت وتحصل على هدية. وقد يتم أحيانًا نحر ذبيحة. ويكون الفعل أكبر حين يتزوج شاب فقير بنتًا ويدفع لها مهرًا غاليًا (50 ليرة تركية). وفي أي حال، فإن الأمر هو تعديل للتقليد الشعبي جراء تأثير الإسلام. ومن المفترض أن يكون المطر ثوابًا يمنحه الله على عمل الإحسان.

أما الأطفال الذين يرافقون هذه المواكب، فيصطحبون معهم علب نفط من الصفيح ("تنكات") يضعون فيها حجارة صغيرة ("صِرار") ويجلجلون بها ("بِقَرقعُ") أو يضربون عليها ("بِطَبَّلُ"). وهم يغنون:

"يا رب لا تواخذنَ"	يا رب لا تؤاخذنا
"كُلّه من مشايخنَ"	كل شيء يأتي من مشايخنا
"لَمّن لِبسُ هالشالات"	عندما لبسوا هذه الشالات[373]
"حَرَّمُ طيح الوادات"	حرّموا علينا [في السماء] جريان الأودية[374]
"أمطِر وزيدِ"	أمطري وفيضي
"عقريعة سيدِ"	على رأس سيدي الأقرع[375]
"سيدِ في المغارة"	سيدي في المغارة

(373) معاطف خفيفة سود أو بنية اللون مصنوعة في مصر تم اختيارها زهوًا وغرورًا بدلًا العباءة المحلية.

(374) يتحدث المرء عن الوادي الجاف الذي يسيل فيه ماء المطر: "بِطيح الواد".

(375) المقصود هنا رب البيت الذي عليه تدبير الأمور.

"ذبح قُط وفارة"　　ذبح قطًا وفأرًا
"راح عيط لِمّه"　　ذهب وبكى لوالدته
"قطعت لِه فطيرة"　　قطعت له قطعة فطيرة
"قدّ باب الصيرة"　　مثل مدخل زريبة الماشية
"قطعت له كِردوش"　　قطعت له قطعة خبز شعير
"قدّ باب الحوش"　　مثل باب الحوش

وهكذا ينتقل الأطفال من بيت إلى بيت يقرعون الأبواب حتى يخرج إليهم شخص ما ويصب كوبًا من الماء عليهم أو يرشهم بالماء قائلًا[376]: "الله يسقيكُو برحمة ربكُو".

أما أناشيد البنات، فهي أكثر جدية، مع أنها لا تخلو من مقاطع توحي بالدعابة؛ ففي جفنة يغنين:

"اِم الغيض[377] غيضينَ"　　أم المطر أغيثينا
"بِلّ اِبشيت راعينَ"　　بللي "اِبشيت"[378] راعينا
"راعينَ حسن لِقرع"　　راعينا حسن الأقرع
"لا بزرع ولا بقلع"　　لا يزرع ولا يحصد[379]
"تَ يزرع قمح قصرِ"　　حتى يزرع قمحًا من "قصرة"[380]
"تَ يمَلِّ خوابينَا"　　ويملأ خوابينا

وفي القُبيبة ينشد المرء:

---

(376) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 292.

(377) "غيض" بدلًا من "غيث"، Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 12, "ريت". وفي أماكن أخرى يقال: "بِلّينَا".

(378) معطف قصير ذو أكمام قصيرة.

(379) في الواقع: الاقتلاع باستخدام المنجل.

(380) قرية جنوب شرق نابلس.

"يا ربِ اِرشيشة"	يا ربي رُشّ بعضًا من المطر
"تَ نجَوَّز عيشة"	حتى نزوّج عيشة[381]
"تَ ندُق القادم"	حتى نضع الحامل (على ظهر الحمار)[382]
"تَ نصير أوادِم"	حتى نصبح أناسًا جيدين
"راحت أُم الغيث تَتجيب الرعود"[383]	ذهبت أم الغيث لتأتي بالرعد
"ماجِت اِلا القمح طول القعود"	ما عادت قبل أن يصل القمح طول جمل تام النمو
"راحت أُم الغيث تَتجيب مطر"	ذهبت أم الغيث لتأتي بالمطر
"ماجِت اِلا القمح طول الشجر"	ما عادت قبل أن يصل القمح طول الشجر
"يا خضر يا أبو العباس"	يا خضر يا أبو العباس
"تسقِ زِر عنَ اليبّاس"	تروي زرعنا اليابس
"يا ربِ ويش وَكِنِّ"[384]	يا ربي ماذا عسانا نأكل؟
"وَكِنِّ عروق كرسنة"	أكلنا عروق الكرسنة
"يا رب ويش وويش"	يا ربي لماذا ولماذا؟
"وَكِنِّ عروق الحرفيش"	أكلنا عروق الحرفيش[385]
"يا رب ويش الغيبة	يا ربي لماذا الغياب؟
"وَكِنِّ عروق الحلّيبة"	أكلنا عروق الحلاب

(381) لا تقام أفراح عند شح الأمطار. "عيشة" هو اسم مؤنث اختير من أجل التقفية، وربما افترض به أن يذكر بالعيش "خبز".

(382) من أجل نقل المحصول الذي جرى حصده إلى البيدر.

(383) في:
Jaussen, *Coutumes*, p. 327,
فهي تأتي بـ "زِلازِل" والبذور تصبح بطول "سناسل". ووفقًا لِـ:
Clermont, *Recueil*, vol. 8, p. 32,
فإن كليهما يعود إلى "سِلسِلة"، 1: خط البرق المتعرج، 2: شبكة جُذُر حقلية. إلا أن "زِلازِل"، التي قد تعني زلازل أرضية أيضًا، وهنا تعني رعدًا و"سناسل" تعني جدران المصاطب.

(384) لهجة فلاحية لِـ "وَ- أكلنَ" (= "شو بِدّنَ نوكِل").

(385) أنواع مختلفة من الشوك تُدعى "حرفيش". يُنظر:
Dinsmore & Dalman, *Verzeichnis*, nos. 982, 986, 993, 995.

وفي رام الله:

"يا ربِ بِلّه بِلّه"	يا ربي بلّة بلّة
"اِحنَ تحتك بالقلة"	نحن تحتك في القِلّة
"يا رب بِلّ الشلطوح"	يا ربي بلل المعطف المهترئ
"واِحنَ تحتك وين نروح"	ونحن تحتك إلى أين نذهب؟
"يا ربِ بِلّ الشالة"	يا ربي بلل الشال
"واِحنَ تحتك كيّالة"	ونحن تحتك كيّالون

أما أهمية صب الماء، فيُعبَّر عنها في المقطع الشعري الذي أورده هناور (Hanauer) الذي ربما يعود إلى لفتا:

"كُبُ مي باب دوركم"	صبوا ماءً أمام بيوتكم[386]
"تَ يُزرع فِدّانكم"	حتى يصبح حقلكم مزروعًا
"كُبُ مي باب صيركم"	صبوا ماء أمام زريبة ماشيتكم
"تَ يَحرُث بقركم"	حتى تصبح أبقاركم قادرة على الحرث!

كذلك يرغب الناس في السير إلى مَقام بغية الحصول على شفاعة الأولياء. وبالقرب من قرية "الخضر" ينشد المرء[387]:

"يا خضر جينَ عليك"	يا خضر أتينا إليك
"رَشق المطر يعبر فيك"	لعل رشق المطر يصلك

وبالقرب من القدس يذهب الـ"سلاونة"، سكان سِلوان، إلى بئر أيوب ("بير أيوب") وهم ينشدون:

---

(386) يُفهم:
Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 12,
السطور المشابهة التي أوردها من "عين الطابغة" مِنْرِش الأبواب بالماء التي لا تُعتبر تقليدًا.
(387) يُقارن ص 137 المقطع الشعري الموجه إلى "الخضر".

"يا سيدِ يا نبي أيوب"	يا سيدي النبي أيوب[388]
"كلِّم منَّ عر رَسول"	خاطب من أجلنا الرسول [النبي محمد]
"يا ربِ تعطينَ الشتا"	يا رب امنحنا الشِتاء
"يا الله يُومّ الغيث تَغيثنَ"	يا الله، يا أم الغيث أغيثينا
"برحمتك ترحمنَ"	أن ترحمنا برحمتك
"يا الله نطلب منك الشتا"	يا الله نطلب منك الشتاء
"يا رب العالمين"	يا رب العالمين!

وأمام عين مريم [عين العذراء] (عين البدرية) ينشد المرء:

"يا سِتِّ يا بِدرية"	يا سيدتي يا بدرية[389]
"اِسقَ زرعنَ الريِّ"	إسقِ زرعنا المروي[390]
"يا سِتِّ يا عين سِلوان"	يا سيدتي، يا عين "سلوان"
"تِسقِ زرعنَ العطشان"	إسقِ زرعنا العطشان!

ويذهب المسيحيون إلى قديسيهم، في كنيسة القديس نقولا[391] في بيت جالا مثلًا. وهناك يقرع أحدهم الباب بعنف مستخدمًا العصي والحجارة ومنشدًا:

"مار نِقولَ جينَ ليك"	مار نقولا جئنا إليك
"شُخب المطر داخِل ليك"	أنت بصيص المطر، أبحث عن ملاذ لديك
"نِحنَ اليوم عبيدك"	نحن اليوم عبيدك
"مِفتاح السما بيدك"	مفتاح السماء بيدك
"هيْ اِمبُ يا هي اِمبُ"[392]	هِيْ إمبو هِيْ إمبو!

(388) من المفترض أن أيوب قد عاش في الكهف بالقرب من البئر حين ترك الله ماء البئر يسيل من أجل تطهيره.

(389) "البدرية" هي ولية مسلمة يوجد قبرها في قرية شرفات. ومن المحتمل أنها نقلت إلى هذه العين كي تحل في محل التقليد المسيحي الخاص بمريم. يُنظر أيضًا:
Kahle, *PJB* (1910), p. 94.

(390) حقول الخضروات في سلوان هي المقصودة هنا والتي ترويها تلك العين.

(391) في اليونان، يمثل القديس نقولا (6/ 19 كانون الأول/ ديسمبر) موعد قدوم الثلج.
Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 1ff.

(392) "اِمبُ" (= "اِمْ أبُ") لفظة يرددها الأطفال الصغار العطاش عندما يريدون الشرب.

وحين تظهر في الغرب سحابة آتية بالمطر، يقول المرء أن مار نقولا ألقى بقلنسوته المستديرة في البحر كي يتعكر وتنشأ السحب منه[393].

وفي بيت لحم يؤكد المرء[394]:

"قصدنَ العذرا ومار يعقوب"	قصدنا العذراء ومار يعقوب
"تِسقِ زرعنَ المصيوب"	أن تسقي زرعنا الذي ابتلي بمحنة!
"قصدنَ العذرا ومار الياس"	قصدنا العذراء ومار الياس
"تخضِّر زرعنَ الييّاس"	أن تجعل زرعنا اليابس أخضر!

وبين البدو وشبه البدو في الشرق (دير الليلة بالقرب من جرش والكرك والطفيلة وإلجي وفي داخل شبه الجزيرة العربية أيضًا[395] وبالقرب من حلب)، وبالقرب من القدس، وفي الجنوب حتى يطا، وفي الشمال حتى الزيب وتِبنين، ينتشر تقليد حمل دمية خلال مواكب التوسل الدينية هذه. ولهذا الغرض يقوم البدو الأقحاح بتثبيت عصا على قضيب بالعرض، ويقوم شبه البدو والفلاحون بتثبيت عصا على مذراة ("مِذراية") معلق عليها لباس امرأة، بحيث تتدلى الأكمام على الجهتين، والرأس تتدلى عليه قطعة قماش بيضاء. وأحيانًا يضاف مصاغ نسائي (الكرك). إلا أن المرء يكتفي بقطعة قماش معلقة على مذراة (تبنين). دمية مشابهة يقوم الفلاحون بتركيبها عند عودة النساء إلى البيت بعد شراء ملابس الزفاف الخاصة بالعروس من سوق المدينة. ويُطلق المرء [على الدمية] "زِرافة"، والتي لا تشير بالتأكيد إلى حيوان الزرافة، بل إلى "ظِرافة" بمعنى "زينة"، وهنا ربما أمكن التحدث عن "العروس" أيضًا. وفي صيدا أو بالقرب منها[396]، يجري إلباس الدمية، التي يقوم درويش بحملها، ملابس أطفال، ويُطلق عليها "شوشبلِّ". وينشد الأطفال: "شوشبَلِّ شوشبَلِّ ما نِروح

(393) هكذا بحسب بشارة كنعان.

(394) *Paläst. Diwan*, pp. 56f.

(395) بحسب ما رواه دركيّ ("خيّال") يألف المنطقة.

(396) Abela, *ZDPV* (1884), p. 94.

اِلا في بَلِّ"، أي: "شوشبلِ شوشبلِ، لن نغادر قبل أن نصبح مبلولين". وبالقرب من حلب تقوم فتاة بحمل "لكن" غسيل فوق رأسها وسيلة وقاية من المطر. وتمضي الفتيات على هذا النحو، منشداتٍ دعواتهن من أجل الاستسقاء من خيمة إلى خيمة أو من بيت إلى بيت، ويحصلن على أشياء للأكل مثل الطحين والدهن ("سِمن"). وفي أثناء ذلك يجري رشّهن ("برُشُّ") والدمية بالماء باستخدام إناء للشرب ("بريق") في ظل صيحة: "الله يبعث اِلكِن المطر"، أي: "ليُنزل الله عليكن المطر!".

وتقوم المنشدات في مضارب البدو عند بحيرة طبرية باستثارة الكرم والسخاء من خلال المقطع الشعري[397]:

"اِلِّ تَعطِ بِل - غُربال	يا مَن تعطي بالغربال
يصبَح ولادهَ خيال	يصبح أولادها خيالة
اِلِّ تَعطِ بالحفنة	يا مَن تعطي بالحفنة
تحت الرفة مِندِفنة"	ستدفن تحت القش

وإذا لم تأتِ الهدية في شكل طعام مثل الفريك (برغل)، تنتقم الفتيات بالقرب من حلب باستخدام المقطع الشعري المشوه للسمعة[398]: "شُرجاطة شرجاطة، راعية البيت ضَرّاطة". وهنا إشارة إلى ربط الكلمة بفتحة الشرج: ربة البيت ضرّاطة"[399].

ووفقًا لعبد الولي ينشد المرء عند البدو[400]:

(397) Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 12.

(398) *Pal. Diwan*, p. 58.

(399) يعتبر الضراط لدى البدو عملًا شائنًا. ومن يحصل ذلك معه، يُسخر منه باستخدام دمية صرّارة حتى يفدي نفسه بخروف.

(400) تُقارن الأغنية البدوية من منطقة حلب، *Pal. Diwan*, pp. 57f. وعند Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 8f.

"يُمّ الغيث غيثينَ	يا أم الغيث أغيثينا
وبِلِّ عبات راعينَا	وبللي عباءة راعينا
يُمّ الغيث يا دايم	يا أم الغيث يا دايم
بِلِّ الزرع النايم	بللي الزرع النائم
وبِلِّ زِرع أبُ فلان	وبللي زرع أبو فلان[401]
اِلِّ عَ الكرم دايم	من اعتاد على الكرم دائمًا
يا فلان أبُ فلان	يا فلان أبو فلان
عشّيها ومشّيها	امنحها عشاء واتركها ترحل
وعدّيها علَ طنيبك[402]	واتركها تنتقل إلى خيمة جيرانك
أم الغيث تستنّاك	أم الغيث في انتظارك
عشّيها ومشّيها	امنحها عشاء واتركها ترحل
وهَنّيهَ مِنْ يِمناك"	وأسعدها بخيرك

وفي الطفيلة توضع الـ"زِرافة" على سطح. وعندما يأتي المطر، يكون على صاحب البيت أن ينحر ذبيحة ويدعو الفتيات اللواتي قمن بحملها. وهنا لا تُرَش الدمية لا بالماء ولا بدم الذبيحة. أما في الكرك، فيتم في النهاية أخذ الـ"زرافة" إلى بيت غني مقتدر ووضعها على الحائط، في حين تجلس النساء منشدات في مقابلها. ويقوم رب البيت بذبح شاة، ثم يجمع الدم ويرش الدمية ببعض منه بيده. ويشير إلى أن الذبح هو من أجل الدمية قائلًا: "يا وجه الله هذَا مِن شان أم الغيث"، وهنا لا تُرَش الدمية بالماء. وفي إلجي يضع المرء الدمية على خيمة وتُنحَر ذبيحة ويجري صبغها بالدم ("بِحَنّوها") والقول، وفقًا لموزل[403]: "هونَ هِناك"، والتي يجب أن تحول إلى "هونَ حِنّاك"، أي "هذه

(401) وهنا تُذكر أسماء الذين يقف المنشدون أمام خيمتهم، ويُذَكّرون بعدم تركهم يذهبون دونما هبة.

(402) "طنيبَك" = "طَنايبك".

(403) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 9.

الـ'حنة' الخاصة بك!"، لأن المرء يربط ذهنيًا اللون البني بالأحمر. ويجري عادةً صبغ يدَي العروس وقدميها به. كما تُكرَّس ذبيحة "للنبي هارون" الذي يقع ضريحه قريبًا من إلجي، كي يتسبب في حدوث المطر. وقد يحصل في بعض الأماكن أن ينحر أحدهم في بيوت مختلفة وتُرَش الفتيات والدمية بالدم. وفي كل مرة تحصل الفتيات على الرأس كهدية، ويعدن إلى البيت بعدد من رؤوس ماعز يقمن بتناولها في وجبة مشتركة.

أخبرني عبد الولي أن البدو، تمامًا كما كانوا ينحرون شاة عندما يواجهون مرضًا يبعث على الخوف "فدو لوجه الله"، أي: "فداء لوجه الله"، يقومون في نهاية الصيف بمثل هذا النحر ("بِفِدُّ لوجه الله") بغية الحصول على المطر. ويتلاءم هذا مع ما ذكره لي د. ليود (Dr. Lloyd) عن تقليد النحر أو تقديم الأضحية المألوف في السودان في حال وقوع الجفاف، إذ يقوم رجل، يُعتقد أنه على اتصال بالرب، بتحديد الزمان والمكان لذلك. ثم يقوم أكبر المشاركين سنًا في الحدث بقتل الحيوان القرباني من خلال طعنه بحربة. ثم يُجمع الدم ويُرش جميعُ الحاضرين به، ثم يوضع جانبًا على أمل أن تقوم روح وسيطة بالاستمتاع به واستمالة الكائن الأعلى. أما اللحم الذي كان قد طُبخ في غضون ذلك، فيُمزَج بالدم ويجري تناوله على هذا النحو. وأحيانًا تُرمى معزاة رُبطت قوائمها إلى النهر بغية استرضاء رب النهر.

وبشكل مستقل عن موكب الزِرافة، جرت العادة لدى البدو[404] على القيام بربط صغار الشياه والجمال الرضيعة على مسافة ما من أمهاتها. ومن المفترض أن تمنح الأصوات المقلقة دعمًا لأماني الناس. وهذا تقليد قديم سبق أن ورد في التلمود[405] عن أن العرب يقومون بربط العجول وصغار الحمير في الداخل وأمهاتها في الخارج. وعندما يصرخ الطرفان، يقولون لله: "إذا لم ترحمنا أنت، فلن نرحم [هذه] نحن". وقد يحدث بالقرب من القدس أن تُربط قطعة قماش

---

(404) من المفترض أن ذلك قد حصل في كفر أبيل أيضًا.

(405) J. Taan. 65[b], Pesikt. 161[a],

من المفترض أن يكون شكل توبة نينيفه المخادعة.

بطير، ثم تُشعل النار فيها ويُترك الطير ليطير. ومن المفترض أن يترك تصفيقه القلق بجناحيه انطباعًا في السماء. ومن أجل الغرض نفسه يقوم أحدهم بقرص قطة، بحيث تموء ("بتسوي ماءو") ثم تغني (القُبيبة):

"يا رب نقطة نقطة تَ نِسقِ ولاد القطة"

إن جميع هذه التقاليد، بغض النظر عن صبيانيتها، تأتلف مع الدين الرسمي، وفي هذه الحالة مع الإسلام في المقام الأول ما دامت تسعى إلى جعل دعوات الاستسقاء الموجهة إلى الله أكثر إلحاحًا؛ فالمواكب المفعمة بالضجيج والأناشيد وذبح الماشية يجب ألّا تبقى دونما تجاوب من الله. فشفقته على المرأة الطاعنة في السن وعلى الطفل وعلى الديك الصيّاح والقطة الموّاءة والحملان الصارخة يفترض أن تستحثه على التدخل. أما الأولياء الذين يتم التوسل إليهم، فيُنظر إليهم باعتبارهم شفعاء عند الله. وحين يظهر هؤلاء الأولياء أمثال القديس نقولا (ص 139)، كما لو كانوا هم أنفسهم من يستمطر المطر، فلأنهم يتمتعون بقوة وهبها الله لهم.

إلا أن هذا كله لا يفسر بشكل كافٍ نشوء هذه العادات والتقاليد. وحيث يتم أخذ شفقة القوة التي تُنزل المطر في الحسبان، يبدو أن الصراخ والضجيج على علاقة بالأمر ومؤثران في حد ذاتهما. ومن تحريك المطحنة يتوقع البعض (ص 135) تغيرًا فوريًا في الطقس. أما صب الماء، فليس شكلًا من أشكال التضرع فحسب، بل سعي إلى إحداث شيء ما. وعلى غرار ذلك فإن الاعتقاد المنتشر بأن خبط إبريق الماء في البيت يعني مطرًا وشيكًا. وفي حلب ينشد الأطفال بهذا الخصوص[406]:

"اِشتِ وزيدِ بيتنَا حديدِي، عمنَا عبد الله كَسَر الجرة".

---

(406) يورد توفيق كنعان أنشودة شبيهة بتلك الواردة هنا في:
Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 293.
أما السطران الأخيران في تلك الأنشودة، فهما: "وعمنَ عطالله – ورزقنَ علّ الله" (عمنا عطا الله ورزقنا على الله). بعدئذ أنشودة مبتهجة بالنصر فرحًا بالمطر الآتي والتي يؤديها الأطفال حاسرين، أي يُعرِّضون أنفسهم عن قصد للمطر.

إن الاعتقاد بأن صب الماء يتسبب في هطل المطر، هو معتقد قابل للإثبات بالدليل والبرهان في الهند وإيران وأرمينيا وأستراليا[407]. ويورد القزويني[408] تقليدًا فارسيًا خاصًا بصب الماء في عيد رأس السنة الجديدة ("النيروز")، ولكن بشكل خاص في 30 من الشهر الحادي عشر الذي يُحتفَل به عيدًا لصب الماء، وكلاهما له صلة بالمطر، وتقديمه بهذا الشكل كما لو أن التذكير بمطر هطل ذات مرة في الماضي هو أصل هذا التقليد.

خارج الإطار الديني الرسمي تُعتبر "أم الغيث" في "السلط" وكذلك في القُبيبة جالبة للمطر، ورمزها الـ"زِرافة" حاملة الاسم نفسه. وحين يسأل أحدهم عن معنى "أم الغيث"، لا يحصل غالبًا على تفسير، بل على التأكيد بأن الله وحده هو من يرسل المطر. واقع الأمر أن فرح تابري كان على حق حين استحضر التعبير العربي "الدِنيا تشتي"، أي: "الدنيا تمطر" كتفسير لذلك، فالأمر يتعلق بِـ"الدنيا"، ما دامت أم الغيث تأتي بالمطر. وتناظر "غيث"، خلافًا لِـ"مطر" و"شِتا"، الكلمة العبرية "جيشيم" التي يستخدمها سعديا في سفر اللاويين (4:26) وأيوب (6:37). ومع ذلك يبقى التعاطي مع "الدنيا" لافتًا، وهو أمر غير مألوف، ككينونة جلب وإحضار، حتى أن المرء يصورها بالرسم أو بالألفاظ. وفي خلفية جميع هذه التقاليد يكمن دين طبيعي - فطري يسعى إلى التأثير في قوى الطبيعة من خلال ممارسات سحرية. فالجلبة تأتي بالرعد، والصب يأتي بالمطر. أما أم الغيث، فقد تكون على صلة بعشتروت ملكة السماء (إرميا 7:18، 44:17)، والتي تم تبجيلها في شمال أفريقيا باعتبارها pluviarum (pollicitatrix)، [الواعدة بالمطر][409]، وهي جالبة للخصب في فلسطين جنبًا إلى جنب مع ساتورن بعل. أما تسمية الـ"زِرافة" بين وقت وآخر بِـ"عروس"

---

(407) يُنظر:

Freezer, *Adonis*, 2 p. 196,

حيث يُرَش الحراثون والزارعون بالماء، و

Scheftelowitz, *Altpal. Bauernglaube*, pp. 93f.

(408) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 80, 84.

(409) Cumont عند Pauly-Wissowa،

يُنظر أدناه كلمة Caelestis.

أو "شبه عروس"، كما يدلل على ذلك جوسين (Jaussen)، فلذلك صلة بتقاليد الزفاف التي تحولت إلى مسيرات التوسل من أجل المطر، لكن ذلك يدفعنا إلى التفكير في دمية الزفاف التي كانت ذات مرة رمزًا للخصوبة. أما تقرير كورتس[410] عن أن الـ"زرافة" في الكرك كانت تدعى "عروس الله"، فهو قائم على سوء فهم، فإذا قدم أحدهم مثل هذه الإجابة عن سؤال عروسة مَن هي، فيجب أن تكون الإجابة قد عنت في واقع الأمر أنها "عروسة لا أحد". كما أن مقارنتها، كما يفعل كورتس، بِـ"عروس النيل" التي يجري إغراقها في النيل، فلن يكون ذلك ممكنًا، لأن نقطة المقارنة الأكثر أهمية، أي القتل الرمزي للدمية، غائبة، علاوة على ظهور الدمية بوصفها جالبة للمطر لا قربانًا له. بل قد يكون الأكثر احتمالًا أن الدمية المشؤومة كانت تعويضًا عن فتاة عارية يُفترض أن يجلب صب الماء عليها المطرَ، كما يتم التدليل على ذلك في أماكن أخرى[411]. وفي هذا السياق نتذكر فتاة المطر البلغارية والصربية واليونانية الحديثة المغطاة بالأعشاب والورود، والتي يتم صب الماء عليها كفعل شعوذة من أجل جلب المطر[412]. كذلك في ألمانيا حتى في القرن الحادي عشر، حين مُنع اقتياد فتاة عارية إلى النهر وقد رُبطت عشبة بقدمها، ورُشّت بالماء بغية التسبب في سقوط المطر[413]. ويخمن مانهاردت (Mannhardt) أن فتاة المطر هذه يُفترض بها أن تكون تصويرًا لروح الحياة النباتية، أي الصفة المجسدة لنمو النباتات، والتي يُجذَب المطر للسقوط عليها. إنه تقليد واسع الانتشار في ألمانيا أيضًا، وهو يصور، لأغراض أخرى، روح الحياة النباتية كدمية مصنوعة من الخرق البالية أو القش يقوم المرء بحملها ومن ثم إيداعها في مكان محدد[414]. وفي الشرق، ربما يُقصد بالـ"زرافة" المعنى نفسه أيضًا، إلا أن تسميتها "أم الغيث" يُظهر أنها الآن أقرب ما تكون إلى الصفة المجسدة لقوة الطبيعة الواهبة للمطر. فإيمان

---

(410) Curtiss, *Ursemitische Religion*, p. 119.

(411) *Scheftelowitz, Bauernglaube*, pp. 88f.

(412) Weinhold, *Zur Geschichte des heidnischen Ritus, Abh. d. Berl. Ak., Ph. H. Kl.* (1896), pp. 22f.

(413) Mannhardt, *Wald und Feldkulte*, vol. 1, pp. 330f.

(414) Ibid., pp. 156f., pp. 406f.

بني إسرائيل بالله، كما تصوّره التوراة، لا يمكنه امتلاك شيء مماثل، لأنه الإله الشخصاني الأعلى للعالم، وليس قوة طبيعية كان قد اقترب منها بعل بصفته واهبًا حصريًا للمطر والخصوبة، وهو ما يعني أن بعل يفرض انحسار المطر والجفاف بنفسه بحسب قرار مستقل يتخذه. إلا أن قربان أنبياء بعل وتوسلهم بصرخات عالية وإيذاء أنفسهم جسديًا و"عرجهم" على المذبح (الملوك الأول 18:26، 28 وما يلي)، وهو تسمية مهينة لرقصة دائرية[415]، يُظهر ما كان تقليدًا شعبيًا في ذلك الوقت.

عوضًا عن التقاليد الشعبية، هناك الطقوس الرسمية للأديان في فلسطين بغية جلب المطر. وفي حال شَحَّ المطر، تُقام الصلوات في مساجد المسلمين ومدارس الأطفال ("كتاتيب"). وفي الـ"حرم" القدسي، يُستخدم منبر الصيف إلى الجنوب من قبة الصخرة من أجل "صلاة الاستسقاء"، فيقلب الشيخ المسؤول معطفه بعد إلقاء خطبته، كإشارة إلى انقلاب الطقس[416]. فـ"صلاة الاستسقاء" كان قد صدر مرسوم رسمي بها، وأُقيمت في 26 آذار/آذار 1901 انطلاقًا من السلط بالقرب من قبر النبي يوشع. وقد هدد منادي البلدة [الحوّاط] كل من يتخلف عن المشاركة بغرامة مالية. وهكذا انطلق المسلمون مع مفتيهم والمسيحيون الروم مع أربعة قساوسة والبروتستانت مع قسهم. وفي القدس أمر بطريرك اللاتين، بعد موسم شتاء شحيح بشكل غير مألوف في 1924/1925[417]، بإقامة ابتهالات خاصة من 8 إلى 10 آذار/مارس. كما أضيفت ابتهالات الاستسقاء لاحقًا إلى القداس اليومي[418]. وأحيانًا ينتمي إلى الطقوس الرسمية احتفال بالحرث يقوم به أعيان دنيويون ودينيون[419]، في حين يقوم الرجال بمراقبتهم وهم يلبسون أرديتهم مقلوبة[420].

---

(415) ربما كانت "خبط الأرض بالقدم" ("الدبكة") في فلسطين اليوم مع ثني الركب تلائم ذلك. يُقارن: *Pal. Diwan*, pp. 267f., 273.

(416) Kahle, *PJB* (1912), p. 162.

(417) يُنظر أعلاه، ص 130 وما يليها.

(418) *Heil. Land* (1925), p. 118.

(419) Sonnen, *Heil. Land* (1921), pp. 12f., für Tiberias.

(420) Abela, *ZDPV* (1884), p. 94, für Sidon.

حظيت فلسطين القديمة بتقاليد مشابهة في جميع المناطق؛ فالقرابين التي تكرس لأم الغيث يومًا محددًا، كان لها نظيرها في القرابين البشرية التي تفترض أن خطيئة شاؤول قد جلبت على الأرض ثلاث سنوات من شح الأمطار، وسوف يتم التكفير عنها، وهو ما يعني تعريض أفراد عائلة شاؤول للقتل طوال صيف كامل، صموئيل الثاني (1:21 وما يلي). وعندما وصل المطر، كان التعريض قد حقق غايته[421]. وعن بلاد ما بين النهرين يروي التلمود أن إنسانًا قُتل بأمر إلهي للحصول على المطر[422]. وقد قُصد بقتل كهنة بعل على نهر قيشون [المقطَّع] الذي كان خاليًا من الماء في حينه (الملوك الأول 40:18)، عمل يتمكن بنو إسرائيل من خلاله الانفصال عن بعل وإعطاء وزن أكبر لدعواتهم الموجهة إلى الله من أجل المطر. ومع قربان إيليا على الكرمل، فإن صب الماء على المذبح يمكن ربطه بصب الماء في فلسطين اليوم[423]. وحين يُستهلَك الماء المتجمع في الخندق المحيط بالمذبح، جنبًا إلى جنب مع الأضحية، قبل برق الله (الملوك الأول 38:18)، فإن ذلك يعني قبول الله العطية المكرسة له، والبرق يتبعه المطر المنشود[424].

ويتساوق مع ظهور الأطفال كمتوسلين لسقوط المطر القول اليهودي-الفلسطيني[425]: "يوجد العالم من خلال نفحة أطفال المدارس". ومع استشفاع

---

(421) ذلك أن عظام أمير تأتي بالمطر. يُنظر:

Frazer, *Adonis*², p. 18.

(422) b. Ab. z. 55ª.

(423) ذات طبيعة أخرى هي صب الماء في متسبا، صموئيل الأول 6:7، والذي قد فسر معناه بشكل صحيح في

j. Taan. 65ᵈ,

حيث يقرأ: "هل قاموا بصب الماء؟ لقد قاموا بسكب قلوبهم كما يُسكب الماء".

(424) De Groot, *Theol. Tijdschrift* (1918), pp. 41f.

والذي عادة ما يذكر أشياء صحيحة عن طقوس المطر الخاصة بقدماء الإسرائيليين، يخمّن هنا وجود شيء شبيه بصحون فلسطين الحجرية، والتي خمّن أنها من المفروض أن تجلب المطر (*PJB* (1914), p. 33) خاصة إذا كانت فارغة، فالمكان العميق والنائي عند صلاة استسقاء الحاخام يونا (b. Taan. 23ᵇ) يدل على تواضعه، ومن هنا يُفترض بالصلاة الإتيان بالمطر.

(425) b. Sabb. 119ᵇ.

الأولياء يتساوق التقليد اليهودي الحديث والمتمثل في وضع توسل [مكتوب] سقوط المطر في يد حاخام مات ودفنه معه، وكذلك تغطيس طرف من كفنه في الماء(426).

إن بعض الإجراءات الرسمية المتعلقة بقدوم المطر كان على صلة بعيد عرش الهيكل الأخير، وهي الإجراءات التي يتم ربطها في هامش المزامير (7:84ب) بالمطر المبكر والاحتفال به، وهي، بحسب زكريا (17:14)، شرط لمنح المطر للمشاركين. ولكنها بالطبع ليست متأصلة في صلب هذا العيد، وأغلب الظن أنها تعود إلى الشكل الشعبي القديم لعيد الخريف. ففي كل يوم من أيام العيد السبعة، أي من 15 حتى 21 تشري (تشرين الأول/ أكتوبر)، تجري تعبئة إبريق ذهبي يسع 1.5 لتر من عين شلواح [سلوان]، ويقوم الكاهن بعد طلوع الشمس بصبّ مائه بيد رافعة الطاسة الغربية من طاستَي الجود الخاصتين في مذبح القربان المحرق(427). وبشكل صريح يقول مشنا عكيفا(428): "يحدث التبرع بالماء في عيد العُرُش، كي تتم مباركة الماء". وفي مكان آخر يقال(429): "تبرع بالماء يوم عيد العُرُش، لأنه موعد المطر كي تُبارك الأمطار من أجلك"، أو(430): "إذا تبرع المرء في العيد بماء تنادي أرض واطئة أخرى: دعي ماءك يجري"؛ فالقرار الإلهي الخاص بمطر الشتاء مرتبط بهذا اليوم(431)، ولهذا يحسن المرء صنيعًا إذا نجح في الحصول على حظوة الرب.

تضمن احتفال ليلة اغتراف الماء رقصةَ مشاعل جرى خلالها إمتاع المشاهدين بمشاعل يقذِف بها في الهواء رجال أعيان في بلاط نساء الهيكل، في حين أُشعلت قناديل على أربعة شمعدانات ذات أربعة أحواض مملوءة

---

(426) Reischer, *Sepher Schaare Jeruschalajim* (Lemberg 1879), IX.

(427) Sukk. IV 9f., Tos. Sukk. III 14, 16.

(428) j. R. h. S. 57b.

(429) Tos. Sukk. III 18, R. h. S. I 12, b. R. h. S. 16a.

(430) b. Taan. 25b.

(431) R. h. S. I 2, j. R. h. S. 57a, b. R. h. S. 16a, b. Taan. 2a.

بالزيت[432]، وقد تبع هذه الرقصة موكب إحضار الماء. وربما تنتمي إلى هنا رقصة العذارى الدائرية في عيد الخريف في شيلو (القضاة 21:21)؛ إذ إنها تشبه كثيرًا مواكب الفتيات اللواتي يتوسلن المطر (ص 143). وكاستذكار لتقليد الهيكل، يقوم أحدهم حتى اليوم في كُنُس فردية في عيد العُرُش بعد صلاة المغرب بجولات، حاملًا مشاعل بوجود كثير من المصابيح المشتعلة، حيث يترك ماء ينبوع في كنيس يخر[433]. هذه التقاليد كلها كان قد القصد منها في الأصل إحداث تغيير مباشر في الطقس، تمامًا مثل طحن الطاحونة وموكب الفتيات. وربما كانت رقصة المشاعل تشير إلى النجوم التي تؤثر في الطقس. وفي الأزمنة المتأخرة، لم يكن ذلك غير طقس قُصِد به تحصيل عناية خاصة من الرب بعد صلوات الاستسقاء التي يؤديها الشعب، ولفت الشعب إلى أهمية تلبية أمنياته في الوقت نفسه.

إلى هنا تنتمي المواكب (مواكب الكهنة) خلال عيد العُرُش، وهي التي تحصل مرة يوميًا، وفي اليوم السابع تدور المواكب سبع مرات حول المذبح المحاط بغصون الصفصاف الكبيرة، مطلقين الدعاء "آه يا يهوه، هلا ساعدت: أه يا يهوه، هلا منحتنا حظًا سعيدًا!"[434]. ويُعَزَّز الابتهال من خلال قيام المرء بضرب المذبح، مستخدمًا سعف النخيل[435]. وهنا يذكّر يسوع بالماء الذي يمكن تقديمه للعطشان (يوحنا 37:7). وفي الكنيس، انبثق عن ذلك تقليد الضرب بالصفصاف، وفي القدس يمارَس من خلال استخدام الحور الفراتي المستقدَم من [نهر] الأردن. وبخمسة فروع مضمومة معًا، يقوم المرء بالضرب

---

(432) Sukk. V 1ff., Tos. Sukk. IV 2f.

(433) Reischer, *Sepher Schaare Jeruschalajim* IX.

(434) Sukk. IV 5 – المزامير 27:118، حيث يشار إلى هذه الرقصة الدائرية، على الرغم من أن المقصود على الأرجح هو عيد الأضاحي، حيث يُفترض أن تملأ الحيوانات الباحة حول المذبح.

(435) هكذا: Sukk. IV 6, بحسب Ed. Princ.; Yeruschalmi. وفي نصوص أخرى يجري الضرب على الأرضية بالقرب من المذبح، ربما لأن المرء قد وجد ضرب المذبح غير لائق.

بضع مرات على الأرضية، وأحيانًا ينتج من ذلك خلو الفروع من أوراقها[436]. ولأن تقليد الصفصاف لم يُذكَر، يعتقد يوحنان أن ذلك قد أتى إلى القدس من بابل، أي من الخارج[437]. وآخرون اعتقدوا أن الأمر منوط بالتقليد الشفهي العائد إلى حقبة سيناء[438] [أي التيه]. وعلى ما يبدو، فإن كليهما غير صحيح؛ فالتقليد قديم، لكن لا هو ولا تقليد وهب الماء قد استوعبتهما الطقوس الكهنوتية، لأنها لم تتلاءم مع التيه في الصحراء، أو ربما لأن أصلها قد اعتُبر من دائرة الدين الطبيعي. وتمثل شجرة الصفصاف التي تنمو قريبًا من الماء، وتبقى خضراء في أثناء عيد العُرُش، رمزًا للخصوبة[439]، ويعني استخدامه في المعبد في وقت يكون فيه كل شيء حول القدس لا يزال أجرد والأشجار ذابلة، إحداث اخضرارٍ جديد للأرض.

طبعًا، لا تقف باقة عيد العُرُش ("لولاب")، من حيث المغزى، بعيدًا عن الصفصاف، وهي المؤلفة من فرع واحد أو أكثر من فروع نضرة غير مكتملة النضوج من النخيل والآس والصفصاف وليمونة واحدة ("اِتروج")[440]. ويستند الاختيار إلى سفر اللاويين (40:23) الذي بموجبه تشكل ثمار أشجار كبيرة وسعف النخيل وأغصان أشجار كثيفة الورق وصفصاف الجداول[441] جزءًا من فرحة عيد العُرُش، دونما تلميح إلى أن على المرء تغطية السقائف

(436) يقارن أوَرح حاييم [سبيل الحياة] 664 في أربع توريم، بيت يوسف وشولحان عاروخ؛
Brück, *Volkssitten und Ritualien*, p. 149.

(437) j. Ab. z. 43[d].

(438) b. Sukk. 44[a].

(439) Scheftelowitz, *Bauernglaube* pp. 90ff.

(440) Sukk. III 4, Tos. Sukk. II 7, j. Sukk. 53[c], b. Sukk. 34[a], Vaj. R. 30 (83[b]), Siphra 102[d], Jubil. 16, 31.

(441) ولأن فروع الصفصاف أُحضرت، بحسب
Sukk. IV 5,
من موزا (= "قالونيا")، فلا يمكن أن تكون حورًا فراتيًا؛ فاللون الأحمر للفروع وأسنان الأوراق المنشارية يشيران إلى نوع حقيقي من الصفصاف. يُقارن:
Löw, *Flora der Juden*, vol. 3, pp. 327f.
في أي حال، لم يكن الصفصاف شائعًا في منطقة القدس، ولم يُعثر عليه عند نهر الأردن، أو بالقرب من أريحا أيضًا. ويترجمه سعديا بِـ "غَرَب"، على الرغم من أن في السيدور المسمى على اسمه، تُستثنى كلمة "غرب" بالذات. يُقارن ص 101.

بمثل هذه المادة، كما يحدث في نحميا (14:8 وما يلي). وحتى لو كان ذلك هو المقصود، يبقى غريبًا تغطية سقائف العيد بأغصان نضرة، في الوقت الذي تُغطى أكواخ الحراسة بأغصان جافة في البساتين من جميع الأنواع أو بالقصب؛ فنضارة الأغصان لا بد أنها كانت ذات معنى يمكن البحث عنه في بداية موسم المطر في النمو الجديد لعالم النباتات والمتوسم في المطر. وقد هزّ المرء الباقة خلال إنشاد المزامير 118 في البداية والنهاية، خاصة عند دعاء التوسل من سورة 25[442]؛ إذ قام المرء بتحريكها غادية رائحة بغية إبعاد الرياح الضارة، وإلى الأعلى والأسفل ضد الندى الضار[443]. يقول معلم فلسطيني أن أخذ الأغصان المحددة يجعل الأمر بالنسبة إلى الله جديرًا بأن يُرسَل لأجله المطر[444]. وفي حين يشدد آخر: "منذ أن كانت تلك الأنواع الأربعة (من الأغصان والثمار) ترمي إلى جعل (الرب) راغبًا في الأمور المتعلقة بالماء، حينئذ لا يستطيع العالم أن يكون دونما ماء، تمامًا كما لا يمكنهم الوجود بلا ماء"[445]. وكذلك القول المأثور[446]: "حين تكون قد ربطت باقة العيد الخاصة بك، أربط قدمك (لا تشرع بالسفر)!"، فهو يحمل في طياته فكرة أن باقة العيد تُحْدِث عواصف ومطرًا. وبالتأكيد يفكر الدين الرسمي هنا بفضل العمل المقدم، إلا أن المعنى الأصلي لصيغته لا يفسَّر من خلال ذلك، خاصة أن من غير الممكن استذكار التيه في الصحراء. وفي العيد، وهو الموعد الذي يصدر فيه حكم الرب بخصوص المطر[447]، يتوقع المرء أعمالًا لها صلة به.

---

(442) Sukk. III 9,

مع تقليد غير موحد كليًا.

(443) b. Sukk. 37[b].

(444) Vaj. R. 30 (83[a]).

(445) b. Chag. 2[b]

الجملة تصبح مفهومة بالكامل إذا كان لها صلة بنقاش بين معلمين.

(446) ص 156 وما يليها.

(447) R. h. S. I 2, b. R. h. S. 16[a]

يُقارن ص 148.

مثل باقة الحصاد الواسعة الانتشار التي لها صلة بباقة العيد الخاصة باليهود، لا يمكن أن تغيب في فرنسا أغصان الغار والتنوب والبلوط الخضراء[448]. هناك، حيث يسقي المرء باقة (Erntemai) بالماء [أيار الحصاد هي الترجمة الحرفية للكلمة][449]، فإن الإشارة إلى مطر سنة الحبوب المقبلة تكون جلية بشكل خاص. وهناك، تعني الباقة قوة نمو النبات التي يجب الحفاظ عليها واستقدامها إلى البيت كي يستفيد الناس منها.

وتمجيد الرب الذي "يجعل الريح تهب والمطر يسقط"، أُقحم أصلًا في المديح الثاني للصلوات اليومية في بداية عيد العُرُش أو نهايته، على الرغم من أن المرء لا يرجو مطرًا خلال العيد[450]. إلا أن المرء يبدأ بتوسل صريح من أجل المطر يتضمن عبارات مثل: "امنح ندى ومطرًا (أو: زخاتٍ مطر [تعبيرًا عن] الوداد) على سطح الأرض![451]" في المديح التاسع في آخر أيام العيد أو في اليوم الحادي عشر أو الخامس عشر بعد العيد، حتى يستطيع زوار العيد الوصول إلى نهر الفرات دونما مطر[452]، وهو ما يتم القيام به اليوم في القدس في يوم 7 مرحشوان الذي هو آخر المواعيد المذكورة[453]. وكتاب **سيفر بيت هشولحان** بقلم يسرائيل أشكنازي الصادر في صفد في سنة 1837، يحدد بشكل صريح في ص 5أ[454]: "في فلسطين يبدأ المرء بدعوات الاستسقاء في ليلة 7 مرحشوان فصاعدًا. وفي فلسطين يتم التزام جميع ترتيبات اليوم الأول واليوم الأوسط واليوم الأخير من العيد، طبقًا لغياب المطر، تمامًا مثل الأحكام

---

(448) Mannhardt, *Wald- und Feldkulte*, vol. 1, pp. 202ff.

(449) Ibid., pp. 214ff.

(450) Taan. I 1, Ber. V 2,

يُقارن:

Sukk. II 9.

(451) بحسب التنقيح الفلسطيني للدعاء الثامن عشر. يُنظر:

Dalman, *Worte Jesu*, vol. 1, p. 300; Mann, *Hebr. Un. Coll. Annual*, vol. 2, p. 306.

يُقارن أيضًا:

Elbogen, *Der jüdische Gottesdienst*, pp. 44, 49.

(452) Taan. I 2. 3, Ber. V 2.

(453) Luncz, *Jeruschalajim*, vol. 1, p. 42; *Palästina- Almanach für* (1908-1909), p. 6.

(454) يُقارن:

Aljaschar, *Sepher hat-Takkanoth* 58^{b}f.

الواردة في التلمود". وتعني هذه الأحكام منظومة كاملة من أيام الصلاة والصوم في حال لم يكن المطر قد هطل بعدُ في 17 مرحشوان وهو الموعد الأكثر أهمية للمطر المبكر (ص 125). وتأتي في البداية صيام الأفراد ثلاثة أيام. ثم بعد انتهاء الموعد الأخير للمطر المبكر (1 كسلو) صيام جماعي ثلاثة أيام مع صلوات في العراء من أجل المطر على مقربة من تابوت العهد المرشوش بالرماد. ثم تتبعه ثلاثة أيام وسبعة أيام صيام أخرى مع تصعيد متزايد. يتبعها في الختام النفخ بالبوق خلال الصلاة[455]. وتُطرح نظرية تقول إن هذه الإجراءات قد تستمر بلا نجاح طوال فصل الشتاء بأكمله[456]؛ فخلال الشتاء تصبح فواصل انقطاع المطر سببًا لتوسلات استسقاء جديدة، خصوصًا عندما تصل إلى 40 يومًا[457]. فالنفخ خلال الصلوات يفسره دي خروت (de Groot)[458] على أنه أداة لإيقاظ الرعد الآتي بالمطر[459]، وهذا ما يؤيده j. Taan. 66c، للحصول على المطر، وj. Taan. 22b، ويجب الإمساك عن النفخ حين يهطل مطر فائض. إلا أن النفخ في البوق حكم قانوني يتعلق بِـ 1 تشري من كل سنة (سفر اللاويين 23:24؛ سفر العدد 29:1)، أي من أجل السنة الجديدة للتقويم اللاحق، ويحدث كلما حصلت بلية من أي نوع، ويستثنى منها مطر تجاوز الحد (أي غير الفائض)[460]. وحينئذ يكون السؤال: هل يرمي النفخ إلى لفت الرب أم دفع البلاء؟ العمل الأول وحده هو المقصود بالطبع، لأن ما هو مطلوب ليس

---

(455) Taan. I 1-7, Tos. Taan. I 8-14.

(456) Taan. I 7.

(457) Taan. III 1.

(458) *Theol. Tijdscher.* (1918), p. 48.

(459) بحسب د. برافر، ربما كان مزاج التكفير، وفقًا لـ "عاموس 3:6، هو الغاية الأصلية للنفخ في البوق. وقد يكون هذا، باعتباره رؤية "رسمية"، صحيحًا، إلا أن رد j. Taan. 65a على السؤال: "لماذا ينفخون في البوق؟" كان: "(يقصدون بذلك:) انظر إلينا، كما لو كان قد صرخنا مثل الدواب أمامك!". وتتصور b. R. h. S. 16b بلبلة الشيطان عند النفخ في البوق في يوم رأس السنة، والذي يتخلى حينئذ عن شكواه لدى الرب. لمزيد من التفصيلات يُنظر شولحان عاروخ، خصوصًا أسفل كلمة "عرب" من تلمود يروشليمي، حيث يحذف الـ j. Taan. 65b المسألة الأساسية في نصوصنا. وفي عاموس 3:6 يتم التطرق إلى نفخ البوق في المدينة، نظرًا إلى تقدم العدو مثلًا، على أنه أمر يثير الفزع.

(460) Taan. III 4.5, b. Taan. 22b.

نفخة في البوق أو التبويق بصوت عال، بل نغمة "تِروعا" الناحبة[461]؛ فهي تعبّر عن خوف الجماعة المصابة بمحنة أو المتخوفة مما قد يلحق بها من سوء، كما يُفترض بها تعديل مزاجها أيضًا. فنداءات أنبياء بعل العالية (الملوك الأول 28:18) يمكن مقارنته بذلك. كذلك يظهر مهمًا أيضًا أن الجماعة قد ضبطت على التوبة، وأن الإمام الصحيح يجب العثور عليه؛ إمام يؤدي الصلاة بصدق وإخلاص[462]. وبغض النظر عن الأصل الأول للنفخ في البوق في مثل هذه المناسبة، يبدو الآن وقد دُمج هذا الطقس بشكل كلي في نطاق الدين الرسمي.

ولا نسمع شيئًا عن أعياد شكر خاصة بالمطر المتساقط، إلا أن هناك في المزمور 65 أنشودة شكر واضحة تجاه مطر هطل بعد فترة جفاف طويلة، ربما بعد انقطاعه فترة طويلة، في الشتاء أو الربيع، والذي كان، بحسب سورة 11، قد "غرّق أخاديد الأرض المفلوحة، وخفض الأثلام الصغيرة بينها، وطرّى الأرض بوابل من المطر[463]، وبارك زرعه الجديد".

ل. عواصف الخريف

المطر الغزير لا يأتي أبدًا دونما عواصف، كما يقول المثل[464]: "ما مَطر بلا اِرياح وما قوم بلا صياح"، أي: "ما من مطر بلا رياح ولا عراك بلا صراخ". ويشمل، في واقع الأمر، توقيت المطر المبكر فترة رياح قوية، وغربية بصورة خاصة. ووفقًا للأرصاد التي عُمل بها في بيروت وعمل كوستليفي على دراستها[465]، فإن المعدل الأعلى لسرعة الريح يحدث في آذار/ مارس،

---

(461) يُقارن:

R. h. S. IV 9.

على الأقل يبدو أن نفخ البوق ("تِقيعا") كان معتادًا خلال أعياد المطر في الهيكل وحده.

Taan. II 5, Tos. Taan. I 14.

(462) Taan. II 1. 2, Tos. R. h. S. III 1, j. Taan. 65ªff., b. Taan. 23ªff.

(463) ينصرف فكر سعديا هنا إلى الـ "ندى".

(464) Einsler, *ZDPV* (1896), p. 100,

يُقارن:

Baumann, *ZDPV* (1916), p. 221,

حيث "عِرس" "زفاف" بدلًا من "قوم".

(465) Kostlivy, *Untersuchungen über die klimat. Verhältnisse von Beirut, Syrien* (1905), pp. 133ff.

على الرغم من أن آخر معدل ثانوي يحدث في تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر. وبشكل أساسي، يحصل جو عاصف وعواصف في كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس، وفي كانون الأول/ ديسمبر أيضًا، حيث الأحوال [الجوية] في القدس ليست على شبه تام بذلك. فشابلن[466] يحسب من شباط/ فبراير حتى نيسان/ أبريل سرعةَ رياح قصّوى مقدارها (0.67؛ 0.65؛ 0.63). وفي الخريف المتأخر يمكن ملاحظة ارتفاع مفاجئ في تشرين الثاني/ نوفمبر (حتى 0.41) بعد حد أدنى (0.27) في تشرين الأول/ أكتوبر، والذي يستمر في كانون الأول/ ديسمبر (0.50)، ليعود وينخفض ثانية على نحو ما (0.47) في كانون الثاني/ يناير. وتمنح هذه المعدلات الرقمية المستخرجة من الإحصاءات صورة ليست دقيقة بوجه خاص؛ فعدم استقرار الطقس واضطراب حركة الهواء المميزة لموسم المطر الفلسطيني، يُختصران إلى أحوال مستقرة، وبالتالي تُستثنى المعدلات من وصف حالة الطقس. ويدوّن القزويني[467] بالنسبة إلى 1 تشرين الأول/ أكتوبر ريحًا شرقية شديدة ("صَبا")، وبحرًا هائجًا بالنسبة إلى 13 و31، وعاصفة في البحر في 7-9 و28 "تِشرين الثاني"، بحيث لا تستطيع سفينة مخَر عبابه. وهناك قواعد معروفة تشترط حصول المطر خلال طلوع الثريا (ص 38 وما يليها، ص 123). ويُنقل عن [النبي] مُحمد قوله[468]: "مَن رِكِب البحر بَعد طُلوع الثريا فَقَد بَريَت مِنه الذمة"، أي: "من ركب البحر بعد طلوع الثريا، وبُرئت منه الذمة، يفقد عقد الحماية". وعند يونانيي اليوم يُعتبر البحر انطلاقًا من عيد الصليب (14/ 27 أيلول/ سبتمبر) غير قابل للركوب[469]. أما لدى هيسيود[470]، فإن غروب الثريا المبكر (في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر) علامة على نهاية الملاحة البحرية.

---

(466) *PEFQ* (1883), p. 75;

يُقارن أدناه II, 6.

(467) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75;

يُقارن ص 43.

(468) Ibid., I, p. 43.

(469) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 18ff.

(470) Hesiod, *Opera et Dies*, pp. 619ff.

يُقارن:

Ideler, *Chronologie*, vol. 2, pp. 241f.; vol. 2, pp. 143ff.

مع قلة الموانئ الفلسطينية التي لا تسمح برسو سفن كبيرة، فإن حركة مواصلات فلسطين البحرية تتوقف خلال هذه الأوقات، خصوصًا أن حركة السفن البخارية لا تعتمد على الريح. وحتى لو كانت السفن راسية، فليس من الممكن النزول منها. كما أن البريد، فضلًا عن بضائع يُفترض بها أن تسد حاجة السوق، تغيب، وغالبًا ما تصل إلى الهدف المنشود بعد اجتياز طرق ملتوية طويلة. وقد وصل 83 صندوقًا فيها أثاث بيتي إلى يافا في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1902، قبل عواصف الخريف. أما الصناديق الثمانية التي شُحنت من هامبورغ بعد ذلك بِـ 20 يومًا، أي في 6 تشرين الأول/ أكتوبر، فقد تسلمتُها في آذار/ مارس 1903. وربما كان الوصول إلى السفينة، إذا جرت محاولة في مثل ذلك الوقت، أمرًا خطِرًا، والصعود من القارب إلى السفينة مستحيلًا؛ فقد أُصعد قيصر النمسا على ظهر السفينة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1869 بواسطة شبكة. ومن المحتمل أن عاصفة خريفية آتية من الشمال هي التي تسببت بفاجعة لسكان يافا الذين فروا أمام الرومان إلى مراكبهم. وقد دفعت العاصفة بقواربهم ليصطدم بعضها ببعض وبالصخور، وجرفت طواقمها من فوق المركب إلى البحر، وقذفت بمن غرقوا مع سفنهم إلى الشاطئ، حيث قتلهم الرومان[471].

إلا أن العواصف يُحَسُّ بها على نحو قاسٍ في داخل البلاد، فيقوم المرء بإغلاق مصاريع النوافذ بحيث لا ينفذ الماء من شقوقها. وكل قرميدة مكسورة على السطح قد تكون ذات عواقب وخيمة. وفي شتاء سنة 1910/ 1911، وكان أول شتاء يشهده فندق أوغستا فيكتوريا، الذي بني على نحو صلب جدًا، انخلع سقف الفندق إلى حد كبير، ونفذت الرطوبة إلى داخله من خلال الحائط الغربي بحيث استوجب تغطية السقف من جديد وحماية الحائط الغربي برواق جديد باهظ التكاليف[472]. وفي مثل هذه الأوقات، يستغني الأوروبي عن مظلة المطر ويحمي نفسه بمعطف واقٍ من المطر وقبعة وحذاء فوق حذائه الأساس. ويلف كلٌّ من الفلاح والبدوي نفسه بعباءة تقيه المطر إلى حد ما، فيُغطي بها

---

(471) Josephus, *Bell. Jud.* III 9, 3.

(472) يُنظر:

XI. Bericht der Kaiserin Augusta Victoria- Stiftung, p. 18.

رأسه تحت ظروف معينة، مذعنًا لحقيقة أن الأجزاء غير المغطاة من ملابسه وقدميه قد تبتل.

وفي الأزمنة القديمة، كانت الظروف هنا مشابهة، وبالتالي كان الهروب في الشتاء (متّى 20:24) قدرًا سيئًا، على الرغم من البرد (يُنظر أدناه). والملاحة بالطبع كانت قد توقفت توقفًا تامًا؛ فالاقتباس من الكتاب المقدس: "الله الذي يصنع طريقًا في البحر" (إشعيا 16:43) يُعتبر ساريًا، وفقًا لتفسير أحد الفلسطينيين[473]، من عيد الشعانين حتى عيد العُرُش (من أيار/ مايو حتى نهاية تشرين الأول/ أكتوبر)، و: "سبيلًا في المياه القوية" من عيد العُرُش حتى عيد تقديس الهيكل (25 كيسلو - كانون الأول/ ديسمبر). إذًا مع عيد العُرُش الذي يبدأ في 15 تشري، تتوقف الملاحة، كما عرف ذلك بولس الذي وجد أن القيام برحلة بحرية بعد "صيام" عيد الغفران في 10 تشري تهورًا (أعمال الرسل 9:27 وما يلي). وفي مقاطعة آسيا، أراد شخص الذهاب إلى البحر في ذلك الوقت، فحذرته امرأة من ذلك، وظهر والده في الحلم وَجِلًا: "ولدي سيبقى دونما دفن!" ولكنه ذهب، وحدث له ما حدث. وكان آخر طلب من أخيه قبل رحلته البحرية[474]: "صلِّ من أجلي!" وحصل على الجواب: "ماذا عساي أن أصلي من أجلك؟ فإذا كنتَ قد ربطتَ باقة العيد الخاصة بك (من أجل عيد العُرُش)، فعليك ربط قدمك! وإذا أتيت إلى الكنيس وسمعت صلاة الاستسقاء (ص 152)، فلا تعوِّل على صلاتي".

م. فواصل انقطاع المطر

إن التصور كما لو أن الشتاء الفلسطيني هو موسم مطر متواصل بلا انقطاع تقريبًا، وكما لو أن المطر في الشتاء مستديم، كما هي حال ضياء الشمس في الصيف، هو تصور خاطئ. وحين كنت أريد أن أصف لفلسطيني طقس ألمانيا، كنت أقول: "الصيف هناك مثلما الشتاء في فلسطين تقريبًا، والشتاء يسقط فيه

(473) Ber. R. 6 (12^a), j. Sabb. 5^b,

يلكوت مخيري عن إشعيا 17:14.

(474) j. Sabb. 5^b.

ثلج بدلًا من المطر". ويتمنى الفلاح، بحق، بعد المطر المبكر، فاصلًا زمنيًا يمتد من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع قبل أن يبدأ مطر الشتاء الحقيقي. فهناك حاجة إلى عشرة أيام من ضياء الشمس كي تجف الطبقة الخارجية للأرض. وحينئذ يستطيع الفلاح البدء بحراثة الحقل؛ إذ إن ذلك غير ممكن في تربة موحلة. ومثل هذا الفاصل الطويل من انقطاع المطر يُطلق عليه "وَفرْ"، "وَفرة" أو "وفار"، ويتميز من الأيام الأخرى بأنه ليس مجرد يوم مشمس ("يوم شِمس"). وعنه يُقال: "أوفَرَت الدِنيا"، إلا أن "أوفر" تُستخدم لوصف رقعة صغيرة من الأرض كانت قد جفت. وبالطبع لا يُناظر الواقع دائمًا الأماني كما هي؛ ففي سنة 1908 هطل المطر الأول في القدس، وفقًا لتدويناتي، في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، والمطر الثاني في 15-17 تشرين الثاني/ نوفمبر (15.5 مم)، حيث وجدت أن الأرض في إثر ذلك قد تشرَّبت بالماء بعمق يصل إلى 8 سم. وقد سقط المطر الثالث في 27، 28، 30 تشرين الثاني/ نوفمبر و1 كانون الأول/ ديسمبر (91 مم)، والرابع في 6-10 كانون الأول/ ديسمبر (136 مم)، والخامس في 15، 16 كانون الأول/ ديسمبر (32.5 مم)، والسادس في 24، 26، 27 كانون الأول/ ديسمبر (12 مم). وهذا يعني حصول فواصل انقطاع المطر مؤلفة من 14، 10، 5، 5، 8 أيام. وغالبًا ما يحصل ذلك جراء تراجع شدة الريح الغربية الجالبة للمطر، أو من خلال هبوب رياح شرقية، شرقية - شمالية، شرقية - جنوبية أو شمالية. ومن المميز لخريف فلسطين وشتائها أن الرياح الشرقية تهب بشكل أشدّ في الربيع والصيف[475]. وتسمح لنا ملاحظات شابلن[476] القيام بحساب الأيام للشهرين تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر، وهما محور اهتمامنا هنا، إذ لا يهطل المطر في هذين الشهرين، إنه حساب مبنيّ على معدل عشر سنوات. وبناء عليه نصل إلى: 25.36 يومًا تهب فيها رياح شرقية من جميع الأنواع، 3.75 أيام تهب فيها ريح شمالية، أي معًا وبشكل واضح 29.11 يومًا بلا مطر، أي، تقريبًا، نصف الفترة الزمنية في قيد البحث. ويبقى الشهران كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير، حيث نلحظ 23.92 يومًا

---

(475) يُنظر أدناه II, 6.

(476) *PEFQ* (1883), p. 39.

بلا مطر، أي أيام غير مواتية بعض الشيء في هذا السياق. ومن هنا تأتي فائدة الرياح الشرقية الشتوية، إضافة إلى الريح الشمالية، لأنها تجعل الفِلاحة ممكنة. وتتكفل تيارات الريح الغربية المعاكسة القوية بعدم غياب الرطوبة المطلوبة.

حري بالفواصل الزمنية لانقطاع الأمطار ألّا تطول كثيرًا، وألّا تهب الريح الشرقية خلال هذه الفترة بشكل شديد جدًا. فإذا لم تهطل الأمطار خلال شهر بأكمله، كما حصل في السلط في شباط/ فبراير 1901، من 22 كانون الثاني/ يناير حتى 21 شباط/ فبراير 1902، فإن المحصول يصبح في خطر، وتتعدى أسعار الحبوب كل حدود (ص 132). حينئذ تسفع حرارة الشمس البذار النامي، بحيث قد يتطلب الأمر أحيانًا البذر من جديد. ولا بد أن الكلمة العبرية "شِدَّفون" (التثنية 22:28) تعني مثل هذا الحريق[477] الذي يترجمه سعديا بـ"شوب" أي "حرارة"، تمامًا كما يترجم "شِدوفوت قاديم" (التكوين 6:41) بـ"مُشوَّبة بِريح القبول"، "محروقة بالريح الشرقية". وفي المشنا لا يحتاج الحقل "المحترق" ("نِشديفِت") و"الحريق" ("شِدَّفون") بحجم فتحة فرن الذي من أجله يصوم المرء يومًا[478]، أن يُفهم بشكل آخر. وهنا يفكر فوغلشتاين[479] في شحار الحنطة الذي يتشكل بحسب Tos. Sot. XV 2 من خلال الندى الموسوم. ولكن في j. Sot. 24b يشار إلى أن القش والتبن (على البيدر) يَسودّان بسبب الندى، في حين يُفترض، قبل تدمير الهيكل، أن يكونا قد ابيضّا، وهو ما يجانب الحقيقة؛ فانقطاع المطر أربعين يومًا يشكل سببًا لإقامة صلوات استسقاء[480]، وهو يُعتبر "ضربة جفاف" (بالعبرية "مكَّت بَصّورِ")[481]. وفي سنة 1923، كانت هناك فترة انقطاع أمطار، مصحوبة بريح شرقية استمرت من 1 تشرين الثاني/ نوفمبر حتى 14 كانون الأول/ ديسمبر، بحيث استوجب الأمر بذر بعض الحقول مرتين إلى ثلاث مرات، لأن البذر الأول ضاع. ثم سقطت أمطار، كما

(477) يُنظر أيضًا سفر الملوك الأول 37:8؛ عاموس 8:4؛ حغاي 17:2، 2؛ أخبار الأيام 28:6. يُقارن أدناه III, 5.

(478) Bab. mez. IX 6, Taan. III 6.

(479) *Landwirtschaft in Palästina zur Zeit der Mischnah*, p. 56.

(480) يُقارن بهذا الشأن ص 152 وما يليها.

(481) Taan. III, 1.

لو كانت الخلاص، من 15-20 كانون الأول/ ديسمبر وبلغت 15 سم، حيث جرى الماء في الوادي المنحدر من القدس إلى البحر المتوسط مثل جدول يتدفق من الجبل، والذي عادة ما يكون جافًا.

تبقى فواصل انقطاع المطر في الشتاء والمصحوبة بشروق شمسها ودرجة حراراتها المعتدلة مهمة للفلاح؛ فالغبار الجيري الذي كان قد تجمّع في محيط المدن والقرى، والذي ترك الأشجار تبدو كما لو أن الثلج غطاها، كانت غسلته أولى الأمطار الشديدة؛ فالصدر يتنفس الصعداء، والعين تسرح بعيدًا، فما عادت تزعجها شمس غير حامية ولا انعكاس الطرق المغبرة الخاطف للبصر. والأشجار تنتصب كما لو أنها جددت شبابها، والهواء الذي كانت شفافيته في الصيف قد سلبت المشاهد الطبيعية رونقها، عاد فرسمها بالألوان من خلال حمله رطوبة زائدة. وقد تكون الطبيعة لا تزال جرداء، لأن العشب قد بدأ ينمو للتو، كما حصل في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1908 (ص 157) خلال المطر الثالث. إلا أن الثنايا والظلال والمسافات نالت مسحة ضاربة إلى الزرقة، والمنحدرات الجبلية وحواف الصخور التي أضحت رطبة كستها صبغة أكثر قتامة، وظللتها الغيوم التي تغيب في الصيف. وفي ألمانيا يحتفظ المرء بانطباع خاطئ عن ألوان الطبيعة في الشرق، على الرغم من أن رسام مشاهد طبيعية معاصر في الإسكندرية رسمها بشكل واقعي. وحتى لو كانت الطبيعة هناك هي الأكثر جمالًا، فإن من غير الممكن اعتبارها زاهية الألوان. ولكنها تخلّف أثرًا من خلال شفافية بنيتها ووفرة مسالكها ووضوح ألوانها الأساسية ورقّتها، وشدة براعة الخطوط الغامقة المصوّرة فيها، والتي لم يستطع رسام حتى الآن إعادة إنتاجها، ولا حتى إنتاج صور ملونة من الأصل الأسود والأبيض (Photochrom) قادرة على القبض عليها كليًا. كما أن شروق الشمس وغروبها يمكّنان من نشر ألوان أكثر زهوًا على الجبال، يشارك فيها الغرب في الصباح، والشرق في المساء، مشاركة فريدة[482]. ولكني لاحظت مرتين فقط خلال أربع عشرة سنة عظمة ألوان المشهد الطبيعي المسائي وعمقه بشكل لم يسبق لي أن رأيته في

(482) يُنظر:

PJB (1921), pp. 11ff.

أوروبا قط. إن صورة من هذا الطراز أتاحها لي، على الطريق نحو البتراء في 24 آذار/ مارس 1906، وادي ضانا الضيق المنحدر نحو وادي عربة. فالوادي الواقع في الظل أسفل قدمي، كان زاخرًا بلون أزرق داكنٍ جدًا. وفوقه امتد لون أخضر باهر وأصفر برتقالي غطى المسافة وفاض إلى سماء المساء[483]، وهذه ألوان شاهدتها مرة أخرى في 10 نيسان/ أبريل 1912 من جبل الجِرمَق، أعلى قمم الجليل؛ أزرق داكن جدًا امتد هناك على أرض الجولان المنبسطة ببراكينها. وبهذه الطريقة يأتي تشرين الثاني/ نوفمبر أحيانًا بجزء من أجمل أوقات السنة؛ جزء يستمتع فيه الأوروبي بشكل مضاعف بعد طول تقييد لحرية حركته من خلال حرارة الشمس ووهجها، تلك التي حاول المرء قدر الإمكان تجنبها، في حين ينعم الآن بأشعتها وبهواء أصبح منعشًا أكثر.

ن. الزراعة في الخريف والطيور المهاجرة

تعتبر الأشهر من آب/ أغسطس حتى تشرين الأول/ أكتوبر موسم قطف العنب والتين وعصر الكرمة ("نبيذ")، حيث لا يزال يحدث ذلك، وهو موسم صنع دبس العنب ("دِبس") والزبيب ("زِبيب") والتين المجفف ("قُطّين") وجني المحصول كله من البيدر[484]. إن قطف العنب الذي يبدأ في آب/ أغسطس، هو ما تشير إليه قاعدة يسير عليها الفلاح:

"لِن حَلّ آب - اِقطع القطف ولا تهاب"، أي: "إذا حلّ آب إقطع القطف [العنقود] ولا تهاب!" (عبد الولي، رام الله)

وقد سبق للقزويني أن حدّد بداية قطف العنب في 27 "تموز"[485]. أما الزيتون، فينضج لاحقًا. وعادة ما يقال:

---

(483) يُقارن:

Jeremias, *PJB* (1907), p. 147.

(484) وإلى هنا ينتمي المثل القائل: "بشهر أيلول - دَبّر المكيول - للعدس والحمص والفول"، أي لبقوليات الزرع المبكر والمتأخر (**المشرق**، (1905)، ص 689)، هكذا بحسب السيد الياس حداد.

(485) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 79.

"لِن حَلّ اِيلون – طاح الزيت في الزيتون"، أي: "إذا حلّ أيلول – يكتظ الزيت في الزيتون" (عبد الولي، رام الله).

إلا أن قولًا آخر يدّعي أن اكتظاظ الزيت في الزيتون، والذي كان امتصّ قبل ذلك نسغًا من الماء فحسب، يبدأ في 15 آب/ أغسطس[486]: "في عيد العذرا اِم النور بِصُبّ الزيت في الزيتون"، أي: "في عيد العذراء أم النور، يصبّ الزيت في الزيتون". وخلال هذا الوقت الذي تحتاج فيه ثمار العنب والتين الناضجة أيضًا إلى الحراسة ليلًا ونهارًا، يعيش الفلاح مع عائلته في الكروم المغروسة بأشجار التين أيضًا. ومن أجل ذلك يقوم المرء هناك بنصب معرّشٍ ("عريشة"، "خيمة") مؤلف من بضعة أعمدة للمراقبة ("قصر"، "مَنطرة") غيرٍ مكتمل البناء، ولكنه قائم بشكل مستمر (إشعيا 5:2؛ متّى 21:33)، ويقوم صاحب الكرم بتغطيته بأغصان مورقة أو قصب. ويعني العيش في المعرّش تمضية وقتٍ ممتع لا يخلو من أناشيد خاصة[487]، وفيه يأكل المرء الفاكهة حتى الشبع. وهنا لا يَغيبٍ عن البال تباهي الصيف المودِّع بنفسه خلافًا للشتاء وتأثيراته السيئة[488]: "خلّيتهم حُمْر ومكيفين – وتَحت الشجر قاعدين"، أي: "تركتهم مسفوعين [بلون أحمر جراء التعرض لأشعة الشمس] ومبتهجين وتحت الشجر جالسين". وهذا الوقت بالذات هو ما يقصده قول الكتاب المقدس المأثور: "السكن في ظل الكرمة وشجرة التين" (الملوك الأول 5:5؛ ميخا 4:4) و"دعوة تحت الكرمة وشجرة التين" (زكريا 3:10). إنها عيشة مسترخية في مجالس أنس بسيطة فيها أوقات هادئة، وهو ما يتم وصفه؛ ذلك أن كثيرًا ما تقوم دوالي العنب بالتمدد على أشجار التين في كروم العنب (لوقا 13:6)، حيث يستطيع المرء في الوقت ذاته الجلوس تحت كليهما[489]. ويختم المرء المكوث في بساتين الفاكهة حين ينتهي موسم العنب والتين، ولا يعود هناك حاجة إلى الحراسة. وعن ذلك يقول

---

(486) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 33.

(487) يُنظر:

Pal. Diwan, pp. 25ff.

(488) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 284.

(489) *PJB* (1921), pp. 82f.

المرء: "في تِشرين – بِغَبِّر العنب والتين"، أي: "في تشرين الأول ينقضي عهد العنب والتين"[490]، وفي لبنان[491] والجليل[492]: "هَبَّر التين وقَرقَع أوريقه – روّح الناطور يِرَقِّع اِخليقُه": "انتهى التين وأوراقه أحدثت حفيفًا – وذهب الناطور لإصلاح خرقه البالية"، وما عاد هناك الآن من تقاليد خاصة ببداية العيش في المعرشات في فلسطين وبنهايتها.

وترجح الاحتمالية إلى أن "عيد الجَمع" (بالعبرية حَج هآسيف، سعديا "حَجّ الجمع"، الخروج 16:23) كان عند قدماء الإسرائيليين يعني الاختتام الاحتفالي لهذه الفترة من خلال عيد شكر يُحتفل به في عرائش الكروم على غرار الـ"هِلّوليم" في القضاة (27:9) (يقارن 19:21 وما يلي)، حتى لو سبق أن جُمعت غلة بستان الثمار في البيت.

وعند اليونانيين يناظر ذلك عيد البينوبسيا (Pyanopsia) في تشرين الأول/ أكتوبر – تشرين الثاني/ نوفمبر المكرس بدوره لتخزين جميع غلال السنة[493]. وقد حل القانون الكهنوتي في محل التقليد القديم، من خلال الواجب المفروض على كل إسرائيلي العيش في كوخ سبعة أيام (سفر اللاويين 42:23 وما يلي)، متخذًا من التيه في الصحراء قدوة يحتذى بها، مع أن تلك الأكواخ لا بد أنها كانت من طبيعة مختلفة تمامًا. وفي الوقت ذاته أقدم القانون الكهنوتي على فصل العيد عن الأكواخ في جميع أنحاء البلاد، وقصره على الهيكل في القدس. وعلى ما يبدو، كان ذلك يرمي إلى نزع العيد من نطاق الدين الطبيعي لإله البلاد القديم، ومنحه الصفة التي تناظر طبيعة إله بني إسرائيل. ويحدد القانون التقليدي اللاحق الذي نزع

(490) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 298.

(491) وفي لبنان يقول المرء كذلك: "بتشرين بخلص العنب والتين". كذلك يتم التذكير بأن أشجار التين يجب تقليمها في هذه الأشهر: "شحالة التين بتشرين"، أي: "تقليم التين يحصل في تشرين وتشرين". وحتى قبل ذلك لا يعود مجديًا حراسة بساتين الثمار، ولذلك يُقال: "بعد عيد الصليب – كل أخضر بسيب [يترك]" (المشرق، 1905، ص 689). يُقارن ص 40، 93 وما يليها، 565.

(492) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 33.

(493) Mannhardt, *Wald- und Feldkulte*, vol. 2, pp. 215ff.

واجب العيش في الأكواخ كيف يجب أن يكون عليه كوخ العيد، أي كيف يجب أن يقام بشكل خاص[494]. وكوخ قاطف التين (بالعبرية "قياصين") مستثنى بشكل صريح[495]، وهو يكون غير صالح إن تسلقت فوقه كرمة أو يقطينة أو نبتة اللبلاب[496]. وفي القدس تُبنى أكواخ العيد هذه من البوص غالبًا، وتُبنى في صفد من الآس، وفي طبرية ويافا من سعف النخيل، أو يُستخدم ورق الغار غطاءً، وتعلَّق عليها ثمار من جميع الأنواع[497]. وبحسب تقليد قديم، كانت الثمار هذه يومًا ما بندقًا ورمانًا وزيتونًا وعنبًا وأكاليل سنابل[498]. ومع هذه الزينة، فإن الكوخ المجهز، من حيث المبدأ، وبحسب نحميا (8:14 وما يلي)، ليس إلا أحد التمارين الإلزامية لدين القانون، حيث الصيغة غير مهمة، والإرادة الإلهية الكامنة خلفها هي وحدها المهمة. إلا أن ذلك لا يلغي الصلة التاريخية بكوخ بستان الثمار في عيد جمع الثمار. ويقدم يوسيفوس[499]، بشكل يبعث على العجب، الدافع وراء أكواخ العيد، وهو الخوف من الصقيع في الشتاء. ويعتقد دوشك[500] أن ذلك يشير إلى فترة الصحراء. أما بالنسبة إلى فلسطين، فلا يعرف يوسيفوس وصية تتعلق بالأكواخ، إلا أنه يدلل على العكس من ذلك في نهاية الفصل وثلاث مرات أخرى في مكان آخر[501]. ويدعم أولتسكي[502] دافع يوسيفوس بالتعليمات التقليدية عن أن على كوخ العيد أن يوفر ظلًا، وأن تكون حوائطه مقاومة للريح، إلا أن الوقاية من البرد لا يتم التعرض لها في أي مكان. ويبقى الانطباع عند يوسيفوس قائمًا كما لو أن المرء كان يبني الأكواخ بحثًا عن

---

(494) Sukk. I, Tos. Sukk. I, Siphra 102^{d}ff., Orach Chajjim # 625ff.

(495) Tos. Sukk. I 4, b. Sukk. 8^{b}.

(496) Sukk. I 4.

(497) Reischer, *Sepher Schaare Jeruschalajim*, vol. 9; Luncz, *Jeruschalajim*, vol. 1, p. 39.

(498) Tos. Sukk. I 7.

(499) Antt. III 10, 4.

(500) Duschak, *Josephus Flavius und die Tradition*, pp. 25f.

(501) Antt. XI 5, 5, *Bell. Jud.* I 3, 2, VI 5, 3.

(502) Olitzki, *Flavius Josephus und die Halacha*, p. 50.

ملجأ، في حين أنها تعني في الحقيقة أن الملجأ الأفضل الذي يوفره البيت يتركه المرء ويكتفي بملجأ ناقص لأسبوع. وعلى ما يبدو، فإن يوسيفوس أراد، بطريقته السطحية المتكررة، أن يقدم بشكل عقلاني لقرائه الرومان ما يظهر في بداية الشتاء كأنه أمر غير عقلاني، وربما فكر بحجّاج العيد الذين يقومون، وفقًا لوقت السنة، بالبحث عن ملجأ في كوخ، بدلًا من النوم في العراء.

خلال فترة النوم في بساتين الثمار، يظهر آكل النحل الزاهي (Merops apiaster كضيف خريفي، بالعربية "شِرَقرَق"[503]، "وروور") متنعمًا بالنحل الذي يتمتع بمسرات العنب والتين[504]. وبحسب التلمود، ربما كان هو راحام التوراتي (التثنية 14:17) الذي يقال عنه[505]: "حين يأتي 'راحام' تأتي الرحمة ("رَحَميم") إلى العالم"، وحينئذ سوف يتعلق الأمر بالمطر الذي يبشر به. وبحسب الكلمة العربية "رَخَم" التي يستخدمها سعديا أيضًا، ربما كان هذا على الأرجح [طائر] الرخمة المصرية (Neophron percnopterus)، ضيف الصيف في فلسطين[506]. ويعني ظهوره في نهاية آذار/ مارس مجيء الصيف. وفي أي حال، يشير القول التلمودي إلى آكل النحل[507]: "حين يحط (الـ"شِرَقرَق") على الأرض والصياح ("شاريق")، يأتي المسيح"، وهو يرفرف عادة بجناحيه من مكان إلى آخر تاركًا صراخه يدوي[508]. وإذا ما تصرف ذات يوم على غير عادته، فإن شيئًا كبيرًا وشيك الحدوث.

---

(503) بحسب

Tristram, *Fauna and Flora of Palestine*, p. 88;

يدعى الشرقرق الخضيري (Coracias garrula) "شِرَقرق"، وهو غير صحيح بالنسبة إلى "شُقُرُّق". يُنظر:

Dalman, *ZDPV* (1913), p. 171.

(504) يترك اليونان في أيلول/ سبتمبر،

Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 190, 320.

(505) b. Chull. 63[a] (Jochanan).

(506) Tristram, *Fauna,* p. 96,

يترك اليونان في أيلول/ سبتمبر وبداية تشرين الأول/ أكتوبر:

Mommsen, *Griech.*, pp. 156, 323.

(507) b. Chull. 63[a].

(508) يقول العربي عن ندائه: "يِرَقرَق" أو "يِزَغرط".

فمن يجد ذلك مرغوبًا فيه، إذا كانت تربة أرضه تسمح بفلاحة جزء منها قبل سقوط المطر، يقوم ببذر الأرض في تشرين الأول/أكتوبر ببذار ما قبل المطر ("عفير"). وفي أي حال، يتم في هذا الوقت حرث كروم العنب والزيتون، كي يتمكن المطر من التغلغل في التربة بشكل صحيح. وبعد "المطر المبكر"، في تشرين الثاني/نوفمبر يبدأ حرث البذار الحقيقي ("حْراث") من أجل بذر الشتاء الأول ("أول ربطة") متزامنًا مع قطف الزيتون ("جداد") والتي حددها القزويني[509] بالنسبة إلى سوريا في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، آخذًا في الاعتبار غياب الثريا في 13 من الشهر ذاته الآتي بمطر غزير. إلا أن القطف يبدأ عادة في تشرين الأول/أكتوبر حتى لا ينزلق المرء إلى موسم المطر. ولذلك يُقال (يقارن ص 49 وما يليها): "عيد لِدّ - اِحرث وجِدّ"[510]، أي: "عندما يأتي عيد اللد (3/16 تشرين الثاني/نوفمبر) عليك بالحرث وقطف الزيتون" (رام الله). وحتى لا يتأخر المرء، يُحذِّر قول آخر: "اِلّي ما بِحرُث في الاجرد - وإلا عند الصليبة بِحرَد"، أي: "من لا يحرث في تشرين الثاني سيندم عند جمع الحبوب على البيدر"[511] (رام الله). أو[512]: "في عيد لِدّ - اِلّ ما شّدِّش شِدّ"، أي: "في عيد اللد - من لم يقم من قبل بشد (دواب الحرث)، عليه القيام بذلك الآن. و[513]: "في عيد لِدّ - شِدّ يا فِلاح شِدّ - ما بقي للشِتا ضِد"، أي: "في عيد اللد - شد يا فلاح عدة الحرث، شد - إذ صار لا يقف في وجه الشتاء عائق"؛ فمحاسن الحرث المبكر يُشَدَّد عليها في أقوال مصدرها بحيرة طبرية[514]:

---

(509) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75.

(510) قراءة أخرى لدى توفيق كنعان: "قِدّ" "شُق" (التربة). كما يورد في:
ZDMG, vol. 70, p. 167,
قولًا مشابهًا: "في عيد لِدّ يا بتِقِدّ يا بتحد"، أي: "في عيد اللد إما تحرث أو ستصاب بالحزن".

(511) يُدعى كوم الحبوب في البيدر "صليبة"، لأن المرء يُعلِّمه بصليب. في حين يفهم كنعان:
Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 278.
بشكل خاطئ "الصليبة" كاشتقاق من عيد الصليب، ويعتقد أن المقصود بـ "اِجرد" كانون الأول/ديسمبر، وذلك غير صحيح بالنظر إلى الاحتساب الزمني الفلاحي (يُنظر ص 21).

(512) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 30.

(513) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 275.

(514) Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 20; *Biblica* (1927), p. 79,
مع ترجمة مختلفة.

"نِيال مِن فاتك العفير وبِذار، كُلّشِن هو بدري مِن المال فالح"، أي: "سعيد من بدأ قبلك ببذر ما قبل المطر والبذر الرئيس! كل شيء مبكر متعلق بامتلاك الأرض ناجح"، و"اِحنا من البدري ما غَلّ زَرعنا، حتى مِن اللقشي نملّي كوايرنَا"، أي: "لم ينمُ زرعنا من البذر المبكر حتى نملأ مخازن حبوبنا من البذر المتأخر". كذلك يحتوي كتاب الأمثال (4:20) تحذيرات تتعلق بالبذر المتأخر بكلمات تناظر الأقوال العربية المذكورة أعلاه: "لا يحرث كسلان في الشتاء. وحين يسأل عن الغلة، ليس هناك من شيء". وفي الآرامية الحديثة "نزاع القمح والذهب" الذي يعود مصدره إلى بلاد الرافدين. يقول القمح[515]: "في الخريف وخريف يتم بذري" والذي يعني، وفقًا لنظائر المقاطع الشعرية التالية، بالتأكيد شهرين، وهما تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر، لأنه بعد ذلك يظهر الكانونان كفترة بذر البذور وريها بالمطر. وبحسب هيسيود، يكون وقت الحرث عندما تغيب الثريا[516]. أما تأجيل ذلك حتى وقت الانقلاب الشتوي (18 كانون الأول/ ديسمبر)[517]، فربما كان غير ملائم للمحصول، بما يتوافق مع القول العربي الوارد أعلاه. وفي Geoponica II, 14، يُنصحُ ببذر الشعير انطلاقًا من الاعتدال الخريفي (24 أيلول/ سبتمبر) وبذر القمح انطلاقًا من غياب الثريا (2 تشرين الثاني/ نوفمبر). وعلى المرء الكف عن بذر كليهما مع حلول الانقلاب الشتوي (24 كانون الأول/ ديسمبر)[518]. وعلى توافق مع ذلك يُنصح في 3-12-13 بعدم البذر قبل 26 أيلول/ سبتمبر، في حين يكون البذر في تشرين الأول/ أكتوبر مفيدًا جدًا إذا هطلت الأمطار بعد 14 تشرين الأول/ أكتوبر، وغير مؤذٍ إذا لم يحصل ذلك. وفي أي حال، يتوقع هطول أول المطر حتى تشرين الثاني/ نوفمبر. وفي اليونان اليوم، يصف الفلاحون تشرين الثاني/ نوفمبر بأنه موسم البذر الحقيقي، ولكنه ينتهي مع غياب الثريا

---

(515) Lidzbarski, *Die neuaram. Handschriften der Kgl. Bibel. zu Berlin*, Text, p. 448; *Übersetzung*, p. 349.

(516) Hesiod, *Opera et Dies*, pp. 384, 615.

(517) Ibid., pp. 49f.

(518) وبشكل شبيه جدًا بذلك ابن العوّام XIX 2. يُقارن القاعدة العربية: "شعير لِدّ وقمح ميلادِ"، "الشعير في عيد اللد، والقمح في عيد الميلاد".

(18 تشرين الثاني/ نوفمبر)[519]. إلا أن القول التالي يُشير إلى تشرين الأول/ أكتوبر: "تشرين الأول، وما بذرت بعد؟ ولم تعمل ثمانية حُزَم (بحسب اسم الشهر)!"، بحيث يتم هنا أيضًا، كما في القول العربي المتعلق بـ"اِجرَد"، إعادة الغلة إلى الذاكرة. ذلك كله يشترط حلولًا طبيعية للمطر المبكر في وقت ظهور الثريا، إلا أن كل تأخير في المطر سيتم رصده، خاصة أن المرء يمكنه أن يتوقع أن المطر بات وشيكًا، وبالتالي لم يكن عبثًا ائتمان التربة على البذار. ولكن من الطبيعي أن فترة طويلة لا ريب فيها من الريح الشرقية تجعل من التأخير أكثر حكمة.

في المحيط اليهودي، تُعتبر تقوفات تشري، أي الأشهر الثلاثة من تشري حتى كيسلو، فترة البذر[520]، والتي تقتصر في حسابات ستة فصول[521] على الشهرين من منتصف تشري حتى منتصف كيسلو[522]؛ ذلك أن الموسم الرئيس للبذر ينتهي في كانون الأول/ ديسمبر، فهو ما يفترضه يوحنا (35:4)، حيث يُعتبر فصل قوامه أربعة أشهر بين البذر والحصاد عاديًا، في حين أن احتساب ستة أشهر بين البذر والحصاد[523] يأخذ في الحسبان بداية موسم البذر. وعلاوة على ذلك، يُنصح، استنادًا إلى سفر الجامعة (6:11)، بعدم إغفال، جنبًا إلى جنب مع البذر المبكر، البذر المتأخر[524]؛ فالأول له صلة بـ"ربيعة" الأول [الارتباع الأول، أول فصل الربيع] (ص 125)، والأخير بِـ"ربيعا" الثاني أو الثالث[525]، أو بشهر تشري، أو مرحشوان وكيسلو اللذين يُذكران لذلك[526]. كما تُذكر أهمية غياب كيما ذات النجوم السبعة، أي الثريا، بالنسبة إلى موسم الزرع[527]؛

(519) Mommsen, *Griech.*, pp. 87f., 92f., 86.

(520) ترجوم إرميا 1 التكوين 8:22.

(521) يُنظر أعلاه، ص 48.

(522) Tos. Taan. I 7.

(523) j. Schek. 50a, Taan. 64a.

(524) Ber. R. 61 (128b), Koh. R. 11 (127b).

(525) Ab. d. R. Nathan 3.

(526) Tg. Koh. 11, 2.

(527) Midr. Tadsche 6.

ففي سفر التكوين (22:8) يجري التشديد على التغير المنتظم للبذر والحصاد، ويُفترض، بحسب التكوين (14:1)، أن كليهما يحدث خلال الوقت الذي تشير إليه النجوم. إلا أن الواقع لا يمتثل دائمًا لهذه القوانين، وهو يمنح الفلاح فرصة كافية ليكون "صبورًا إلى حين استقباله المطر المبكر والمتأخر" (يعقوب 7:5). وفي سنة 1908 حصل الحرث في حزما الأكثر حرارة منذ 5 كانون الأول/ ديسمبر، في حين لم يُرصد حرثٌ بالقرب من القدس حتى 18 كانون الأول/ ديسمبر.

وفي موسم البذر، يظهر، وهو في طريقه إلى أفريقيا على نحو جماعي، طائر الزرزور (Sturnus vulgaris، "زرزور")، أي ضيف الشتاء في فلسطين. وهو يعوِّل على بذار القمح المنثور حديثًا الذي لم تُغطَ حبوبه بعد أو لم تغطَ بالكامل جراء تأخر الحرث. لذلك يُعتبر آفة يتطرق إليها الحصّاد بالقرب من حلب في غنائه[528]:

"الزرزور ياكل غِدّة
بين اِضلاعُ مِرتَدِة"

"ليأكل الزرزور حشوة (بندقية)،
ترتد بين أضلعه"

وإذا كانت الزرازير كثيرة العدد، فإن ذلك يُعتبر علامة على سنة مثمرة ("خَصاب") ويسعى الفلاح إلى جر أكبر كمية من التربة تحت محراثه، إذ يُقال: "سِنِة الزرزور - اِحرث البور"، أي: "في سنة الزرزور - أحرث الأرض البور!". ولا يُمكن تجاهل المرور الكثيف لطائر اللقلق (Ciconia alba، بالعربية "أبو سعد"، "حجّ لقلق"، "حوّام الخميس") الذي يجعل نفسه مفيدًا كمفترس للثعابين التي تتسلق الأشجار أحيانًا كأنها تحتل المكان. ويصفه الاسم العربي بِـ"طائر الربيع"، وهو على صلة برحلة الإياب إلى الشمال، ولا يبدو أنه يُعتبر علامة اقتصادية.

(528) Dalman, *Pal. Diwan*, p. 11.

اعتبر اليونانيون القدماء الغُرْنوق (Grus communis) علامة للبذر والحرث والمطر[529]، في حين أن مروره في تشرين الأول/ أكتوبر في اليونان اليوم يحظى بالقليل من الانتباه[530]. والأمر نفسه ينطبق على فلسطين اليوم، حيث يُسمى الغُرْنوق "كركِي" و"غَرنوق"، في حين أن إشعيا (14:38) وإرميا (7:8) يعتبران زمن هجرة "عاجور" (سعديا: "كركي")، إضافة إلى أن الزمن الخاص بالسنونو والقُمرية واللقلق يُعتبر مهمًا. ويشير ترِسترام إلى أن الغُرْنوق ينام بشكل جماعي في الشتاء في جنوب يهودا[531].

أما طائر السلوى (Coturnix communis، وهو بالعربية "سُمَّن"، "ديك السمن"، "فِرّي"، كذلك "سلوى")، فإنه يجد طريقه هو الآخر نحو الجنوب، ويعول في الوقت نفسه على فتات أخرى لغذائه؛ فهو يهبط في جماعات على أشجار الزيتون، ويقال إن الفضل في وجود الدهن الذي يميزه يعود إلى هذه الثمار. وبحسب التلمود[532]، يفترض بهذا الدهن الرقيق السائل أن يخترق اثنتي عشرة فطيرة؛ ذلك أنه غير صحي، وهذا ما عرفه المُقَدَّسِي[533]، تمامًا كما في الحكاية الواردة في سفر العدد (33.31:11) (حيث يكتب سعديا "سلوي" بدلًا من "سَلويم"). أما موسمها الرئيس، فهو الخريف؛ فبين 25 آب/ أغسطس و10 تشرين الأول/ أكتوبر، يتم سنويًا اصطياد مليون إلى مليونَي ديك سمّن بالقرب من العريش على ساحل البحر المتوسط بين مصر وفلسطين بواسطة شباك موضوعة بشكل عمودي[534]. وتأتي هذه الجماعات من البحر، كما يرد في سفر العدد (31:11).

في شأن تربية المواشي، تشكل بداية الخريف المصحوبة بالندى الليلي الشديد، الوقت الذي يتوقف فيه الراعي والقطيع عن المبيت في الخلاء. وواقع

(529) Hesiod, *Opera et Dies*, pp. 448ff.

(530) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 267, 323.

(531) Tristram, *Fauna and Flora*, p. 126.

(532) b. Jom. 75b.

(533) *PJB* (1924), p. 51.

(534) Grobba, *Zwischen Kaukasus und Sinai* (1921), pp. 82f.

الأمر أن الأقوال التي وردت في ص 40 و94 في ما يتعلق بعيد الصليب، مكانها الحقيقي هنا: "عَيِّد واطلع - صَلِّب واعبر"[535]: "احتفل بعيد الفصح واخرج، واحتفل بعيد الصليب وادخل!" (كفر أبيل). و: "بعد الصليب لا تّامِن الصبيب"، أي: "بعد عيد الصليب لا تثق بالندى الشديد!" (رام الله).

وفي اليونان، يُشكل يوم القديس جورج في 23 نيسان/ أبريل ويوم القديس ديمتريوس في 26 تشرين الأول/ أكتوبر، أي من الظهور المبكر للثريا حتى الغروب المبكر لها، فترة مكوث القطعان في الجبال[536]. وعن الثريا، التي حدّد القزويني غروبها في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، يستقل 24 تشرين الأول/ أكتوبر، من حيث إنه اليوم الذي يعود فيه الناس إلى بيوتهم بحسب تقويمه "الإغريقي"[537]، بعد أن يكون الهواء في 22 تشرين الأول/ أكتوبر قد بدأ يُصبح باردًا، وربما له صلة بظهور "الغَفَر" الجالب للبرد في 18 تشرين الأول/ أكتوبر[538]. وقد يكون قد أُخذ في الحسبان هنا انتهاء كل ما له علاقة بالإقامة في الكروم.

إدخال القطعان لا يُقصد به دائمًا إقامة شتوية في حظيرة بيت الفلاح، بل عادة ما تعني تغيرًا في المناخ. وتنتقل القطعان من يهودا إلى "أرض محمية" ("أرض المِحامي")، أي إما نحو الغرب إلى الأودية العميقة، حيث الشجيرات المتنامية التي لا تزال تقدم طعامًا للماشية، وإما نحو الشرق إلى غور الأردن، حيث توجد الأعشاب الجافة. وبعد المطر الأول، يُرى عشب حديث النمو. ويجب رؤية هذه الأحوال في سياق إقامة الرعاة في الحقل ليلة ميلاد المسيح (لوقا 2:8)[539]. وقد يكون كافيًا أحيانًا الذهاب إلى منطقة فيها كهف ("مِغارة")

(535) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 299.

الذي يستخدم "أدخل" "إذهب إلى داخل البيت" بدلًا من "اعبر"، وللقول هنا صلة بالعيش في كروم العنب التي لا تُجيز ذكر عيد الفصح؛ فجني المحصول ودرسه يستهلكان جل وقت الفلاح.

(536) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 47f.

(537) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75.

(538) يُنظر أعلاه، ص 92.

(539) يُقارن:

Dalman, *Orte und Wege Jesu*³, pp. 51ff.

أو كهف مفتوح في المقدمة ("شقيف") كي يوفر المبيت ليلًا. وفي حال سقطت أمطار، يستطيع الرعاة، إذا دعت الظروف، قضاء النهار في هذا المبيت الليلي (يقارن ص 191).

أما الدجاج الذي يربّى دائمًا في فناء بيت الفلاح، فلا يفتقر إلى قن الدجاج البدائي الذي يحميه من المطر. إلا أن الصيصان تستشعر نقصان الدفء وتجد طعامًا أقل. وعنها يُقال[540]: "صوص تشرين - بياكل وبينين"، أي: "صوص تشرين الأول - تشرين الثاني يأكل وينوح".

وفي الخريف أيضًا، يُصادف موسم تعشير الأبقار وإناث الخيل والحمير وفقًا للقول[541]: "عيد لِدّ - كُلّ شَدّادِن اِشِدّ، وكل رَمّاكِن اِهِدّ"، أي: "في عيد اللد - على كل فلاح أن يشد دوابه (للحرث)، وعلى كل مالك فرس أن يعشّرها!". كما يتحدث القزويني[542] عن وقت التعشير في 13 تشرين الثاني/ نوفمبر، وهو ما له صلة بِظهور "التاج".

وتشكِّل الفترة نفسها وقتًا لولادة الماشية الصغيرة. وتُسمى الحملان المولودة في موسم الزيتون، أي في تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر، "زيتونيات"، أي "حملان الزيتون". ويسود الشك في إمكان وجود طعام أخضر خصوصًا أن أمهاتها اقتاتت على نحو هزيل، ولذلك يبقى نموها موضع شك. ويُطلَق على تلك المولودة في "اِجرَد" (تشرين الثاني/ نوفمبر) "جِرداويات".

هناك صلة بين فترة وضع الحملان والسنة الجديدة لدفع أعشار الماشية في القانون التوراتي، والتي من المفترض أن تصادف في 1 اِيلول أو 1 تشرِي[543]. ولأن دفع العُشر يعقب فترةَ وضع الحملان مباشرة، فإن نهاية

(540) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 34.

(541) Ibid., p. 30.

(542) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 48.

(543) R. h. S. I 1, Tos. R. h. S. I 6.

السنة وُضعت قبل "حملان الزيتون" تقريبًا. أما عدم اليقين في ما يتعلق بالموعد، فله علاقة بمسألة أي تاريخ يجب احتساب الوضع الخريفي، وإلا فإن هناك شيئًا من الصحة في الرأي القديم المتمثل في أن الشياه الكبيرة تتوقف عن الوضع في آب/ أغسطس، والصغيرة تبدأ في أيلول/ سبتمبر[(544)]. ولهذا وقعت حدود السنة على 1 أيلول/ سبتمبر. إلا أن التصور القديم السائد بُنِي على أن الفيصل في ذلك هو وقت إخصاب الشياه الأم. ولذلك شكل آذار/ مارس أو نيسان/ أبريل الحدود الفاصلة؛ فالحملان التي يتم الحمل بها في آذار/ مارس ووضعها في آب/ أغسطس كانت تسمى "حملان مبكرة" (بالعبرية "بِكّيروت"، بالآرامية "حَرفاتا"). وتلك التي يتم الحمل بها في نيسان/ أبريل ووضعها في أيلول/ سبتمبر تُسمى "حملان متأخرة" (بالعبرية "أفيلوت"، بالآرامية "أفلاتا")[(545)]. وفي ما يتعلق بالقرار في شأن توقيت فترة الحمل، جرت الإشارة إلى المزامير (14:65)، حيث الترجمة على النحو التالي: "يستلقي الكبش على النعجة"[(546)]، وفي التتمة: "الأودية تحيط نفسها بالحبوب، تصيح وتغني معًا مسرورة". وقد وجد أحدهم مؤشرًا إلى ما يلي: إما زرع آذار/ مارس الصغير أو زرع نيسان/ أبريل النامي الذي تغنّي سويقاته مع الريح، وكان حاضرًا خلال فترة تزاوج الخراف. كما يصب في مصلحة نيسان/ أبريل كونه معروفًا عادة كوقت إخصاب الحيوانات[(547)]، وهذا ما يثبت أن 1 تِشري كان هو عُشر الماشية، وأن السنة المدنية الجديدة وسنة عشر الماشية تتصادف معًا. أما التواريخ الثلاثة المناظرة لدفع المبالغ المستحقة، فسوف تكون حينئذ 15 يومًا قبل عيد الفصح والعنصرة والعُرُش، أي في 29 آذار/ مارس و20 أيار/ مايو

---

(544) j. Schek 47[b], R. h. S. 56[d].

(545) Ibid.; b. R. h. p. 8[a], Jalkut Machiri,

عن المزامير 14:65.

(546) يُنظر أيضًا:

Ber. R. 13 (27[b]f.),

ترجوم المزامير 14:65،

b. R. h. p. 11[a].

(547) b. R. h. S. 8[a].

و29 أيلول/ سبتمبر، أو في 1 نيسان/ أبريل، و1 سوان و29 أيلول/ سبتمبر، في حين أن الإمكانية الثالثة 29 آذار/ مارس، و1 سِوان و29 أب تحتاج إلى 1 إيلول كسنة جديدة مناظرة(548). وهذا ما يؤدي إلى أخذ أعياد الحج الثلاثة في الحسبان، ولكن قبل أي شيء يجب اعتبار الولادة في فصل المطر كينونة واحدة، في حين أن حملان الصيف يتم تقسيمها إلى مجموعتين. وهذا كله يرينا كيف يعالج القانون التوراتي قانون عُشر الماشية بشكل نظري، والتي يأتي على ذكرها سفر اللاويين (32:27 وما يلي) (يُقارن أخبار الأيام الثاني 6:31) كحاشية لم يُعمل بها على الأرجح.

2. الشتاء

أ. مطر الشتاء

يشمل الشتاء ("شِتَ"، "اِشِّتَ") كفصل من فصول السنة وفق تقسيمنا، "كانون الأول" و"كانون الثاني" و"شباط"، أي الفترة الزمنية من 14 كانون الأول/ ديسمبر حتى 13 آذار/ مارس، بحسب النمط الجديد [التقويم الغريغوري]. ويقع اليوم الأكثر حلكة، والذي يبلغ أوجه، أي 14 ساعة ليلًا و10 ساعات نهارًا، في هذه الفترة(549). وفي فلسطين، يتم معرفة هذا اليوم حين تكون الغيوم الكثيفة قد بدأت تقلل من أشعة الشمس بشكل مختلف جدًا عما هي الحال في الصيف، كما أن زيادة الضوء نتيجة لانعكاسه عن الثلج، كما هي الحال في الدول الشمالية، تغيب بشكل مطلق. وعلى المرء أن يأخذ في الحسبان أن اليوم الأقصر وفقًا للتقويم الإغريقي يصادف 8 كانون الأول/ ديسمبر، أي بداية الشتاء. والخريف هو الوقت الذي يبدأ فيه طول الأيام بالنقصان. ويُقال عن 4 كانون الأول/ ديسمبر(550): "من عيد البربارة - بياخذ النهار من الليل غبارة"، و: "من عيد بَربَارة - بِنط النهار نَطِّة فارة". ويذكر

(548) Schek. III 1, Bech. IX 5, Tos. Bech. VII 9.

(549) يُنظر أعلاه، ص 44.

(550) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 287.

القزويني[551] الشيء ذاته عن 17 كانون الأول/ ديسمبر، "يوم الميلاد الأكبر"؛ ففي هذا التاريخ تبدأ أطوال الأيام بالزيادة، على الرغم من أنه يضع 19 كانون الأول/ ديسمبر كأقصر يوم وأطول ليلة.

أما الصفة الأكثر أهمية والمميزة للشتاء، فهي أمطاره التي يكتسب منها اسم "شِتا" "مطر". وتستند إحصاءات الأرصاد الجوية الخاصة بأمطار الشتاء إلى الأشهر ذات النمط الجديد [بحسب التقويم الغريغوري]، لذلك فهي بحاجة إما إلى شمل النصف الأول من كانون الأول/ ديسمبر واستثناء النصف الأول من آذار/ مارس، وإما إلى احتساب الفترة من كانون الأول/ ديسمبر حتى آذار/ مارس كاملة، مانحة بذلك فصل الشتاء الماطر أربعة أشهر. ويتوافق هذا الأمر مع الواقع إلى أبعد حد، لأن مطر آذار/ مارس يجب احتسابه بالضرورة كجزء من مطر الشتاء ("مطر شتوي"، "مطر الشِتا"). والجدير بالملاحظة هو أن أشهر المطر الأربعة هذه هي في الواقع غالبًا ما تكون قصيرة، لأن ثمة فواصل زمنية بلا مطر في البداية والنهاية. ففي سنة 1920/ 1921 استمر مطر الشتاء الفعلي من 10 كانون الأول/ ديسمبر حتى 22 آذار/ مارس، وفي سنة 1924/ 1925 من 10 كانون الأول/ ديسمبر، بالتحديد 20 كانون الأول/ ديسمبر، حتى 20 آذار/ مارس، بحيث إن الفترة الفعلية، في هذه الحالة، شملت ثلاثة أشهر، ولم ينحرف عن تقسيمنا لفصول السنة إلا بـ 6-7 أيام فقط. وإذا ما اعتبر أحدهم منتصف آذار/ مارس نهاية موسم المطر الحقيقي، كما عشت ذلك فعلًا في 15 آذار/ مارس 1900[552]، حينئذ يتلاقى المرء مع التصور الشعبي الذي يترك "الأيام المستعارة" السبعة ("المستقرضات") من المطر الجوهري الأخير لتنتهي في 3 "إِذار"، أي في 16 آذار/ مارس بحسب النمط

(551) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75.

(552) وفي ذلك تتفق رسائل غلايشر في:
Glaisher, *Meteor. Observations*, table 1 to p. 24 for Jerusalem,
في الأرصاد الجوية، الجدول 1، ص 24 بالنسبة إلى القدس، ورسائل فرتان في:
Vartan, *ZDPV* (1910), p. 163,
بالنسبة إلى الناصرة (كانون الأول/ ديسمبر 325 مم، كانون الثاني/ يناير 99 مم، شباط/ فبراير 263 مم، آذار/ مارس 49 مم، نيسان/ أبريل وأيار/ مايو 2 مم فقط).

الجديد[553]؛ ذلك أن الواقع أحيانًا يتجاوز هذا التاريخ، وهو أمر طبيعي. لكن يجب استدراك أن ذلك ينطبق على مناطق فلسطين الجبلية وحدها؛ ففي الساحل، قد يبدو صحيحًا أكثر القيام بالفصل بين مطر آذار/ مارس ومطر الشتاء وجمعه مع مطر نيسان/ أبريل في مقدار واحد[554]. ومن هذه الناحية، يبدو غور الأردن أكثر شبهًا بالمنطقة الجبلية[555].

لدى هيلدرشايد[556] بالنسبة إلى القدس العرض البياني رقم 1 عن معدل الأرقام التالية للسنوات 1860/ 1861-1898/ 1899:

كانون الأول/ ديسمبر	141.7 مم	21.3 في المئة من الكمية السنوية	9.8 أيام
كانون الثاني/ يناير	164.4 مم	25.0 في المئة من الكمية السنوية	11.9 يومًا
شباط/ فبراير	129.5 مم	19.6 في المئة من الكمية السنوية	10.5 أيام
آذار/ مارس	107.3 مم	16.1 في المئة من الكمية السنوية	8.9 أيام
المجموع	542.9 مم	82.0 في المئة من الكمية السنوية	41.1 يومًا

وللأعوام 1896-1905 الأرقام المناظرة للقدس 2 وفق إكسنر[557]:

كانون الأول/ ديسمبر	144.0 مم	22.2 في المئة من الكمية السنوية	9.2 أيام
كانون الثاني/ يناير	159.0 مم	25.2 في المئة من الكمية السنوية	13.0 يومًا
شباط/ فبراير	118.0 مم	18.7 في المئة من الكمية السنوية	9.8 أيام
آذار	89.0 مم	17.5 في المئة من الكمية السنوية	9.6 أيام
المجموع	510.0 مم	83.6 في المئة من الكمية السنوية	41.6 أيام

(553) يُنظر أدناه، ص 182 وما يليها.

(554) يُنظر العرض الإجمالي لدى،

Hilderscheid, *ZDPV* (1902), p. 37,

والعرض البياني رقم 2.

(555) إلى أي حد يشعر المرء بالليالي الطويلة في الشتاء البارد، فهذا ما يدل عليه المثل: "ليالي كانون شيّبت النسر"، أي: "ليالي كانون أصابت النسر بالشيب" (في المصدر السابق، ص 865).

(556) *ZDPV* (1902), pp. 37, 39, 47.

(557) *ZDPV* (1910), pp. 129, 131.

هنا يجب أن يؤخذ في الحسبان أن نقطة الرصد في القدس 2 تتمتع دائمًا بأرقام أدنى من القدس 1. ومن الواضح أن أربعة أخماس كمية المطر السنوية تسقط في الأشهر الأربعة المذكورة، وأن ثلث أيام هذه الأشهر (121 يومًا) أيام ماطرة. إلا أن تقلبات كبيرة تحدث؛ فخلال السنوات الـ 39 التي عرض لها هيلدرشايد[558]، تظهر الأرقام الدنيا والعليا التالية للكمية الشهرية الحقيقية للمطر:

كانون الأول/ ديسمبر	12 مم	417 مم
كانون الثاني/ يناير	3 مم	367 مم
شباط/ فبراير	18 مم	320 مم
آذار/ مارس	11 مم	314 مم

وهكذا تتقلب أيضًا الكميات السنوية بين 318 مم (1869/ 1870) و1091 مم (1877/ 1878)، في حين يبلغ معدل الكمية 661.8 مم. أما الكمية الأكبر للمطر خلال شهر على مدى 36 سنة، فقد سقطت 7 مرات في كانون الأول/ ديسمبر، و14 مرة في كانون الثاني/ يناير، و8 مرات في شباط/ فبراير، و7 مرات في آذار/ مارس، وذلك وفقًا لغلايشر[559].

أما السنة 1920/ 1921، والتي كانت فوق المعدل إلى حد ما، بمجمل مطر بلغ 700.3 مم، فتظهر الأرقام التالية[560]:

كانون الأول/ ديسمبر	41.6 مم	9 أيام
كانون الثاني/ يناير	198.0 مم	16 يومًا
شباط/ فبراير	241.4 مم	20 يومًا
آذار/ مارس	105.8 مم	12 يومًا
المجموع	586.8 مم	57 يومًا

(558) Ibid., pp. 22f.

(559) *Meteorological Observations at Jerusalem*, p. 20,

مع جمع خاطئ لأرقام القائمة.

(560) استنادًا إلى رسالة خطية وردت من السيد دينسمور في القدس.

كانت هناك فواصل زمنية طويلة من 28 تشرين الثاني/ نوفمبر حتى 9 كانون الأول/ ديسمبر، ومن 15 كانون الثاني/ يناير إلى 23 كانون الثاني/ يناير، ومن 7 آذار/ مارس إلى 12 آذار/ مارس. وقد تمت معادلة كمية المطر الصغيرة وغير المألوفة في كانون الأول/ ديسمبر بكمية كبيرة من المطر في تشرين الثاني/ نوفمبر (104.2 مم) ومطر غزير في باقي الشتاء. وعلى النقيض من هذه السنة العادية، تبقى سنة الجفاف 1924/ 1925 عند 310.8 مم فقط كمجموع كلي، حتى من دون الرقم الذي يورده هيلدرشايد كحد أدنى (يُنظر أعلاه).

كانون الأول/ ديسمبر	68.4 مم	8 أيام
كانون الثاني/ يناير	54.1 مم	10 أيام
شباط/ فبراير	47.6 مم	6 أيام
آذار/ مارس	13.3 مم	4 أيام
المجموع	183.4مم	28 يومًا

حصلت فواصل زمنية ممتدة من 26 تشرين الثاني/ نوفمبر حتى 19 كانون الأول/ ديسمبر، وذلك لأن 0.6 مم في 10 كانون الأول/ ديسمبر بالكاد تؤخذ في الحسبان، ومن 26 كانون الثاني/ يناير حتى 1 شباط/ فبراير، ومن 8 شباط/ فبراير إلى 12 شباط/ فبراير ومن 14 شباط/ فبراير إلى 24 شباط/ فبراير، ومن 26 شباط/ فبراير إلى 1 آذار/ مارس، ومن 3 آذار/ مارس إلى 9 آذار/ مارس ومن 12 آذار/ مارس إلى 19 آذار/ مارس. وقد توقف تساقط أمطار الشتاء بشكل فعلي في 25 شباط/ فبراير، لأن 13.3 مم في آذار/ مارس بالكاد يمكن اعتبارها مطرًا شتويًا.

وإذا اطلع المرء على مجمل المطر السنوي في كلتا السنتين اللتين نحن بصدد الحديث عنهما، ربما أمكن حينئذ القول: كان هناك في سنة 1920/ 1921 مطر مبكر مقبول (104.2 مم) في تشرين الثاني/ نوفمبر، ومطر شتوي (545.2 مم) بدأ بشكل هادئ ثم تزايد. ثم كان هناك فاصل زمني مدته 49 يومًا بلا مطر في 23 آذار/ مارس، ولم ينقطع إلا في 29 نيسان/ أبريل. أما المطر المتأخر، فهو، في واقع الأمر، مطر نيسان/ أبريل (4.4 مم)،

لأن الأمطار المتفرقة في 11، 12، 19، 20 أيار/ مايو وكذلك في 5 حزيران/ يونيو (4.9 مم) ربما تمتعت بأهمية عملية ضئيلة. في المقابل، بدأ المطر في سنة 1924/ 1925 مبكرًا، إلا أنه لم يتحول في تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر (43.8 مم) إلى مطر مبكر فعّال. لقد مكّن مطر الشتاء من فلاحة الحقول، إلا أنه تراجع تدريجًا بحيث لم يبق منه في آذار/ مارس غير أمطار متفرقة. وقد تبع ذلك في نيسان/ أبريل مطر متأخر مرحب به بشدة، ولكن تساقط بكمية 80.2 مم بين 3 و5 نيسان/ أبريل. ومع أن المطر المتأخر كان ضعيفًا، فإنه أنقذ كثيرين في هذه السنة، في حين أن غياب المطر المتأخر في سنة 1920/ 1921، بعد مطر الشتاء الغزير، كان في الإمكان احتماله. إلا أن تبعات المطر القليل في سنة 1924/ 1925، والذي عايشته من 4 آذار/ مارس فصاعدًا في القدس، كانت محزنة جدًا؛ فنمو النباتات البرية كان ضئيلًا والزرع وقف هزيلًا ولم ينمُ، بحيث ربما كان مجديًا حصده بمنجل قاطع. وفي الصيف جفت ينابيع عديدة أو منحت القليل القليل من الماء، والأحواض كانت قد فرغت في وقت مبكر، وعجزت أنابيب مياه العين الجديدة في القدس عن توفير كمية الماء المطلوبة. وقد اضطرت القطارات الآتية من الساحل إلى زيادة حمولتها من الماء يوميًا. ومع ذلك، أمكن توزيع الماء لقاء المال بكميات محدودة على الطوابير الطويلة التي اصطفت على الرافعات. إلا أن الحاجة إلى الماء كانت قد ازدادت لأن الحكومة أهملت جعل بناء الأحواض في البيوت الجديدة للمهاجرين اليهود إلزامية. وفي شرق الأردن ارتحلت قرى بأكملها مع ماشيتها إلى غور الأردن خشية أن تهلك.

تشكِّل مياه الساحل الجوفية التي يمكن الوصول إليها من خلال آبار عميقة[561]، وكذلك غور الأردن بنهره، احتياطًا مائيًا مهمًا للبلد الذي لا يضمحل فيه الماء في سنوات المطر الشحيحة، وحتى لو ضعف بعض الشيء. ومن

---

(561) يتحدث

Range, *Die Küstenebene Palästinas* (1922), pp. 13, 17,

عن عمق المياه الجوفية تحت سطح الأرض البالغ 10–88 مترًا. وعمق بئر المستعمرة الألمانية فيلهلمه (Wilhelma) 70 مترًا.

الملائم التذكير بأن حكومة فلسطين تنوي استخدام ينبوع الساحل الأقوى راس العين الذي ينبع منه نهر العوجا لتزويد القدس بالماء. وتحظى المنحدرات الشرقية للمنطقة الجبلية وغور الأردن بأمطار شحيحة حتى في السنوات العادية[562]. وإذا افترض المرء أن معدل كمية أمطار في القدس هو 661.8 مم، ففي طبرية تسقط 432.9 مم، أو، وفق حسابات أخرى، 511.0 مم. وفي شباط/ فبراير 1900 سقط على أريحا 73 مم فقط، في حين كان نصيب طبرية 164.8 مم، والقدس المجاورة 272.3 مم. ويمكن أن يستنتج المرء أن غور الأردن الجنوبي يحصل على رُبع الأمطار التي تهطل على المنطقة الجبلية، في حين يحصل الجزء الشمالي على نحو أربعة أسباع. أما المنطقة الصحراوية الممتدة بين القدس والبحر الميت، فنصيبها من المطر يقع بين كمية القدس وكمية أريحا[563].

من الجائز اعتبار مطر كانون الثاني/ يناير الجوهر الحقيقي لمطر الشتاء. وعن هذا الجوهر لا يمكن فصل أمطار كانون الأول/ ديسمبر وشباط/ فبراير وآذار/ مارس، في حين أن أمطار تشرين الثاني/ نوفمبر ونيسان/ أبريل يمكن اعتبارها مقادير ابتدائية ونهائية. ولأن المطر "المبكر" و"المتأخر" يناظر أمطار تشرين ونيسان، فإن، الكتاب المقدس يشدد على هذين المقدارين، إذ يشكلان معًا خُمس مجمل كمية أمطار الشتاء، بما لهما من صلة بأهميتها الاقتصادية الخاصة لفلاحة الأرض ونمو الزرع، والذي سيتم التعرض لكليهما في المكان الخاص بهما. كما يستند أيضًا إلى الافتراض أن مطر الشتاء الحقيقي هو شيء مسلَّم به، لأنه اعتاد أن يأتي بشكل منتظم، في حين تبدو الأمطار التي تسبق

(562) يُقارن:

Blanckenhorn, *ZDPV* (1909), pp. 82ff.

(563) بالنسبة إلى أوضاع المطر في فلسطين، تُعتبر المعطيات الخاصة بكميات الأمطار الواردة في التقويم العبري "هِحابير" من 688 (1928) في سنوات المطر الأربع من 1923/1924 وحتى 1926/ 1927 غنية بالمعلومات (تم احتساب كل سنة من بداية حزيران/ يونيو وحتى نهاية أيار/ مايو). أما كل معدل احتسبته لكل محطة، فقد كان على النحو التالي: حيفا 660.25 مم، جنين 433 مم، القدس 410.75 مم، غزة 337.5 مم، بئر السبع 153.5 مم، أريحا 140.74 مم. وهذا يُظهر إلى أي حد تبقى معدلات أريحا وبئر السبع بالنظر إلى كمية الأمطار، وإلى أي حد تتخلف غزة القريبة من الصحراء، على الرغم من موقعها الساحلي، خلف القدس وحيفا.

مطر الشتاء وتتبعه في السنوات العادية غير مؤكدة الحدوث، ونتيجة لذلك تظهر معتمدة بشكل خاص على ما يقرره الرب.

في فلسطين اليوم، يجري توقع مطر شتاء حقيقي في 4 كانون الأول/ ديسمبر، بحسب التقويم اليولياني، لأن: "دايمًا بيج شتَ علَ عيد بربارة"، أي: "يأتي الشتاء دائمًا في عيد البربارة". وعن ذلك يقال: "عيد بربارة - تِطلع المية من خزوق الفارة". وقد سبق للمُقَدسِي أن روى[564]: "اِن اجَ عيد بربارة - البنَّا يِقدر يدِق الزمّارة"، أي: "حين يأتي عيد البربارة، يستطيع البَنّاء أن يعزف الزمارة"؛ فالمطر يعيق البناء، وهو غزير إلى درجة يتدفق معها من الأرض. كذلك الأمر بالنسبة إلى اليونانيين في الوقت الحاضر، حيث يبدأ فصل الشتاء والثلج في عيدَي بربارة ونيقولاوس (4 و6 كانون الأول/ ديسمبر)[565]. ومن المفترض أن يسقط مطر شديد بعد ذلك بشهر واحد في الـ"اِغطاسيات"، أي في الاثني عشر يومًا بين أعياد الميلاد وعيد الغطاس ("عيد الاِغطاس"، "عيد الاِعتماد") في 6 كانون الثاني/ يناير (رام الله). وفي كل مكان يُعتبر مطر كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير، "مطر كوانين"، مطر الشتاء الرئيس ("الطفيلة"). وفي طبرية يقول المرء[566]: "الكوانين فحول الشتا". وفي إذنا يقال[567]: "الأرض تِكسب من مطر كانون مثل ما بِكسب الحرمة من الرجل"، أي: "تُخصب الأرض من مطر كانون مثلما تُخصب المرأة من الرجل". و"عظمة كانون - كلشي من اِلأشجار بكسب ("مِنّو")"، أي: "تتمثل عظمة كانون في أن جميع الأشجار تُخصب منه". وقد يحدث أن الكمية الرئيسة من المطر قد تسقط في كانون الأول/ ديسمبر، كما حدث في شتاء 1888/ 1889، حين هطل 417 مم في كانون الأول/ ديسمبر، وفي كانون الثاني/ يناير حتى آذار/ مارس 258 مم فقط[568].

---

(564) Gildemeister, *ZDPV* (1888), p. 219,

لم يتوافر لدي مدخل إلى الأصل.

(565) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, pp. 1f.

(566) Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 13.

(567) ملاحظة دوّنها شفوبل، إلا أنه كتب "عتمة"، أي بمعنى "الظلام".

(568) Hilderscheid, *ZDPV* (1902), p. 23.

ولذلك يُقال أيضًا[569]: "الأجرد بيجرد الشجر من ورقه وبعض المرات السنة من شتاهَ"، أي: "يُجرِّدُ كانون الأول الأشجار من أوراقها وقد يحرم أحيانًا السنة من مطرها". وعن كانون الثاني/ يناير يقول المرء بحق: "هو فحل ومحل السنة"، أي: "هو قوة العام وقحطه". فإذا هطلت الأمطار في هذا الشهر بغزارة، كما يُتوقع منه، حينئذ يُطري المرء على الحال بقوله: "لِقحت الدِنيا": "أخصبت الدنيا". وفي الوضع الآخر يرثي المرء حاله بالقول: "أحرمت": "بقيت بلا إخصاب" (رام الله).

ولأن الأيام الماطرة والمشمسة تتعاقب باستمرار، فمن غير المستغرب أن يهتم المعتقد الشعبي بقدوم المطر وذهابه، فيقال عند الفلاحين: "جمعة جَمّاعة والسبت مطّار والأحد يا بِحِدّه يا بقِدّه"، أي: "الجمعة (ربما لأنه يقع تحت الزهرة) جامعة والسبت شديد المطر والأحد إما يحدد أو يشق" [يحد أي يُمطر، يشقق أي تتشقق الأرض من العطش]، حيث تفهم "الدنيا" كقوة جالبة للمطر، فإما يتم كبحها وإما "فتحها"، بحيث يهطل المطر بشكل أقوى في حين يتحدث أهل المدن عن شيء مختلف: "يوم الجمعة بِتجمِّع، يوم السبت بِلِمِّع": "يوم الجمع تقوم بالجمع، ويوم السبت تترك (الشمس) تسطع" بحيث يتوقف المطر. وكإضافة إلى ذلك[570]: "اِن حدّت مدّت": "إذا أمطرت أيام الأحد، يبقى الأمر على ما هو عليه".

ووفقًا للتصور اليهودي، فإن مطر الأربعاء مطر ملائم ومطر الجمعة لعنة، ومطر ليل السبت شافٍ، وإشراق الشمس يوم السبت بركة للفقراء[571]. وحين حصل ذلك في عهد الملكة شِلَمزيون (ألكسندرا، 76-67 قبل الميلاد)، يفترض أن حبوب القمح قد نمت لتصبح بحجم الكلى، وحبوب الشعير بحجم

---

(569) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, pp. 21f.,

حيث تشير "شتاهَ" إلى مطر الشهر، على النقيض من المقارنة الموازية للجملة الأولى.

(570) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 28.

(571) b. Taan. 8^{b}. 23^{a}, Vaj. R. 35 (97^{b}), Siphra, Bechukkothaj 1 (110^{d}),

يُقارن:

Siphre,

التثنية 42 (80^{أ})، مدراش تانيت عن التثنية 11:14 (35).

الزيتون. إنها النعمة الإلهية أن يسقط المطر ليلًا في أثناء بناء هيكل هيرودوس، بحيث يستمر العمل خلال النهار[572]. وليس عصيًا على الفهم أن إشراق الشمس يخفف من بقاء الفقراء جالسين بلا حراك، وأن مطر الجمعة ربما عرقل التحضيرات للسبت. ولا بد أن فائدة مطر الأربعاء تستند إلى أن المرء بسبب خطر العفاريت الليلي لا يشرع في السفر في هذا اليوم[573].

وعند التأمل في الموعد الملائم للمطر، بحسب سفر اللاويين (4:26)، يتم أيضًا طرح السؤال[574] عن عدد زخات المطر ("جِشاميم") التي عليها أن تسقط حتى تنتج الأرض ثمارًا. يذكر مئير اثنتين، ويفكر في المطر المبكر في مرحشوان، والمطر المتأخر في نِسان، أي يعتبر أن انقطاع مطر الشتاء الحقيقي ممكن. في حين يحدد يوسي ثلاثة أمطار، لأنه يشمل "الـ"جِشاميم" في الوسط"، أي إنه يضيف مطر الشتاء إليها. ويستند دوستاي (Dosithaj) إلى أيوب (6:37)، حيث تظهر خمسة تعابير عن المطر من أجل مطلبه خمسة أضعاف مطر، في حين أن أغلبية الحاخامات تضيف إلى هذه الخمسة المطر المبكر والمتأخر أيضًا، بحيث يصل بهذه الطريقة إلى سبعة أضعاف. ويتم احتساب ذلك كله نظريًا من خلال طرق محددة لتفسير الكتاب المقدس. لكن، وبلا أدنى شك، يقف في الخلفية الاعتقاد أنه بهذه الطريقة وحدها يمكن تلبية الحاجة بشكل كلي.

تُعتبر فترة الـ"مُربَعانية" أو الـ"أربعينية"، أي فترة أربعين يومًا، مميزة في الشتاء. وقد حسبها البدو القاطنون بالقرب من حلب من أعياد الميلاد حتى [عيد] تطهير مريم العذراء في 2 شباط/ فبراير، أو حتى "عيد سمعان الشيخ" في 3 شباط/ فبراير[575]. وبشكل مشابه يحسبها بدو البلقاء من

---

(572) Ibid.

(573) b. Pes. 112b,

يُقارن أعلاه، ص 19.

(574) Vaj. R. 35 (98a).

(575) Russell, *Naturgeschichte von Aleppo*, vol. 1, p. 92,

يجعل المربعانية تبدأ في 20 كانون الأول/ ديسمبر.

كانون الأول/ ديسمبر حتى 5 شباط/ فبراير[576]. ويذكر موزل "كانون ثاني" من ضمنها[577]. وفي القُبيبة، ذكر أحدهم لي "كانون ثاني" بأكمله و12 يومًا في "شباط". في حين يدفعها شتيفان (Stephan) إلى الخلف أكثر[578]، فهو يذكر يومَي 10 كانون الأول/ ديسمبر و19 كانون الثاني/ يناير، ويذكر يومَي [القديسَين] سبيريدون (Spyridon) ويوثيميوس (Euthymius)، أي 12 كانون الأول/ ديسمبر و20 كانون الثاني/ يناير، حدودًا لها. وعلى ذلك يوافق القزويني[579] ذاكرًا 14 "كانون الأول" و22 "كانون الثاني". ويُطلق على المطر الذي يهطل خلال هذه الفترة "الجوزة" أو "الجويزة" (الكرك)، نسبة إلى كوكبة الجوزاء[580]. وذُكر لي في إلجي مطر الجوزة في "اِجرد" (تشرين الثاني/ نوفمبر)، وهو المطر الساقط في الوقت الملائم للزراعة ("وَسم الفلاحة")، في حين يُنظر إلى مطر الثريا كـ"وسم الحلال"، أي من أجل الماشية. وهناك عرف المرء أيضًا "الشِعرى" (الشعرى اليمانية أو الشعرى الشامية) كفترة مطر رئيسة ثالثة تحصل في نهاية شباط/ فبراير. وفي الطفيلة تموضعت "الثرَياوي [الثريا]" و"الجوزة [الجوزاء]" و"الهريف" في شهر "اِجرد" (كانون الأول/ ديسمبر)، و"الشِعرى" حتى قبل "كانون" (كانون الثاني/ يناير). وقد تكون التسميات على صلة بالرؤية الليلية للنجوم، والتي تبدأ بالنسبة إلى الثريا في 9 تشرين الأول/ أكتوبر وللجوزاء في 2 كانون الأول/ ديسمبر وللشعرى اليمانية في 12 كانون الثاني/ يناير، في حين أن الأفول المبكر لمجموعتَي نجوم الجوزاء في 9 و22 كانون الأول/ ديسمبر[581] لاصلة له بذلك، لأن تواريخ الشهر غير مؤكدة. وهذا الأمر قابل للشرح والتفسير بلا صعوبة؛ إذ إن النجوم يمكن مراقبتها، في حين أن الأشهر تستند إلى التقويم الذي لا يراه المرء أبدًا بشكل مطبوع.

(576) Jaussen, *Coutumes des Arabes*, p. 325.

(577) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 6f.

(578) *JPOS*, vol. 2, p. 165.

(579) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75.

(580) هكذا أيضًا عند موزل وجوسين.

(581) وفقًا للقزويني، ص 44.

تتبع فترة الخمسين يومًا ("الخمسينيات") مباشرة فترة الأربعين يومًا لتشكل معها تسعين يومًا تناظر ربع السنة من الانقلاب الشتوي حتى الاعتدال الربيعي. وعن هذه "الأيام الخمسين" حدثني أحدهم بالقرب من حلب، وشتيفان من فلسطين[582]. وفي دمشق يُقال[583]: "بيكثَر البرد وبْيِقْوَى نَواحِ آخر المربعانية، بالخمسينية بِصير نشاط، لكن بيقوَى الهوا البارد بشباط"، أي "يكثر البرد ويصبح شديدًا مع 'نهاية الأربعين يومًا'، وفي الخمسين يومًا تدب الحياة، إلا أن الهواء البارد يشتد في شباط". وإذا حسب المرء "المربعانية" حتى 1 شباط/ فبراير، فهي تمتد حينئذ حتى 23 آذار/ مارس. وإذا اعتبر المرء 22 كانون الثاني/ يناير نهاية للأربعين يومًا، حينئذ يصل المرء إلى 13 آذار/ مارس. أما مطر هذه الفترة، فيمكن حينئذ تسميته مطر ما بعد الشتاء الذي يتوقف قريبًا من الاعتدال الربيعي (18 آذار/ مارس وفقًا للقزويني). وقد أطلق البدو بالقرب من حلب على هذا المطر "مطر السعود"، لأن له صلة بالنجوم التي تحمل هذا الاسم، أي "سعد الذابح" (α β جدي الجدي)[584]، "سعد بلع" (μ, ν كوكبة الدلو)، "سعد السعود" (β, ξ كوكبة الدلو)، "سعد الخبايا" أو "الأخبية" (γ, ζ, π, η كوكبة الدلو)[585]. كما يصح في ذلك أن هذه النجوم هي محطات للقمر، وتظهر وفقًا للقزويني[586] في 17 أو 30 كانون الثاني/ يناير، في 12 و25 شباط/ فبراير. يتعلق الأمر إذًا بمطر النصف الثاني من كانون الثاني/ يناير وكامل شباط/ فبراير. وعن سيطرة "سعد بلع" التي تبدأ في 30 كانون الثاني/ يناير، يذكر القزويني مطرًا وافرًا، وعن "سعد السعود"

---

(582) *JPOS*, vol. 1, p. 165.

(583) Bergsträßer, *Zum ar. Dialekt von Damaskus*, vol. 1, p. 75.

(584) وفي لبنان أيضًا يعرف الناس المعنى السيئ لهذا الكوكب (يُقارن أعلاه، ص 117). وعن ذلك يقال: "سعد ذبح – ما خلا نبح"، أي: "سعد الذابح لم يترك الكلب ينبح بعد"، أو في حلب: "سعد الذابح – بخلي الكلب على البيت نابح" (Ibid., p. 865).

(585) لدى كنعان

Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 285,

وُضِعَ "سعد السعود" بشكل خاطئ في النهاية.

(586) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 49f.

(12 شباط/ فبراير) يُقال[587]: "بِنَجمك طُبِقت أرضي غيثًا دَرورًا"، أي: "بنجمك تغطت أرضي بمطر وافر".

وفي "شباط"[588] تبدأ فترة من التباين الصارخ بين أيام مشمسة وأيام ماطرة عاصفة على صلة بالشمس الطالعة والدفء المتصاعد، مع انخفاض في الضغط الجوي. وهذا يعبّر عن نفسه بأقوال قُصد بها هذا الشهر، إذ يقول المرء عنه: "شباط الخباط[589] ما عليه رباط". و: "اِن شَابط ولا خَابط - ريحة الصيف فيه"، أي: إذا هطل المطر أو لم يهطل فإن رائحة الصيف موجودة فيه، أي إنه دليل على اقتراب نهاية الشتاء (رام الله). وبتوافق صارخ يقول يونانيو الوقت الحاضر[590]: "حتى لو هلّ شباط، إلا أنه يفوح برائحة الصيف".

أما نهاية هذا الشهر، أي الشتاء الحقيقي الذي يُطلق مرة أخرى كامل قوته، فتحدث في "المُستَقرِضات"، وهي "الأيام" السبعة "المستعارة"، أي الأيام الأربعة الأخيرة من "شِباط" والأيام الثلاثة الأولى من "اِذار"، أي من 9 إلى 16 آذار/ مارس، بحسب النمط الجديد [التقويم الغريغوري][591].

---

(587) Ibid., p. 50.

(588) هناك كثير مما يستطيع الناس في لبنان ذكره عن شهر "شباط"؛ فنتيجة لتقلبه يُقال عنه: "كلامه ما عليه رباط" (**المشرق**، 1905، ص 666). إلا أنه وبلا شك يأتي بماء عذب إلى الأحواض، حيث يقال: "إذا مْرِضت بتشارين لا تْصِح إلا شربت من مية شباط"، أي: "إذا أصابك المرض في شهري تشرين، فلن تصح قبل أن تشرب من ماء شهر شباط" (**المشرق** (1905)، ص 865). وقد سبق أن جرى الحديث عن المرض المعوي الذي يتعلق الأمر به. وبحسب ص 533، يتمتع ماء "شباط" بخواصٍ سيئة أيضًا، كونه غير قابل للتخزين. وربما لا بد من تأكيد أن استرداد العافية يحل في شباط/ فبراير في حالة واحدة فقط، وهي عندما يكون قد انقضى الجزء الأساسي من الشتاء؛ ذلك أن "شباط" تارة 28 يومًا، وطورًا 29 يومًا، فهذا مدعاة للمثل: "شباط بعير وبستعير وبضل ناقص"، أي: "يعير شباط ويستعير (أيامًا)، ومع ذلك يبقى ناقصًا"، لأنه لا يبلغ أبدًا 30 يومًا (**المشرق** (1905)، ص 865). ويقال: "في ثلاثين شباط"، أي: من المحال (في المكان نفسه، ص 666).

(589) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 279:

"لَبّاط".

(590) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, p. 18,

حيث تُقتبس أقوال أخرى مشابهة أيضًا.

(591) يتم توضيح الأيام السبعة المستقرضة ("المستقرضات") في المشرق، 1905، ص 666، بشكل =

وقد عَرّفها القزويني[592] من قبل مثل "أيام المرأة المتقدمة في السن" ("اِيام العجوز")، إلا أنه يحسب ثلاثة أيام لـ"شباط" وأربعة لِـ"اِذار"، وعرف كيف يُسمي كل واحد منها ("صِنّ"، "صِنَّبر"، "وَبْر"، "آمِر"، "موتَمِر"، "مُعلِّل"، "مُطفي الجمر"). والاسم الأخير وحده "مُطفئ الجمر" يتضمن شيئًا ما مفرحًا؛ إذ إن برد الشتاء ينتهي في هذا اليوم[593]. أما التسمية الشاملة لهذه الأيام، فيفسرها القزويني برواية عن أن امرأة حاولت ذات مرة عبثًا إشعار أفراد قبيلتها بقدوم هذه الفترة الباردة. إلا أن الفلسطينيين يعرفون حكاية أخرى[594]؛ فهُم سردوا لي ما يلي[595]: "كانت عجوز وغنماتها في المغارة، خَلَص اِشباط ضلّ مِنّه أربعة اِيام، صارت تغزل عالدولاب وتغنِّ بتقول":

"مرق اِشباط الخبّاط"
"دسينا في دُقُبته المخباط"

صيغة أخرى للمقطع الشعري:
"فات كانون – دسينا في طيزه غليون"
"فات اِشباط – دسينا في طيزِه مُخباط"
"أجَا آذار – دسينا في طيزه مُقهار".
أو: راح "اِشباط – ودسينا في طيزه الملواط".

= مشابه لما يحصل هنا ص 182 وما يليها، ولكن مسحوبة على الثلاثة أيام الأخيرة من "شباط"، والأربعة أيام الأولى من "اِذار". وعنها يُقال: "لا تقول مضت الشتوية تتخلص المستقرضات"، و: "في المستقرضات – عند جارك لا تبات"، لأن طريق العودة إلى البيت قد يكون صعبًا. وتدفع الخاصية السيئة لهذه الأيام بسكان بعض القرى في لبنان إلى رسم صلبان بالجير على أبواب منازلهم كي يبعدوا الشر المصاحب لها عنهم. وتريد الأشهر المرتبطة بها تحضير القدر للعجوز على المغزل، كي تحرق مغزلها وتبيع نير فدانها من أجل الحصول على الدفء.

(592) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 77.

(593) يُقارن أدناه II, 5.

(594) يُنظر أيضًا:
Cana'an, *ZDPV* (1913), pp. 279f.; *JPOS*, vol. 3, p. 26f.; Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 7f.; Jaussen, *Coutumes*, pp. 329f.; Sonnen, *Heil. Land* (1921), p. 13; Wilson, *Peasant Life in the Holy Land*, pp. 194f.

(595) شيء شبيه بشكل جوهري يُسْمع في رام الله وفي القُبيبة وكفر أبيل والطفيلة.

"استقرض اِشباط من اِذار، بِقول لَ- اِذار: يَبْن عم ثلاثة مِنّك وأربعة مِنِّ تخلِّ العجوز هي وغنماتها في الواد اِتغنِ. صار اِشتَ وراحت العجوز وغنماتها في الواد تغنِ (تقرقع) وبتقول فال موي: عمَهلكم مَعاشير لا يزلجن بَهَمهِن"، أي: "كانت هناك عجوز تعيش مع أغنامها في مغارة. كان 'شباط' قد انقضى، ولم يبق منه غير أربعة أيام فقط. حينئذ بدأت تنسج على الدولاب وتغني:

"انقضى 'شباط'، ذلك العفريت الشقي،
وقد وضعنا في مؤخرته المدق (هاون القهوة)[596].
أو: انقضى 'كانون'، وقد وضعنا في مؤخرته غليون.
انقضى 'شباط'، وقد وضعنا في مؤخرته مدق.
أو: جاء آذار، وقد وضعنا في مؤخرته عود تقليب النار.
ذهب 'شباط'، وقد وضعنا في مؤخرته المغرفة".

ثم استقرض "شباط" من "اِذار" وقال له: "يا ابن عمي، ثلاثة أيام منك وأربعة مني كي أجعل العجوز تغني وأغنامها في الوادي". فحصل مطر وذهبت العجوز وأغنامها يغنين في الوادي (يقرقعوا) وقالت عند الوادي: مهلًا! إن النعاج حوامل وحتى لا تُسقط (إجهاض) مواليدها [وربما يفهم أيضًا أنها تخاطب قومها بالقول: مهلكم، فإن أغنامها معشّرة وربما تنزلق في الماء].

وعلى ما يبدو، فإن المقصود إليه هو: مطر استمر سبعة أيام قد ملأ الوادي بعد أن كانت العجوز التي أقامت في كهف قريبًا من قاعه، قد اعتقدت أن في إمكانها أن تسخر من الشهر المشرف على الانتهاء، فجرفها مع أغنامها. وهذا ليس حادثًا حصل ذات مرة مصادفة، كما يظهر ذلك لدى جوسين، بل حكاية تروي كيف أن الشتاء الجارف يجب أن يُؤخذ على محمل الجد وألّا يُسخر منه. وليس هناك ما يستلزم إدراك العجوز التي تقوم بالغزل، والتي في بعض الصيغ تقوم بحرق مغزلها اليدوي لتوفير الدفء لها، كرمز لانتهاء سنة نمو

(596) ذُكر لي أن "غلّا" تعني إدخال شيء بشكل عمودي في ثقب. "دَسّ" أدخل شيئًا بشكل أفقي في تجويف ("حِفرة") [ومنها "الغال" أي القفل].

الزرع. ولأن الأشهر مجسّدة، استوجب حصول الشيء نفسه مع الناس الذين يقومون بالسخرية منها، ومثل هذا التهكم كان مهينًا بشكل خاص كونه خارجًا من فم عجوز[597]. ولكن قد يكون السبب الحقيقي وراء الحكاية المختلقة هو حقيقة أن أيام الشتاء الأخيرة كانت تُعرف بـ"أيام العجوز"، أو "قران العجوز" أو "العجايز"، كما سمعت في كفر أبيل وإلجي، وكما ذكر القزويني أيضًا. وتفترض التسمية مسبقًا أن الأيام المسماة على هذا الشكل مشؤومة عند النساء المتقدمات في السن[598]. ويعتقد البيضاوي [عبد الله بن عمر. وُلد في المدينة البيضاء في فارس قرب شيراز نحو أوائل القرن السابع الهجري] أن أيام العجوز للقرآن: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6-7] تعني "نهاية" ("عجُز") الشتاء. وقد تم جمعها مع "السبع ليالٍ والثمانية أيام، خصيصًا"، والتي فيها، وفقًا للقرآن 69:7 [سورة الحاقة، الآية 7]، دمرت عاصفة شديدة أهل "ثمود" وأهل "عاد" الذين شككوا في قدرة الله على التحكم في الطقس. ومن كلمة "حسومًا" "بخاصة" استشف لاحقًا أن هذه أيام شؤم، وتم جمع "إيام الحسوم" هذه مع "أيام العجوز"[599]. ويوضح القزويني[600] ذلك بالقول إن تلك "الأيام المشؤومة" قد ولجت في الشتاء وتركت عجوزًا واحدة من أهل "عاد" في قيد الحياة، تجدد الحزن عليهم سنويًا في هذا الوقت. وفي أي حال، تُعتبر الآن غير ملائمة للإنجاب وتطعيم أشجار الفاكهة، هكذا الأمر بالقرب من القدس[601]، وأيضًا في شمال أفريقيا، حيث يتم، علاوة على ذلك، إدراك الأيام من 23 آذار/ مارس حتى 4 نيسان/ أبريل بطريقة مشابهة[602].

---

(597) وصفت لي العجوز كونها مشاكسة، "عجوزة الصو"، أي "حوّاسة"، ولم يستحسن المرء سلوكها.

(598) فُهمت على هذا النحو في صيدا، وذلك وفقًا لِـ:

Abela, *ZDPV* (1884), p. 109.

(599) يُقارن:

Grünbaum, *ZDPV* (1885), pp. 88f.

(600) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 72.

(601) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 26.

(602) Doutté, *Magie*, p. 552.

إن حكاية العجوز واسعة الانتشار. ويعرف[603] يونانيو اليوم أن عجوزًا أمضت لياليها في الخلاء، لأنها كانت بصحبة رجال، وعشية انتهاء شهر آذار/ مارس نادت قائلة: "راحت عليك، راحت عليك آذار [تعبير عن الشماتة] وتعني: لقد تخلصت منك!"، عندئذٍ أماتها الثلج والبرد في الليلة ذاتها. ووفقًا لصيغة أخرى، يستقرض آذار/ مارس الساخط يومًا آخر من شباط/ فبراير من أجل ذلك الغرض، تاركًا العجوز التي زحفت إلى مرجل جبنة تتجمد مع قطيعها من البرد حتى الموت. وقد حُدِّد هذا الحادث بعد ذلك بشهر واحد، بما يتلاءم ومناخ اليونان، في حين يضع المرء في مالطا "الأيام المستعارة" قبل ذلك بشهر واحد[604]. وهناك يستقرض كانون الثاني/ يناير يومين من شباط/ فبراير بغية الانتقام من راعٍ بإرساله عاصفة عليه، لأنه اعتقد أنه معتدل جدًا. وقد دفعت هذه العاصفة البحر فوقه وفوق قطعانه. ولأسباب محلية، يجري في دمشق موضعة "أيام العجايز الأحد عشر" في منتصف آذار/ مارس[605].

كانت رسائل موزل[606] عن "المستقرضات" أقل توفيقًا. وهو يقوم، بالاستناد إلى الـ"كِرَكيَّة"، بنسبها إلى الأيام الثلاثة الأخيرة من "كانون" والأيام الأربعة الأولى من "شباط"، والتي من أجلها يُمكن استخدام "شباط" و"اِذار". وهو يقدم العجوز كما لو كانت تغنّي أغنيتها الساخرة بعد أن شعرت بخطر المطر عليها، والتي تبقى بلا دافع. ويوضح تعبير "مستقرضات" بأنها تعني حرف نظر المسافر عن الطريق من خلال الجداول الجبلية، على الرغم من أن كلمة "استقرض" تعبير دارج "للاستعارة" أو الاقتراض. لقد ترجم كلمات الأغنية الساخرة: "فات شباط وشاب شباط - ودسينَ بذيله ميت مِشعاب" على النحو التالي: حل شباط وتقدم في السن - وفي نهايته تعرفنا على مئة طريق"، لكن كان على السطر الثاني أن يعني: "ووضعنا ("دِسّينا") في ذيله مئة شوكة حبوب [مذراة]". كما أسيء فهم كلمة الشهر المُقرض: "يَ بن عمِّ ثلاثكَ مع أَربعِ (والصحيح "أربَعِ") نخلِّ- العجوز مع الواد تَقرَعِ"، وهو ما يفترض به أن

(603) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, p. 29.

(604) Ilg, *Maltesische Märchen und Schwänke*, vol. 1, pp. 205f.

(605) v. Kremer, *Topographie von Damaskus*, vol. 1, p. 7.

(606) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 7f.

يعني: "يا ابن العم، في أيامك الثلاثة وأيامي الأربعة، سنجعل العجوز، إلى جنب الوادي، تثير ضجة (بسبب خطر الماء)"، ولكن لا الوادي ولا العجوز حري بهما تحذير الناس من [خطر] الماء، بل عليها أن "تتدحرج مع جدول الجبل" (يُقارن أعلاه "تقرقعي").

ومن الأزمنة القديمة، فإن عيد السفر بالبحر لإيزيس الذي يقع في 5 آذار/ مارس، عندما تعاود الملاحة عملها بعد أن تكون قد توقفت في تشرين الثاني/ نوفمبر، يُمكن وضعه بعد نهاية الشتاء مباشرة في 3 آذار/ مارس[607]. ومن المهم هنا بشكل خاص الإشارة إلى أن الجزء الأوسط الرئيس من الشتاء، مع تقسيم السنة إلى سبعة أقسام (يُنظر أعلاه، ص 48 وما يليها)، ينتهي مع الظهور المتأخر للسِّماك الرَّامح في 27 شباط/ فبراير[608]، كذلك تقتضي بداية السنة البيزنطية في 1 آذار/ مارس التي تستمر في إطار السنة المالية للإمبراطورية العثمانية، ضمنًا نهاية الشتاء في نهاية شباط/ فبراير.

يعتمد كثيرون على كيفية سقوط الأمطار المتفرقة ("شتا"، وعند الفلاحين "اِشتا" و"مطر")، فالرذاذ الخفيف ("بتنقِّط الدِنيا") يبقى عديم الفائدة. مطر مستمر لكن خفيف ("مطر خفيف"، "مطر نتفة نتفة") قد يكون جيدًا للزرع، ولكن لن يصل إلى جذور الأشجار، وسوف يترك الأحواض بشكل خاص فارغة. والوابل الشديد ("زاعوق"، باللهجة الفلاحية "رِشق")، وهو مطر شديد قصير الأمد ("مطر قوي"، "مطر كبّ") يملأ الأحواض، إلا أنه ذو منفعة قليلة للأرض، لأن ماءه سرعان ما يغور[609]. غير أن "مطرًا جارفًا" لا يؤمّن لقمة

---

(607) Wissowa, *Religion und Kultur der Römer*, pp. 295f.

(608) هكذا:

Ideler, *Handbuch der Chronologie*, vol. 1, pp. 251f.

لم تُذكر بشكل صريح عند غالينوس (Galenus).

(609) يطرح:

Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 29,

التعابير التالية لأنواع المطر المختلفة: "نَقَطت" "تنقيط هادئ"، "رشرشت" "تنقيط سريع"، "بَخِّت" "مطر قصير وقطرات صغيرة"، "زَخَّت" "مطر قصير وقطرات كبيرة"، "سَبّ" ("كَبّ") من الرب" "مطر شديد متواصل"، "عبورة" "مطر قصير من غيمة عابرة".

العيش، وهو ما يعرفه أيضًا شاعر الأمثال (3:28). أما الاختلاف الذي يشدد عليه المشنا[610] بين أنواع مختلفة من المطر للنباتات الخفيضة ("صِماحيم")، وللأشجار وللأحواض، وللحفر والكهوف، فهو مبرر جدًا، ويُظهر أن كمية الماء المجردة التي يشير إليها مقياس الماء ليست وحدها الفيصل. ويصف التلمود الفلسطيني النوع الأول من المطر بـ"صيبحَد صيبحد" أي "قليل في وقت واحد"، والثاني "سَجّين سَجّين" أي "كثير دفعة واحدة"[611]. وقد قال معلم بابلي[612]: "الثلج للجبال، والمطر الشديد للأشجار، والمطر الساكن لثمار الحقل، والضباب الكثيف ("عُربيلا") يفيد حتى البذور تحت الأرض". ويفسر معلم آخر أيوب[613] (13:37): "حين [يسقط] (المطر) كعصا، (يكون) للشجر، وعندما يكون لأرض (الله) (يكون) للبذار، وحين يكون رحمة، فهو للأحواض والحفر والكهوف"، وهذا يعني وابلًا شديدًا للأشجار، وأمطارًا معتدلة للبذار، وأمطارًا غزيرة للأحواض[614]. وفي "تنافس الأشهر" يتفاخر شباط/ فبراير الذي اتُّهم بمطر شديد وريح وعواصف رعدية وفيضانات، بأنه يملأ الأحواض [البُرك] بالماء والهواء بالبخار[615]. و"أمطار الأحواض" الحقيقية هذه يجب أن تكون قد هطلت في 14 شباط/ فبراير 1927، بعد أن كانت قد بدأت تمطر في كانون الأول/ ديسمبر، وكمية ماء مقدارها 42 سم، ترفع ماء حوض كبير نحو مترين. وقد اختتم ذلك الخبر بعبارة: "لا يمكننا شكر الله بما يكفي على ما حصلنا عليه". وفي فلسطين، يتمنى المرء لشتاء عادي مطرًا غزيرًا، ولن يتذمر في حال هطول وابل شديد من المطر الذي يحبسهم "مطر حابس" في البيت، من "طقس سيئ" ("طقس عاطل"، "مُش مِليح")، لأن مياه الأحواض لا غنى

---

(610) Taan. III 2,

يُقارن:

b. Taan. 19b.

(611) j. Taan. 66c.

(612) b. Taan. 3bf.

(613) b. Taan. 8b.

(614) تميزات مشابهة، يُنظر:

Taan. III 8, b. Taan. 23a.

(615) Ilg, *Maltes. Märchen*, vol. 1, p. 207.

عنها لساكني المدن والقرى على حد سواء، كون المدن والقرى بالكاد تملك مياه ينابيع كافية. وكثير من القرى ليس فيها أصلًا عيون ماء[616].

ولأن المطر القوي لا يأتي دونما عاصفة[617]، فإنه يعني، في الوقت ذاته، قوة وحشية سيتم الحديث عنها لاحقًا (في B, II, 5). ومثل "زِرِم قير"، أي "انهمار مطر على جدار" (إشعيا 4:25، نص ماسوريتي [بحروف صوتية])، يعني ماءً يرتطم بالبيوت، كما لو أنه كان يختبر صلابة بنائها (متّى 27:7)؛ فكميات الماء المنهمرة من السماء تُقذَف على جُدُر البيوت ذات الحجارة الكلسية، وحتى لو كانت مبنية بشكل جيد، فربما تتسرب الرطوبة إلى الداخل. ولذلك اقترحتُ تزويد البيت المستقبلي لمعهدنا في القدس بُجُدر مزدوجة تفصل بينها طبقة من الهواء. فالمياه ترتطم بسقوف القرميد الحديثة التي يفترض لوقا (19:5) استخدامها استنادًا إلى طابع البناء اليوناني في فلسطين، وتكون غالبًا بشكل مائل بحيث يدلف الماء من خلال قطع القرميد. فمن بين الشقوق في النوافذ والأبواب التي تغلق بشكل سيّئ - وحرارة الصيف كفيلة بأن تجعل كل قطعة من الخشب في حال سيئة - يدلف الماء إلى الداخل ويصنع بركًا صغيرة فوق أرضية سطوح البيت. ولهذا تأثير أكثر سوءًا في السطوح المنبسطة لبيوت الفلاحين. ومع جميع الإصلاحات التي تُجرى قبل بداية موسم الأمطار، وعلى الرغم من تكرار نشر التبن والرماد وما يعقب ذلك من الحدل بواسطة محدلة السقف ("دِحدلة"، "مِحدَلة") والتي لا يخلو بيت منها، وقد سبق أن ذكرها المشنا[618]، تعود أرضية السطح المرة تلو الأخرى، فتلين في بعض الأمكنة ليتسرب المطر من خلالها. وعوضًا عن ذلك، فإن انتقاع الماء على السطح، حيث لا توجد أقبية كما في فلسطين القديمة وفي أجزاء

(616) عن الأحواض، يُقارن أعلاه، ص 70 وما يليها.

(617) يُنظر أعلاه، ص 154 وB, II, 7.

(618) بحسب

Mo. kat. I 10,

يجوز استخدام المحدلة ("مَعَجيلا") في شبه الأعياد. ويقدم:

Makk. II 1, Tos. Makk. II 3,

الحالة من خلال قتل شخص نتيجة سقوط المحدلة من السطح.

كثيرة من فلسطين الحديثة، يعني حملًا إضافيًا كبيرًا للدعامات المسندة. وكم هو سهل أن تنهار دعامة وأن يسقط جزء كامل من السقف إلى داخل البيت. وفي شتاء 1899/ 1900، رأيت بين لبنان وجبل الشيخ، حيث لا يزال السقف يرتفع على دعائم وقوائم، خرابًا مثل هذا. وقد أظهر ذلك أن التنقيب عن سقف (مرقس 2:4) ربما لم يكن بالمقدار ذاته من الصعوبة[619]؛ لأن بيت الهيكل في القدس كان قد تمتع بحيز تنقيط (بالعبرية "بيت دِلبا") بين الدعامات وكسوة السقف[620]، يقوم بالتقاط النقاط من السطح، ويُظهر أي وسائل كانت ضرورية، حتى في ظل تسقيف جيد، لتأمين الفضاء الداخلي للبناء.

يقول مثل عربي[621]: "النق والطق والبق يخربون البيوت العامرة"، أي: "الشكوى الدائمة والطقطقة (طقطقة القطرات الساقطة) وحشرة البق تخرب البيوت المبنية بشكل جيد". ويقول سفر الجامعة (18:10): "من خلال الكسل يغور السطح المعمَّد، ومن خلال تراخي الأيدي يرشح البيت ("يدلوف")." فهو يفكر في استخدام محدلة السطح التي يفترض بها أن تمنع ذلك. فليس هناك من سقف بُني بحسب التقويم اليولياني يمكن حمايته من تسرب الماء ("دِلف") إلى الأبد، ويجب العمل على صيانته بشكل مستمر. وعندما قمت في شباط/ فبراير وآذار/ مارس 1900 بتمضية سبعة أسابيع غزيرة بالمطر في بيت فلاحي في قرية بلاط، تساقطت قطرات المطر في كل ليلة تقريبًا على سريري، ما حدا بي أحيانًا إلى تغيير موقعه. وفي كل صباح كنت أسمع محدلة السطح تتدحرج فوق رأسي؛ فتقاطر الماء المتكرر باستمرار من السقف مزعج ومثبط للعزيمة، وقد يتسبب بالضرر لمخزون الطحين والقمح. وهذا الماء المتسرب، وهو غير تنقيط قطرات المطر في مجرى سطح قرميدي أوروبي، هو ما تقصده الأمثال (15:27، يقارن 13:19)، حين تُشبَّه المرأة التي تثير النزاع بِـ: "ديْلِف طوريد بيوم سَجرير"، أي: "نقرات الماء

---

(619) يُقارن:

Dalman, *Orte und Wege Jesu*³, p. 78.

(620) Midd. IV 6,

يُقارن:

PJB (1909), p. 48.

(621) Abela, *ZDPV* (1884), p. 118.

المتسرب باستمرار في يوم مطر منهمر". وبالطبع لا ينفع أبدًا الهروب من البيت إلى تحت حافة السقف، لأن هناك بشكل خاص، يتوافر مجرى ماء مائل مفتوح ("مِزراب") لسيلان ماء السطح إلى الخارج، وهناك يتدفق الماء فعلًا. ولذلك لا يقول المثل العربي: "من المطر إلى الدلف"، ولكن بالمعنى نفسه[622]: "من تحت الدلف لتحت المزراب". ففي بيته الخاص يكون المرء أكثر يقينًا من أن سقفه صحيح وسليم. ولذلك ربما تكون النصيحة صادرة عن حسن نية[623]: "بين كانون وشباط عند جارك لا تبات".

تنال خيمة البدوي حماية خاصة مع حلول فصل المطر من خلال إنشاء مجرى ذي حوافٍ تحيط بالخيمة من الجهات المعرضة للخطر، لمنع الماء من الوصول إلى الداخل. وقد سمّى أحد الأشخاص لي هذا المجرى في جنوب فلسطين "قنا"، في حين استخدم موزل[624] كلمة "شِري" ويعقوب[625] "نُئي". وينادي شيخ البدو على كريمته عندما يبدأ المطر بالهطول: "هلُّمي المِعزَقَة، أنئي نُئيًا"، أي: "أحضري المجرفة، أريد أن أحفر قناة للماء". وقد أظهرت لي تجربتي الخاصة أن سقف الخيمة المصنوع من شعر الماعز ("بيت شعر") مقاوم للماء بدرجة لا يُستهان بها. إلا أن التسرب ("دِلف") هنا هو أحد الأمور التي تجعل الحياة في الشتاء صعبة.

ما من أحد يتنقل دونما سبب قاهر خلال أمطار الشتاء الباردة. وبعض الأمثلة موجّه إلى أولئك الذين يتجرأون على السفر مشيًا أو على ظهر دابة (يُنظر أدناه B, II, 3). فلم يكن غير مطر كانون الأول/ ديسمبر هو الذي جعل يهود القدس ذات مرة يرتعدون خوفًا في 20 كيسلو (عزرا 9:10). فمن يخرج مشيًا سوف يتسخ ويبتل حذاؤه وساقاه بوحول الطريق والماء المتطاير. ومن يخرج راكبًا تكون ذراعاه وساقاه معرضة بشكل خاص للمطر الساقط من أعلى، وستتجمد القدمان نتيجة قلة الحركة. وقد نادى عليّ مرافقي العربي

(622) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 223.

(623) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 32.

(624) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 130.

(625) *Altarab. Beduinenleben*, p. 235.

خلال جولة على ظهر دابة قائلًا: "ما عاد لدي قدمان بعد!". كذلك الأمر في ما يتعلق بدابة الركوب التي صارت لا تريد التقدم إلى الأمام حين تعترضها الريح، وتميل على الدوام إلى الاستدارة والرجوع. حينئذ يعرف المرء كيف "يغطي فيض المياه" (أيوب 22:11) ويدرك لماذا تُقارن أرواح أولئك العنيفين بـ"عاصفة شتاء ممطرة" ("زيْرِم قور"، هكذا تُقرأ في إشعيا 25:4)؛ ففي نيسان/ أَبريل لا يشعر المرء بالمطر على هذا النحو. وإذا أراد الاستراحة، فليس من الممكن القيام بذلك في الخلاء، بل يبحث عن "ملجأ من الهواء والحماية من المطر المنهمر" (إشعيا 32:2): "ملجأ ومخبأ من السيل ومن المطر" (إشعيا 4:6؛ يقارن 25:4). وإذا احتاج الأمر، قد يكون ذلك جدارًا صخريًا في اتجاه الريح، وهو يحمي بشكل أفضل في حال تدلى مثل "شقيف" كهفي أو احتوى كهفًا حقيقيًا ("مِغارة")، كما روى ذات يوم عمال من الجليل[626]. وقد قال أيوب عن المبعدين عن البيت والحوش (24:8): "يبتلون من مطر الجبال ويتشبثون بالصخر لعدم وجود ملاذ". واقع الأمر أن الراعي والمسافر البعيدَين عن بيتيهما يبحثان عن ملجأ تحت صخرة، إذا لم يكن هناك بلدة في الجوار القريب تقدم حماية أفضل. وحتى في بيت مضياف، لا يسع نار الفحم الصغيرة إلا أن تقدم قدرًا قليلًا من الدفء لا يكفي تجفيف الملابس المبللة، علاوة على عدم وجود ملابس احتياطية لتغييرها. ويذكر المثل[627]: "هي ليلة (بس هالليلة) يا مُكاري"، أي: "إنها ليلة واحدة يا سائق البغل". فالفكرة الوحيدة التي يمكن أن تقدم مواساة في مثل هذا الوضع، هي القول إن الأمور ستكون مختلفة، حتى لو أن المرء، مثل سائق البغل، عليه أحيانًا أن يتحمل البقاء في العراء ليلًا متدثرًا بغطائه.

لا يملك العربي من النمط القديم [التقويم اليولياني] مظلة. صحيح ما يقال في دمشق عن الشتاء[628]: "ما بيقدر الواحد يمشي بلا شمسيّة من كثر المزاريب"، أي: "لا أحد يستطيع السير بلا مظلة بسبب الأمطار الغزيرة"، إلا أن كلمة مظلة في

(626) Tos. Nidd. VIII 1, b. Nidd. 61ª,

يُقارن أعلاه، ص 170.

(627) يُقارن:

Baumann, *ZDPV* (1916), p. 227.

(628) Bergsträßer, *Zum arab. Dialekt von Damaskus*, vol. 1, p. 75.

حد ذاتها تدل على أن المظلة شيء غريب[629]. وقد تكون المظلة ذات فائدة في دمشق، إلا أن العواصف في القدس تميل إلى السيطرة عليها وقلبها. وفي جميع الأحوال يبتل المرء إذا لم يقِ جسده بأكمله بمعطف مُشمَّع وقبعة مشمعة وطماق [كساء للساق من جلد أو قماش] وحذاء مطاطي يُرتدى فوق الحذاء العادي. وبناء عليه يفهم المرء لماذا يشعر الناس بالسعادة حين ينتهي فصل الشتاء (هكذا أيضًا في نشيد الأنشاد 2:11). إلا أن التقليد اليهودي يأمل، في وقت الخلاص، بمطر دونما مشقة. "في هذا الوقت تقوم الأمطار دائمًا بالإزعاج. فالمسافرون برًا والمسافرون بحرًا وعاصرو العنب وكحالو السقوف (التي يجب أن تصبح واقية من الماء، يُنظر أعلاه)، ينزعجون منها. ولكن في المستقبل يحولها الرب إلى بركة (صافية)" (بحسب حزقيال 34:26)[630].

وفي ما يتصل بالأهمية الحاسمة للمطر، الذي هو شرط مسبق لفلاحة الأرض، قد يشكل المطر عقبة أمام العمل والسفر، ويمكن تفهّم قيام المرء بالانتباه إلى مؤشرات الطقس. وهنا قد تُستخدم الشمس لهذه الغاية؛ فحين يظهر في الأفق الشفق عند الغروب، وهو يحدث بشكل نادر في فلسطين نتيجة الهواء الجاف ("احمرت الدِنيا")، ويفكر البعض في الدم والقتال، حينئذ يكون ذلك، كما في إنجيل متّى (2:16)، مؤشرًا إلى طقس جيد في اليوم التالي. كذلك تذكر **الجيوبونيكا** (*I Geoponica 2*) أن غيومًا حمرًا في الغروب تعني أنه لن يكون هناك مطر. وفي المقابل، يعتبر المرء حمرة الفجر غير ضارة، ويتعجب من إنجيل متّى (3:16)، الذي يعتبر ذلك مؤشرًا إلى المطر. إلا أن الحديث هنا عن سماء نارية وغائمة تذكّر المرء في بيت لحم بالسماء الشرقية الغائمة فوق البحر الميت قبل شروق الشمس، وبالحمرة التي تتبعها وتبشر بالمطر. وفي الشتاء يُعتبر الشروق الرمادي الفاتح ("زرقة الشمس") مؤشرًا مبكرًا إلى تغير في الطقس. وحين تلسع الشمس، كـ"شمس مطرودة"، على نحو استثنائي، حينئذ يكون المطر وشيك الحدوث (جفنة). كما يُطلق المرء على الشمس حينئذ المرحومة، لأنها محكوم

(629) ينصح بيلوت (Belot) بِـ"شتوية" إلى جانب "شمسية"، إلا أني لم أكن قد سمعت بذلك قط.

(630) Vaj. R. 35 (98ª).

عليها بالموت[631]. كما أن ظهور الهالة حول الشمس تبعث على الارتياب، فيقال: "دار الشمس مطر"، أو[632]: "دار الشمس مطّارة"، في حين أن الهالة حول القمر [الطفاوة] تبشر بطقس جيد لأن: "دار القمر سفر"، أي أن هالة القمر تعني السفر والارتحال. ولكن لا أحد على يقين من ذلك، إذ يقال[633]: "دار القمر غرّارة"، أي مضلِّلة. وحين تكون النجوم في سماء الليل الصافي ("سَمَا كشاف") ساطعة بشكل خاص ("نجمه يِشعَل")، يفترض المرء أن المطر وشيك الحدوث.

كذلك يعتبر المرء قوس قزح ("قوس قزح" ص 119 وما يليها) مؤشرًا إلى حال الطقس[634]، فيقال: "اِن قوّست باكر احمل عصاتك وسافر": "إذا ظهر قوس قزح في الصباح، خذ عصاك وارتحل!". ولكن: "اِن قوّست عصرية دوّرلك عَ مغارة دفيّة": "إذا ظهر قوس قزح عند المساء، إبحث عن كهف دافئ (حماية من المطر)!"[635]. وبالطبع يتم إلى جانب ذلك ادعاء العكس كما في الجمل التالية[636]: "قُوس الصباح عدو الفلاح": "قوس قزح الصباحي هو عدو الفلاح"، و: "قوس المسا دليل الصفا": "قوس قزح المسائي دليل على طقس صافٍ". ويعتبر ابن العوام (30-10) قوس قزح مؤشرًا إلى المطر في حال ظهر بعد طقس جميل. ويعني ظهوره في أعقاب هطول مطر أن الطقس سيكون صافيًا، كما يحصل في سفر التكوين (9:14 وما يلي)[637].

بالطبع، تُرصَد الغيوم في ضوء الاعتبارات نفسها؛ فسماء غائمة في الشتاء لا تعني تلقائيًا المطر. كما أن كتلة من الغيوم ("غين اِخميل") تظهر مثل الجبل

---

(631) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 28.

(632) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 289.

(633) Ibid.

(634) عن "قوس قزح" يقال: "شرق وغرب - نام الدرب، قبلة وشمال - فكّ الفدان"، أي: "من الشرق إلى الغرب، نام في الدرب. ومن الجنوب إلى الشمال، فك ثيران الحرث"؛ ففي الأولى لا يتوقع مطر، في حين يبدو مؤكدًا في الثانية (Ibid., p. 867).

(635) أيضًا:
Ibid., p. 286.

(636) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 29.

(637) قوس قزح وحلقة القمر وحلقة الشمس كبشير أو نذير. يُنظر:
PEFQ (1908), pp. 320ff.

في الغرب، إذ لا تأتي عادة بالمطر. كما أن شروق الشمس خلف السحب لا يشكل في حد ذاته مؤشرًا إلى المطر؛ إذ إن غيوم الصباح تميل إلى التقهقر أمام الشمس، كما يشهد على ذلك هوشع (4:6)، حيث يستخدم ضباب الصباح والندى كصورة لشيء عابر. والأقوال التالية تتوافق مع ذلك: "اِن عججت من باكر اسحب عصاتك وسافر"، أي: "إذا كان هناك ضباب (غائم) في الصباح، خذ عصاك وسافر!" و: "اِن عججت اِمسيِّة - دوّر لك عمغارة دفية"، أي: "إذا كان هناك ضباب في المساء، إبحث عن كهف دافئ!"[638]. وأيضًا[639]: "إن عرّجت فرّجت"، أي: "إن غيمت صفت". وبالطبع، يبقى المطر الحقيقي في الصباح موضع شك. وفي التلمود يقول مثل قديم[640]: "حصل أن نزل مطر عند فتح الباب، آه يا ابن سائق الحمار، حينئذ ارفع كيسك وتمدد!" لأن اليوم سيكون ماطرًا[641]، على افتراض أن التلمود يرى المطر آتيًا من غيوم ثقيلة، إذا كانت غيوم الصباح خفيفة، وهي لا تعني شيئًا. ولأن الرذاذ ("نِهيلا") قبل المطر يشبه غربال الدقيق الذي يترك أولًا الدقيق المسحوق ينفذ من خلاله، ثم يفصل السميد عن النخالة، فإن الناس تعتقد أن مطرًا شديدًا سيكون متوقعًا. وفي المقابل، فإن الرذاذ بعد المطر يشبه براز عنزة تخرج بداية قاسية خشنة ثم رقيقة، لأن المطر ينتهي بمثل هذا الرذاذ. وقد اعتبر يسوع مثل هذه الملاحظات، (إنجيل متّى 2:16 وما يلي؛ لوقا 54:12 وما يلي)، فطنة طبيعية، وسيئة في حال لم تتوافر أحكام سليمة مناظرة في دنيا الأخلاق.

ب. مطر الشتاء الشحيح

لا يمكن أن يسقط مطر غزير جدًا في فلسطين، حتى لو أن المطر لا يأتي دائمًا في الوقت المطلوب، وقد يكون مرهقًا أحيانًا وذا تأثيرات مدمرة. وحين

(638) يُقارن أعلاه القول المشابه في شأن قوس قزح في صيغة مختلفة قليلًا:
Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 286.

(639) Ibid.

(640) b. Ber. 59ª, Taan 6ᵇ.

(641) يعتقد راشي أن من المفضل حينئذ عدم إحضار الحبوب إلى السوق، لأن المطر سيُخفض السعر. إلا أن القول يفترض به أن يفهم بشكل أكثر سذاجة.

يبدأ المطر بالهطل بغزارة، يُنشد الأطفال حينئذ بابتهاج ومرح[642]: "شتي يا دنيا شتي، شتي عقرعة ستي"، أي: "أمطري يا دنيا أمطري، أمطري على رأس جدتي القرعاء!" أو[643]: "اشتي وزيدِي، بيتنا حديدِي"، أي: "أمطري وزيدينا مطرًا، فبيتنا من حديد". ومثل هذا الفرح بهطول المطر مهم، لأنه يفسر لماذا تجمع صلة وطيدة بين المطر والنعمة الإلهية في العهد القديم. ذلك أن الرب يهب المطر بسخاء (المزامير 68:10)، فهو المنشود والطبيعي؛ وإذا منعه الرب يكون ذلك مؤشرًا على عدم رضاه، كما يُعبَّر عن ذلك في سفر التثنية (11:17) من خلال الكلمات[644]: "يحمى غضب يهوه عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر، ولا تعطي الأرض غلتها. فتبيدون سريعًا عن الأرض الجيّدة التي يعطيكم الرب".

لقد سبق أن تحدثنا عن بضع سنوات شح فيها المطر (ص 174 وما يليها)، أما انحباس مطر الشتاء كليًا في وقت ما، فهو أمر عارٍ تمامًا من الصحة، فلا الخضرة [كالعشب والبرسيم] ولا الحبوب كانت ستنمو، وليس قابلًا للتصور مما كان الناس والحيوانات ستعتاش منه وعليه. لكن في الملوك الثاني (8:1) ذُكر أن الرب قضى بسبع سنوات مجاعة. وفي حال أدرك المرء السنوات السبع فترةً من سوء الحصاد، كما فعل الحاخام يوحنان[645]، حينئذ ربما استوجب الافتراض أن الناس في السنة الأولى اعتاشوا من مخزونهم، وفي الثانية من بقايا حقولهم، وفي الثالثة من لحوم الحيوانات الصالحة للأكل، وفي الرابعة من لحوم الحيوانات غير الصالحة للأكل، وفي الخامسة جاء دور الديدان، وفي السادسة والسابعة لجأوا إلى لحوم الأطفال ولحوم أذرعهم هم. كذلك رواية سفر الملوك الأول (17 و18) التي تتحدث وفقًا للتقليد اليهودي عن غياب كامل للأمطار، بما في ذلك الندى، ثلاث سنوات ونصف السنة[646]،

---

(642) "سَجعان"، *Mitt. d. Sem. f. orient. Spr.* V 2, p. 21.

(643) Dalman, *Pal. Diwan*, p. 175.

(644) يُقارن الملوك الأول 8:35؛ أخبار الأيام 6:26، 7:13؛ أيوب 12:15.

(645) b. Taan. 5a.

(646) لوقا 4:25؛ يعقوب 5:17، سيدر علام ربّا 17 (م س) يُقارن: G. Kittel, *Rabbinica*, pp. 31ff., والتي وفقًا لها يتعلق الأمر بزمن تقريبي.

ولا يمكن التمسك بها حرفيًا. وقد قلص يوحنان الوقت إلى 18 شهرًا[647]، وهو أقصى ما يسمح به النص التوراتي. كما يتم التحدث عن 14 شهرًا[648]، وبحسب يوسيفوس[649]، تحدث ميننددر (Menander) عن تلك الفترة كوقت بلا مطر يمتد من هايبربيريتايوس (Hyperberetaios) حتى هايبربيريتايوس (Hyperberetaios)، أي من تشرِي إلى تِشرِي، وبذلك تعلق الأمر بموسم المطر في سنة واحدة فقط. وبالنسبة إلى سفر الملوك الأول 17، يود كلاين (H. Klein) افتراض سنة واحدة فقط[650]، إلا أن هذا الأمر لا يأخذ في الاعتبار صعوبة استثناء تام للندى والمطر، كما تتطلب ذلك الآية 1 على ما يبدو. ثم إن افتراض المشنا الواقع في سياق آخر[651]، عدم هطل الأمطار حتى نهاية نسان، لا يمكن الالتزام بها حرفيًا. ويختلف الأمر إذا كانت التعبيرات بطريقة ما قد تعمدت استثناء مطر طبيعي وكاف أو ندى كثيف. يتحدث المشرقيّ إذا كان مضطربًا فيزيد حدة التعبير غير الدارج عندنا، كأن يقول مثلًا: "مُتنا اِمبارح"، أي: "لقد توفينا بالأمس"، إذا أراد الإخبار أنه لم يكن بصحة جيدة. أو: "ما أكلتش ما نمتش ثمانية اِيام": "لم أتناول طعامًا ولم أنم طوال ثمانية أيام"، ويقصد بذلك، وهو ما يفهمه الجميع، أن الشهية والنوم لم يكونا مُرضيين إطلاقًا. وعلى هذا النحو قد يقول أحدهم في أعقاب مطر شتوي شحيح جدًا: ما صار شتا هالسنة أبدًا: "لم يهطل مطر في هذا العام أبدًا"، أي لم يكن هناك مطر يستحق الذكر. مثل هذه التعبيرات الشديدة الحدة لها صلة بانفعالية المشرقي، ولا يخلو منها العهد القديم أيضًا. هكذا مثلًا في سفر التكوين (31:40 وما يلي)، حيث يفترض أن يعقوب لم تغمض له عين طَوال عشرين سنة، وسفر التكوين (45:20)، حيث يمنح يوسف يعقوب وأولاده خيرات أرض مصر، وسفر التثنية (33:24)، حيث

---

(647) Vaj. R. 19 (49^{b}).

(648) Bab. b. 14^{a},

يُقارن:

Bab. III 1.

(649) Antt. VIII 13, 2.

(650) ZDPV (1914), p. 246.

(651) Taan. I 7.

يغمس آشر في الزيت رجله، والتعبير المشهور عن الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا، وذلك كله لم يكن يُقصد به المعنى الحرفي. وفي الأدبيات الحاخامية هناك بالطبع سبب لمبالغات كثيرة لا يرقى الشك إلى طبيعتها، على غرار أن فردًا جليليًا واحدًا في غوش حباب كان قادرًا على توريد ثمانية ملايين مكيال من الزيت وترك أقدام المشتري تُغسل فعلًا بالزيت[652]. وعلى نحو مماثل لا يمكن أن تعني سبع سنوات المجاعة في عهد يعقوب (التكوين 41:54)، على الرغم من سفر التكوين (45:6)، أن شح الأمطار على مدى سبع سنوات كان سبب المجاعة حيث لم يُزرع أو يُحصد شيء خلالها، ومصر وحدها، نتيجة لحيطة يوسف، امتلكت احتياطًا من القمح. آنذاك، كما في عهد إيليا وأليشع، يتعلق الأمر بفترات طويلة من المطر القليل، كما تحصل بالتبادل مع فترات ذات طبيعة مختلفة. وإلى هذه الفترات يمكن احتساب السنتين 1864/ 1865 و1865/ 1866 والتي سقط فيها 395 مم و482 مم على التوالي، وكذلك السنوات الأربع 1869/ 1870 حتى 1872/ 1873 والتي هطل فيها 318، 487، 469، 481 مم. وفي مثل هذه الأوقات يزداد نقص الماء من سنة إلى أخرى. ففي السنة الأولى، كان لا يزال هناك في الحوض فائض من السنة التي سبقتها الأمر الذي ساعد في تخطي الصيف، كما عايشتُ ذلك في سنة 1925 في مصح المجذومين بالقرب من القدس [مستشفى البُرص]. وفي السنة الثانية لا بد للنقص في الماء أن يحصل. كما أن العيون والجداول تزداد ضعفًا في كل عام، وأخيرًا تجف كليًا في الصيف لأن مخزون الماء في الطبقات الصخرية العميقة لا يسد النقص ولا يمتلئ ثانية. ويستطيع المرء دائمًا أن يتدبر الأمر خلال موسم المطر، إلا أن الصيف صعب على الإنسان والحيوان كثيري التنقل بغية الحصول على الماء والغذاء.

في مثل تلك الفترة من الجفاف والقحط انطلق عوبديا بخيول أحاب بحثًا عن عشب بالقرب من الينابيع والجداول (الملوك الأول 18:5)، وهرب إيليا

---

(652) Siphre Deut. 355 (148[a]), b. Men. 85[b], Midr. Tann.
وPes. zut. عن التثنية 33:24.

من الجدول الجاف كريت شرق نهر الأردن إلى الساحل الفينيقي (الملوك الأول 7:17 وما يلي)، حيث من غير الممكن أن نجد نقصًا في الماء هناك (يُنظر أعلاه). وكما هي الحال لاحتياطي الماء، يختفي احتياطي القمح في سلسلة من سنوات الجفاف، لأن من غير الممكن سده بشكل كافٍ نتيجة حصاد شحيح. إلا أن تعويض ذلك بالاستيراد من بلدان ذات وضع أفضل كان واردًا في الأزمنة القديمة بواسطة النقل البحري الذي مارسه الفينيقيون، والذي ورد في حزقيال (17:27) كلام عن سوق حبوبهم. ولذلك كان لدى إيليا سبب للذهاب إلى الساحل (يُنظر أعلاه)؛ ذلك لأنه لم يكن هناك مثل هذا الاستيراد في فلسطين الجنوبية، وهو ما يُظهره أولاد يعقوب الذين أتوا بالقمح من مصر، لا على الجمال، بل على حمار كل واحد منهم (التكوين 27:42، 18:43، 24)، والتي لم تكن كمياتها تكفي مدة طويلة. أما أسعار القمح التي يحددها، حتى في أيامنا، العرض والطلب، فقد ارتفعت بشكل لا حدود له، بحيث أصاب الجوع المقتدرين أيضًا. إن فترة السبع سنوات هي من النمط الموصوف هنا، ولا بد أنها كانت تعني بؤسًا فظيعًا. إلا أن قدرًا ما من المطر والندى لا بد مع ذلك قد هطل في كل سنة منها.

يُظهر وصف يوسيفوس حقيقة القحط الفلسطيني في سنة 24 قبل الميلاد[653]؛ قحط مستمر أدى إلى فساد تام للمحصول، وهو ما أدى بدوره إلى مجاعة أدت بدورها إلى انتشار الأوبئة. وسرعان ما استُهلك المحصول الهزيل جنبًا إلى جنب مع مخزون السنوات السابقة، إلى درجة اختفت معها حتى البذور والتقاوى. وقد تدخّل هيرودوس في ظل هذه المحنة مشتريًا القمح من مصر وموزعًا إياه من أجل الطعام والبذور، بحيث يكون قد تم التغلب على الصعوبات مع حلول الصيف المقبل. ويمكن أن يتخيل المرء المجاعة في ظل كلوديوس (أعمال الرسل 28:11 وما يلي)، حوالى سنة 44 ميلادية. لقد كانت الملكة هيلينا الحديابية هي التي دفعت شر المحنة الأكبر من خلال عمليات

(653) Antt. XV 9, 1. 2.

شراء القمح من مصر[654]. ومن المفترض أن عشرًا واحدًا (3.64 ليترات) قد بلغ سعره 4 دراخما (حوالى 3.12 ماركات).

تقدم الروايات الخاصة بالكتاب المقدس عن محن شح الماء التي تستمر سنوات عدة البرهان الأفضل على أن فلسطين القديمة لم تكن، على الرغم من أحراجها الكثيفة، تحظى بأمطار أكثر مما هي الحال في فلسطين المعاصرة. وفي حال أراد المرء فهم تعبيرات الرواة حرفيًا، ربما تبين أن ظروف فلسطين المناخية تحسنت بشكل ملحوظ منذ ذلك الحين؛ فهي ربما كانت قابلة للتطبيق على شبه صحراء ذات طبيعة لا ينتظم فيها هطول المطر. صحيح أن فلسطين من خلال محيطها الشرقي والجنوبي قريبة من مثل هذا البلد، إلا أن الكتاب المقدس نفسه يُبرز أنها ذات طبيعة مختلفة؛ إنها "أرض جيدة ذات جداول ماء وعيون وآبار" (سفر التثنية 8:7)، "أرض جبال وبقاع تستقي من مطر السماء" (سفر التثنية 11:11). وقد حاول هنتنغتون في كتابه **فلسطين وتحوّلها** (*Palestine and its Transformation*) تقديم الدليل على أن كمية أكبر من المطر قد هطلت في فلسطين في الأزمنة القديمة؛ فالآثار الدالة على مدن قديمة في الصحراء هي الدلائل الأهم التي يسوقها. إلا أن وولي[655] أشار، بعد تقص دقيق للصحراء الجنوبية، إلى أن هذه المدن، في حال قِدَمها، كانت ذات صلّة بطرق التجارة، وإلّا فإنها تعود بشكل حصري إلى العهد البيزنطي الذي كان يعتني بتخزين الماء. وهنا أيضًا لا بد أن المناخ، كما هي الحال اليوم، كان مناخًا جافًا لم يقطعه غير مطر أشهر ثلاثة فقط من الشتاء لوقت قصير ومتقلب. وعلاوة على ذلك، إذا كان النقب، وهو الاسم القديم لهذا البلد، قد اشتُق من عبارة "أن يكون جافًا"، كما هو مفترض بشكل عام، فهو يشكل بذاته خير دليل على شح الماء فيه في الأزمنة القديمة أيضًا. وهنا يستطيع المرء أن يضيف كيف يصف سفر أخنوخ (2:3، 4) فصلَي السنة؛ فالشتاء حين تكون "الأرض بأكملها مليئة بالماء وسحاب وندى ومطر فوقها"، في حين تسود

(654) Antt. III 15, 3, XX 2, 5.

(655) Woolley, *The Wilderness of Zin* (Annual of Pal. Expl. Fund 1914), pp. 32ff.

الشمس في الصيف، بحيث إن المرء "بسبب حرارتها لا يستطيع الدوس على الأرض والصخر". والأخير مبالَغ فيه، ولكنه يُظهر أن الصيف، تمامًا كما هو اليوم، يُعتبر فصلًا من فصول السنة تسطع فيه الشمس بلا حدود ويفتقر إلى المطر[656].

ج. ماء الشتاء

بحيرات صغيرة حقيقية يتجمع ماؤها من مطر الشتاء في مثل هذه المنخفضات التي لا مصرف لها، مثل بحيرات سهل البطّوف الشرقي الصغيرة ومرج الغرق الذي غمرته المياه كليًا في 20 نيسان/ أبريل 1906، ولم يكن من الممكن فلاحته البتة. إلا أن هناك قولًا مواسيًا: "اِن غِرِقت صانور أخصبت قاقون"، أي: "إذا غمر الماء "صانور" (التي يعود إليها ذلك السهل المستنقعي)، تصبح قاقون (في الساحل) خصبة"، أي تتلقى رطوبة وفيرة مرحبًا بها. كذلك الأمر في الساحل، حيث تعيق الكثبان الرملية تصريف الماء. وعلى سبيل المثال، عند مصب وادي الحوارث، حيث تُظهر صورة ملتقطة من الجو في 10 كانون الثاني/ يناير 1918 تجمعًا ضخمًا لماء محتجز باتجاه الجنوب[657]. وفي 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1913، كانت قد اختفت البرك الواقعة في الشمال والجنوب والتي كانت الخريطة الإنكليزية قد أظهرتها بالقرب من [جدول] "الفالق"؛ إذ ظهر هناك جسم لماء محتجز لم يظهر على الخريطة، والذي يجب اعتباره نقطة انطلاق لجدول "فالق صغير"[658]. وفي المناطق الجبلية، يشكل الأمر استثناءً، حين يُفتقد في الأودية العريضة بشكل جزئي مصرف للماء، ونتيجة لذلك يتجمع الماء ويصبح راكدًا حتى يتسرب أو يتبخر. ومثال جيد على ذلك "البالوع" الواقع شمال رام الله. وتُظهر صورة ملتقطة من الجو في 3 أيار/ مايو 1918 سطحه المائي وهو ما برح مكتملًا. وفي صورة تعود إلى 16 أيار/ مايو 1918 تبدو حقول قابلة للرؤية من تحت الماء، وقد

---

(656) يُقارن أعلاه، ص 34 وما يليها.

(657) Dalman, *Hundert deutsche Fliegerb.*, no. 66.

(658) *ZDPV* (1914), pp. 342f.

رأيت البركة بلا ماء في 7 نيسان/ أبريل 1925 وجرت فلاحة الحقول ثم بذرها ببذور صيفية في 27 أيار/ مايو 1921. ويبعث "البالوع" بجدولٍ صغيرٍ في الشتاء ظاهر للعيان في الصورة الجوية الملتقطة في 3 كانون الثاني/ يناير 1918[659]، وبشكل أقل وأندر، يجمع منخفض "البالوع" القريب من بيتونيا والذي ربما لم يسبق لي قط أن رأيته ممتلئًا بالماء، على الرغم من ظهوره دائمًا على الخرائط كبركة. إلا أن التصور الشائع إلى حد كبير هو أن الماء خلال فترة المطر يجري في كل وادٍ في فلسطين، بحيث تدل كلمة "وادي" بالعربية، وبالعبرية "نَحَل"، بشكل تلقائي على غدير شتوي، وهذا تصور خاطئ بالكامل؛ فجداول الماء تجري لفترة قصيرة أو طويلة في الأودية "الجافة"، أي في الأودية الخالية من الجداول السنوية، بعد انهمار مطر غزير متواصل. وإذا سقطت على مدى أسبوع زخات مطر شديدة، كما يحدث في شباط/ فبراير وآذار/ مارس (يُنظر ص 183 وما يليها)، حينئذ يجري الماء في قاع كل واد، لكنه ربما ينحسر في اليوم الثاني بعد توقف المطر. وعوضًا عن ذلك، فإن جدولًا يتشكل بهذه الطريقة قد لا يكون جاريًا بشكل متواصل، خصوصًا إذا كان ثمة ركام ترابي كبير ناجم عن الزراعة، يُعيق استمراريته من خلال امتصاص الماء، وقد لوحظ ذلك في وادي الجوز الأعلى بالقرب من القدس. وتنشأ جداول جارية فترة أطول عندما يتمتع فصل الشتاء كله بمطر غزير. وعادة لا يُسمي المرء تلك الجداول الشتوية، بغض النظر إلى أي حد تفيض على جانبيها، "سيلًا"، أو حتى "نهرًا"، بل يقول عنها: "بطيح الواد"، "طاح الواد"، أي يجري، أو: "الواد صار قوي". وبالقرب من القدس في وادي بيت حنينا في أعالي وادي الصرار، كنت أهبط إليه أحيانًا لرؤية الوادي "جاريًا". وقد انطلق الوادي بفرعين أسفل الرام وبالقرب من الجيب"، مارًا بقالونيا وجاريًا نحو الأسفل بعرض متغير يتراوح بين 5–10 أمتار. وبهدير عظيم، وإن كان بعمق أقل عظمة، كان وادي بيت حنينا يجري فوق كتل الوادي الكلسية التي صقلها بنفسه، والتي حوّل مجرى الماء قِطَعها الأكثر صغرًا إلى حصى مستديرة [زَلَط] هي "الحجارة المصقولة" ("حَلوقي أبانيم") الواردة في صموئيل الأول (40:17)، والتي استخدمها ذات

(659) Dalman, *Hundert*, no. 26.

يوم داود من أجل مقاليعه، ويضعها الرعاة في جيوبهم لاستخدامها في مقاليعهم حتى في أيامنا هذه. وحتى "وادي الصوينيط" [الصوانيت] الذي يخلو عادة من الماء، أطلق جدولًا عريضًا في 21 شباط/ فبراير 1911، اتحد ماؤه مع ماء الفوار. وفي أي حال، ليس مريحًا الخوض في ماء هذا الجدول الجارف. وإذا امتلك المرء دابة للركوب، حينئذ يحتار كيف ستتصرف، هل ستنزلق ويجرفها التيار مع مَن يمتطيها، كما خبرت ذلك في 24 آذار/ مارس 1910 في وادي عِبّا في الجليل؛ فيخشى المرء بشكل خاص الدوامات ("سِبِله")، حيث يفقد بسهولة الأرضَ من تحت قدميه. وعوضًا عن ذلك، لا يستطيع الفلسطينيون السباحة غالبًا، بسبب عدم توافر الفرصة، فالمياه الهادرة تخيفهم. ومع ذلك، فإن فتية خيالة في منتهى الشجاعة عبروا نهر الزرقاء الذي يكون عادة غير آمن كليًا، صارخين بصوت عالٍ.

بأي سرعة يمكن مثل سيل الماء هذا أن ينشأ؟ رأيت في وقت الظهيرة في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1921 على نهر الأردن عند مصب وادي القلط خاليًا من الماء. وبعد ذلك بربع ساعة، على بعد خمسة كيلومترات إلى الأعلى، امتلأ بمياه متدفقة، بحيث كان عليَّ التفكير هل أن سيارتي ستكون قادرة على عبوره من دون أن ينفذ الماء إلى داخلها؟ فالسيل المتدفق كان لافتًا بشكل واضح، لأن وادي القلط" في أسفل أريحا، اعتاد أن يكون بلا ماء. وقد قيل لي في سنة 1911 أنه لم يكن هناك أي جدول منذ سنة 1898، والسبب هو هطول مطر غزير في الجبال مقداره 25 مم، وقد رأينا سُحُبه عن بُعد، في الوقت الذي كان فيه غور الأردن ينعم بالشمس[660]. وقد صادفت، في ما كنت عائدًا من البتراء في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1909، مجرى وادي الحِسا وقد طفح بماء أصفر، على الرغم من أن المطر لم يسقط هنا. وقد قيل لي إن المطر كان هطل في الأعالي ثلاثة أيام سفرًا[661]. كان ذلك في بداية موسم المطر. وبعد نهاية

---

(660) يُنظر:

PJB (1924), pp. 75f.

(661) يُقارن:

Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, pp. 10f.

مطر الشتاء، شهدتُ في 17 نيسان/ أبريل 1906 بالقرب من اللُبّن على الطريق إلى نابلس بَرَدًا ومطرًا مصحوبين بعاصفة رعدية شديدة. وحوالى الظهيرة ولّيت مسرعًا على دابتي تحت برق ورعد وبَرَد ضرب بقوة قبعة الفلين التي أعتمرها.

أما الطريق عبر الوادي العريض، الذي بالكاد يمكن ملاحظة انحداره، فكان انزلاقيًا، إلا أن جدوله كان بلا سيل. إن سحابة وحيدة في السماء واضحة تمامًا كانت تتحرك نحو الشمال هي التي قامت بإسقاط المطر. ولاحقًا سمعت أن ساعات قليلة بعد ذلك جرف الماء امرأتين في هذا الوادي، فغرقتا. ومن المفترض أن التيار لم يكن عميقًا جدًا، إلا أنه أوقع بهما وفقدتا الوعي. وخلال انهمار شديد مشابه اجترف كل شيء، ولذلك يُسمى "زاحقة" (= "ساحِقة")، لقي 33 شخصًا مصرعهم في آذار/ مارس 1904، وهم مسلمون من بلدة دورا [دورا الخليل] إلى الشمال من القدس كانوا يرتدون زيًا احتفاليًا في طريقهم إلى قبر موسى للاحتفال بعيد النبي موسى، وكانوا انطلقوا في رحلتهم مع شروق الشمس. وحين بدأ المطر بالهطل في الصحراء، حاولوا انتظار توقفه باللجوء إلى كهف طبيعي ("شقاف"، [شقيف]) بالقرب من قاع الوادي. إلا أن انهمار مطر غزير لمدة ساعة حوّل الوادي إلى سيل جرف الواحد منهم تلو الآخر. ومن بين 34 شخصًا الذين تشكل منهم الموكب، بقيت امرأة واحدة في قيد الحياة، وهذه المرأة نجحت في الإمساك بصخور مخرّمة ("خروم") حتى انتهاء العاصفة. وبعد ذلك مباشرة عادت الشمس وانقشعت الغيوم. وقد قيل لي إن من جرفهم التيار عُثر عليهم لاحقًا ممزقين إربًا إربًا. ربما كان ذلك مبالغًا فيه، إلا أنه يُظهر أي تأثيرات يتوقعها المرء من مثل هذا السيل العارم المندفع بسرعة. وكما يذكر باور[662]، فقد حدث في ربيع 1900 إلى الجنوب الشرقي من أرطاس، أن مضرب بدوٍ جرفه السيل مع 20 شخصًا وكثير من الماشية.

مثل هذه الحوادث توضح كيف أعلن أليشع، سفر الملوك الثاني (16:3 وما يلي)، لقوات إسرائيل ويهودا المتحدة التي قامت بالتفاف على البحر الميت جنوبًا في طريقها إلى غزو مؤاب، ووُجدت على الأرجح في وادي

(662) Bauer, *Volksleben im Lande der Bibel*[2], p. 130.

الفِقرة: "أُحفروا حفرًا على حفر في هذا الوادي! لا ريحًا ولا مطرًا سوف ترون، ولكن هذا الوادي سوف يمتلئ بالماء بحيث تستطيعون أنتم وأنعامكم وحيواناتكم الشرب منه". ووفقًا للآيتين 20 و22، جاء الماء في الصباح من جبال أدوم "بحيث امتلأت الأرض بالماء". ومع تلألؤ شمس الصباح، ظهر الوادي للمؤابيين الذين كانوا يهبطون من الشرق كبركة من الدم، جاعلًا إياهم يعتقدون حدوث نزاع دموي بين أعدائهم والاقتراب بلا حذر ولا حيطة. ومن المحتمل أن يكون "وادي الفِقرة" الذي يجري نحو البحر الميت في الجنوب قد استجلب الماء فترة قصيرة وبشكل غير متوقع، من وادي اليمِن من جبال أدوم نتيجة الأمطار التي سقطت على بُعد حوالى 30 كم. وتذكر ملاحظة أوردها نيوكومب (Newcombe) على خريطة النقب التي أعدها (1921) أن الأودية في الصحراء الجنوبية جافة، تسيل بعد هطول مطر يستمر نحو 24 ساعة.

وبالطبع، فإن الاحتمال الذي طُرح ذات مرة أن وادي الجوز، بعد صلاة الاستسقاء، قد يكون مليئًا بالماء، إلى درجة أن المرء الواقف على رابية يستطيع معها تحريك قدميه فيه، وهو وصف مبالغ فيه بشكل كامل. حينئذ، وفي مثل هذه الحال، ربما توافر هناك سبب للدعاء من أجل توقف المطر(663). وإلى الفئة نفسها ينتمي التقرير الذي يشير إلى أن بعد صلاة الاستسقاء، والذي يذكره يوسيفوس أيضًا(664)، هرب الناس من القدس إلى جبل الهيكل، وهو ما يعتبره كلاين حقيقة(665).

مثلما جرت هذه الجداول بسرعة، فإنها اختفت بسرعة أيضًا. وغالبًا ما تكون قد توقفت عن الجريان في المناطق الموجودة فيها جراء المطر، إلا أن خريرها يستمر في الأسفل لبعض الوقت، في حين أن أخرى كانت قد ظهرت جراء أمطار مستمرة، تواصل جريانها بعض الوقت، إلا أنها تعود فتختفي عقب

---

(663) j. Taan. 67[a], يُقارن: Tos. Taan. III 1.

(664) Ant. XIV 2, 1.

(665) *ZDPV* (1914), p. 242.

انقطاع الأمطار فترات طويلة أو في نهاية الشتاء المصحوب ببداية طقس دافئ. وفي البداية تتخلف برك صغيرة في الأماكن المنخفضة عن مجراها، ثم تتبخر، فيفاجأ المرء بالمشي فوق حصى جافة، حيث كانت شلالات صغيرة هادرة قد أمتعت الأذن قبل العين. وعبثًا يحاول المرء النزول إليها بحثًا عن الماء. ويقارن أيوب (6:15–20) أصدقاءه غير الجديرين بالثقة بمثل هذه الجداول التي تجري مرة في الشتاء وتختفي بشكل كلي في الأيام المشمسة التي غالبًا ما تعوّل عليها عبثًا قوافل جمال شبه الجزيرة العربية. ويدرك الفلسطيني خيبة الأمل المُرّة المترتبة على ذلك؛ فهو يعرف ماذا يعني عدم العثور على الماء الذي يحتاج إليه لنفسه ولبهائمه، والذي يود قضاء الليل إلى جانبه، وربما احتاج إلى الارتحال يومًا إضافيًا من أجل الوصول إليه. ويبدو له عتاب إرميا (15:18) في أن الرب أضحى جدولًا غرّارًا، مريرًا بشكل غير متناهٍ، وهو يدرك زوال الثروة الحرام التي وصفها سيراخ (40:13 وما يلي)، من خلال مقارنتها بجدول غرّار[666]، أي سيل عظيم تحت غيوم راعدة يقال عنها: "حين تتضخم، تتدحرج صخورٌ، ولكن فجأة تصمت إلى الأبد".

إلى ماء الشتاء تنتمي الينابيع التي تجري في الشتاء فحسب، وربما ليس في كل شتاء، على غرار عين الصوان في سلسلة جبل الزيتون، وعين اللوزة في وادي النار. وهي ليست ذات منفعة اقتصادية، خصوصًا أنها تسيل في وقت يكون الماء موجودًا في كل مكان. وينطبق الشيء ذاته على معظم جداول الينابيع الشتوية التي يجب تمييزها من مجرد انسياب ماء المطر، لأنها تتدفق دائمًا من التربة المشبعة بالرطوبة في بعض الأماكن. وبالقرب من القدس أعرف جدول وادي سِلمان الذي ينطلق قريبًا من [نبع] الفوار أسفل بيت عنان، ويصل في الشتاء حتى منطقة اللد، ولكنه يجري في الجبال حتى حزيران/ يونيو. وفي الغرب هناك أيضًا جدول وادي البيرة بالقرب من القريّة، وهو ينساب من "المغسل" حتى موسم الحصاد. وفي الشمال، في 3 نيسان/ أبريل 1913، صادفت في وادي

(666) لا يمكن أن تحمل كلمة "إِيتان" هنا معنى "ثابت"، وقد أراد سيمند عن سيراخ 40:13 مد الكلمة لتشمل أي استخدام لها. عن الجداول الغرارة، يُنظر أيضًا أدناه IV.

الشامي إلى الشمال من عَجول جدول الفوار العريض الذي من المفترض أن يجري بدوره حتى موسم الحصاد[667]. مثل هذه الجداول الشتوية يمكنها حتى تشغيل طواحين، كما شاهدت ذلك بالقرب من قرية بلاط في قضاء مرجعيون. والجدول الأكثر شهرة هو جدول بئر أيوب في وادي النار، حيث يتحدث الناس عن فيض هذه البئر، على الرغم من أن البئر ذاتها لا تفيض أبدًا، والجدول ينبع من الأرض، 47 مترًا تحت البئر، وإن كان على مستوى ماء البئر. وفي حال ظهور الجدول، يُعتبر ذلك مؤشرًا إلى سنة خير، ويتم الاحتفاء به باحتفال شعبي صغير. فيخوض الأطفال في الماء وإلى جانبهم يجلس الكبار يدخنون النرجيلة ويحتسون القهوة، كما حصل، على سبيل المثال، في 12 شباط/ فبراير 1927. وقد رصد شابلن[668] هذا الجدول بشكل متواصل، وعلى مدى 21 سنة. ولم يَسِلْ قط طوال أربع سنوات، لأن المطر الشتوي كان ضعيفًا وبدأ قبل أوانه. وقد سال خمس مرات في كانون الأول/ ديسمبر، وأربع مرات في كانون الثاني/ يناير، وأربع مرات في شباط/ فبراير، ومرة في آذار/ مارس ومرتين في كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس ومرة في كانون الثاني/ يناير (في 9 و26) وفي شباط/ فبراير. وفي كل مرة كانت فترة المطر الغزير هي الشرط المسبق لذلك. وفي العادة يجف الجدول الذي يتحد مع مجرى عين اللوزة، بعد 1.5 كم، إلا أنه في السنوات غزيرة الأمطار يجري 20 كم بعيدًا حتى مار سابا أو أبعد[669].

أما بالنسبة إلى نهر فلسطين الوحيد، ولبحيراته الثلاث التي تمثل احتياطًا مائيًا مهمًا للبلد، فالأمر الحاسم هو وقوع المنطقة التي ينبع منها نهر الأردن بين لبنان وجبل الشيخ؛ منطقة تتساقط فيها الأمطار بشكل أكثر غزارة مما هي الحال في المرتفعات الفلسطينية. ويقدر فيشر[670] كمية الأمطار المتساقطة في لبنان وجبل الشيخ بِـ 1000 مم، والمنطقة الواقعة بينهما بِـ 800-1000 مم،

(667) *PJB* (1913), p. 40.

(668) *PEFQ* (1883), pp. 11, 33.

(669) كما لاحظت ذلك، على سبيل المثال، في 3 آذار/ مارس 1906 وفي 15 شباط/ فبراير 1911.

(670) *ZDPV* (1919), table 1.

والمرتفعات الفلسطينية بـ 600-800 مم. ولهذا يستطيع المرء أن يتوقع منسوب ماء عاليًا بشكل خاص في نهر الأردن خلال موسم الأمطار، وبشكل خاص عند ذوبان الثلوج في الربيع[671]. صحيح أن المنسوب المنخفض لشريان البلد المائي هذا قد أعاق استخدامه المباشر في الزراعة، على الرغم من أنه لا يخلو من أهمية لأن الإنسان والحيوان يجدان على الدوام ماءً هناك، إلا أن التبخر، ولا سيما في البحيرات الثلاث والمستنقع الشمالي القريب منها، ساهم في تشكُّل الأمطار الساقطة على المرتفعات الشرقية وعلى شريط عريض من الأرض، وبالتالي ساهم في تكوين عدد من الجداول ونهر واحد، ما جعل غور الأردن غير خال من واحات ذات شأن بالنسبة للإنسان. وقد اعتقد حاخام أن للمطر الفلسطيني تأثيرًا حتى في ارتفاع منسوب الماء في الفرات، عندما يعتبره "الشاهد الكبير على المطر في الغرب"[672].

وبالطبع تحظى الجداول والأنهار الدائمة الجريان طوال السنة في مختلف أنحاء البلاد في كل موسم مطر، وبالذات قريبًا من نهايته، بزيادة كمية مائها فترة طويلة؛ فأحواضها تمتلئ وتحدث فيضانات. وفي بلد تقل فيه الجسور - إذ لا ترد في الكتاب المقدس كلمة جسر (بالعبرية "جيْشِر"، وبالعربية "جِسر")، وإنما تظهر في العهد الروماني في المشنا[673]. ويبقى الأمر متوقفًا على ما إذا كانت المخاضة (بالعبرية "مَعبارا"، "عبارا"، بالعربية "مخاضة") قابلة للعبور. فقد يكون العبور طوال أشهر غير ممكن أو خَطِرًا جدًا. إلا أن من الممكن أن يعيق العبور ارتفاعُ منسوب الماء نتيجة هطول أمطار غزيرة في الأعالي. وغالبًا ما يحتاج المرء إلى شجاعة لعبور جدول على ظهر دابة في مثل ذلك الوقت، خاصة أن العمق غير قابل لأن يُرى أو يُدرَك. وفي 8 نيسان/ أبريل 1906، وأنا قادم من أرض مؤاب، مثل بني إسرائيل ذات يوم (يشوع 3:15، 4:18)

(671) يُقارن أدناه III, 3.

(672) b. Bech. 55^b.

(673) Erub. V 1,

يُقارن:

Tos. Erub. VI 4,

وقد افتخر الرومان بإنشائهم جسورًا في فلسطين،

b. Ab. z. 2^b.

وجدتُ نهر الأردن قد فاض على ضفتيه إلى حد أن الوصول إلى الجسر كان متعذّرًا. فأمضينا الليل على الضفة الشرقية، وأمِلْنا بتراجع الماء لم يخب؛ ففي الصباح التالي كان مدخل الجسر مفتوحًا. وقد ذُكر أن منسوب الماء في نهر الأردن وصل إلى 5 أمتار في 4 كانون الثاني/ يناير 1917، بعد هطول أمطار غزيرة كانت بدايتها في 26 كانون الأول/ ديسمبر[674].

في إمكان المرء تصور أي تأثير جارف تتمتع به هذه المياه المتساقطة والجارية. أحجار تتدحرج وتربة متراكمة تفيض عنها وسيول[675] عميقة تنشأ. ولذلك يصور أيوب (14:19) وضعًا يائسًا بالكلمات: "تتأكل الحجارة بالماء، وتغسل السيول تراب الأرض". وتشهد شبه الجزيرة التي تشكلت من الوحل على مصب نهر الأردن في البحر الميت[676]، وكذلك تربة الساحل عند مخارج جميع الأودية الكبيرة، على هذه الظاهرة التي تحدث في كل شتاء. وعلى غرار ذلك، تشهد على المناطق الجبلية الفلسطينية من حيث تشتتها واقفرارها، كما تُظهر ذلك بشكل واضح الصور الملتقطة من الجو[677]. ولو كانت قد هطلت ذات مرة أمطار أكثر لكانت النتائج أعظم. كما أن كثيرًا من أعمال البشر تتعرض للدمار مرة تلو أخرى. فلن يقوم المرء، هكذا ببساطة، بتشييد بيوت على المنحدرات، لأنها معرضة للانجراف جراء المياه. وقد اعتاد المرء دائمًا إقامة القرى والمدن بحيث تكون "آمنة من خطر الماء". وينطبق هذا الأمر حتى على مدينة نيابوليس (نابلس)، لأنها تقع على مستجمع الأمطار بين البحر المتوسط

---

(674) *Heil. Land* (1917), pp. 124ff.

(675) ليس المقصود سيولًا نشأت من تشقق التربة نتيجة هطول الأمطار،
Midr. Tann;
التثنية 32:2 (ص 185)، لأن السياق يشير إلى التسرب. كذلك الأمر بالنسبة إلى مقارنة تربة الأرض بغربال، Ber. R. 82 (175ᵇ)، في حين أن كلاين
H. Klein, *ZDPV* (1914), p. 242,
يتصور تغلغل الماء في كل مكان.

(676) *PJB* (1924), pp. 73f.

(677) Dalman, *Hundert deutsche Fliegerbilder aus Palästina*, esp. figs. 28, 40, 43.

ونهر الأردن. إلا أن الطيش قد يؤدي أحيانًا إلى تشييد بيت في مكان خطر[678]، حتى في قاع الوادي، بحيث يتعرض لسيل ماء الشتاء. ولكن إذا كان أساس البيت مبنيًا على صخور (متّى 24:7 وما يلي) وبشكل راسخ، حينئذ يضطر الماء إلى إيجاد طريق له حول البيت. ولكن إذا كان حائطه رقيقًا، وربما مبنيًا من طوب طيني، وحتى لو كان مطليًا بشكل جميل، حينئذ سيكون مصيره كمصير البيت الذي يتحدث عنه حزقيال (11:13 وما يلي): ينهمر مطر غزير وتهب عاصفة، ويسقط الحائط. كما أن الشريعة اليهودية تعرض لسور ينهار نتيجة وابل من المطر، كي توضح هل إن المالك مسؤول قانونيًا عن الأضرار التي نجمت[679]. وإذا قام بيت على الرمل، كما يتم افتراض ذلك في متّى (26:7)، حينئذ سيكون من السهل جرفه؛ فالرمل، كما يعرفه الفلسطيني بشكل جيد، وكما كان معروفًا أيضًا في العهد القديم[680]، لا يمكن العثور عليه إلا على الشاطئ، إذ إن الكميات التي يحتاج إليها تفرض عليه إحضارها من مسافة بعيدة. وفي العريش، التي تقع على كثبان رملية في "جدول مصر"، أدى انهمار الأمطار والسيول في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 1926 إلى تدمير عشرين منزلًا وجرف مخيم عسكري[681]. وفي إنجيل متّى (26:7) وصف لأساس البناء المهلهل أكثر مما يمكن تخيله. ويتساوق التعبير في المقطع المشابه في إنجيل لوقا (49:6) بشكل أكبر مع الظروف في مناطق فلسطين الجبلية، كونه يتحدث عن البناء فوق الأرض من دون أساس راسخ وعميق. ويجعل إليشا بن أبويا ذلك جليًا من خلال التشديد على أنه حين يتم بناء بيت، يجب أولًا وقبل أي شيء آخر، استخدام الحجارة، ثم بعد ذلك القرميد، وحينئذ يكون مؤكدًا أن ماءً جارفًا لا يستطيع زحزحته من مكانه[682].

(678) يُنظر أمثلة على ذلك في:

Sommer, *Was ich im Morgenlande sah und sann* (1926), pp. 110ff.

(679) Tos. Bab. mez. XI 7.

(680) التكوين 17:22، 13:32. وهنا وهناك.

(681) *Warte des Tempels*, 15/12/1926.

(682) Ab. de R. Nathan 24,

يُقارن:

Billerbeck, *Kommentar z. N. T. I*, p. 469.

تبقى المصاطب ("حَبايل") الواقعة على منحدرات الوديان معرضة بشكل أكبر لعنف المياه المنهمرة، حيث يتم منع انجراف التربة بواسطة جُدُر ("سِناسِل")، وباستخدام المدرجات الطبيعية لطبقات الصخر. هذه الجُدُر تتفكك مرة بعد أخرى في أعقاب أمطار غزيرة وتنجرف التربة. وإعادة بنائها من عدمه أمر يعتمد على توافر الوقت والطاقة لدى المزارع، وعلى محصول المصطبة، إذا كان مُربحًا أم لا. كذلك يمكن أن تتعرض الحقول وأحواض الخضروات في قاع الوادي لأضرار جسيمة. وثمة ملاحظات صبيانية لأجانب حمّلت بشكل تلقائي اقتصاد زراعي زائف وكسل عربي مسؤولية ما خلفه المناخ والطبيعة خلال آلاف السنين التي وقف الإنسان أمامها عاجزًا. أما الدليل على أن الكنعانيين أو الإسرائيليين الأوائل أنجزوا يومًا ما، وبشكل جوهري، أكثر مما قام به السكان الحاليون، فلم يُسنَد ببرهان قط. أما لانداور (Landauer) في منشوره المصور "فلسطين" (1925)، ص 84، يقارن ص 230، فيعرض "بقايا المصاطب من الأزمنة القديمة" لطبقات طبيعية من الصخور العارية، على الرغم من أنها موجودة في منطقة لا تخلو من المصاطب حتى يومنا هذا. وقد يحصل أن يجد المرء معاصر نبيذ، حيث ما عادت معاصر النبيذ موجودة[683]. ويعود هذا إلى أن الإسلام قضى بشكل نهائي تقريبًا على زراعة العنب في فلسطين. كما أن الأوضاع الأمنية في البلاد غالبًا ما كانت تحول دون توسع أكبر لزراعة الأشجار المثمرة، لأنها بلا فائدة إذا لم يكن في الإمكان حراستها. وأخيرًا كان للضريبة التركية على أشجار الثمار تأثير مثبط لدى المُزارع؛ حكومة حكيمة ورأس مال يُجمَع من أماكن أخرى ربما أمكنهما تحقيق ما لم يكن في إمكان الزراعة الفلسطينية بقواها الذاتية تحقيقه. إلا أن الاستعمار الأجنبي عمل حتى الآن، وبشكل حصري تقريبًا، على الرَّقة [السهول المعرضة للانغمار بالماء] أو الرواسب الطوفانية، أي على ناتج التأثير المدمر للماء، ولم يتعامل بجدية مع

---

(683) Auhagen, *Beiträge zur Kenntnis der Landesnatur und Landeskultur Syriens*, pp. 16f.,
يخرج باستنتاجات غير قابلة للتطبيق على الماضي، كما لو أن فترات الجفاف لم تحدث قط. ثم إن الحكومة [العثمانية] في فلسطين كانت قد عرفت حماية الأحراج أو التشجيع الواعي لزراعة الأشجار المثمرة. يُقارن أعلاه، ص 83 وما يليها.

المشكلات الأخرى. كما أن المحاولات البدائية الهزيلة للحكومة الفلسطينية الحالية لتشجيع تحريج المناطق الجبلية لم تستطع تغيير الوضع العام على الأرض.

علاوة على المصاطب الحقيقية، فإن الحقول الواقعة في قصعات واسعة والمقسمة إلى شرائط عريضة من خلال نتوءات صغيرة تُدعى "جسور" أو أحيانًا "إجور"، أي "حفر"، تتعرض لقوة الماء المتدفق. وفي مثل هذه الحقول يشق الماء المتدفق صدوعًا عريضة، ويمكنه أحيانًا جرف أجزاء بكاملها مع الزرع. وربما كان هذا هو المقصود حين توصَف امرأة هَتَك عرضها آخر بحقل مغمور بالماء[684]. وفي المقابل، فإن مقارنة ظالم لا إله له بمطر جارف لا يأتي بالخبز (الأمثال 3:28) ربما كان أقرب ما يكون إلى انهمار مطر غزير ينقضي بسرعة ولا يأتي بالرطوبة المرجوة للتربة من أجل الزرع[685].

كانت طرق فلسطين القديمة، ولا تزال حتى اليوم، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف التي خلفتها الطبيعة[686]؛ فهي تمتنع عن الامتداد إلى عمق الوادي، حيث يُدمرها مطر الشتاء، وغالبًا ما يجعلها غير سالكة. وحين تلتف الطرق على طول المنحدرات كمسرب ضيق ("مِسرَبِة"، "درب")، فإنها تصبح سالكة من خلال إزاحة بعض الحجارة فحسب، وتمر المياه الغامرة فوقها من دون إحداث أي ضرر. لكن كل طريق عريض جرى شقّه ("طريق"، "درب كَرّوسة") يتشقق مرة تلو أخرى في تلك المواقع التي يجري الماء فيها، وربما يتجمع في أخدود، أو تعترض سبيله حجارة تدحرجت إلى الأسفل ويحتاج إلى إصلاح دقيق، كما نظم ذلك إشعيا (3:40 وما يلي، 14:57، 10:62). فالمطر المذكور ص 207 من 26 كانون الأول/ ديسمبر 1916 حتى 4 كانون الثاني/ يناير 1917 حطم جميع الجسور على الطريق من السلط إلى نهر الأردن، ودمر مرارًا الطريق

(684) Keth. I 6, VII 8.

(685) يُقارن أعلاه، ص 186 وما يليها. بشكل مختلف:
Vogelstein, *Die Landwirtschaft in Palästina zur Zeit der Mischnah*, p. 3.

(686) *PJB* (1916), pp. 37ff.

نفسه بطول 10–15 مترًا، وبالقرب من أريحا لقي بعض الناس حتفه ونفق 70 جملًا[687]. ولذلك لم يكن من الممكن المحافظة على الانحدار الأخير لطريق القدس – أريحا في وضع جيد، بحيث يضطر المرء في نهاية الأمر إلى التخلي عن هذا الجزء من الطريق واستخدام طريق ملتوٍ بطول 10 كم تقريبًا بدلًا منه.

يجب أخذ عنف الماء ضد المنحدرات وقيعان الأودية في الاعتبار لتخيُّل الصور التي يسوقها العهد القديم في هذا الموضوع؛ فكلمات مثل: "ساعدني يا ربي، فالماء وصل إلى روحي. في الوحل العميق أغوص، وليس لقدمي موضع. دخلتُ في المياه العميقة والتيار يجرفني" (المزامير 2:69 وما يلي، يقارن 4:124 وما يلي)، تُظهر مرتحلًا يخاف الغرق في جدول يفيض بالماء. "أمواج الموت والجداول الجديرة بالازدراء" (صموئيل الثاني 5:22؛ المزامير 5:18) تشبه كميات الماء المندفعة من منحدرات الوادي العميقة بعد مطر غزير. وهي مثل شلالات الماء الهادرة التي شاهدتها من جبل التجربة بالقرب من أريحا في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1921. المياه المتدفقة فوق الحائط الصخري الضخم تشبه الحالة التي يشكلها النهر الشاب "في أرض الأردن وحرمون"[688]، حينئذ تظهر حاجة الإنسان وتتخطى رأسه، كما يشكو المزامير (8:42)؛ فطبيعة المساعدة يجب أن تلائم طبيعة الحاجة. إن يدًا تسحب الواحد من الفيضان بقبضة عظيمة (المزامير 17:18، 7:144) هي الأمر الوحيد الذي يمكنه أن يكون منقذًا؛ فالرجل الورع في المزامير (6:32) يقف فوق قاع الوادي في مكان آمن.

تتوقف الشريعة اليهودية مليًا في الأهمية التي تتمتع بها مياه الأودية الجارفة (بالعبرية "حَردِليت"، ربما مشتقة من اليونانية *χαραορα*) للطهارة[689]،

---

(687) *Heil. Land* (1917), pp. 124ff.

(688) يُقارن:

PJB (1909), pp. 101ff.

(689) Mikw. V 6, Eduj. V 2, Tos. Eduj. IV 10.

خاصة إذا امتلأ بها قاع الوادي[690]. وهذا يدل ثانية على شح مياه البلاد التي لا يكون أحد سعيدًا إذا وصل الشح بهذه الطريقة إلى ماء الاغتسال. ويشمل ذلك بشكل أساس التصليحات السنوية للطرق وصيانة جميع أحواض الماء قبل شهر من عيد الفصح، والتي أضحت ضرورية في أعقاب المطر[691]، حتى يتمكن الحجاج من السفر إلى القدس دونما عائق، وبعد القيام بالتطهر الضروري من اللاطهارة الشعائرية[692].

د. عواصف الشتاء الرعدية

لا توجد، على ما يبدو، سجلات دقيقة لتفريغ الشحنات الكهربائية في فلسطين. أما الحقيقة الأهم فتكمن في كونها [أي الشحنات الكهربائية] غريبة على الصيف الذي لا تهطل فيه أمطار، وأنها تبدأ مع تزايد رطوبة الهواء في الخريف (يُنظر أعلاه، ص 114). يورد إكسنر[693] سبعة عشر عاصفة رعدية سنويًا، تحدث على الأرجح في تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر، إضافة إلى آذار/ مارس ونيسان/ أبريل، في حين أنها نادرة الحدوث في كانون الثاني/ يناير وتنعدم في شباط/ فبراير. إلا أن المعلومة الأخيرة غير صحيحة؛ إذ شهدت القدس في 15 شباط/ فبراير 1927 عاصفة ورعدًا وبرقًا وسقط بَرَد، إضافة إلى تساقط ثلج كثيف. أما في شتاء 1908/ 1909، فقد دوّنتُ الملاحظات التالية: في 30 تشرين الأول/ أكتوبر برق بعيد، في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر رعد، في 7 كانون/ ديسمبر وفي 12 كانون الثاني/ يناير برق بعيد، في 13 كانون الثاني/ يناير صاعقتان، ثم مرة أخرى فترة عواصف رعدية في أيار/ مايو، في 3 أيار/ مايو 4 صواعق، في 6-8 أيار/ مايو عاصفة رعدية، في 13 أيار/ مايو رعد، في 15 أيار/ مايو عاصفة رعدية. وعادة ما يصاحب مطر شديد الصواعق والعواصف. ومن جهة أخرى، عايشت في 9 و10 آذار/ مارس

---

(690) Tos. Mikw. III 4, b. Chang. 19ª.

(691) Schek. I 1, Mo. k. I 2, Tos. Schek. I 1. 2.

(692) Dalman, *Jesus- Jeschua*, pp. 80f., 108.

(693) *ZDPV* (1910), p. 136.

1925 عواصف رعدية أتت بالمطر الذي طال انتظاره، وأتت كذلك بالبرد. وفي 19 آذار/ مارس حصل رعد ورذاذ خفيف، وجميعه محصور في مناطق معينة، وهو إيذان بنهاية مبكرة لفصل الشتاء[694].

بالكاد يسمح الهواء الرطب والحار ودرجات الحرارة المرتفعة بالانتقال إلى العواصف الرعدية، ولا يفعل ذلك، كما هي الحال في ألمانيا، طقس أكثر برودة وهواء أكثر خفة. إنها مجرد ظاهرة عارضة مصاحبة للمطر أكثر منها حدث قائم بذاته. أما عواصف الربيع الرعدية، فسيتم التعرض لها لاحقًا. وفي ما يتعلق بالبَرَد (يُنظر أدناه، II B, 5).

لدينا، نحن الألمان، بشكل عام، انطباعٌ عن أن العواصف الرعدية في فلسطين أضعف مقارنة بتلك التي تحصل في الوطن. وهي عادة تستنفد طاقتها في برق ورعد متكررين. وأحيانًا تكون سحابة كبيرة وحيدة في السماء هي نقطة الانطلاق إلى عواصف رعدية؛ سحابة تظهر سريعًا ولا تلبث أن تختفي. أما عواصف ألمانيا الرعدية الشديدة التي تنقطع فيها التفريغات على مدى فترة زمنية طويلة، فلم يسمع بها أحد تقريبًا في فلسطين، كما أن الصواعق القوية نادرة؛ فخلال إقامتي في فلسطين 12 سنة، عايشت مرتين عواصف رعدية شديدة في ربيع 1906. وفي 2 كانون الثاني/ يناير 1913 فوجئت خلال مطر غزير مصحوب ببرق ضعيف بقصف رعدي، الأمر الذي يعني أن برقًا كان قد لمع في مكان غير بعيد. لقد ضُربت سارية العلم على سطح المدرسة التبشيرية السويدية، وتشعب البرق إلى ثلاثة أشعة ضوء، عبر أحدها بشكل مائل من خلال صالة البيت وشجرة عيد الميلاد التي كانت موضوعة هناك، من دون التسبب بأخطار جسيمة[695]. أما الغريب في ذلك، فكان قيام صاحب البيت بإلقاء المسؤولية عن جميع الأضرار التي حصلت على سارية العلم التي هزتها العاصفة. إلى هذه الدرجة كان من غير المألوف للمقدسيين تأثير البرق. كما

(694) عن العواصف الرعدية المصحوبة بتساقط الثلوج، يُنظر أدناه II, 6.

(695) يُقارن:

Svenska Jerusalems-Föreningens Tidskrift (1913), pp. 12ff.

لم تحظَ بيوت الأوروبيين في القدس بمانعات الصواعق. أما بوالص التأمين ضد الحرائق التي شجعت عليها العاصفة الرعدية في سنة 1906، فسرعان ما انقضت مدتها.

حين تبشر عواصف رعدية ("راعِدة"، جمع "رواعِد") باقتراب هطل المطر، يتوقع المرء انهمارًا شديدًا للمطر[696]: "إذَا أبرقت ورعّدت إعلم إنّ مزاريبهَا طرطقت"، أي: "إذا أبرقت السماء وأرعدت، فأعلم أن مزاريب (الطبيعة) قد طرطقت"[697]. أو: "أرعدت - فطَمَت - أبرقت - غرّقت"، أي: "إذا أرعدت، لا تمطر. إذا أبرقت فاضت": أي سينهمر المطر بشكل غزير. أما العاصفة الرعدية التي تحصل في أثناء المطر، فهي تشتته ("بتفسِّخ"). ولا يخشى المرء عادة حصول أضرار جراء البرق ("بِرق") الذي لا يدرك الإنسان العادي صلته بالرعد ("رعد"). إلا أن الصاعقة يمكنها تدمير ("بِفسّق") بيت. فيقال: "نِزلِت الصاعقة من الرعد". ويوضح القزويني[698] العاصفة الرعدية من خلال صعود مزيج من جسيمات شمسية وأرضية، يُطلق عليها "دُخّان". واختراقها للسحب يُحدث رعدًا، والاحتكاك بين هذه الجسيمات يُحدث برقًا. وإذا حدث ذلك بشكل قوي أو بشكل وافر تسبب في "صاعقة" قد تشعل الخشب أو تصهر المعدن أو تفسِّخ الصخور. مثل هذه التصورات المعقدة لا تتوافر لدى أحد. ويطمئن المرء جراء فكرة أن البرق والرعد هما "من الله". إلا أن الحديث يدور على قيام القديس جورج (مار جرجس) باجتياز السماء راكبًا فرسه عندما ترعد، حيث يجب أن يكون هناك إله عواصف قديم في الخلفية (يُنظر أعلاه، ص 119 وما يليها). وثمة من يفسر حدوث الرعد من خلال ارتطام السُحُب بعضها ببعض. والتلمود البابلي ليس بعيدًا عن هذا التصور، إذ يقول[699]: "البرق يأتي في البداية، ثم ضجة السُحُب، ثم المطر، وهذا يدل على الفكرة القائلة إن البرق يكسر قطع

(696) من رعود شهر يمكن الخروج باستنتاجات عن أمطار الشهر الذي يليه. "كل رعدة بكانون ثلجة بشباط" (في: Ibid., p. 865).

(697) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 30.

(698) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 97.

(699) b. Ber. 59a.

البَرَد في السُحُب، بحيث ينشأ عن قرقعتها الرعد". وفي أيامنا هذه يعتبر المرء سماع دوي متكرر بضع مرات من أرض مشبعة بالرطوبة ("أرض ساقة") على أنه نوع خاص من الرعد. وعن ذلك يُقال: "الهوا بِزْمُر، بِشتِغِل (ضَرَبت) الناقورة"، أي: "يعزف الهواء موسيقى، والصنج يردد الصدى"، وحينئذ يكون تشبُّع الأرض قد اكتمل إلى درجة أن الماء ينبع من الأرض.

وفقًا ليوسيفوس[700]، مكنت عاصفة رعدية عظيمة الزيلوت [طائفة يهودية قديمة عُرفت بمقاومتها الشديدة للسيطرة الرومانية على فلسطين. وزيلوت معناها "الغيورون"] من فتح مدينة القدس أمام الأدوميين من خلال نشر المسامير اللولبية في أحد أبوابها. فالضجيج المشترك لـِ "عاصفة شديدة ومطر غزير ورعد مخيف وقرقعة مفرطة للأرض المرتجة" أدى إلى تخدير الحراس. ويمكن ببساطة اختزال هذا الوصف إلى الحد الأدنى من دون التأثير في محتواه. ولكن، وفقًا لروايات العاصفة الرعدية في سفري المزامير (29:18) وأيوب (37)، ربما افترض أحدهم حصول هذا الحدث الطبيعي في فلسطين بشكل أعظم مما يحدث فعلًا الآن. ولكن يجب في البداية الأخذ في الاعتبار أن الشعراء يريدون وصف ظهور الرب، وبناء عليه لا بد من رسم الصورة بألوان قوية بشكل خاص. ثم لأن العاصفة الرعدية ربما تركت انطباعًا أقوى على الفلسطيني، لأنه يعرفها في شكلها المألوف، ولا يُدرك طبيعتها أبدًا. فبالنسبة إلى الأوقات المتعلقة بالكتاب المقدس، يجب اعتبار الرعد والبرق فعلًا من أفعال الله المباشرة: "حين يرفع صوته، تسمعه كهدير المياه في السماء، يرفع السحاب من أقصى الأرض، ويحدث البرق للمطر ويخرج الريح من مخازنه". هكذا يصف إرميا (13:10)، وكذلك المزامير (7:135) العاصفة الرعدية التي تبشر بالمطر، كما يُقصد بذلك في زكريا (1:10)، حيث يُقابل الدعاء من أجل المطر بسحب عاصفة. ولأن العواصف الرعدية يمكنها أن تضع حدًا للمطر، فربما كان هذا ما تم افتراضه في المزامير (5:18 وما يلي؛ 5:144 وما يلي). وبناء على المزامير (3:29 وما يلي)، فإن صوت الله هو

(700) *Bell. Jud.* IV 4, 5ff.

الذي يتسبب في جميع تأثيرات العاصفة الرعدية، ويكسر خشب الأرز أيضًا، وهو الصاعقة وليس البرق، كونها القوة الفاعلة في العاصفة الرعدية. كما تعتبر الشريعة اليهودية[701] "صوت الرعد" مثل "صوت الزلزال" الذي يُنتج صوتًا مقرقعًا ومصرصرًا[702]، كقوة يمكنها تفتيت الجدران. وعلى الرغم من ذلك، يعتقد كلاين[703] أن الناس عرفوا قوة الحديد المغيّرة للطقس، حين قاموا بوضع الحديد بين الصيصان[704]. ومن المحتمل أن الأمر كان يتعلق بدفع العين وسوء الطالع اللذين بموجبهما يُربط الحديد في نهاية سرير امرأة كانت وضعت للتو مولودًا[705]، والذي، في أي حال، يمكن وصفه بالوثني، في حين يبقى وضع الحديد عند الصيصان جائزًا.

ويود المرء أن يزعم أن الكلمة العبرية "حزيز" [برق يصحبه هزيم الرعد][706] تعني "صاعقة"[707]، إلا أنها على الأرجح تعني "سحب عاصفة"، والتي يمكن ربطها، مثل "حزيز قولوت" (أيوب 26:28، 25:38؛ سيراخ 13:40) بالرعد أيضًا[708]. ويستخدمها التقليد اليهودي كتعبير يصف الغيوم من دون معرفة أكثر دقة عنها[709]، لأن التفسيرات تبدو تخمينًا. وفي أيوب

---

(701) j. Bab. K. 5b.

(702) هكذا في القدس كما لاحظته أنا أيضًا عند الزلزال الذي وقع في 30 نيسان/أبريل 1903 في الواحدة بعد منتصف الليل. يُقارن:
Blanckenhorn, *ZDPV* (1905), pp. 214f.

(703) *ZDPV* (1914), pp. 248f.

(704) Tos. Sabb. VI 19.

(705) Tos. Sabb. VI 4,

يُقارن:
Scheftelowitz, *Altpalästinensicher Bauernglaube*, pp. 66f.

(706) زكريا 1:10؛ أيوب 26:28، 25:38؛ سيراخ 26:32، 13:40.

(707) Marti & Steuernagel,

عند كاوتسيش، يترجمانها إلى "Wetterstrahl" [شعاع طقس].

(708) يُنظر بشكل خاص سيمند عن سيراخ 26:32.

(709) Ber. R. 13 (28b), j. Taan. 66c, b. Taan. 9b,

كذلك في ترجوم نشيد الأنشاد 9:2 يتنقل الرب على "سحابة رقيقة" ("حزيزَ قَلا")، والتي شكّلت، على ما يبدو، بحسب إشعيا 1:19 ("عَل عاب قَل").

(26:28، 25:38) يعتقد سعديا أن "حزيز قولوت" هي "قرقعة أصوات" ("فَقيع أصواتَ") ويفسرها بِـ"سحابة المطر المتفتقة" ("السحاب المتقطع") التي تنشأ من الرعد. والكلمة العربية "حَزّ"، أي "يثقب"، ربما قصد بها هنا تحديد معنى الكلمة. ومن سياق الأماكن التي تظهر فيها هذه الكلمة يبدو أن كينونات يأتين بالمطر، وهو ما قد يتساوق مع سحب العاصفة الرعدية.

من بين أعراض التجلي، بحسب العهد القديم، دخان الجبال؛ فهو في سفر الخروج (18:19) نتيجة لنزول الرب إلى سيناء ملفوفًا بالنار. وهو في المزامير (32:104 و5:144) نتيجة ملامسة إلهية للجبال. والرعد والبرق لهما صلة بهذه الظاهرة في الخروج (16:19) والبرق في المزامير (6:144). والدخان والنار يخرجان من فم الرب في المزامير (9:18). وفي ما يتعلق بالمزمور (104)، يقول دوم (Duhm): "ربما كان من المشوق معرفة هل إن المؤلف يتحدث عن براكين أو حرائق غابات"، وهنا يختار كيتل البراكين. وفي ما يتعلق بحادثة سيناء، فالرأي السائد حاليًا هو أن فكرة البراكين حاسمة هنا. ووفقًا لذلك يجب البحث عن جبل الرب في أحد براكين شبه الجزيرة العربية[710]. إلا أن فكرة البراكين بعيدة عن تصور الفلسطيني، خاصة أن النشاط البركاني في شرق الأردن وفي شبه الجزيرة العربية كان قد حصل قبل جميع الأزمنة التاريخية. ولا يتعلق الأمر، بالنسبة إلى الرواة، بثوران بركان أو بعاصفة رعدية شديدة خبرها بنو إسرائيل في سيناء، ولكن، بالظهور فوق الكوني للرب؛ ذلك الظهور الذي في حزقيال (14:4:1، 27)، له صلة بالسحاب والنار وينبعث من البرق. ووفقًا للخروج (11:19، 18)، فإن مثل هذا الظهور قد حدث في سيناء، وترتب على ذلك أن الجبل بأكمله كان ينبعث منه دخان (الخروج 18:19) ويحترق في النار (التثنية 11:4، 20:5، 15:9)، حيث لا يغيب عن ذلك الرعد والبرق (الخروج 16:19). وبطبيعة

---

(710) يُنظر:

Greßmann, *Die Anfänge Israels*[2], pp. 63f.

كذلك أيضًا مراجعتي في:

Orient. Lit.-Ztg. (1924), pp. 716ff.

الحال، تتمتع نار الظهور الإلهي بغلاف من الدخان الذي يلفها. إلا أن التصور بأكمله لم يكن بالطبع لينشأ لو لم يكن المرء قد رأى في الغيوم الداكنة للعاصفة الرعدية، برعدها وبرقها، تأثيرًا مباشرًا للرب الذي أتى إلى العالم فيها. وحين جرى ربط التصور بجبل، حينئذ استذكر الراوي في الخروج (18:19) الدخان المتصاعد من فرن حرق الجير، لأن الجبل بنار وسحابة على قمته يشبه فرن حرق الجير الذي تطلق فتحته العليا وهجًا وسحب دخان ضخمة[711]. ولو كان إله العبرانيين إلهًا تحت أرضي، مثل بركان، لكانت الرواية اختلفت. ولكن هذا هو شأن رب السماء: الرعد صوته وسوطه البرق. وبحسب المزامير (8:148)، فإن "النار والبَرَدَ والثلج والبخار[712] والريح والعاصفة 'تمجده' وتنفذ أوامره". إنه يُري شعبه الذي يتجول في الصحراء السبيل، نهارًا متدثرًا بعمود سحاب، وليلًا بعمود نار (الخروج 21:13 وما يلي)، بحيث تكون "سحابة في النهار ودخان ووميض لهب النار في الليل" (إشعيا 5:4) هما الحماية الإلهية لجبل صهيون. فما يشبه سحابة في النهار، هو في الليل كالدخان الذي يحجب لهب النار، وهو الدخان الذي يملأ الهيكل في إشعيا (4:6) ورؤيا يوحنا (8:15)، وفي الملوك الأول (10:8 وما يلي)، يقارن الخروج (38.34:40)، ويظهر كسحابة في المكان نفسه[713]. ذلك كله لا علاقة له بدخان بركان يصعد من مكان تحت أرضي. إنها محاولة فلسطينية حقيقية لتحويل ما حدث في سيناء إلى ظاهرة طبيعية نجدها لدى يوسيفوس[714] الذي يتحدث عن سحابة غطت قبل مغيب الشمس منطقة

---

(711) يُقارن التكوين 28:19؛ الخروج 8:9، 10، ربما سيراخ 24:22. يترجمها سعديا بـ"أتون" "فرن حرق الجير". ومن المفترض أن يكون فرن الصهر معروفًا في فلسطين على نطاق ضيق جدًا، لأن الحديد الخام بالكاد متوافر. وبحسب Kel. VIII 9، فإن "كِبشان" هو فرن حرق جير وفرن زجاج وفرن فخار.

(712) يستخدم سعديا هنا وفي التكوين 28:19 "قيطور" للكلمة العربية "دُخّان". إلا أن كود. مون Cod. Mon يستخدم "رماد". وبالتأكيد "قيطور" هي دخان أو بخار في التكوين 28:19، والتي تلائمها الكلمة الفلسطينية الآرامية "قُطرا".

(713) وربما كان هنا مهمًا القول إن العبرية لا تملك كلمة ترادف "ضباب"، لأن الكلمة العبرية "اِيد" (التكوين 6:2) ربما تعني "بخار" (عند سعديا "بُخار").

(714) Antt. III 5, 2. 3.

معسكر الإسرائيليين، ثم عن رياح شديدة وأمطار عنيفة وبروق مخيفة ورعود عارمة في سماء عادة ما تكون صافية، وهي تُنبئ بالحضور الإلهي. وعند ظهور موسى، عادت السماء إلى صفائها من جديد واختفت العاصفة. ويترك يوسيفوس للقارئ حرية التفكير بما يريد. هكذا الحدث موصوفًا في الكتب المقدسة.

في فلسطين اليوم، ليس هناك أي علاقة بين دخان الجبال والبخار "هِبال" الذي يتصاعد من الأرض بعد سقوط المطر في ضوء شمس الظهيرة، بحيث يقول المرء: "بِتهِبِّل". إلا أن الفلسطيني غالبًا ما يرى ما يكفي من سحب الضباب وسحب المطر فوق الجبال، وليس نادرًا فوق مرتفعات بارزة مثل "جِبل الجِرمَق" أو "تل أبو الندى" في جبل الشيخ، بحيث تكون هذه الأماكن مغطاة بالسحب، في حين أن ضوء الشمس يغمر الأرض المحيطة بها. ويمكن أن تظهر البروق من خلال الغيوم التي تغطي القمم. لم يسبق لي البتة أن سمعت أن المرء يُطلق على ذلك لفظة دخان، إلا أن فكرة ذلك لا تبدو بعيدة. ووفقًا لرواية المصور لارسون (H. L. Larsson) في القدس، فقد تدلى ذات يوم من أيام شباط/ فبراير 1924 غيم كثيف غطى المكان مع سقوط ثلوج فوق "راس الصفصافة" في سلسلة سيناء، وغطاها بشكل شبه كلي. حينئذ هبت رياح غربية شديدة ودفعت الغيوم نحو الجبل صعودًا، بحيث بدا كما لو أن دخانًا يتصاعد منه. إن مثل هذه الظاهرة تغري باستخدام صورة الدخان التي، وفقًا لفقرات المزامير المذكورة أعلاه، لا تنطبق على سيناء وحدها.

هـ. برد الشتاء والتدفئة

اعتاد المرء الافتراض أن فلسطين بلد حار. عليّ الاعتراف بأني لم أعانِ في حياتي من البرد في الشتاء، مثلما عانيت في أول شتاء لي في فلسطين (1902/ 1903)، على الرغم من أن درجات الحرارة كانت طبيعية جدًا. ويعود ذلك أحيانًا إلى التغير المتكرر الحدوث بين بارد وحار، وهو الأمر الذي يؤدي إلى اتخاذ أحكام متناقضة، على غرار حكم الفلاح الودود في الحكاية

المالطية[715]: "إذا كانت شمس كانون الثاني/ يناير لطيفة ودافئة، سوف تكون قادرًا على ملء بيتك للشتاء"، أي أن محصولك المقبل سيكون جيدًا. وحكاية الفلاح غير الودود: "إن كانون الثاني/ يناير، بفضل حماقته، مطر وريح وبرد، يجعل من كل واحد شبه مريض". وفي فلسطين لا يتمكن الفلاح من تقدير شمس الشتاء بل يُنقل عنه قوله[716]: "شمس كانون مثل الطاعون"، أي إنها تأتي بالمرض أكثر من الصحة، لأنها لا تدفّئ كما ينبغي، ولا تلبث أن تُستبدل بطقس سيّئ وبرد. لذلك[717]: "لا تِركِن على صحو كانون ولا على ريح اِشِباط"، و[718]: "شمسة شباط تخلِّ الراس مثل المخباط"، أي تتسبب بالصداع[719]. كما لا يجانب الحقيقة أن[720]: "البرد أساس كل علة"، وحتى النبي [محمد] يُنقل عنه قوله[721]: "أصلُ كل داءٍ البرد": "البرد هو أصل كل مرض". كذلك يدعي الحاخام حنينا[722]: "تسعة وتسعون يموتون بسبب البرد، وواحد فقط على يدي السماء (الرب)"[723]؛ فإقامة الحاخام في تسيبورين [صفورية] الباردة يفترض بها أن تكون السبب وراء هذا الحكم، ولكنه يناظر بالتأكيد المعتقد الشعبي

---

(715) Ilg, *Maltes. Märchen und Schwänke*, vol. 1, pp. 207, 209,

شبيه جدًا:

Basile, *Pentamerone, übers. v. Liebrecht*, pp. 160ff.

(716) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 288.

(717) Ibid., p. 277.

(718) Landberg, *Proverbes et dictons*, p. 106.

(719) كم هو قليل ذلك الذي ينتظره المرء من شمس "شباط"، فذلك ما تدلل عليه الأقوال: "شباط ثلجو وشِتاه خير من شمسو وهواه"، و: "اِمش على غيم كانون ولا تمشي على نقا شباط"، أي: "ثق بغيم 'كانون' ولا تثق بصفاء جو 'شباط'". ولذلك يحسن المرء صنعًا إذا ما حضر إلى البيت في الوقت الملائم، حين يكون قد خرج: "ما بتمسّى في شباط – غير صانع الحواط"، أي: "لا يأتي أحد متأخرًا في شباط"، غير ذلك الذي يقوم بلف شبكة الحماية (الخاصة بالخيمة من أجل الليل).

(Ibid., p. 865).

(720) Baumann, *ZDPV* (1916), p. 221.

(721) Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 34.

(722) j. Sabb. 14c.

(723) بحسب

H. Klein, *ZDPV* (1914), p. 306,

يفترض أن يعني ذلك "بطريقة طبيعية".

القديم الذي يرى في البرد سببًا لكل مرض. ولا بد أن الجميع سوف يؤيدون الأقوال العربية المأثورة: "الشتا شِدِّة ولو كان رخا"، أي: "الشتاء صعوبة وحتى لو كان بلا هموم"[724]، و[725]: "الشتا ضِيْق ولو كان فرج". وحتى الدابة تعاني البرد[726]: في كانون الأصم - ببول الحمار قيح ودم". أما السبب الرئيس وراء هذه الأحكام، والتي سوف تجد الشتاء أقل إمتاعًا لو كان "متينًا ومستمرًا"، فيكمن في التدفئة الناقصة للبيوت، والملابس غير الكافية، لأنها معدَّة كي تُلائم الفترة الحارة من السنة، إضافة إلى اعتياد الجسم على درجات الحرارة العالية في الصيف الطويل. فلا عجب إذًا أن الأطفال يشكون[727]: "حُ حُ يا بردِي قشقوشة حطب ما عندي".

وبحسب إكسنر[728]، فإن معدل درجة الحرارة في القدس في كانون الأول/ ديسمبر هو 11 درجة مئوية، وفي كانون الثاني/ يناير 8.2، وفي شباط/ فبراير 10.3، ودرجة الحرارة الأدنى التي تم رصدها كانت 3.9 درجات مئوية، في حين بلغت في الخليل - 3.7 درجات مئوية. وبالنسبة إلى الـ 20 سنة (1882-1901) التي قام غلايشر برصدها، فهو يقدم معدل درجات الحرارة التالية: كانون الأول/ ديسمبر 9.9 درجات مئوية، كانون الثاني/ يناير 7.5، شباط/ فبراير 8.7، وكأدنى درجة (في 31 كانون الثاني/ يناير 1897 وفي 1 كانون الثاني/ يناير 1895) حوالى - 4 درجات مئوية، وكأعلى درجة مئوية في كانون الثاني/ يناير 16.6. أما درجة الحرارة السنوية الدنيا، فقد حصلت ست مرات في كانون الثاني/ يناير وأربع مرات في كانون الأول/ ديسمبر وشباط/ فبراير، وثلاث مرات في كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير في الشتاء نفسه، ومرتين في آذار/ مارس، ومرة واحدة في كانون الثاني/ يناير

(724) Freytag, *Arabum Proverbia* III 1, no. 1470.

(725) Landberg, in: Ibid., p. 281.

(726) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 22.

(727) سجعان،

Mitt. d. Sem. f. Or. Spr. V 2, Sonderdruck, p. 20.

(728) *ZDPV* (1913), p. 288.

وآذار/ مارس في الشتاء نفسه[729]. ومن ذلك يتضح أن في ما يتعلق بدرجة الحرارة، يشكل كانون الثاني/ يناير أدنى نقطة في الشتاء. وعوضًا عن ذلك، تظهر المقارنة مع معدل درجات الحرارة في تشرين الثاني/ نوفمبر البالغ 12.5 درجة مئوية، ومعدلها في آذار/ مارس البالغ 14.2 درجة مئوية (وفقًا لغلايشر)، أن الأخيرة بشكل خاص تدل على تقدم كبير، في حين أن الفارق بين تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر لا يزيد كثيرًا على الفارق بين كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير.

وبالنسبة إلى يافا، يقدم إكسنر معدل درجات الحرارة التالية: كانون الأول/ ديسمبر 13.4 درجة مئوية، كانون الثاني/ يناير 8.2، شباط/ فبراير 13.8، و0.6 كأدنى درجة. وبالنسبة إلى طبرية 15.8، 12.6، 14.7، و+ 1.1 كأدنى درجة حرارة. وبالنسبة إلى أريحا، حيث تم القيام بأرصاد قصيرة، يورد بلانكنهورن[730] المعدل الشهري لكانون الثاني/ يناير 13.7 درجة مئوية، و15.7 لشباط/ فبراير. وفي "قصر حجلة" القريب من البحر الميت، سُجلت الأرقام التالية: 19.9 كانون الأول/ ديسمبر، 19.6 كانون الثاني/ يناير، 20.3 شباط/ فبراير، و+ 4 كأدنى درجة تم تسجيلها. لكنه يفترض أن الحد الأدنى في الشتاء القارس يتراوح بين 0 ودرجة مئوية واحدة. ويعني هذا كله أن الساحل بالكاد يصل إلى درجة التجمد، وأن غور الأردن لا يعرف الصقيع أبدًا، وفي داخله تزداد الحرارة بشكل جوهري في اتجاه النقطة الأدنى للبحر الميت (387 مترًا تحت سطح البحر). وهذا يشكل اختلافًا صارخًا عند مقابلته بدرجات الحرارة في القدس التي لا تبعد أكثر من 25 كم (800 م فوق سطح البحر). واقع الأمر أن الساحل والمنطقة الجبلية وغور الأردن في فلسطين تتمتع بمناخات ثلاثة، أي ثلاثة أشتية [جمع شتاء] بكل تجلياتها. ووصفنا هذا، إذا لم ينص على شيء آخر، فإنه ينطبق دائمًا على المنطقة الجبلية الغربية أو الشرقية، والذي

---

(729) هكذا هو حسابي على أساس أرقام غلايشر بالفهرنهايت في:
Glaischer Met. Observ., Table 2 p. 18,
ومختلف غلايشر نفسه في ص 10؛ إذ إنه يستخدم سنوات تقويمية وليس الشتاء كأساس.

(730) *ZDPV* (1909), pp. 54ff.

يمكن تبريره على خلفية أن مسرح التاريخ هو السبب في اهتمامنا بفلسطين، وهو وُجد في هذا المكان بالذات. ويمكن إدراك أن مناخ فلسطين الثلاثي وفي جميع الأوقات يجب أن يكون قد أثر بشكل كبير في ظروف البلد الاقتصادية، كما لا يزال يحدث اليوم، خاصة في ما يتعلق بتبادل المنتوجات الزراعية وتربية المواشي. فما ينمو في المناخ الأكثر دفئًا في الساحل وغور الأردن، أو يُثمر في وقت أبكر، له أهمية لسوق المنطقة الجبلية التي تسد حاجة باقي أجزاء البلد من الثمار. كذلك الأمر لنمو النباتات البرية في مناطق البلد الأكثر دفئًا التي هي مهمة كأعلاف للحيوانات، حين يكون القليل قد نما في المناطق الجبلية، أو حين لم يكن قد نما فيها أي شيء.

يحتسب إكسنر[731] أيام الصقيع في القدس على الشكل التالي: في تشرين الثاني/ نوفمبر 0.1، في كانون الأول/ ديسمبر 0.7، في كانون الثاني/ يناير 2.5، وفي شباط/ فبراير 0.3. وهذا يعني فترات صقيع قصيرة تستمر يومين إلى ثلاثة أيام، كحد أعلى. ولكن ربما كان من الأفضل الحديث عن ليالي الصقيع؛ إذ إن الصقيع يحدث ليلًا أو عند طلوع الصباح وليس على صلة أبدًا بشروق الشمس. وفي الصباح، قد يجد المرء قطعًا ثلجية على البرك الصغيرة، لكن تلك القطع لا تلبث أن تختفي بسرعة. والصقيع غير مألوف البتة في حلب، مع أنها باردة في الشتاء، لأن الصقيع استمر في سنة 1750 من بدايتها حتى 21 كانون الثاني/ يناير من السنة التالية، ومن 23 إلى 31 كانون الثاني/ يناير، بعد أن ساد من 18 إلى 20 تشرين الثاني/ نوفمبر، ومن 24 تشرين الثاني/ نوفمبر حتى 16 كانون الأول/ ديسمبر[732]. ومثل هذه الإطالة للبرد ربما كانت مستحيلة في القدس. ولكن ضمن فلسطين، ربما كان ذلك ممكنًا في الجولان الشمالي. ومن الجدير بالملاحظة، في أي حال، أن اقتراب درجة حرارة النهار من درجة حرارة الليل[733] التي تبدأ في الخريف، يعني نسبيًا أيامًا باردة، حتى مع شروق الشمس. وفي حين يمكن في آب/ أغسطس تسجيل تغير

(731) *ZDPV* (1910), p. 122.

(732) Russell, *Naturgeschichte von Aleppo*, vol. 2, p. 131.

(733) يُقارن أعلاه، ص 90 وما يليها.

يومي في درجة الحرارة مقداره 9.5 درجات مئوية في المعدل، يبلغ في كانون الأول/ ديسمبر 5.3، وفي كانون الثاني/ يناير 4.9، وفي شباط/ فبراير 6.1، وفقًا لإكسنر[734]، في حين يورد شابلن الأرقام 7.7؛ 7.2؛ 7.3 بشكل مخالف للنهاية العظمى 13.4 درجة مئوية في أيلول/ سبتمبر[735].

بشكل عام، يمكن وصف الشتاء بأنه الوقت الذي يقصد فيه أهل المدن الجانب المشمس من الشارع، في حين أنهم يتجنبوه في الصيف. وفي البيت يستخدم المرء الحجرات في الجهة الجنوبية بسرور، وفي الصيف يفضل تلك الموجودة في الجهة الشمالية حيث يستطيع التمتع بشكل تام بضوء النهار الذي لا تضعفه أي مصاريع. ويدرك المرء الجهد الجسدي كشيء مفرح، فهو في الصيف يؤدي إلى الإحساس بالحرارة والإنهاك دونما تأثير نافع يترتب عليه. ولذلك يمكن في أيام الريح الشرقية والشمالية الباردة القيام برحلات تجوال طويلة، في حين أن الركوب غير مستحب. كما أن الرحلات التي كانت تستدعي ركوب الخيل، يعيقها المبيت غير المدفأ بشكل كافٍ. أما النوم في العراء، فهو في عداد المستحيل، علاوة على أنه لم يؤخذ في الحسبان المطر الساقط في النهار والليل. ومن هنا شاعت أمثال العرب التي تنصح بعدم السفر في الشتاء[736]: "في كانون - كِنّ عند أهلك يا مجنون"، أو: "بين كانونين - لا تسافر يا شقي"، و[737]: "في كانون الأصم - أقعد في بيتك وانطم"، وأيضًا[738]: "بين الغطاس وعيد

(734) *ZDPV* (1913), p. 154.

(735) *PEFQ* (1883), p. 39.

(736) إن أفضل ما يقوم به المرء في "كانون" هو الاستمتاع بدفء البيت الخاص به، وهذا ما ينطبق على لبنان أيضًا. والأقوال تشبه تلك التي ذكرت سابقًا. "بكانون كِنّ"، أي: "في "كانون" إجلس هادئًا!"، "في كانون كِن ببيتك - جوات ملحك وزيتك"، "كانون الثاني الأصم - اقعد في بيتك وانطم"، "جا كانون وصمّ - اقعد في بيتك وانطم"، "بين اغطاس والميلادي - إياك تِسافر يا غادي [المغادر صباحًا] (**المشرق** (1905))، ص 665 وما يليها، 865). ويبرهن القول الأخير على أني قمت في السطر الثامن بتفسير "عيد الروم" كـ "عيد الفصح"، على الرغم من أنه عادة ما يُسمى كذلك. ويتعلق الأمر بالفترة الزمنية الواقعة من 7-19 كانون الثاني/ يناير [بحسب التقويم الغريغوري].

(737) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 277.

(738) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 32,

حيث يتم اعتبار عيد الروم على أنه عيد الميلاد.

الروم – لا تسافر يا مجنون": "بين عيد الغطاس وعيد الروم (الفصح)، لا تسافر أيها المجنون!". وهذا ما يتساوق مع شكوى المقدسيين أمام عزرا في 20 كيسلو (عزرا 10:13): "إنه وقت المطر، ولا يمكن البقاء في العراء"، ومع كلمة يسوع (متّى 24:20): "أُدعوا ألا يكون هروبكم في الشتاء!" ومع ذلك توفر التضاريس الجبلية بعض الحماية من الريح في الأودية، في حين أن ما هو صحيح عن المنخفضات تعبّر عنه الأمثال التالية: الهوا والصقعة – بتلقَ في البقعة": "الهواء والبرد – تصادفه في الأرض المنبسطة" ("إذنا")[739]. أما غور الأردن بمناخه (يُنظر أعلاه)، فلم تأخذه هذه الأقوال المأثورة في الاعتبار، لأن مسالك السفر الأساسية المهمة لا تمر بمحاذاته.

وعدا ذلك، يعرف الفلسطيني كيف يرتضي بما لا يقدر على تغييره. وكما يقول في الصيف: "فيه شوب"، كذلك الأمر في الشتاء: "فيه بِرد" ("صِقعة" باللهجة الفلاحية). وهو قليل الشكوى بالنسبة إلى الأقدام الباردة، على الرغم – أو بسبب – غياب الجوارب غالبًا، لكنه يشعر بالبرد في الرأس الذي يحرص على حمايته بشال من الصوف ملفوف حول الرأس والعنق[740]. وبالنسبة إلى الجسد، فغالبًا ما تتوافر سترة طويلة من صوف الغنم ("فروة") ومن دون بطانة، وهي المذكورة في سفر العبرانيين (11:37) كرداء للطوارئ[741]، في حين توصف في الأمثال (31:21) على أنها صوف قرمزي يفترض به أن يقي الثلج، إلا إذا قرأه المرء مع شتيورناغِل (Steuernagel) "شِنَيم" بدلًا من "شانيم"، حيث على المرء أن يفكر في هذه الحال برداء مضاعف. وبالطبع، يستطيع من هو مقتدر بعض الشيء أن يوفر لنفسه التعزيز الضروري لملابسه، فهو يتفاخر

---

(739) دوّنها شفوبل.

(740) ذلك أن الشعور بالبرد يعتمد على الملابس، فهذا ما يشير إليه المثل القائل: "ربنا بفَرِّق البرد على قد الكسوة". (في: (Ibid., p. 867)).

(741) تذكر الأدبيات اليهودية، على ما يبدو، في:

Tos. Ber. II 15,

غطاء للحوض مصنوع من جلد الحيوان المدبوغ ("عور")، مشابه للذي، بحسب متّى 3:4، كان قد لبسه المعمد، إلا أنه لم يكن فروًا.

بالشتاء[742]: "أجَا لِبس الجوخ والفرا"، أي: "حان وقت ارتداء الجوخ والفراء"، في حين أن الفقير يتحسر: "أجَا لِبس الشراطيط"، أي: "حان وقت ارتداء الخرق البالية"، لأن عليه الآن استخدام جميع ما تبقى لديه من الثياب القديمة.

ووفقًا للقزويني، يبدأ برد الشتاء في 26 تشرين الثاني/نوفمبر بصعود "القلب" (قلب العقرب)، والذي يظهر أصلًا في أيوب (9:37) كجالب للبرد[743]. ويطلق العرب على هذا الكوكب، جنبًا إلى جنب مع "النسر الواقع" (في الأسد)، "الهرّارين" (المتذمرِيَّن)، لأن التذمر غير المريح للشتاء ("هرير الشتا") يبدأ بصعودهما[744]. أما البرد القارس، فيتحدد في نهاية كانون الأول/ديسمبر وبداية كانون الثاني/يناير، أي في الغطاسيات (يقارن أعلاه، ص 178) ومن خلال الجُمَل[745]: "في الميلاد - بِزيد البرد زيادة"، أي: "في عيد الميلاد يصبح البرد مفرطًا"، و: "في الغطاس بيُغطُس نُصّ البرد"، أي: "في عيد الغطاس يغطس نصف البرد"، ولذلك يستطيع المرء القول أيضًا: "بين الغطاس والميلادِ - لا تسافر يا هادِي"، أي: "بين عيد الغطاس وعيد الميلاد لا تسافر أيها الهادئ (العاقل)!". و"بالكاد نجد ما هو أبرد من فترة الـ'مِربعانية'، أي خلال الأربعين يومًا بعد عيد الميلاد". ولذلك يتوجه المرء بالدعاء[746]: "يا ربِّي نجِّينا من نزلات المربعانية". وقد كان للمقدسي قول مأثور هو[747]: "حين تأتي السنة الجديدة، يرتدي المرء ملابس دافئة ويلتزم البيت!" ويبقى شباط/فبراير شهر انتقال وتحوّل، إلا أنه يجمع في داخله تناقضات ذات توازن مختل وصارخة الطابع. ولذلك يقول المرء عنه: "ريحة الصيف فيه" (يُنظر أعلاه، ص 182)، و: "في شباط عشرة صَمّ عشرة دَمّ عشرة لمّ"، أي: "في "شباط" هناك عشرة أجزاء برد شديد، وعشرة أجزاء دم (لأن العشب الأخضر يصنع دمًا)، وعشرة أجزاء جمع (من الحليب)"، وهذا التفسير الذي ذُكر لي في كفر أبيل. إلا أن كلمة "دَمّ"

(742) Cana'an, *ZDPV* (1913), pp. 293f. (Nazareth).

(743) يُقارن أعلاه، ص 15 وما يليها.

(744) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 48.

(745) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 32.

(746) Cana'an, *Aberglaube und Volksmedizin*, p. 34; *ZDPV* (1913), p. 285.

(747) Gildemeister, *ZDPV* (1884), p. 219.

قد تعني أيضًا أمرًا سيئًا، وكلمة "لَم" أمرًا جيدًا. وعلى "شباط" يُطلق المرء جراء ازدواجيته، الـ"أعور"، أي "ذو العين الواحدة" إذ إنه[748]: "يفتِّح عين ويغمِّض عين". ويظهر تناقص البرد في شباط/ فبراير مرتبًا بشكل أدق كالتالي: "فيه ثلاث برود، عَ التنعشر بُغطس البرد الأول، عَ الثمنتعشر بغطس البرد الثاني، والثالث بضل للصيف وللشتا"، أي:"هناك ثلاث درجات من البرد: في 12 شباط يختفي البرد الأول، في 18 شباط يختفي الثاني، والثالث يبقى للصيف والشتاء (موزعًا على مدار السنة) ('القُبيبة')". ويتحدث آخرون عن ثلاث جمرات متوهجة تعني حرارة متصاعدة[749]. الأولى، "جمرة الهوا" التي تدفئ الهواء في حوالى 7 من "شباط"، والثانية، "جمرة المي"، "جمرة الماء"، تدفّئ الماء في حوالى 14 من الشهر ذاته، والثالثة، "جمرة الأرض" التي تقوم بالمهمة نفسها تجاه الأرض في 21 من الشهر ذاته، بحيث يكون قد تدفّأ كل شيء مع نهاية الشهر. وعن ذلك يتحدث القزويني أيضًا[750]، فهو يصف 7، 14، 21 "شباط" بأنها الأيام التي "تسقط" فيها الجمرات الأولى والثانية والثالثة، مفسرًا ذلك بالتقليد الذي ساد يومًا ما والمتمثل في نصب خيمة ثلاثية الأقسام في الشتاء، حيث تعيش في الجزء الخارجي الحيوانات الكبيرة، وفي الجزء الثاني الدواب الصغيرة، ويعيش في الجزء الداخلي الناس. وقد جرت تدفئة كل جزء بواسطة جمرة. وفي 7 شباط/ فبراير خرجت الدواب الكبيرة إلى الخلاء وحلت في محلها الأخرى، بحيث إن الجزء الداخلي صار لا يحتاج إلى التدفئة. وفي 14 خرجت الدواب الصغيرة، بحيث أصبح جزآن من الخيمة فارغين. وفي 21 خرج الناس وتوقف إشعال النار للتدفئة. وإذا كان هذا التفسير أكثر صحة من المذكور أعلاه، فهذا موضع تساؤل، وله أسبابه؛ فحكاية الخيم الثلاث المدفّأة بعيدة الاحتمال بقدر علاقة الجمرات الثلاث بنيران التدفئة الثلاثة. فالأمر الوحيد الذي يظهر هو أن

---

(748) Harfouch, *Drogman Arabe*, p. 69.

(749) شتيفان بحسب كنعان،

JPOS, vol. 3, p. 162;

يُقارن:

Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 285.

(750) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 76.

تقليص التدفئة هو صفة مميزة لشباط/ فبراير، في حين أن كانون الثاني/ يناير لا يقدم سببًا لذلك، على الرغم من أن أيام البرد الـ 40 تنتهي في 22 من هذا الشهر (يُنظر ص 180). كما أن إشارة الانتهاء بشكل نهائي من التدفئة تكمن في اسم سابع "أيام العجوز" المذكور في ص 182، "مُطفِ الجمر"، أي "مطفئ الجمر"؛ فالمقصود تبعًا لذلك، وبشكل صريح، نهاية البرد.

واقع الأمر أن التدفئة هي صفة مميزة لأشهر الشتاء. والشتاء الذي يظهر للفلسطينيين ممن لا يعرفون بهجة الشتاء وفرحه، كرجل شرير يجيب عن سؤال الصيف في شأن كيف خلّف الناس وراءه[751]: "خليتهم صُفُر ومبعَجرين – وعند الكوانين قاعدين"، أي: "تركتهم صُفر اللون ومتقلصين حول المواقد". في هذا الوقت تصبح البيوت باردة. وفي بيت الفلاح المبني على الطراز القديم والذي بالكاد توجد فيه نوافذ، تصبح فتحات الهواء الصغيرة مسدودة. كما أن أشعة الشمس لا تستطيع التغلغل في داخل البيت. وفي أحد بيوت المدينة المبني بشكل جيد، تهبط درجة الحرارة إلى 10 درجات مئوية. وطوال ثلاثة أشهر على الأقل، من بداية كانون الأول/ ديسمبر حتى نهاية شباط/ فبراير تقريبًا، تكون التدفئة حاجة ضرورية، وقد يتم الاستمرار في التدفئة في آذار/ مارس أيضًا، على الرغم من أن المرء في هذا الوقت يستطيع الاستمتاع بدفء الشمس. وبالطبع يكاد لا يقوم شخص في المدينة بتدفئة جميع حجرات منزله. والمرء راض بقليل من الدفء في حجرة واحدة. ومن أجل هذا الغرض، يجري إعداد كانون فحم معدني ("مَنقَل"، "منغل")، وتقوم قطع الـ"فحم" النباتي المتجمرة برفع حرارة حجرة صغيرة بضع درجات، ولكن في حجرة كبيرة، فإن نشر الحرارة في صعب، وتصبح هذه التدفئة خطِرة، حين لا يحترق الجمر المغطى بالرماد كليًا، فيسبب صداعًا وربما الوفاة في الليل جراء الاختناق. وتوجد في بيوت الفلاحين في عدد من مناطق فلسطين مدفأة ذات مدخنة تسمى "الموقد"[752]. والأكثر تطورًا هي المواقد الحديد الصغيرة التي استقدمها الأوروبيون لاستخدامها

(751) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 284.

(752) Jäger, *Bauernhaus in Palästina*, pp. 27f.

في المدن، والتي تستهلك كثيرًا من الخشب[753]. ولكن الأفضل هي المدافئ الصغيرة المرصعة بالبلاط التي كانت نادرة جدًا قبل 20 عامًا، والتي يمكن استخدام الفحم الحجري وقوالب الفحم فيها. وللغرض ذاته يمتلك المرء في البيت الفلاحي وعاء الفحم الفخاري الذي، وفقًا للأشهر الذي يُستخدم فيها، يُدعى "كانون"[754]؛ فبعد أن تحول الفحم إلى جمر متوهج في خارج الغرفة، يقوم الفلاح بوضعها على الأرضية، فيقرفص أو يتربع حولها ويضع يديه فوقها ويستمتع بالحرارة تصيب رأسه متحملًا أن هناك دائمًا في بيت الفلاح رائحة دخان، وأن السقف غالبًا ما يكون مسودًا بالسخام، خاصة إذا استوجب الأمر، بين الحين والآخر، استخدام الحطب. "دُخّان يعم ولَ برد يُضنِ"، أي: "دخان يعمي البصر أفضل من برد يتسبب بمرض"[755]؛ ذَلك أن الفحمَ النباتي كان في الماضي، كما اليوم، وسيلة مهمة لإنتاج الدفء، وهذا ما يبدو في الأمثال (21:26)، حيث يظهر الفحم النباتي منتجًا للجمر المتوهج، تمامًا كما يظهر الخشب منتجًا للنار. ويترجم سعديا بشكل سديد: "الفحم مادة الجمر والحطب للنار". ووفقًا لإشعيا (16:54، 12:44)، فإن الفحم النباتي ينتمي إلى مهنة الحداد الذي، وفقًا للفحم ("بحام")، يمكن من غير تحفظ تسميته فحام ("بِحامي")[756]. وبالنسبة إلى الـ"آَح" المحترق الذي يجده الملك جالسًا في "البيت الشتوي" في الشهر التاسع أمامه (إرميا 22:36)، فلا يتعلق الأمر بنار الحطب، وإنما بنار الفحم، كما فهمتْ ذلك الترجمة السبعونية والترجوم والسريانية بشكل صحيح[757]، أكانت هذه النار قد وُضعت في حفرة في الأرض لهذا الغرض، أم كانت مجمرة قابلة للنقل. وربما كان "البيت الشتوي" هنا، كما

(753) يُقارن أعلاه، ص 84.

(754) عن "كانون" يُقال: "بكانون ولِّف الفحم والكانون" (Ibid., p. 665).

(755) Landberg, *Proverbes et dictons de la province de Syrie*, p. 71.

(756) b. Ber. 28a,

ووفقًا لـ

Koh. R. 9, 8 (114b),

يُعتبر الفحم الحجري عنصرًا مميزًا للحَدّاد، كما يميز الفخار الخزاف.

(757) يفسر الرابي البابلي وشموئيل في:

b. Sabb. 20a,

"آح" كونه مادة تُستخدم للإشعال أو الحرق.

في عاموس (3:15) حجرة واطئة وصغيرة، كما حجرات الشتاء الصغيرة في اسطنبول التي يدفئها بحجر الفحم. وتظهر نار الفحم (بالمسيحية الفلسطينية "جُمرين") في دهليز قصر كبار القساوسة (يوحنا 18:18؛ يقارن مرقس 14:54) حين لم يرغب الخدم، في ليلة نيسانية، في البقاء من دون التدفئة، حيث يعلمنا يوحنا (21:9) أن نار فحم اشتعلت من غصون جافة تناظر ["جمرين"]. وتتحدث الشريعة اليهودية أحيانًا عن تدفئة ثلاثية[758] دونما إشارة إلى كيفية إعداد التدفئة[759]. ويستطيع المرء التصور أن المرء في حينه كان قد امتلك مواقد متحركة للتدفئة، تمامًا كما امتلك مواقد للطبخ. لكن، في بيت الفلاح في شرق الأردن، شكلت حفرة مستديرة صغيرة ("نُقرة") مكانًا لنار التدفئة. وكذلك يتمتع وسط الأرضية في قسم الرجال ("شِقّ") في خيمة البدوي بحفرة سطحية ("جورة")، يُنتج حطبها لا فحمها الإنارة في المساء. لكن في الشتاء، حين يكون المرء قد أغلق الجزء الأمامي من الخيمة، يوفر الحطب الدفء أيضًا. وحتى البدوي الذي تعوّد احتمال المشاق، يقدّر النار التي توقد لتوفير الدفء، فيقول عن ذلك: "النار فاكهة الشتا، وِل[760] ما يصدق يصطِل"، أي: "النار فاكهة الشتاء، ومن لا يصدق عليه أن يصطلي بها، أي أن يقترب ويدفّئ نفسه بها" (حلب)[761]. ويقول بدو "الحجاير"، حين يقرفصون حول النار المحبوبة: "والله هي النويرة زينة، الله يكثِّرَ فِ هالدنيا وفي الآخرة. بقولوا النويرة للنصارى، ما نعطيهم منها لا في الدنيا ولا في الآخرة"، أي: "والله إن النار الصغيرة زينة، الله يكثر منها في هذه الدنيا وفي الآخرة. يقولون إن النار (نار جهنم) للمسيحيين، ولكن لن نعطيهم منها لا في الدنيا ولا في الآخرة" (إلجي).

كما يتم التعبير عن التقدير والإجلال للنار التي تبعث الدفء في إشعيا (44:16)، بصرخة التعجب المنطلقة من ذلك الذي يستدفئ بها: "آه، أنا دافئ

---

(758) Tos. Sabb. XVI 18, Bez. II 10.

(759) يُنظر

Rosenzweig, *Das Haus in der Mischnah*, pp. 62f.

(760) "اِل" = "إلّي".

(761) يُقارن:

Paläst. Diwan, pp. 105; Landberg, *Proverbes et dictons*, pp. 183ff.,

والجملة الأولى معروفة أيضًا في محيط صيدا وتتردد في قصائد الشعراء.

الآن، لقد رأيت (أحسست) بوهج النار!" وفي إشعيا (14:47)، حيث النار الملتهمة وضعت في تضاد مع "جمرٍ للاستدفاء ونار يجلس المرء أمامها". ويقودنا يعقوب (16:2) إلى التفكير في أن الفقير يحتاج إلى جانب الشبع، إلى الدفء أيضًا. كذلك على المرء أن يمنح الفقير مع الخبز حطبًا للدفء أو يدعوه إلى البيت للاستدفاء.

لا يستطيع كل امرئ اليوم تدفئة بيته كما يريد؛ فالفحم النباتي من شرق الأردن مكلف ماديًا. كما أن فروع الأشجار ("حطب") وبشكل خاص جذورها ("قِرامِي") يجب جلبها من بعيد. وفي حال قام البدوي باستبدال الخيمة بكهف، نتيجة سقوط الأمطار أو الثلوج، تبقى ثمة حاجة إلى نار للتدفئة. وفي حلب، حيث ساعدتني مدفأة حديد صغيرة تعمل على الفحم على تحمّل برد الشتاء، سألت صديقي البدوي حميد كيف كان قادرًا على توفير الدفء في كهفه. فأجابني: عندما نشعر بالبرد الشديد، نقوم بأداء الرقصة الدائرية ("دبكة"). وفي "الجولان" الشمالي الذي يتمتع بشتاء قارس بشكل خاص، نظرًا إلى علوه وقربه من جبل الشيخ، تمتلك كل عشيرة بدوية قريتها الشتوية ذات البيوت الحجرية، فتلجأ إليها حينما تصبح الرطوبة أو البرد في الخيمة لا يمكن احتمالهما[762]. كما أن الثلج المتراكم على مدى أسابيع يجعل من الضروري توفير طعام ودفء للإنسان والحيوان تحت سقف واقٍ. وبهذه الطريقة، وحتى في يومنا هذا، يدفع برد الشتاء الناس إلى بناء البيوت بطريقة مماثلة لطريقة الأزمنة الغابرة. ومن المفترض أن المطر هو الذي شكّل الدافع الأكثر أهمية لقيام ببناء مساكن ثابتة لدى السكان المستقرين.

و. الأمطار المتبلورة

ليس هناك من شتاء في مناطق فلسطين الجبلية دونما صقيع له تبعاته على الأمطار والماء؛ فبعد ليلة صقيع، كما تأتي بها الريح الشمالية (يقارن سيراخ

(762) Schumacher, *ZDPV* (1886), pp. 231, 248ff.

يُقارن:

222; *PJB* (1905), p. 85.

20:43)، يجد المرء الأرض مغطاة بالجليد. حينئذ يقول المرء: "رامية الدنيا حورويز": "الدنيا ترمي حوروير"، أي: "تلقي جليدًا"، كما لو كان قد سقط من السماء، بحسب المزامير (16:147)، أيوب (29:38)، سيراخ (19:43)، في حين يُفرِّق القزويني[763] بشكل واضح بين البَرَد ("بَرَد")، وهو مطر متجمد يتساقط، و"الجليد"، الذي يعتبره "ضبابًا" متجمدًا، وبالتالي ينشأ من طبقة الهواء السفلى. وعلى الجليد يُطلق في المدن "حَليت"، ربما لأنه يُشبه ندائف الصوف ("حُلاتا"). وفي لبنان ربما كانت تسمية "ملّاح" تشير إلى بركة ملح صغيرة ("ملّاحة"). وبالفعل، فعلى شواطئ البحيرات الملحية إلى الشمال من البحر الميت يظهر الملح المتراكم مثل بلورات الصقيع بين القصب[764]. وإذا كان المرء في عجلون يُطلق عليه "حوّارة"[765]، فإن الاسم مأخوذ من التربة الكلسية البيضاء. ولا يتكرر الجليد كثيرًا، ففي شتاء 1908/ 1909 لاحظته في صباح 3 كانون الثاني/ يناير، وهو قد يتسبب بالضرر للبذور إذا لم يتبعه سريعًا مطر غزير.

وبشكل متزامن مع الصقيع أو من دونه، يجد المرء ثلجًا رقيقًا ("جِليد"، "قَرقيز"، "حُوروير"، "قحيط")[766] على بريكات الماء في الشوارع، والتي يمكنها، في الظل، أن تبقى حتى الظهر، ولكنها تختفي دائمًا تحت تأثير أشعة الشمس. أما الثلج الذي يستطيع تحمّل ثقل إنسان، فلا تعرفه فلسطين أبدًا. وأما الترفيه والمسرات الشتوية المرتبطة بذلك، فغير معروفة. وحتى في مناخ حلب الأكثر برودة، لم يجرب راسل[767] في 13 سنة ثلجًا يمكنه تحمّل ثقل رجل إلا ثلاث مرات فقط في الأماكن الظليلة من بركة لم تستمر طويلًا، لأن الثلج بقي أكثر من يوم في 3 فصول من 13 فصلَ شتاءٍ. ولا يعرف الفلسطينيون

(763) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 94.

(764) يُنظر:

PJB (1924), fig. 1.

(765) Schumacher & Steuernagel, *Der ʿAdschlun*, p. 21.

(766) الأخيرة بحسب شوماخر، وفقًا لمصدر سبق ذكره، في "عجلون".

(767) Russell, *Naturgeschichte von Aleppo*, vol. 1, p. 92.

من أهل المدن ثلجًا سميكًا حقيقيًا إلا في مصانع الثلج. ولا يُطلقون عليه اسم "جِليد"، بل "ثِلج"، ربما لأنهم استخدموا في الزمن الماضي ثلج لبنان لتبريد المشروبات[768]. وبالقرب من صيدا ذُكر لي في سنة 1909 أن "الثلج" يؤتى به في الصيف على ظهر الجمال من [جبال] لبنان، وأن نصف الحمل يذوب في الطريق، وأن بيروت تمتلك مصانع ثلج.

يشكل الماء المتقاطر على الأسطح والجدران الصخرية والأشجار في ليالي الصقيع كتلًا جليدية ناشئة عن تجمد الماء، بالعربية "قُلب" (ج. "قلوب") "قزقيز" أو "قضيب (ج. "قضبان") حوررير"، والتي لا تلبث أن تتحول إلى ماء يسيل. ومثل هذا التشكل الجليدي يُلحق الضرر بأشجار التين وكروم العنب؛ فالأغصان والمحاليق المتسلقة الضعيفة تتجمد ما يستدعي قطعها. أما الصقيع المجرد الذي يُطلق عليه في المدن كلمة "بِرد"، وفي المناطق الريفية "صِقعة"، فعادة ما يتسبب في القليل من الأضرار. وتلك الأشجار الآتية من مناطق حارة على غرار شجرة الفلفل (Schinus molle) والأوكالبتوس والميموزا تتعرض أوراقها وأغصانها للضرر، في حين أن البذور والنباتات البرية تتأخر في نموها، وهو الأمر المفيد للزرع، ما دام البرد لا يستمر طويلًا.

يمكن أن تتساقط الثلوج ("ثلج") في المرتفعات بمعدل يوم واحد إلى ثلاثة أيام في الشتاء[769]. أما كمية الثلج ومدة تساقطه فهما متفاوتتان إلى حد بعيد. ويقدم شابلن[770] الإحصاءات التالية التي تغطي فترة 22 سنة (1860-1881): 8 سنوات دونما ثلج، 5 سنوات مع ثلج في شباط/فبراير وحده، 4 سنوات مع ثلج في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، سنة مع ثلج

---

(768) بالكاد حتى ذروة الصيف، بحسب فيشر:
Fischer, *Mittelmeerbilder*², p. 71.

(769) أما كيف يتوقع المرء تساقط الثلوج بشكل قوي في لبنان قبيل رأس السنة الجديدة (التقويم اليولياني)، فهذا ما يدل عليه المثلان التاليان: "بين الموالد والدنوح [عيد الغطاس] – عند جارك لا تروح، وإن رحت خذ زوادتك معك" (لأنك ربما لن تعود سريعًا)، و: "بين المولد والقلندس [رأس السنة] – عند جارك لا تقرفص [أي لا تطيل قعودك]، وإن قرفصت لا تبات – يصبح عليك الثلج قامات" (Ibid., p. 865).

(770) *PEFQ* (1883), p. 32.

في كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس، سنة مع ثلج في كانون الأول/ ديسمبر وآذار/ مارس، سنة في آذار/ مارس وحده، سنة (1873/ 1874) في جميع الأشهر من كانون الأول/ ديسمبر وحتى آذار/ مارس، سنة (1869/ 1870) في نيسان/ أبريل وحده. أربع مرات تساقطت فيها الثلوج في الشتاء لمدة يوم واحد، وثلاث مرات لمدة يومين، ومرة لمدة ثلاثة أيام، وأربع مرات لمدة أربعة أيام، ومرة واحدة لمدة ستة أيام، ومرة واحدة لمدة 12 يومًا (1873/ 1874). وقد سُجِّل الثلج الأكثر ارتفاعًا في 28 و29 كانون الأول/ ديسمبر 1879، إذ بلغ ارتفاعه 4.2 سم. وعوضًا عن تساقط ثلوج طفيفة لا تلبث أن تختفي، هناك أخرى تُذكِّر من حيث كميتها بالأحوال الألمانية، وتتسبب في ثلج يستمر متراكمًا فترة أطول. ويجب اعتبار الأمر شيئًا استثنائيًا لأن الثلج في سنة 1797 قد تراكم من 20 شباط/ فبراير فصاعدًا مدة 12 يومًا، كذلك في كانون الثاني/ يناير 1836[771]. ويورد إكسنر[772] المعطيات التالية بالنسبة إلى القدس كمعدل لعشرة سنوات: 2.9 من الأيام مع تساقط ثلج في الشتاء، منها 0.1 في تشرين الثاني/ نوفمبر، 0.7 في كانون الأول/ ديسمبر، 1.4 في كانون الثاني/ يناير، 0.5 في شباط/ فبراير، 0.2 في آذار/ مارس؛ ذلك أن ثلجًا قد يسقط في آذار/ مارس، فهذا ما تفترضه الشريعة اليهودية، حين تحدد أن سقوط الثلج والبرد لا يفترض بهما أن يحددا السنة الكبيسة، والتي يجب أن تحصل في آذار/ مارس[773].

دوَّنت في شتاء 1908/ 1909، في ليلة 30 تشرين الثاني/ نوفمبر، أن ثلوجًا مصحوبة بهواء شبه ساكن تساقطت. وفي الصباح التالي، لاحظت طبقة ثلج متجمدة سمكها 3 مم، وسطوحًا وجبالًا بيضًا. وفي العاشرة قبل الظهر، كان كل شيء قد اختفى. وبعد الظهر تساقطت حبات بَرَد ثم ثلج. وفي 8 كانون الأول/ ديسمبر و13 كانون الثاني/ يناير كانت هناك مرة أخرى حبات بَرَد، وفي 4 شباط/ فبراير هطل مزيج من المطر والثلج، وفي 24 شباط/ فبراير تساقطت

(771) Tobler, *Denkblätter*, pp. 25f.

(772) *ZDPV* (1910), p. 154.

(773) Ton. Sanh. II 12.

حبات بَرَد، تبعتها في 4 أيار/ مايو، وهو شهر لا يعد من أشهر الشتاء، حبات بَرَد من جديد يصل وزن الحبة الواحدة منها إلى غرامين. وبشكل عام، يمكن اعتبار ذلك شتاءً عاديًا. ومن حلب يُورد راسل[774] تساقط ثلوج من 3 إلى 7 كانون الثاني/ يناير 1746، والذي بموجبه وصل الثلج المتراكم إلى ارتفاع قدم، وظل حتى ذوبانه في 13 كانون الثاني/ يناير في المناطق الظليلة من الحقول المفتوحة. إلا أن الأسوأ كان في القدس في سنة 1911؛ آنذاك سقطت في ليلة 10-11 شباط/ فبراير كمية كبيرة من الثلج مصحوبة بريح هوجاء، ومرة أخرى في 11 مصحوبة بعواصف رعدية وصقيع عند درجة مئوية واحدة. وقد بلغ ارتفاع الثلج 20-30 سم وتوقفت حركة المركبات، كما توقفت حركة القطارات. وقد قام سويديون بنزهة في القدس على مزلجة، وتسلى النرويجيون بمعركة تقاذفوا خلالها كرات الثلج بالقرب من ساحة جبل الهيكل [ساحة الحرم الشريف]. وفي حديقتي نُحِتَ تمثال لرجل الجليد. وقد تكسرت أشجار وتضررت سطوح المنازل بعد أن تساقطت ليلة 17 و18 شباط/ فبراير ثلوج مصحوبة بعواصف رعدية. وحين ذاب الثلج، ظلت كتل من الثلوج متراكمة، وقد جفل حصاني حين كان يدوس واحدة منها. إن هذا المشهد الشتائي بعث السرور في نفوس أهل الشمال [الأوروبيين]. وفي 11 شباط/ فبراير 1927 سافر التلاميذ الألمان في يافا إلى القدس للاستمتاع بمعركة يتقاذفون فيها كرات الثلج. إلا أن تساقط الثلوج في تلك الأيام أدى إلى الضغط على أسطح المنازل في القدس، بحيث كان على البلدية التدخل للمساعدة. وقد ذُكر أن ستة من البدو ماتوا من البرد في طريقهم من الخليل إلى بئر السبع[775]. وفي منطقة "الشراة" في الجنوب الشرقي [جبال الشوبك والبتراء] حاصر ثلج تساقط على مدى أربعة أيام في شتاء 1897/ 1898 البدو في خيامهم. وفقد أحدهم صبيين وجميع جماله[776]. وهكذا يصبح مفهومًا لماذا لا يحب الفلسطيني الثلج، بل يخشاه، كما يفترض ذلك سفر الأمثال (21:31).

(774) Russell, *Naturgeschichte von Aleppo*, vol. 2, pp. 224f.

(775) *Warte des Tempels* (1927), pp. 39, 46f.

(776) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 2, 1, pp. 269f.

تخطت العاصفة الثلجية في 9-12 شباط/ فبراير 1920 كل ما خبره المرء في ربع القرن الماضي؛ فقد تراكم الثلج آنذاك ليصل إلى ارتفاع متر واحد، بحيث لم يكن في الإمكان دفن الموتى، في حين عُزل الفلاحون عن المدينة. كما هوت أسطح المنازل ودفنتْ تحتها الإنسان والحيوان معًا. وفي بعض المناطق تكسر نصف أشجار الزيتون. وحتى في سنة 1921 أمكنني شخصيًا ملاحظة الأضرار التي حصلت. ومن الواضح أن تساقط الثلج بهذه الشكل ربما عطّل عملية عسكرية، كما ورد على لسان تريفون (Tryphon) السوري الذي أراد الزحف سريعًا بخيالته من أدورا (دورا) إلى الغرب من الخليل نحو القدس حوالى سنة 142 قبل الميلاد، ثم تخلى عن ذلك بسبب تساقط الثلوج[777]. ولم يأتِ العهد القديم إلى ذكر أي حادثة تاريخية ترتبط بالثلج.

من المفترض أن الثلج في الساحل يُعتبر استثناءً، على الرغم من افتقاري إلى معطيات دقيقة. وفي غزة سقط في شباط/ فبراير 1874 ثلج أدى إلى انهيار سقف وموت لص، في حين نجا أهل البيت من خلال تدبير عجيب، وكان ذلك على صلة بالثلج الذي سقط في بيت لحم في 7 و8 شباط/ فبراير وأدى في بيت جالا إلى انهيار 13 منزلًا[778]. وفي القدس تساقط الثلج في 6 و7 شباط/ فبراير، ووصل ارتفاعه إلى 21 سم[779]. ويصف يوسيفوس قيسارية بأنها ذات شتاء دافئ بسبب موقعها المستوي على البحر[780]، كما يصف منطقة أريحا بقوله إن السكان هناك يرتدون الكتان في الوقت الذي يتساقط فيه الثلج في باقي منطقة يهودا[781]. وأورد معلومات عن تساقط شديد للثلوج في صفورية الجليلية[782]، كما يذكر أن من غير الممكن خوض الحروب في الشتاء في المناطق الجبلية

(777) سفر المكابيين الأول 13:22،
Antt. XIII 6, 5.

(778) Hübner, *Denkmale des lebendigen Gottes*², pp. 370f.

(779) Chaplin, *PEFQ* (1883), p. 32.

(780) *Bell. Jud.* III 9, 1.

(781) *Bell. Jud.* IV 8, 3.

(782) Ibid., I 16, 2.

الفلسطينية[783]. وبالطبع لا يزال ذلك كله قائمًا في أيامنا هذه. لكن، قيل لي أنه لم يحدث قط أن سقطت ثلوج في وادي فارة (420 م فوق سطح البحر)، 10 كم شمال – شرق القدس، في حين أنني في عناتا، على بُعد 5 كم منها، لم أتمكن في 4 شباط/ فبراير 1909 من مواصلة رحلتي على دابة نتيجة الطقس الثلجي. وفي القدس حرص بعض الأوروبيين على تمضية عيد الميلاد في أريحا للاستمتاع بالهواء اللطيف فيها (يقارن أعلاه، ص 221). ثمة ثلج أبدي بالقرب من فلسطين فقط في [جبل] لبنان وجبل الشيخ[784]، كما يتحدث إرميا (14:18) عن جبل لبنان ولكن ليس غير الشعاب الجبلية تحافظ على الثلج في الصيف في تلك الأماكن. وقمة جبل الشيخ الثلجية العملاقة التي يراها المرء من القدس حتى جبل المنطار، وإلى ما بعده في بعض الأماكن، فإن اسمها العربي يلائم عبارة "جبل الثلج" أو "جبل الشيخ". وقد تكون سلسلة جبال حوران مغطاة بالثلج، كما يفترض سفر المزامير (15:68) وكما تظهر الصور الجوية الملتقطة في 15 و16 شباط/ فبراير 1918[785]، إلا أن ارتفاعها المعزول الذي يصل إلى 1839 مترًا فقط، لا يسمح ببقاء طبقة الثلج عليه فترة طويلة.

لا يمكن الحديث عن أي منفعة خاصة لسقوط الثلج، كونه مستبعدًا كطبقة تغطي الأرض فترة طويلة. ويقول الفلاحون[786]: "الثلج ملح الأرض"، وربما قُصِد بذلك أن شدة برودته قد تأتي بما هو خير. ويدرك الفلاح من تسمية "ثلج" جميع مظاهر الثلج المختلفة المرتبطة بالاسم. إلا أنه يعرف كيف يميز الثلج الخفيف "نِفِش"، أي كتلة ناعمة من شيء كالصوف (كما في المزامير 16:147)، وحبات البرد التي يُطلق عليها "شميذ" "سمِيْد"، والبَرَد الثقيل ("برد"). وعند كنعان[787] يجري التمييز بين حبات البَرَد، "بريم"، والبَرَد الأكثر

(783) Ibid., II 17, 6.

(784) يُنظر:

Dalman, *Hundert deutsche Fliegerbilder*, nos. 94, 97, 99, 100.

(785) يُنظر:

Ibid., nos. 95-96.

(786) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 28.

(787) Ibid., 29.

خشونة، "خَرَنزة"، والأخير ليس كثير الحصول في فلسطين. أما حبات برد بحجم بيض الحمام، فقد شهدتُه في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1907 في بورسعيد. وليس من النادر في فلسطين أن ترافق عاصفة مصحوبة ببَرَد عواصف رعدية شتوية (يُنظر ص 232)، ولكن ذلك يحصل من دون عواصف أيضًا؛ فهي كثيرًا ما تستبق تساقط الثلوج لأن[788]: "البَرَد فراش الثلج". وفي الفترة الواقعة بين 3 و5 نيسان/ أبريل 1906 هبّت في بلاد الكرك، شمال وادي الحِسا، عاصفة مصحوبة ببَرَد غطت محيط الكرك كله كما لو كانت ثلوج قد سقطت. إن رحلة الربيع الأكثر قسوة التي عشتها في فلسطين كانت الركوب على ظهر دابة في أول هذه الأيام المصحوبة بهبوب رياح شمالية قوية تكبح حركة الخيول وتجمد سيقان فوارسها. ولم يبق من خيار أمامنا غير البحث عن مأوى ليومين عند قسيس يوناني مع ما معنا من خيام. ويورد إكسنر 2.7 من أيام بَرَد للقدس، وذلك: 0.1 في تشرين الثاني/ نوفمبر، و0.7 في كانون الأول/ ديسمبر، و0.3 في كانون الثاني/ يناير، و0.8 في شباط/ فبراير، و0.6 في آذار/ مارس، و0.1 في نيسان/ أبريل، و0.1 في أيار/ مايو بحيث يصبح واضحًا أنه خلافًا للثلج، يمكن سقوط البَرَد في الربيع أيضًا. وقد دونت سقوط البرد في 17 نيسان/ أبريل 1906، وفي 1909 في 5 أيار/ مايو. ففي 17 نيسان/ أبريل 1906 وفي 8 كانون الأول/ ديسمبر 1908 وفي 5 أيار/ مايو 1909 كان البَرَد مصحوبًا بعواصف رعدية، ويُذكّر بالخروج (9:23، 28 وما يلي)؛ المزامير (18:13 وما يلي، 105:32، 148:8)؛ سيراخ (39:29، 43:15)؛ الحكمة (16:16)؛ رؤية يوحنا (16:18.21)، حيث الصلة ذاتها قائمة. وبالطبع يتمتع ذلك بأهمية، كون البَرَد ممكنًا أيضًا حين يكون الهواء في الطبقة السفلى ساخنًا، ودرجات الحرارة في الأعلى مجمِّدة.

وقبل حصاد الشعير، أي ربما في بداية نيسان/ أبريل[789]، سقط البَرَد في مصر بحسب سفر الخروج (9:31 وما يلي)، وفي المقابل سقط بَرَد بيت

(788) Ibid., p. 29.

(789) يُقارن:

Anderlind, *Landwirtschaft in Ägypten*, pp. 77f.

حورون الثقيل في وقت غير محدد (ربما في الصيف؟ (يشوع 10:11)، والذي قتلت "حجارته" بشرًا. وربما رغب الفلاح مسبقًا في معرفة متى ينزل البَرَد كي ينظم عملية البذار وفقًا لذلك، لأن البَرَد لا يؤذي البذور الصغيرة، كما يفترض ذلك سفر الخروج (32:9). ويفترض أن "تقيا" سمع ذات مرة من أرواح كانت تسترق السمع من خلف ستار، هل ستضرب عاصفة بَرَد الزرع الذي نما بعد المطر الأول، أو هل أن ضربة شمس ("شِدّافون") ستضرب الزرع بعد المطر الثاني[790]. فما بُذر مبكرًا يكون حين سقوط البرد قد نما عاليًا، إلى درجة لا بد للبَرَد أن يثنيه، في حين يكون ما بُذر متأخرًا في وقت الرياح الشرقية الحارة لا يزال أخضر، إلى درجة أن البَرَد يقضي عليه. ولذلك، فإن الزرع المبكر ينجو من هذا المصير، وذاك ينجو منه الزرع المتأخر.

علاوة على البَرَد، يعرف العبرانيون جميع التأثيرات الأخرى للبَرَد في الماء؛ فالمنّ الذي يصبح قابلًا للرؤيا في الصباح بعد صعود ضباب ندي، يُقارن في سفر الخروج (14:16) بـ"كِفور" التي لا بد أنها تعني الجليد[791]. فالجليد ينشره الرب مثل الرماد في المزامير 16:147؛ وفي أيوب (29:38)، والذي يأتي من السماء. والثلج ("شِلج") معروفٌ، كمثال للون الأبيض مثلما لا يزال الأمر عليه حتى اليوم، بحسب سفر الخروج (6:4)؛ سفر العدد (10:12)؛ سفر الملوك الثاني (27:5)؛ إشعيا (18:1)؛ المزامير (9:51). ويستخدمه الشرع اليهودي لتحديد ألوان الجذام وفق السلّم التدريجي: صوف أبيض، بشرة بيضاء، جير - هيكل، ثلج[792]. وهو لا يلائم الصيف المتأخر (الأمثال 1:26)، في حين ربما كان منعشًا في وقت الحصاد (الأمثال 13:25)، لو كان متوافرًا[793]. وللمرء أسبابه كي يخشاه في الشتاء، إذا لم يجرِ توفير

---

(790) b. Ber. 18b, Ab. d. R. Nathan 3.

(791) يترجمها سعديا هنا، كما في المزامير 16:147؛ أيوب 29:38 إلى "دَمَج"، والتي تعني مزيجًا من الثلج والريح.

(792) Neg. I 1. 2, Siphra, Tazria 2 (61a).

(793) ينصرف تفكير كيمحي إلى الهواء البارد الذي يشبه برودة الثلج. في حين يفكر مارتي (Marti) وفرانكنبيرغ (Frankenberg)، باحتمالية أقل، بمشروب مبرد بالثلج.

ملابس دافئة (الأمثال 21:31). وحتى الأسد يهرب منه إلى جب (صموئيل الثاني 20:23)[794]. وجداول الشتاء تُحجب (أيوب 15:6 وما يلي)، لكن في ما يتعلق بهذا التأثير، فإن الجليد ("قيرَح"، سعديا: "جِليد") (في المكان نفسه) يتخطاه، والذي مثل الحجر يحجب الماء (أيوب 30:38). وتعود إلى أصل عربي، قائمًا على البادئة "أل"، تلك التسمية الخاصة بالبَرَد الثقيل بشكل خاص: "حجارة من الـ جابيش" (حزقيال 11:13، 13، 22:38)، والتي هي مثل "جِبس"، التي ترمز في العربية المعاصرة إلى ما هو سميك وقاسٍ، ولكنها تعني جبسًا أيضًا. ويصف سيراخ جميع الظواهر مجتمعة حين يقول (15:43، 17 وما يلي)[795]: "قدرته (الرب) تجعل سحابته العاصفة قوية، وهو ينثر حبات البرد ("أبني جابيش") ومثل أسراب الطيور يهزّ ثلجه ("شَلجو") ويتركه ينزل مثل الجراد. كما ينثر الصقيع ("كِفور") مثل الملح ويتركه يشع كما الزفير [الياقوت الأزرق]. يترك برودة الريح الشمالية تهب، بحيث تتخثر البركة مثل صفيحة معدنية. وفوق كل بريكة ماء يصنع غلافًا، وينبوعه يُلبسه درعًا".

وتبين الشريعة اليهودية أن حبات البَرَد ("كيْفَت هباراد")، والثلج ("شيْلج")، والصقيع ("كِفور")، والجَمَد ("جاليد")[796] قد تنقل الدنس، ولا يمكن اعتبارها حاجبًا فاصلًا[797]. كما يناقش تأثيرها في الحمام الطقسي[798]، أو في فضاء غير طاهر[799]، ويبين ماذا يحدث بماء الإبراء (التطهير) الذي يتجمد ثم يعود فيذوب[800]. ولا يتطرق الحديث هنا إلى التأثيرات الزراعية للثلج، وإلى أي حد هو والبرودة المصاحبة له غير مرغوب فيهما، فهذا ما تُظهره صورة سَبيلِين،

(794) ومع ذلك يخدم الثلج والمطر اللذان أرسلهما الرب (أيوب 6:37) إخصاب الأرض (إشعيا 10:55).

(795) يُقارن:

Smend, edition and commentary.

(796) تمثل "جاليد" (يُقارن "جِليد" العربية) "قيرح" التوراتية.

(797) Ohal. VIII 5.

(798) Mikw. VII 1.

(799) Tos. Ahil. XIV 6.

(800) Tos. Par. IX 8, Teh. II 6.

أحدهما يقتل بالنار، والآخر بالثلج، وبالتالي يحسن المرء صنيعًا إذا اختار طريقًا وسطًا[801]. وبشكل أكثر حدة يشير مفهوم جهنم إلى ذلك، حيث تسود فيه بالتناوب ستة أشهر حرارة وستة أشهر برودة، ولهذا يذكِّر الثلج بجهنم[802]. ويظهر الثلج مبهجًا عندما يخدم كصورة لساحة حرب تغطيها غنيمة عظيمة (المزامير 15:68)[803].

تنتمي أمطار فلسطين المتبلورة إلى الظواهر الطبيعية التي تظهر قدرة خالق الكون وعظمته من خلالها، وذلك بسبب ندرة هذه الأمطار. كما أن الشهادات بشأن هذه التجربة لا تزال تحمل أهمية خاصة لسكان المناطق الأكثر برودة، لأن عالم التجربة هذه هو عالمهم أيضًا[804].

ز. الرياح في الشتاء

من المؤكد في الشتاء الفلسطيني أن الأمطار لا تأتي دونما ريح (يقارن أعلاه، ص 154). وعوضًا عن ذلك، تصلح القاعدة: "المطر بَلَا هوَا خامِد"، أي: "المطر بلاء هواء ساكن" ("إذنا"). وحتى يكون هناك مطر قوي لا بد من هواء قوي ("هوَا قوِي") أو عاصفة، بالعربية "زوبعة"، "نو"، وهو تعبير يلمح إلى تأثير برج فلكي. وعلى هذه العاصفة أن تكون قوية، فيقال: "هوَا الشجر – بِرمِي حجر"، أي "ريح الشجر يقذف حجارة" ("إذنَا")[805]. وفي الطفيلة المفتوحة على الريح الغربية، ذُكر لي أن الريح فعلًا تدحرج الحجارة. أما أن تقلب عربات، فهذا ما جربناه في شارع جبل الزيتون بالقرب من القدس. والريح

---

(801) j. Chag. 77a, Ab. d. R. N. 28.

(802) j. Sanh. 29b, Tanch. Ree 10, Pesikt. 97b,

يلكوت مخيري عن المزامير 15:68. يُقارن:

b. Ber. 15b.

(803) يترجم سعديا بشكل صحيح: "يصبح أبيض مثل الثلج على جبل زلمون"، ولكن استنادًا إلى تعليقه ينصرف تفكيره إلى جيوش أمراء الشعوب التي تنتشر هناك.

(804) يُقارن:

PJB (1920), pp. 3ff.

(805) وفقًا لملاحظات شفوبل.

تهشم صخورًا (الملوك الأول 11:19)، ويكفي أن يحدث إسقاط الصخور التي كانت قد تحطمت أصلًا إلى أسفل المنحدرات الحادة. أما السؤال الرئيس، فيتعلق بأي ريح يأتي بالأمطار المرحّب بها وبفواصل المطر المرغوب فيها (يُنظر أعلاه، ص 157 وما يليها). إن تبدلًا في اتجاه الرياح في الشتاء ضروري بلا شك، ولكن المهم أن تأتي الرياح الصحيحة. وهنا سبب جيد كي يبدأ منح بركة المطر في الكنيس الذي يتم يوميًا عبر الشتاء كله وحتى اليوم الأول من عيد الفصح بالجملة التالية: "ذلك الذي يجعل الريح تهب". ومن غير الطبيعي أن يكون هناك سحاب وريح ولا يسقط المطر (الأمثال 14:25)، ومن الطبيعي أن يأتي الريح والمطر معًا (الملوك الثاني 17:3). وعن الرب يُقال (المزامير 18:147): "يجعل ريحه تهب، فتجري المياه". كما يعلّم الترجوم ذلك حين يدرك الـ"سِعيريم" في التثنية (2:32) كرياح ماطرة تهب النباتات الخضر النضارة، وبالتالي تعود إلى تشرين الثاني/ نوفمبر[806]. وفي إنجيل متّى (27:7) "يسقط المطر، فتجري السيول وتهب الرياح".

ومن عبد الولي حصلتُ على الوصف التالي للرياح الشتوية:

"اِن هَبَّتْ غربِي – يا سَعد قلبِي"	إذا هبت الريح الغربية، يا فرحة القلب!
"واِن هَبَّتْ جِبلِي (= قبلي) – يا مَلُ عُدلِي"	وإذا هبت الريح القبلية، يا امتلاء عدولي!
"واِن هَبّتْ شرقية – يا ضيعة بنيّ"	وإذا هبت الريح الشرقية، يا ضياع أولادي!
"واِن هَبّتْ شمالِي – يا ضيعة عيالي"	وإذا هبت الريح الشمالية، يا ضياع عائلتي!

وفي الكرك حصلتُ على سجع مشابه. وبدلًا من "قلبي"، قالوا "قَربِ" ما فُسر بأنه حَملٌ ابن يوم يحصل على علف أخضر. وبدلًا من "عيالِي" استخدمت كلمة "أولادي". وبالنسبة إلى الريح الجنوبية وضعوا: "يا سِعد قلبي"، وللريح الشرقية: "يا مَلُ عُدلي"، ولكني أُخبرت أن ذلك يُشير إلى رياح الشتاء. وبشكل أساس تلمّح جميع الأقوال هذه إلى حصاد الحقل. إلا أن

(806) هكذا الترجوم اليروشليمي 1 بشكل واضح، في أونكيلوس ويروشليمي 2 تلميحًا.

الريح الشمالية ببرودتها، والتي يطلِق المرء عليها "سماوي" أيضًا[807]، ربما بسبب سمائها الزرقاء، تُعتبر أيضًا ضارة بالصحة؛ فالنزلة والحمى والزُحار هي أمراض تترتب عليها بسهولة. أما الريح الشرقية في الشتاء، ولأنها ليست باردة جدًا، فهي منعشة ولطيفة[808]، وهي تأتي بأشعة الشمس لا بالبرد، ولا تؤثر في الحقول بشكل يؤدي إلى الجفاف كما هي حال الريح الشرقية الصيفية، لأنها غير مصحوبة بحرارة، ولذلك فهي تتمتع بفوائد لنمو المحصول، في حين أن الريح الشمالية تعيق ذلك. أما الرياح الغربية والجنوبية، فتأتي بالرطوبة والحرارة، إلا أن عليها ألّا يسودا بشكل دائم إذا كان على الشتاء أن يكون مفيدًا للزرع والبشر. وهكذا فُسِّر الأمر لي أيضًا في القُبيبة: "هوا مصري وهوا غربي"، أي: "ريح جنوبية غربية وريح غربية" تأتيان بالمطر والندى "هَوَا شمالِي"، ويُسمى "شامي" أيضًا: الريح الشمالية تأتي بالجفاف والبرد. "هوا قِبلي"، الريح الجنوبية، تأتي بـ"هوا مصري وغربي"، بهواء جنوبي غربي، أي أنها سبب غير مباشر للمطر والندى. "هَوَا شرقي"، الريح الشرقية ريح جافة، وفي الشتاء باردة، وفي الصيف ساخنة. ويشبهها في تأثيرها سكون ريح "سموم" الصيف ذات الهواء الشرقي الساكن. وهذا ما يُناظر الواقع والتجربة، إلا أن ذلك يعتمد على أمد أنواع الرياح المختلفة؛ ذلك أن ريحًا شمالية أو شرقية تهب أحيانًا في الشتاء، فهو أمر لا غنى عنه بسبب فواصل الأمطار الزمنية. إلا أن بقاء هذه الرياح فترة طويلة يعني كمية أقل من الأمطار وجفاف الزرع ("الزرع ملفوح") والحبوب. وإذا هبت هذه الريح في مرحلة النمو، حينئذ تصبح هزيلة ("الحب بارِم")، وتعكس التأثر بريح شمالية طويلة المدة. والريح الشرقية كارثية في الربيع، وهو ما تنطبق عليها الجملة[809]:

---

(807) Chaplin, *PEFQ* (1883), p. 14.

(808) يُذكِّر الدكتور برافر بأن الريح الشرقية الشتوية شديدة البرودة. لكن، للأسف، ليس ثمة إحصاءات تبرهن ذلك. وقد أوردت ملاحظاتي العائدة إلى شتاء 1908/ 1909 في أيام الريح الشرقية في كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير 4.5°-15°. ومقابل الـ 4.5° دوّنت: "برد قاطع". وبشكل عام أحببت أيام الريح الشرقية في الشتاء، لأنها سمحت بالتجوال مشيًا، وكان لها تأثير منعش، في حين أنها في الصيف ذات تأثير مرهق.

(809) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 4,

مكتوب "تحرب" بدلًا من "تخرب".

"لا تصبّ الشرقية لو أنها تخرب الزرع"، أي: "لا تنقضي الريح الشرقية قبل أن يُتلف الزرع". ولم تُلحظ قط ريح غربية قوية وأمطار كثيرة جدًا، خصوصًا أن الريح الغربية في الشتاء لا تعني أبدًا مطرًا متواصلًا، بل تعني فترات عرضية من أشعة الشمس والندى. وفي جميع الأحوال، تبقى الريح الشمالية ببرودتها الجافة التي يمكن أن تستمر فترة طويلة، أقل ريح مرغوب فيها في الشتاء، في حين يأمل المرء دائمًا من الريح الشرقية، وهو غالبًا ما يحصل، أن تستدير عبر الجنوب إلى الغرب كي تأتي بالمطر[810]. لذلك كانت الحكمة: "ريح الشمال بتطرد المطر". لكن: "الشرقية بتجيب المطر" (يقارن أعلاه، ص 103 وما يليها). و: "كل شي من الشمال مِليح - ما عدَ الرجال والريح"، أي: "كل شيء من الشمال جيد ما عدا الرجال والريح"، وكذلك[811]: "سنة الشمالِي - يا حسرتكم يا عيالِي" و[812]: "سنة يهب الشمال البلاد تمحل". ويقدم رصد يقوم على الخبرة والمعرفة الصورة ذاتها[813]، فالريح الشمالية باردة والجنوبية حارة والشرقية جافة والغربية رطبة. لذلك، فالرياح الشمالية الشرقية باردة وجافة والرياح الشمالية الغربية باردة ورطبة والجنوبية الشرقية حارة وجافة، والجنوبية الغربية حارة ورطبة.

ويقدم إكسنر[814] الأرقام التالية للقدس معدَّلًا لاتجاهات الريح في الألف (per mille) في السنة. فيشير الرقم الأول دائمًا إلى الخريف والثاني إلى الشتاء: شمال 10.5؛ شمال شرق 5.3؛ شرق 35.58؛ جنوب شرق 3.6؛ جنوب 1.1؛ جنوب غرب 9.25؛ غرب 77.71؛ شمال غرب 37.12؛ سكون الريح 71.67. ووفقًا لذلك، فإن اتجاهات الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية والغربية تكون نوعًا ما متشابهة في الخريف والشتاء. وقد تتناقص قوة الرياح الشمالية والشمالية الشرقية والشمالية الغربية، في الوقت الذي تزداد فيه

---

(810) يُقارن أعلاه، ص 107، 113.

(811) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 286.

(812) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 4.

(813) Chaplin, *PEFQ* (1883), p. 14.

(814) *ZDPV* (1910), p. 142.

قوة الريح الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية. أما الناصرة على وجه التخصيص فتسري عليها أرقام مختلفة؛ فهناك تبقى الريح الشمالية الشرقية والريح الجنوبية الغربية تقريبًا متشابهتين. وتتناقص الريح الشمالية والغربية والشمالية الغربية، وتتزايد الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية. أما أكثر الرياح شيوعًا هنا في الخريف، فهي: الشمالية والشمالية الشرقية والشمالية الغربية والشرقية والغربية والجنوبية الغربية، وفي الشتاء: الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية. وفي القدس ربما كان الترتيب في الخريف على النحو التالي: غربي، شمال غربي، شرقي. وفي الشتاء: غربي، شرقي، جنوبي غربي، ولم يجرِ أخذ أرقام دون 20 في الاعتبار. إذًا يتحدد الطقس في القدس بشكل أساسيّ من خلال العلاقة بين الريح الغربية السائدة دائمًا والريح الشرقية. وإذا ما أضاف المرء إلى ذلك الاتجاهات الجانبية للشرقي والغربي، حينئذ ستكون الأرقام في الشتاء: شرقي 67 وغربي 108، وفي الخريف: شرقي 43 وغربي 133. أما في الناصرة، فالظروف هناك أقل وضوحًا، خصوصًا أن الريح الشمالية والريح الشرقية تؤديان، فضلًا عن ذلك، دورًا مهمًا. وبالنسبة إلى الريح الشرقية، باتجاهاتها الجانبية، فإن الأرقام في الشتاء هي للشرقية 155، وللغربية 66، وفي الخريف: للشرقية 96 وللغربية 87. إذًا تزداد في القدس كما في الناصرة الرياح الشرقية في الشتاء مقارنة بالخريف، وتتراجع الرياح الغربية. ولكن الناصرة تملك ريحًا شرقية أكثر وريحًا غربية أقل من القدس، وهو ما يحدده بشكل جزئي موقع الناصرة مباشرة شمال سهل يزراعيل [مرج إبن عامر] الممتد بشكل عرضي. ولذلك لا يصح تعميم ظروفها على الجليل بأكمله.

بشكل شبيه جدًا، تقدم الأمور نفسها وفقًا لمعدل الأرقام التي حسبها شابلن[815] على مدى 16 سنة لعدد أيام اتجاهات الريح المنفردة في كل شهر من خلال الرصد في التاسعة صباحًا وجمعها وفق فصول السنة. وبناء عليه، تنشأ الأرقام التالية وفقًا لتعاقب عدد أيام اتجاهات الريح بشكل فردي:

(815) *PEFQ* (1883), p. 39.

[شم.غ.= شمالي غربي، ش.= شرقي، ج.غ.= جنوبي غربي، شم. ش.= شمالي شرقي، غ= غربي، شم.= شمالي، ج. ش.= جنوبي شرقي، ج.= جنوبي]

خريف	شم.غ.	ش.	ج.غ.	شم. ش.	غ.	شم.	ج. ش.	ج.
	20	16.68	13.10	12.12	10.42	8.37	7.86	3.36
شتاء	ج.غ.	ش.غ.	غ.	ش.	شم. ش.	ج. ش.	ش.	شم.
	17.99	17.36	14.92	13.30	10.00	8.68	4.30	3.62
ربيع	شم.غ.	غ.	شم.	ج. ش.	ج.غ.	ش.	شم. ش.	ج.
	29.87	12.48	10.86	10.55	9.68	8.37	6.55	3.55
صيف	شم.غ.	غ.	شم.	ج.غ.	شم. ش.	ش.	ج.	ج. ش.
	46.49	17.17	13.43	5.67	4.05	1.86	1.62	1.55

اللافت بشكل خاص هو الموقع المسيطر للريح الشمالية الغربية في الربيع، والسائد تمامًا في الصيف، مقارنة بالخريف والشتاء. علاوة على ذلك، تتراجع الريح الشرقية، المساوية لها تقريبًا في الخريف، إلى المرتبة الرابعة في الشتاء، وفي الربيع إلى السادسة، حيث تبقى في الصيف، بالكاد مشكلة الجزء الرابع. وإذا حسب المرء عدد الأيام بالنسبة إلى الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية، إضافة إلى الغربية والشمالية الغربية والجنوبية الغربية معًا، لأن تأثيرها في الأمطار هو نفسه تقريبًا، حينئذ تظهر الأرقام التالية:

	خريف	شتاء	ربيع	صيف
رياح غربية	43.52	50.27	52.03	69.33
رياح شرقية	36.66	31.98	25.47	7.46

هناك إذًا خط متناقص بالنسبة إلى الرياح الشرقية من الخريف إلى الصيف، مع زيادة ملحوظة من الصيف إلى الخريف، في مقابل خط متصاعد للرياح الغربية في الوقت ذاته مع تناقص ملحوظ في الخريف مقابل الصيف. أما ذروة الرياح الغربية، فتقع في الصيف وذروة الرياح الشرقية في الخريف، حيث تتخطى الرياح الغربية، طبقًا لعدد الأيام، حتى في الخريف، الرياح الشرقية بشكل كبير.

ثمة ما هو جدير بالملاحظة؛ فالريح الجنوبية الخالصة لا شأن يُذكر لها في جميع فصول السنة. وهو ما ينطبق على الجنوبية الشرقية في الخريف والشتاء والصيف، في حين تحتل المرتبة الرابعة في الربيع. كذلك الأمر بالنسبة إلى الريح الشمالية الخالصة التي تتمتع بأهمية محدودة الأثر في الخريف والشتاء، في حين تحتل المرتبة الثالثة في الربيع والصيف، وبالتالي لا بد من أن تكون مُلطّفة للحرارة.

ما كان ممكنًا لفلسطين أن تكون على ما هي عليه، لو لم تمثل الريح الغربية اتجاه الريح الأقوى في جميع فصول السنة. وإذا أضاف المرء إلى ذلك الريح الجنوبية الغربية والريح الشمالية الغربية اللتين تتمتعان بالأهمية نفسها، سيحصل المرء حينئذ على 108 أيام للشتاء، وهو أدنى رقم مقارنة بفصول السنة الأخرى (يُنظر أعلاه)، ولكن على 73 بالنسبة إلى جميع اتجاهات الريح الأخرى. أما النسبة في الخريف، فهي 123 إلى 54، وفي الصيف حتى 208 إلى 11، وفي الربيع 139 إلى 47. وهكذا يفهم المرء المثل: بارك الله في البلاد إلّي تُربِتْهَ قبلِي وبيذَرهَ شِرقي وبيره غربي"،: أي: "بارك الله البلد الذي مقبرته في الجنوب وبيدره في الشرق وبئره في الغرب" (عبد الولي). وبذلك لا تدفع الريح الغربية بغبار البيدر إلى القرية ولا غبار القرية إلى البئر. ويبقى الاتجاه الجنوبي للمقبرة الإسلامية ذا منفعة، لأن الصلوات المقامة في هذا الاتجاه تعود بالنفع على الموتى. كما أن المرء لم يكن راغبًا في أن تكون الأفران التي تطلق السخام في غرب القرية. وللسبب ذاته يمنع عكيفا إنشاء

دبّاغة غرب المدينة، لأن الريح الغربية متواصلة[816]. وينصح أباي الرجل الذي سار قريبًا من شخص مصاب بالجذام بأن يبقى إلى الغرب منه لا إلى الشرق منه، حتى[817] لا تنقل الريح الغربية العدوى.

جدير بالملاحظة أيضًا تلك الأرقام المذكورة أعلاه بحسب إكسنر للفترات التي تكون فيها الريح ساكنة، على الرغم من أنها مفقودة في الناصرة. وهي تُظهر أن الخريف والشتاء، بِـ 71 أو 69 في الألف يتخطيان الصيف بشكل جوهري الذي يملك 34، حيث إن من الخطأ إدراك الخريف والشتاء على الرغم من قوة رياحهما، دائمة الاضطراب. وتتفق التقارير التي أعدها شابلن[818] على خلفية عشر سنوات من رصد المعدل الشهري لأيام الريح الساكنة في القدس مع ذلك والتي يتمخض عنها صف مضاعف من الأرقام: 1. أيلول/ سبتمبر، تشرين الأول/ أكتوبر، تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الأول/ ديسمبر، كانون الثاني/ يناير ذوات 10.3، 12.3، 11.5، 11.7، 10.7 أيام ريح ساكنة، أي بسكون الريح في حوالى ثلث الشهر؛ 2. شباط/ فبراير، آذار/ مارس، نيسان/ أبريل، أيار/ مايو، حزيران/ يونيو، تموز/ يوليو، آب/ أغسطس ذوات 7.6، 5.9، 6.5، 6.8، 8.3، 7.3، 9.1 أيام ريح ساكنة، وبالتالي سكون الريح في حوالى خُمسِ إلى ثُلثِ الشهر. وهذا يعني، من هذه الناحية، أن الخريف والشتاء حتى كانون الثاني/ يناير أكثر سكونًا من الربيع والصيف، حيث تكون فيهما حركة الهواء أكثر استقرارًا. أما ذروة فترة الهدوء، فتقع في تشرين الأول/ أكتوبر، وذروة

---

(816) Bab. b. II 9, 13^c, Tos. Bab. b. I 8, b. Bab. b. 25^a.

(817) j. Bab. b. 13^c.

(818) *PEFQ* (1883), p. 40,

كما يجب ذكر ملاحظات كوشميدر:

Koschmieder, *Ergebnisse der Höhenwindmessungen in Palästina 1917-1918* (Weickmann, Zum Klima der Türkei, Heft 3, 1924); Georgii, *Ergebnisse von Pilotaufstiegen im Küstengebiet des südöstlichen Mittelländischen Meeres* (Beiträge zur Physik der freien Athmosphäre VIII (1919), pp. 170ff.); *Meteorologische Zeitschrift*, vol. 37 (1920), pp. 171f.,

وقد نشط كوشميدر بشكل رئيس في مرج إبن عامر، ونشط جيورجي في بئر السبع والعريش. إلا أن رصد الرياح العالية كان يجب أن يتم في نقاط أخرى بغية الوصول إلى نتائج كاملة للمناخ الفلسطيني.

الاضطراب في آذار/ مارس. واللافت هو الفارق الكبير بين كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير، والاضطراب الأكبر في تموز/ يوليو مقارنة بحزيران/ يونيو وآب/ أغسطس، إضافة إلى التصاعد التدريجي الملحوظ لأيام سكون الريح التي تبدأ في آذار/ مارس، وتستمر حتى تشرين الأول/ أكتوبر، ولا يقطعها غير تموز/ يوليو.

ولدى شابلن بشأن قوة الريح معطيات أكثر تفصيلًا[819]، والذي للأسف يذكر معدل أرقام من دون معطيات زمنية، فيورد أن قوة الرياح وصلت إلى 3.5 و4 على سلّم قياس متدرج من 1–6. وعلى خلفية رصده الذي حصل دائمًا في الساعة 9 صباحًا، أي في وقت هادئ بشكل خاص، تنتج السلسلة المتصاعدة التالية للمعدل الشهري لقوة الريح، والتي تبدأ بِـ 0.27 وتنتهي بِـ 0.67: تشرين الأول/ أكتوبر، آب/ أغسطس، أيلول/ سبتمبر، تموز/ يوليو، حزيران/ يونيو، تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الثاني/ يناير، أيار/ مايو، كانون الأول/ ديسمبر، نيسان/ أبريل، آذار/ مارس، شباط/ فبراير. وهذا يعني فترة من الرياح القوية من كانون الأول/ ديسمبر (0.50) حتى أيار/ مايو (0.49)، حيث تبلغ الذروة في شباط/ فبراير (0.67)، في حين يقبع كانون الثاني/ يناير (0.47) خلف كانون الأول/ ديسمبر. وتسود رياح أضعف من حزيران/ يونيو (0.41) حتى تشرين الثاني/ نوفمبر، وذلك من خلال تراجع مستمر لقوة الريح حتى تشرين الأول/ أكتوبر ولتصل بِـ 0.27 أدنى حد لها في تشرين الأول/ أكتوبر، ولكنها في تشرين الثاني/ نوفمبر تعود بِـ 0.41 إلى مستوى/ يونيو، ولتشرع بالتالي الرياح الأقوى لنصف سنة الشتاء والربيع. وثمة ما يستدعي الانتباه الخاص هو وقت كانون الثاني/ يناير الأكثر هدوءًا نسبيًا وذروة شباط/ فبراير، كونهما يتوافقان مع تناقص الغيوم وتزايد أيام الريح الساكنة في الشهر ذاته[820]. وبناء عليه، يعني ذلك بشكل عام بالنسبة إلى كانون الثاني/ يناير طقسًا أكثر هدوءًا مصحوبًا بأيام مشمسة جميلة. وعلى الرغم من ذلك، فإن كمية الأمطار الساقطة في كانون الثاني/ يناير

---

(819) Ibid.,

يُقارن ص 18.

(820) يُنظر أعلاه، ص 110، 244.

تعني ذروة الشتاء[821]، والأمطار إن أتت، فلا بد من أن تكون غزيرة بشكل خاص بما يتلاءم مع أدنى حد لدرجة الحرارة التي تهبط بدورها في هذا الشهر[822].

تشير الرسائل الآتية من القدس إلى حصول عاصفة قوية قوامها المطر والبرد والثلج في 9-12 شباط/ فبراير 1927. وفي يافا كانت ترسو ثلاث سفن، اثنتان منها أنقذتا نفسيهما بالإبحار عكس الريح، في حين أن الثالثة قُذف بها في البداية إلى مدخل الميناء بوجهة مخالفة للصخور، ومن ثم إلى الشاطئ، حيث تلاطمت فوقها الأمواج. وقد غرق 8 بحارة وأُنقذ 32 بحارًا[823]. هذا المشهد الشتوي الذي يُذكّر بالعاصفة بالقرب من يافا التي ذكرها يوسيفوس (يُنظر أعلاه، ص 155) يجب استكمالها بوصف تأثيرات هذه العاصفة في الملاحة. ولم تتمكن إحدى السفن التي تحمل على متنها مسافرين أوروبيين من إنزال ركابها حتى في حيفا، واستمرت مبحرة إلى الإسكندرية، والأخرى لم تجد الطريق سالكًا لا إلى يافا ولا إلى حيفا أو بيروت، وأنزلت ركابها في أثينا[824].

وفي ما يتعلق بالرياح والأمطار، من المؤسف أن الإحصاءات تضع من خلال أشهر السنة الشمسية والفصول التي تقسم السنة الشمسية، حدودًا اعتباطية بشكل ميكانيكي لا تناظر جوهر المناخ الموصوف. وربما كان صحيحًا في الشتاء احتساب الأشهر من "كانون" حتى "شباط" وفق التقويم الإغريقي (14 كانون الأول/ ديسمبر حتى 13 آذار/ مارس بحسب التقويم الغريغوري) وليس من كانون الثاني/ يناير حتى آذار/ مارس (بحسب التقويم الغريغوري) وخفض المعطيات اليومية وفقًا لذلك.

---

(821) يُنظر أعلاه، ص 174.

(822) يُنظر أعلاه، ص 220.

(823) وفق ما أفادت به الشماسة بيرتا تسيمر (Bertha Zimmer) من القدس [التي تعمل في المجلة الشهرية] ومرصد المعبد:

Warte des Tempels (1927), p. 39

وبحسب السيد ي. جون في يافا، أُنقذ جميع الملاحين خلال تلك العاصفة، إلا أن صبيين سحقهما قارب كانت موجة قد قذفته ليرتطم بجدار.

(824) يُقارن أعلاه، ص 155.

استنادًا إلى هذه الحقائق، يمكن أن يحكم المرء على ما تقوله التوراة والأدبيات ما بعد التوراتية عن الرياح[825]؛ فالسحب الغربية تأتي بالمطر في الملوك الأول (44:18) ولوقا (54:12). والريح التي تُطهر السماء (أيوب 21:37) ستكون الريح الشمالية، بحسب الآية 22 (نص ماس) أتى "ذهبٌ" من الشمال، والذي لا بد أن يعني هنا تلألؤ الضوء. أما الريح الجنوبية، فتأتي بالحر (لوقا 55:12)، بحيث تصبح الملابس شديدة الدفء (أيوب 17:37)، في حين تأتي الريح الشمالية بالصقيع (سيراخ 20:43). وليس من الممكن فهم الأمثال (23:25) على نحو: "ريح شمالية تنتج ('تِحوليل') مطرًا منهمرًا"، لأن ذلك ربما وقف على النقيض من التجربة الفلسطينية. وبناء عليه، يجب أن تعني "تصيب الريح الشمالية المطر المنهمر بالفزع" أنها تمنعه أو تدفعه بعيدًا، كما يترجم سعديا: "ريح الشمال تِرد المطر". وحينئذ يتساوق مع هذا المثل الفلسطيني القديم[826]: "مِن عَفَر قيطا لِستوا نافَح صِبّونا يصَف لِبناك"، أي: "من غبار الصيف تنفث الريح الشمالية في الشتاء حزنًا في أطفالك"[827]. والافتراض هنا أن ريح الشتاء الشمالية جافة، بحيث يمكنها إثارة الغبار الذي خلفه الصيف. ويفترض بهذا المثل أن يؤكد أن نهاية السنة تماثل السنة بأكملها ("سوف شَتّا كِشَتّا")، ويسمح بتطبيقها على المجال المعنوي-الأخلاقي. وهنا لم يغب نبوخذنصر عن البال. إلا أن المعنى الحقيقي للجملة يكمن في الطبيعة حين يقول الحاخام ليفي[828]: "ليس هناك أسوأ من عاصفة تأتي من الشمال، تصعد وتقضي على الناس في الجنوب". ويستند التفسير الفلسطيني لاتجاهات الريح الخاصة بدخان المذبح خلال عيد العُرُش[829] إلى التصور القائل إن الرياح

---

(825) عن الريح الشرقية، يُنظر ص 108 وما يليها.

(826) j. Taan. 65b.

(827) أي سوء حظ يمكن أن يلحق بجملة آرامية واضحة، هذا ما تظهره ترجمة مويزه شفاب (Moise Schwab) في كتابه *Talmud de Jerusalem* **(تلمود القدس)**، وهي تقرأ كالتالي:

"De la poussiere amassee en ete doit server en hiver, quand souffle le vent violant du nord, a consolider les briques sur place."

(828) Schir R. 3, 1 (36b).

(829) B. Jom. 21b, Bab. b. 147a,

يُقارن أعلاه، ص 30، 133.

الغربية تأتي بالكمية الصحيحة من المطر، والريح الشمالية بقليل من المطر، والريح الجنوبية بكثير منه(830)، والريح الشرقية بالجفاف. كما يماثل تفسير التثنية (2.1:32) في سيفرِ (132أ)(831) الواقع حين يقول عن الريح الغربية: "إنه عنق الكون؛ إذ إنه مباركٌ بشكل كلي"، وعن الريح الشمالية: "تجعل السماء طاهرة مثل الذهب"(832)، وعن الريح الشرقية: "تجعل السماء سوداء مثل كبش" (والمقصود ضبابها الرقيق الذي يُعتِّم السماء)(833)، وعن الريح الجنوبية: "تغزل السماء مثل مطر"(834). وفي هذا السياق يمكن ملاحظة أن الريح الشمالية لطيفة في الصيف، وغير لطيفة في الشتاء، والعكس صحيح للريح الجنوبية، وفي كلا الموسمين يتم الإحساس بالريح الغربية على أنها لطيفة، وبالشرقية على أنها غير لطيفة(835).

لا يستند نظام الريح في كتاب إينوخ (الفصل 76) إلى الرصد والمراقبة، بل إلى نظرية دوغماتية – عقائدية؛ فالحقيقة القائلة إن الرياح من كل اتجاه قد تكون ضارة ونافعة، قد لُخِّصت في نظام مضمونه أن الريح الآتية من أوسط البوابات الثلاث لكل اتجاه تأتي بالمطر والندى والخصوبة، في حين ترسل

---

(830) بحسب الحاخام حِسدا، انتهى تأثير الريح الجنوبية الجالبة للمطر منذ تدمير الهيكل (b. Bab. b. 25b). وهذا له صلة برأي حسدا القائل: منذ ذلك الوقت، ومنذ صار بنو إسرائيل لا يقطنون في فلسطين بسبب خطاياهم، ما عاد المطر يسقط بالطريقة القديمة إطلاقًا. ويستند هذا الكلام إلى التصور الذي غالبًا ما يتضمن أن كل شيء ذات يوم كان باهرًا، وأن هذا الوضع قد انقلب فجأة إلى نقيضه.

(831) كذلك:

Midr. Tann., p. 186,

شديد التغيير في:

b. Bab. b. 25a.

(832) ذلك أن الريح الشمالية تجعل السماء صافية، وهو ما يشهد عليه في:

b. Ber. 59a, Erub. 65a, Meg. 28b, Bab. b. 147a,

يُقارن:

H. Klein, *ZDPV* (1914), p. 320.

(833) يُقارن أعلاه، ص 108.

(834) يجب ترجمتها على هذا النحو. تستند جميع التعابير إلى النص التوراتي. "منسوج" الريح الجنوبية هو الغيوم، ثم تأتي بالمطر.

(835) الأخير صحيح في مدراش تانيت، ص 186، ومعكوس في سيفرِ، في:

Ibid.

جميع البوابات الأخرى رياحًا ضارة: البرودة تأتي من شمال شرق[836]، وغرب شمال، وشمال غرب. والبرودة الجافة تأتي من الاتجاه الأول، والبرودة مع الصقيع والثلج والمطر من الاثنين الآخرين. ويأتي الحر من شرق جنوب، والحر الذي يصحبه المطر من جنوب شرق وجنوب غرب، ويأتي المطر الرطب لكن مع جراد من غرب جنوب وشرق شمال. ومهما يكن الأمر، يمكن الاستنتاج أن الغرب، بالنسبة إلى المؤلف، يعني مطرًا، والشمال برودة، والشرق جفافًا، والجنوب حرارة. والدخول في نقاش في شأن التفصيلات، ليس له جدوى. إلا أن الفصول 34-36 ربما احتوت بقية عرض قديم يمنح كل جهة من الجهات الأربع خاصية موحدة، ويميز الرياح الشديدة من المعتدلة. وربما كان الوصف القديم قد شُوِّه نتيجة للإقحام اللاحق للفصل 76، حيث إن وصف الرياح الشمالية وحدها بقي قائمًا كله. كما يظهر متكلفًا زائفًا ذلك الجدول الذي يعزو الضوء إلى الريح الشرقية، والندى والمطر إلى الريح الجنوبية، والظلام إلى الريح الغربية، والثلج والبَرَد والبرودة والحر والمطر إلى الريح الجنوبية، بحسب بيركي الحاخام إليعازر، الفصل 3[837]، حيث يظهر الشمال كمقر للعفاريت، ونقطة انطلاق كل ما هو شرير. وعلى صلة بالأخير وُضعت جهنم هناك أيضًا، كما يظهر في مدراش كونين، في حين توجد الجنة في الشرق. وفي فلسطين اليوم، وفي ما يتعلق بالجنة، لا يزال هذا هو الاعتقاد السائد، إلا أنهم يبحثون عن جهنم في الغرب، ويستغربون أن البروتستانت في بيت لحم جعلوا مقبرتهم في الغرب. وينبثق عُمر هذه التصورات من كتاب إينوخ الذي حدد مكان جميع الموتى حتى يوم الدين في

---

(836) يعني شمال شرق البوابة الشمالية للجهة الشرقية، وشرق شمال البوابة الشرقية للجهة الشمالية، والتسميات الأخرى على هذا المنوال.

(837) الشيء نفسه تقريبًا: Bem. R. 2 (6^bf), Midr. Konen, حيال النهاية، Pes. Rabb. 46 (188^af), ربما لسبب مقنع، تم استبدال أهمية الشمال والغرب. يمنح Jalk. Schim. II 913 الثلج للغرب، والعفاريت للشمال.

الغرب (1:22)، وكذلك الجنة، بحسب التكوين (8:2) في الشرق (3:32، يُقارَن 28-30).

ح. الحياة النباتية في الشتاء

يحظى الشتاء الفلسطيني بكثير من الخواص التي تميز ربيعًا ألمانيًا. صحيح أنه يأتي بفترة من الراحة لكثير من النباتات، لكن حياة جديدة من النشاط تبدأ فيه في الوقت ذاته. أما بأي طريقة يحصل ذلك، فهذا يعتمد على التغير في الرياح ودرجة البرودة وسطوع الشمس والمطر، وهو ما لا يمكن التنبؤ به؛ فمطر مبكر قوي متبوع بفترة انقطاع طويلة مصحوبة بإشراق شمس حارة يعني نموًا مبكرًا لنباتات برية وأخرى تحظى بالعناية، والتي، كما هي العادة، يقوم كانون الثاني/ يناير، بطقسه الأكثر برودة، بإعاقتها أو تأخير نموها فترة طويلة. لكن المطر يمكن أن يتأخر. ثم عندما يأتي في كانون الأول/ ديسمبر تقريبًا، تتبعه مباشرة فترة برد كانون الثاني/ يناير. وفي شباط/ فبراير فحسب، ينشط عالم النبات بحيوية أكبر.

يستطيع المرء أن يرى بعضًا من هذا في أبكر وقت من السنة عندما يذهب إلى الأودية الدافئة في شمال شرق القدس. وهناك، خاصة في كانون الأول/ ديسمبر، يُطلع بخور مريم (Cyclamen latifolium، بالعربية "قرن الغزال"، "غليون") أوراقه المشكَّلة بشكل قوي، ونوّارًا أرجوانيًا، وهي تُطل على المارّين من ثقوب الصخور. وقد وجدتُها في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1911 في وادي الصوينيط بأزهارها كلها، في حين أنها بدأت الإزهار في 2 كانون الثاني/ يناير 1909. وفي هذا اليوم كانت الأوراق الخضر الباصول (يُنظر أعلاه، ص 96 وما يليها) قد نمت في وادي فارة، وانتصبت حقول الحبوب خضراء هناك، في حين أظهرت بالقرب من القدس في 19 كانون الثاني/ يناير قليلًا من الحياة، على الرغم من أن عشب حديقتي الذي بقي منذ أيار/ مايو مثل الميت، قد عاد ليخضوضر من جديد في 3 كانون الثاني/ يناير. ويقول الناس بحق عن "كانون": "ب كِنّ الحَب في الأرض": "يبقى الحَبّ ساكنًا في الأرض". وتعتبر فترة استنبات مقدارها 40 يومًا طبيعية؛ فما جرى بذره في منتصف

تشرين الثاني/ نوفمبر (تقويم يولياني) يستطيع أن يبدأ النمو في نهاية كانون الأول/ ديسمبر، لكن البرد الشتوي يعيقه. وبشكل متماثل يتم الحديث عن "التنافس بين الذهب والقمح"[838]: "في كانون وكانون (كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير) يطمرني المرء ويرطبني ويسقيني وأمطار جيدة ترويني. أنا مطمور في أخدود، وفي شباط/ فبراير أستيقظ وأحمل مثل النساء وأصبح مثل رجل يقوم وينحني أمام سيده"[839].

في الجبال تكون بداية الزعفران الأبيض[840] الذي لم يختفِ تمامًا منذ فترة ما قبل المطر في كانون الأول/ ديسمبر. وكذلك القطيفة (Calendula palaestina، بالعربية "كحلة"، "بيض القط") بأزهارها البرتقالية. وتسترعي الانتباه زهرة الربيع أو الجميلة الحرجية (Bellis sylvestris، بالعربية "حنون نِتش") ذات الساق الطويلة والأوراق الكبيرة والحوافي الحمر، علاوة على بخور مريم الذي شاهدتُ أولى أوراقه الخضر في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1908 بالقرب من دير ياسين. وعوضًا عن أوراق الباصول الكبيرة التي تبرز منها سويقات أزهار الخريف الذابلة، تنجذب العين إلى أوراق اليبروح (Mandragora officinarum، بالعربية "شُجَّاع"، "تِفاح المجانين"، "تِفاح المجَّن"، "تفاح الجِّن"، سعديا التكوين 14:30؛ نشيد الأنشاد 14:7 "لُفَّاح") المتجعدة والكبيرة أيضًا. وكنت قد شاهدتُ أزهارها ذات السويقات القصيرة واللون الأرجواني في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1921. إن تلك الثمار الصُفر العطرة التي تظهر في الربيع وتشبه حب التفاح الصغير، وتحمل اسم "تُفاح"، هي وحدها الجذابة لكثيرين. وقد عُرضتْ عليَّ في 17 نيسان/ أبريل 1899 خلال رحلتي الأولى إلى القدس في إحدى محطات القطار، ولم ألاحظ ما قيل عنها من حيث إنها تبلبل حواس المرء. وفي غزة يقول المرء عنها[841]: "تُفاح المجل[842] بجيب الحَبَل:"،

---

(838) Lidzbarski, *Neuaram. Handschriften*, Text, p. 448.

(839) المقصود هنا انتفاخ حبة القمح وأول تبرعمها.

(840) يُقارن أعلاه، ص 96 وما يليها.

(841) Stephan, *Modern Pal. Parallels to the Song of the Songs*, p. 24.

(842) "مجل" بدلًا من "مجّن" للحفاظ على القافية.

أي: "اليبروح يأتي بالحَمْل". وحتى العقيدة اليهودية في القدس تستخدم هذه الفاكهة لهذا الغرض[843]. يجب وضعها تحت سرير الزوجية حتى تؤثر [في عملية الإنجاب]. وعلى صلة بذلك استخدام ما صنعه رؤوبين منها، بحسب التكوين (30:14)، حيث تُسمّى بالعبرية "دودايم". وقد مدح نشيد الأنشاد (7:14) رائحتها وألمح إلى أنها على صلة بمتعة الحب. وجذورها المشكَّلة بشكل غريب، الطويلة العودية ذات الرائحة الشديدة، والتي كنتُ اشتريتُها في آذار/ مارس 1899 من السوق في اسطنبول، غير مذكورة في التوراة. وتُظهر صور مصرية قديمة بشكل واضح، جنبًا إلى جنب مع أزهارها وفاكهتها، جذورها المشكلة أحيانًا في صورة رجال صغار عراة[844]. ويتحدث يوسيفوس عن جذر نبتة تدعى *Βααρας*، تطرد العفاريت والأرواح الشريرة من المرضى، وأفضل طريقة لاقتلاعها هي استخدام كلب، خاصة أنها قد تقتل الإنسان بسهولة[845]. ويتحدث التقليد اليهودي عن تلاوة آيات من التوراة لها صلة بتلك الجذور لتعزيز تأثيرها في المرضى[846]. كما يتحدث التقليد اليهودي عن كيف استطاع رؤوبين أن يربط حماره إلى نبتة يبروح لم تكن معروفة لديه. وعندما حاول الحمار تحرير نفسه اقتلعها فأطلقت صرخة ومات الحمار. وهكذا عرف رؤوبين أن الأمر يتعلق باليبروح أو اللفّاح[847]. والحكاية من ناحية واقعية غير صحيحة؛ إذ لا يمكن ربط حمار بِنبتة لفاح لا جذع لها. كما أنها لا تتساوق

(843) Frazer, *Folklore in the Old Testament*, vol. 3, pp. 376f.

حيث هناك بعض الأشياء الأخرى في الصفحات 372-394 عن اليبروح.

(844) يُنظر:

Keimer, *Die Gartenpflanzen*, vol. 1, pp. 172f.,

يقارن:

pp. 20ff., 87 ff.

(845) *Bell. Jud.* VII 6, 3,

كذلك عن اللفاح، أي اليبروح في اليونان وعن:

v. Heldreich, *Nutzpflanzen*, pp. 36f.

(846) j. Sabb. 8b, Erub. 26c. Löw, *Flora*, vol. 3, p. 365,

تشير إلى الخطر الكامن في خلع الجذر.

(847) مدراش أغادا عن التكوين 49:14، ص 112. وبحسب فريزر، في: Ibid., p. 394، ربما تعود الحكاية في الأصل إلى رواية توراتية.

والتكوين (14:30)، ففي فترة حصاد القمح، يكون المقصود بلا شك الثمار. إلا أنها تستند إلى الخرافة نفسها التي تقوم عليها حكاية يوسيفوس، والذي يعود اسم نبتته إلى[848] تسمية ما بعد توراتية للفّاح، يَبرواح[849]. والـ"يبروح" و"بيروح" معروف بالعربية كجذر الـ"لُفّاح" الذي يشبه الإنسان[850]. وقد وجدت في سنة 1925 صعوبة في اقتلاعه من الأرض، وتصورت أن من يقوم بشده قد يقع بسهولة، كونه ينقطع. وهذا، إضافة إلى الشكل والرائحة، ربما كان السبب في جذب الانتباه إليه.

وفي الوقت الذي ينتمي اليبروح إلى نباتات المنطقة الصخرية، يستطيب ياسمين البر (Clematis cirrhosa، بالعربية "غالقة"، "مَلعة"، "شَبَطبَط") أن يمد محالقه المتسلقة ذات الأزهار الكبيرة البيضاء على الجُذُر الحجرية في الطرقات. وقد يحدث ذلك في منتصف كانون الأول/ديسمبر حين زيّنتُ بها، في 23 كانون الثاني/يناير 1904، مائدة تعميد ولدي. وفي الوقت ذاته يظهر بطيط الحجل المتواضع (Gagea chlorantha)، والتي يطيب للأوروبيين الفلسطينيين إطلاق "نجمة بيت لحم" على زهراته البيض الصغيرة التي تتخذ شكل نجمة لصلتها بعيد الميلاد. أما بالنسبة إلي، فإني تمتعت في هذا العيد بالنرجس البري العطري (Narcissus Tazetta)، بالعربية "رُنجُس"، "نَرجِس" الذي يجمع على ساق واحدة أزهارًا عدة، وإن تكن أصغر، خلافًا لنرجسنا (Narcissus poeticus). وقد

(848) Ber. R. 72 (155^b), Tg. Onk. Jer. I, j. Sabb. 8^b, Erub. 26^c

التكوين 14:30.

(849) لكن، بحسب موزل، هناك إلى الشمال من قلعة مكاور [جنوب غرب مادبا] وادي البخرع، حيث يفترض، بحسب يوسيفوس، أن تنمو النبتة العجيبة في وادٍ. وإذا افتُرض أن يوسيفوس قصد نبتة أخرى، خلافًا للفّاح المعروفة لديه بحسب

Antt. I 19, 7,

حينئذ يكون الاعتقاد فيها قد انتقل إلى نبتة أخرى.

(850) **محيط المحيط** عن الكلمة. وسمعت أيضًا "جِرَبوح" في قرية "أم قيس" [في الأردن]. وفي:

Schweinfurth, *Arab. Pflanzennamen*, p. 29,

"يَبْرُو" التي هي تحريف لِـ "يبروح". يُنظر:

Meyerhof, *Der Bazar der Drogen und Wohlgerüchte in Kairo, Archiv f. Wirtschaftsforschung im Orient* (1918), pp. 187, 192; Berggren, *Guide*, p. 861,

حيث "أبروه"، "يبروح".

كانت أزهار النرجس قد وصلت قبل عيد الميلاد من الساحل إلى السوق في القدس، فأمكن وضعها تحت صنوبرة عيد الميلاد في بيتنا. وفي صيدا تُعتبر كما لو كانت نشأت من لعاب النبي ("بزاق النبي")[851]. وبسبب رائحتها، يُقدرها جميع الفلسطينيين، وسبق أن اعتبرها الترجوم وسعديا الـ"حَبَصّيْلِت" في نشيد الأنشاد (1:2)[852]، وهي تغيب عن محيط القدس المباشر، إلا أني رأيتها في 22 كانون الثاني/يناير 1914 تزهر بالقرب من رام الله. وينمو النرجس في الحديقة بشكل وارف أكثر منه في الخارج. ولهذا كان التمييز التلمودي بين نرجس الحدائق ("نَرقوم"[853]، [الصحيح "نرقيس"][854] "دِجنونيتا") والنرجس البري ("ن. دِدَبرا") مبررًا؛ لأن تمجيد الأولى قُصد به أشجار قوية الرائحة، وكان المقصود في الثانية نباتات قوية الرائحة أيضًا، فربما كان ذلك له صلة بخطأ يتعلق بالطبيعة الدائمة طوال العام لكلتا النبتتين معًا[855]. وفي نهاية كانون الثاني/يناير تظهر أيضًا بالقرب من القدس أولى شقائق النعمان القرمزية التي يكتمل نموها في آذار/مارس، ولذلك سيتم التعرض لها في الفصل المتعلق بالربيع. إلا أن صورة الحياة النباتية الشتوية لا تكتمل من دون السوسن بأنواعه. وهنا يظهر أولًا السوسن الفلسطيني العطر والأبيض (Iris palaestina)، الذي أزهر في حديقتي في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1911 وفي

---

(851) Abela, *ZDPV* (1884), p. 111.

(852) سعديا أيضًا إشعيا 1:35. يُقارن: Marti- *Festschrift*, pp. 64f.; *PJB* (1925), p. 98, (مع صورة).

(853) هكذا: b. Ber. 43^b جميع النصوص. كذلك: Aruch, *Pesaro* 1517

(854) ابن ميمون في: H. Berach IX 6, "نَرجيس".

(855) يُقارن: Löw, *Flora*, vol. 2, p. 204, لكن أيضًا: Dalman, Marti- *Festschrift*, p. 65.

منتصف شباط/ فبراير 1909 بالقرب من قريتي سَريس وبيت محسير. ثم هناك السوسن المتفاخر (Iris histrio) ذو اللون الأزرق الباهت الذي شوهد في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 1912 وفي منتصف كانون الثاني/ يناير 1909، وأخيرًا في شباط/ فبراير شوهد السوسن (Iris Sisyrinchium) البنفسجي الواسع الانتشار، الذي يسمى بالعربية "زَمبَق"، وبالتأكيد تحت الاسم القديم "سوسن"، بالعبرية "شوشَنّا"[856].

كما تُذكر الأقوال العربية المأثورة عن نمو الشتاء المبكر كما يوردها القزويني بالنسبة إلى كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير[857]، فيقال عن 4 كانون الثاني/ يناير: "اِذَ طَلعت البلدة - حممت الجعدة - وأكلت القشدة"، أي: "إذا طلعت المدينة ("كوكبة القوس والرامي")، تُطلق الجعدة أزهارها (Teucrium Polium) [تنبت الجعدة عند حواف الأودية] وتؤكل الـ"قشدة"[858]، أي العصيدة المتبلة بجميع أنواع الأعشاب، والتي يصفي المرء بها الزبدة الذائبة ("سمن") ثم يتناولها وجبة لذيذة. ويقال عن 17 كانون الأول/ ديسمبر: "اِذَ طَلع سعد الذابح - حمَ أهلَه النابح - ويصيح السارح": "إذا طلع α وβ في برج الجدي، يحمي النبّاح بيته (أي الكلب) ويصيح الذاهب إلى المراعي (أي الماشية)"، وهذا، وفقًا للقزويني، نتيجة قِصَر النهار، وعلى الأرجح بسبب البرد الذي يُقيد الكلب بالخيمة. وعن 30 كانون الثاني/ يناير يقال: "اِذَ طَلع سعد بُلَع - اقتحم الربع - ولحق الهبع - وَصيد المرع - وصار في الأرض لمع"، أي: "عندما يطلع μ وν في برج الدلو، يركض المولود مبكرًا (جمل)، ويصل إليه المولود متأخرًا ويتم مطاردة السّمان[859]، ويكون على الأرض لمعان" (من العشب

---

(856) *PJB* (1925), p. 97.

(857) Kazwini, *Kosmographie*, I, pp. 49f.

(858) في ترجمة إيثه خطأ "زبدة طازجة".

(859) بحسب القزويني، "نوع من الطيور يوجد في هذا الوقت بينهم"، وقد يكون هذا هو السُمّان الذي ذكر تحت اسمي "أم ريعي"، و"مريعي"، يُنظر:

ZDPV (1913), p. 174;

يُقارن أعلاه، ص 168.

الناصر)[860]، والذي يظهر في 24 كانون الثاني/ يناير وفقًا للتقويم[861]. ويبدي 12 شباط/ فبراير تقدمًا إضافيًا: "اِذَ طلع سعد السعود - نظر العود - ولانت الجلود - وكَرُه في الشمس القعود"، أي: "إذا طلع β وξ في برج الدلو، يلمع خشب (الأشجار) ويتلون جلد (الناس) ويصبح الجلوس في الشمس مكروهًا". وفي ظل سلطان هذا البرج، "تنشط أولى الأعشاب، وتغني الطيور، وتصبح القطط مضطربة، وتورق الأشجار، وتأتي بوم الحيطان[862]، وتعثر الجمال والأبقار على مرعاها، وتنضج الأزهار وورود أخرى عطرة الرائحة"[863]. وينقضي الشتاء، عندما يقال في 25 شباط/ فبراير: "اِذَ طلع سعد الأخبية - دُهِنت الأسقية - وَنَزَلت الأحوية - وتجاوزت الأبنية"، أي: "عندما تظهر γ، ζ، π، η في برج الدلو، يتم تزييت القِرَب (كي تُستخدَم من جديد)، وتهبط الخيم وتُترك الأبنية".

أما الأشجار، فمن الطبيعي أنها لا تخضرّ مبكرًا، لأنها فقدت أوراقها بشكل كلي في النصف الأول من كانون الأول/ ديسمبر. وعندما تركتُ القدس في 1 كانون الأول/ ديسمبر 1921 رأيت من عربة القطار الكرمة في الجبال عارية بعض الشيء وصفراء بعض الشيء، وأشجار التين إما عارية من أوراقها بشكل كامل وإما ذات أوراق صفراء ورمادية وكذلك البطم الذي لا يزال مورقًا، لكنه مصفرّ بشكل جزئي. وفي الساحل رأيت أشجار المشمش عارية تقريبًا، وأشجار اللوز بلا أوراق تمامًا. وفي 11 كانون الأول/ ديسمبر 1908 (بحسب التقويم الغريغوري) كان كل شيء منزوع الأوراق. وبالنسبة إلى 23 كانون الأول/ ديسمبر (التقويم اليولياني)، يذكر القزويني[864] في "التقويم الإغريقي" ندًى وافرًا وسقوط أوراق الأشجار. ويبقى الأمر على حاله حتى نهاية

(860) هكذا بحسب القزويني. يفكر إيثه في جفاف الأعشاب غير الملائم هنا.

(861) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 76.

(862) "الخطاطيف"، يُقارن:

ZDPV (1913), p. 171.

(863) والأخيرة مبالغ فيها، أو أن المقصود بها جنوب [شبه الجزيرة] العربية. ففي القدس تزهر الأزهار في بداية أيار/ مايو.

(864) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 75.

شباط/ فبراير. وحتى على نهر الأردن وجدتُ في 5 شباط/ فبراير 1914 الحور الفراتي ("غَرَب") وهو لا يزال عاريًا من أوراقه، والطّرفاء ("طرفة") لا تزال في طور النمو على ضفتَي النهر، في حين أن حقلًا من الـ"فول" في وادي القلط كان منورًا. وفي 9 شباط/ فبراير 1909 كانت أشجار الحور الفراتي تزهر على ضفتَي نهر الأردن، في حين أن الطرفاء كانت لا تزال بلا أوراق كما كانت في الشتاء. وفي المقابل، كان شجر القيقب الدلبي الكاذب ("جميز") والسدر (Zizyphus Spina Christi) قد أورق. ولذلك يعتقد المرء أن الشجرة التي صعد إليها زكا في الفصح كانت مورقة (لوقا 19:4)[865]. وعلى المنحدرات الشرقية لغور الأردن، تستطيع شجيرات منتشرة من phrygana و macchia، من القندول الشعري (Calycotome villosa) (بالعربية "قَندول"، "قُنديل") أن تتفتح أزهارها الصفر في منتصف شباط/ فبراير[866]، في حين أن البلان الشوكي في الجبال كان لا يزال ميتًا تمامًا. والبلان الشوكي يدعى (Poterium spinosum)، بالعربية "نِتش"، "بِلان"، ويغطي مناطق واسعة. وفي وادي عربة الشرق الأردني يزهر في منتصف شباط/ فبراير الرتم الأبيض الشعري (Retama Roetam، بالعربية "رِتِم")، في حين كان ميتًا في وادي فارة في 21 شباط/ فبراير 1911، وبعيدًا عن أن تتفتح أزهاره البيض ذات الرائحة التي تشبه رائحة اللوز. إلا أني كنت قد رأيت هنا نوعًا من السماق الشوكي (Rhus oxyacanthoides) (بالعربية "عرّ") مورقًا ومزهرًا في 2 كانون الثاني/ يناير 1909.

تمثل شجرة اللوز (Prunus Amygdalus، بالعربية "لوز") في المنطقة الجبلية، والتي تنتمي، باعتبارها شجرة برية، إلى منطقة كثيرة الشجيرات macchia وإلى الغابات، وهي تُسقط أوراقها باكرًا، حيث الأوراق هي الشاهد الأول على حياة جديدة في عالم الأشجار؛ ففي 8 كانون الثاني/ يناير 1909 بدأت أشجار اللوز في حديقتي بالتنوير، وفي 16 شباط/ فبراير كانت مزهرة بالكامل: نوّار أبيض وأحمر، إنه منظر خلاب في وقت تتساقط فيه الثلوج، وكل شيء آخر يبدو ميتًا.

---

(865) يُنظر أعلاه، ص 61 وما يليها.

(866) Schumacher & Steuernagel, *Der ʻAdschlun*, pp. 61f.

وقد شاهد إرميا (سفر إرميا 1:11) ذات مرة عصا لوز ("مَقّيل شاقيد")، وكان من المفترض أن يتعلم منه أن الله كان تواقًا إلى سماع كلماته (شوقيد). ولأن شجرة اللوز لا تنام أبدًا، كما يبدو، فإنها تلائم هذه الصورة. وبحسب إليعيزر، فإن الشجرة تبرهن همتها وحميتها من خلال كون الفترة الزمنية الفاصلة بين التنوير والإثمار هي 21 يومًا فقط[867]. وهنا بالطبع يُقصد بذلك البدايات الأولى لنمو الثمر التي شاهدتُها في 5 نيسان/ أبريل 1921 في القدس، في حين أن النمو الكامل كان قد اكتمل في 10 أيار/ مايو. وقد ظهر اللوز الأخضر الذي يؤكل، في السوق في 28 آذار/ مارس 1913، إلا أن مصدره كان بالتأكيد المناطق الساحلية[868]؛ ذلك أن عصا أهارون التي أطلعت في ليلة واحدة زهرًا وثمرًا (العدد 23:17) كانت عصا لوز[869]، ولهذا الأمر صلة بطبيعة شجرة اللوز. وإذ أَفترض أن كؤوس الشمعدان في خيمة الاجتماع عليها أن تكون لوزية الشكل[870] (الخروج 33:25 وما يلي، 19:37 وما يلي)، فسيكون المقصود شكلًا شبه كروي يماثل زهر اللوز، ولكنه قد يعني ضمنًا أن شجرة اللوز تتمتع بحظوة إلهية خاصة. واليوم تُعتبر شجرة اللوز المادة الأفضل لصنع عصا لجلب الحظ، لأن [النبي] محمد حمل عصا لوز (عبد الولي). وقد تكون الفكرة قديمة، خصوصًا أن عصي رؤساء أسباط إسرائيل (سفر العدد 21:17 وما يلي) صُنعت جميعها – على ما يبدو – من شجر اللوز التي التي تنمو بشكل

---

(867) Koh. R. 12 (130ᵇ), j. Taan. 68ᶜ.

(868) يذكر:

Duhm, *PJB* (1921), p. 68

حزيران وتموز كموسم بيع اللوز الأخضر في الأسواق. يذكر:

Bauer, *Volksleben*, p. 172,

تموز/ يوليو وآب/ أغسطس كوقت للنضوج. وفي دمشق يصل اللوز الناضج إلى السوق في آب/ أغسطس:

Bergsträßer, *Zum arab. Dialekt von Damaskus*, vol. 1 p. 76.

(869) بحسب سفر زروبابل (Sepher Serubbabel)، فإن هذه العصا مخفية في طبرية، ويحملها مسيح بن إفرايم وأم مناحيم بن أمّييل (المسيح الداودي). يُنظر:

Catelli, *Il Messia*, p. 330,

يُقارن:

Dalman, *Der leidende und der sterbende Messias* (1888), p. 13.

(870) تفهم من الترجوميم [بصيغة الجمع] أنها "رُسمت"، سعديا حرفيًا "ملوّزات".

مستقيم تلائم غصونها صنع العصي. وحده خشب مستقيم ("سِمح") يكون جيدًا وشافيًا وليس المعوج ("أعوج") أو الذي يثنيه الإنسان بشكل معقوف مثل عكاز الـ"باكور" [البعكور]، في حين أن غصنًا آخر، مثل الـ"مِحجان"، يجلب لحامله الحظ (عبد الولي). هناك إذًا سبب جيد عند البدو ليظهر العريس أمام العروس حاملًا عصا لوز ومجيدية [عملة عثمانية] (4 ماركات)[871] كي يتركها تختار. ولأن الشجرة في فلسطين تنمو بشكل بريّ[872]، فلا بد من اعتبارها شجرة طبيعية - قديمة. ومن الأشجار التي تزهر مبكرًا نوع من شجر التوت الأرضي Arbutus Unedo (بالعربية "قُطلِب") وهو موجود في لبنان بصورة مؤكدة، ويشهد على وجوده في فلسطين بواسييه (Boissier) وبوست، حيث لم أره قط. أما وقت تنويره، فيمتد من تشرين الأول/ أكتوبر حتى شباط/ فبراير، وفي اليونان من تشرين الأول/ أكتوبر حتى كانون الأول/ ديسمبر[873].

أما صورة المشهد الطبيعي العام في المناطق الجبلية غرب نهر الأردن، فيحدده الزيتون الدائم الخضرة الذي تحيط حقوله بالقرى، في حين أن البلوط والخروب يَظهران نقاطًا سودًا داكنة في البساتين والمنحدرات الجبلية. وهناك، حيث شجرة التين هي الغالبة، تحوط كروم التين بالقرية على نحو حصري تقريبًا، كما هي الحال بالقرب من بيتين وعناتا. وسيكون الانطباعُ الشتوي للعين الأكثر قوة لافتًا، خصوصًا أن لون الجذوع والأغصان الفاتح يكشف عريها بشكل واضح وعلى نحو استثنائي. والوضع الشتوي في المنحدرات المغطاة بشجيرات كثيرة، حيث تمثل شجرةُ البطم الأشجارَ الطارحة أوراقها، هو الوضع الطبيعي في مناطق الغابات، حيث يغلب وجود البلوط القرمزي أو الصنوبر، ولكن بشكل أقل كثيرًا في بيارات الليمون والبرتقال في الساحل وأريحا، والتي تزين الفاكهة الصفراء والحمراء الأشجار دائمة الاخضرار في الشتاء.

---

(871) Musil, *Arabia Petraea*, vol. 3, p. 206.

(872) Ibid., pp. 96, 133,

يُقارن أعلاه، ص 75، 78، 80، 83 وما يليها.

(873) Mommsen, *Griech. Jahreszeiten*, p. 472.

لا يفتقر عالم النبات في فلسطين إلى أشجار دائمة الخضرة، ومردّ ذلك بشكل خاص إلى طقسها الجاف وحرارة صيفها حيث تتطلب بعض النباتات، كي تكون قادرة على المقاومة، غلافًا متجددًا أو نوعًا محددًا من الأوراق، أو جذورًا تتغلغل بشكل كافٍ في الأرض كي تصل إلى رطوبة دائمة. ومع أن موسم الشتاء في فلسطين تميزه الأشجار التي تطرح أوراقها، كما سبق عند الحديث عن الخريف، فإنه لا يزال يتميز بشكل خاص بعدد كبير من الأشجار الدائمة الخضرة التي تكفل ألا يكون المشهد الطبيعي الشتوي هناك أجرد؛ ففي الأزمنة القديمة، وجد المرء ذلك لافتًا، حيث إن سفر أخنوخ يُشير في الجزء الثالث إلى أن هناك 14 نوعًا من الأشجار "لا تطرح أوراقها في الشتاء، بل تحتفظ بالقديمة سنتين أو ثلاث سنوات ريثما تأتي الأوراق الجديدة". ويعدد كتاب اليوبيلات (21:21) أربعة عشر نوعًا من الأشجار كخشب قرباني، والتي قُصد بها أنها دائمة الخضرة، كما تؤكد شهادة ليفي في الفصل التاسع بالنسبة إلى الـ 12 نوعًا التي تمنح الخشب القرباني؛ فالتقليد اليهودي - الحاخامي لا يعرف شيئًا عن هذا المبدأ الخاص باختيار خشب القربان[874]. وفي المقابل، تشتمل **الجيوبونيكا** [عشرون كتابًا عن التقاليد الزراعية] في XI 1 على فهرس يحتوي 14 نوعًا من الأشجار الدائمة الخضرة ذات صلة وثيقة بقائمة كتاب اليوبيلات. وبلا شك، فإن عشرة أنواع من الأشجار المتشابهة، وربما كانت الأربعة الأخرى المتبقية في **الجيوبونيكا** هي: *πῖνος* (الخروب)، *χεζατες* (نوع من البلوط الدائم الخضرة)[875]، *πυξος* (الصفصاف)، *ιτεα* (شمشاد)، علمًا أن الأخير لا يتلاءم مع الأشجار الدائمة الخضرة. ومن المفترض في كتاب اليوبيلات الإثيوبي أن تكون الأشجار التالية مناظرة: "ديفران" (نوع من العرعر)، "سَجاد" (لوز)، "بوراتِ" (نوع من السرو)، "بيسم" (بلسم). ومن هنا يبقى من المحال أن يكون اللوز طارح أوراق وبلسمًا يلائم البطم العدسي (Pistacia lentiscus).

---

(874) يُقارن أعلاه، ص 86.

(875) بحسب هيلدرايخ (Heldreich) في:

Mommsen, *Griech. Jahrezeiten*, p. 500,

فإن *πριναρι* يدعى الآن في اليونان Quercus coccifera.

يُمكن في الوقت الحاضر تسمية الأشجار التالية في فلسطين أشجارًا برية دائمة الخضرة؛ فأكثر الصنوبريات المحلية أهمية هي صنوبر حلب (Pinus halepensis، بالعربية "قريش"، بالعبرية "عيص شيْمِن")، والتي توفر لنا نحن الألمان شجرة عيد الميلاد. وثمة بقايا غابات من هذه الصنوبرات في غرب الأردن مع مجموعة أكبر في "عجلون". أما الصنوبرة الغنية ذات الصلة بها (Pinus pinea، بالعربية "صنوبر")، فيمكن إيجادها مغروسة. أما الأرز اللبناني (Cedrus Libani، بالعربية "أرز لبنان"، بالعبرية "اِيرز")، والذي اختفى تقريبًا في بلده، فقد نجح الألمان مؤخرًا في جعله محليًا في القدس. ومن السرو (Cypressus sempervirens، بالعربية "سَرُو"، بالعبرية "بِروش") يغلب النوع الهرمي في الحدائق، ونادر هو النوع ذو الأغصان الأفقية، والذي وجدته ينمو بشكل بريّ بالقرب من بصيرا، ويُسمى هناك "أرز": وبما أنه يناظر "بِروش" التوراتية[876]، فتُدعى "خضراء نضرة" (بالعبرية "رَعنان") في هوشع (14:9)، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن تكون دائمة الخضرة، خصوصًا أن الأشجار "الخضر" الخاصة بالعبادة الأجنبية لم تكن جميعها دائمة الخضرة[877]. وفي البتراء، وإلى الشمال منها، رأيتُ العرعر (Juniperus phaenicea، بالعربية "عرعر"، "لزّاب"، بالعبرية "تِدهار")، في حين وجد آرونسون (Aaronsohn) على سفح جبل الشيخ عرعرًا متعاليًا (Juniperus excels) وعرعرًا سوريًا (Juniperus drupacea)[878]. وما له أهمية كبيرة في المنطقة الجبلية في فلسطين هو البلوط (Quercus coccifra بالعربية "سنديان"، "بلوط"، بالعبرية "ألون") الدائم الخضرة،

(876) استخدم سعديا دائمًا "بِروثي"، التي تعود إلى الكلمة السريانية "بِروتا".

(877) يُنظر أعلاه، ص 66 وما يليها، حيث يترجم سعديا "رعنان" بِـ "ريان": "طازج الورق".

(878) احتفظ:

Bull. Soc. Bot. de France (1913), pp. 587f.; Post, *Flora*, p. 74,

لِـ J. drupacea بالاسم العربي "ضِفران"، أو على الأرجح "ذِفران"، وهو ما يناظر الكلمة السريانية "دَفرانا"، ولـ J. excels "لِزّاب"؛ ذلك أن العرعر يدعى الآن في اليونان *χεορος*، يوضح "اِدرا":

j. Keth. 31[d], Ber. R. 15 (32[a])

لِـ "تِدهار" التوراتية،

b. R. h. Sch. 23[a],

لِـ "قِتروس".

والخروب (Ceratonia Siliqua، بالعربية "خروب"، بالعبرية "حاروب")، والبطم العدسي ذو الرائحة القوية (Pistacia Lenticus، بالعربية "سَريس")، وشجرة الزيتون ذات اللون الأخضر الطافئ (Olea europaea، بالعربية "زيتون"، بالعبرية "زَيْت")، والموصوف في المزمور (52، 10) "بالأخضر" النضر دائمًا (يُنظر أعلاه)، الزرود (Phillyrea media بالعربية "بِرزة") ذو الأوراق الصغيرة والقريب من شجرة الزيتون الذي من المحتمل أنه لا ينمو إلا في الجليل وشرق الأردن، والنبق المسهل (Rhamanus palaestina بالعربية "سوّيد"، "عجرينة"، "عجرمون")، والنبق المتبادل الأوراق (Rhamanus alaternus)، وشجر الغار (Laurus nobilis، بالعربية "غار"، بالعبرية "أورِن"؟)[879] المعروف لدي من الكرمل وتل القاضي، وأفلوس الغاري (Viburnum Tinus، بالعربية "صفيرة"، "مُرّير") الذي أصبح نادرًا على جبل الكرمل (Arbutus Andrachne، بالعربية "قيقب" أو ربما A. unedo، بالعربية "قطلب") الواسع الانتشار، مع أنه ليس مألوفًا، والآس (Myrtus communis، بالعربية "حِمبلاس" (= "حَبْ الآس")، "مِرسين"، بالعبرية "هَدَاس") الخاص بالجليل وحده[880].

وغالبًا ما تنمو الدفلى (Nerium Oleander، بالعربية "دفلي"، وباليونانية الآن *πιχροοαφνη*) على امتداد الأودية والأنهر. ويعود الإثل (Tamarix articulata، بالعربية "اِثل"، "نِثِل"، بالعبرية إيشِل)، التكوين (21:33)؛ صموئيل الأول (22:6، 31:13) دائم الخضرة، وهو نادر بشكل خاص في غور الأردن. وضمن سلسلة الأشجار الدائمة الخضرة يجب وضع أشجار النخيل (Phoenix dactylifera، بالعربية "نخل"، بالعبرية "ديْقِل") التي تنمو بشكل بري في شرق البحر الميت. وإلى الجنوب من البحر الميت تنمو شجرة الدوم (Hyphaena thebaica، بالعربية "دوم") وأنواع الحمضيات التي لا تنمو في أي مكان بشكل

---

(879) هكذا:

Löw, *Flora*, vol. 2, p. 121,

بحسب

b. R. h. S. 23ª,

ولكن سعديا في إشعيا. 44، 14 "سِنديان". يُنظر أعلاه، ص 65، 86.

(880) عينة خشب لنموذج مُطوّع قطره 3 سم.

بري، خاصة شجرة الليمون (بالعربية "ليمون") والأترج (بالعربية "ترُنج"، "اِتروج" في التقليد اليهودي) وشجرة البرتقال (بالعربية "بُردقان") التي استُقدمت [من البرتغال] في وقت متأخر، وهي تُزرع على نطاق واسع في بيارات الساحل. وقد اكتسبت مؤخرًا أهمية شجرة الأوكالبتوس (بالعربية "شجرة الكينا") وأنواعها المختلفة التي تعمل جيدًا ضد المستنقعات في الساحل. ومن الأشجار الدائمة الخضرة أيضًا شجرة الأراك (Salvadora persica، بالعربية "راك") التي تكثر في جنوب البحر الميت. وهناك العشبة المتسلقة الدائمة الخضرة (Hedera Hellix، بالعربية "مِدّادة")، وهي ليست شجرة، ولكن إذا زُرعت أطلقت جذوعًا سميكة. وإلى ذلك تنتمي الفشاغ (ص 82) والعناقية (Vinca herbacea، بالعربية "مدادة") الدائمة الخضرة، والتي تنمو بشكل بري.

بهذه الطريقة يستطيع المرء التحدث عن 20 شجرة دائمة الخضرة في فلسطين من دون تعداد الأنواع. وتشمل قائمة **الجيوبونيكا** الصنوبر والصنوبر الثمري والأرز والسرو والعرعر والسنديان القرمزي والخروب والزيتون والغار والآس والنخيل والليمون، إضافة إلى الشمشاد (Buxus longifolia، باليونانية *πυξος*، بحسب بيلوت Belot بالعربية "بَقس"، يهودي - آرامي "بِقسينا"، "بِقسينون"، توراتي - عبري بحسب j. Keth. 31[d]، يُقارن ترجوم عزرا (6:27)؛ إشعيا (19:41)، "تِأشّور"، عبرية متأخرة بحسب j. Jom. 41[a]، "اِشكِراع"، أو "اِشكِروَع")، التي تنمو بشكل بري في شمال سوريا وحده (بحسب بوست)، والتي من الممكن أن تكون معروفة في فلسطين كنوع من الخشب المصقول وكشجيرة حديقة، وأخيرًا الصفصاف غير المستخدم هنا[881]. وفي كتاب اليوبيلات يظهر نوعان من السرو والعرعر ومن الصنوبر والصنوبر الثمري والأرز والزيتون والغار والآس والنخيل والليمون، فضلًا عن البلسم واللوز الذي لا ينتمي إلى هذه البلاد. وهنا يفتقد المرء بشكل خاص السنديان القرمزي والخروب.

(881) هل يجب اعتبار الصفصاف، كما اللوز في كتاب اليوبيلات، دائم الخضرة بسبب تنويره المبكر؟

وتساهم أوراق جميع هذه الأشجار التي لا تغيب أبدًا في تظليل الأرض[882]، وفي الحماية التي توفرها ضد المطر والريح، وهو ما لا يمكن تجاهل أهميته. ويبدو أن **الجيوبونيكا** تمتلك بعضًا من القصص الأسطورية الفردية ذات الصلة بقصص حب الله؛ فالغار والسرو والآس والصنوبر تشكل تعويضًا عن العذارى المحبوبات أو الراقصات[883]. ويرى سفر أخنوخ في المحبوبات الراقصة صنيعَ الرب الذي يظهر بشكل خاص في الشتاء.

ط. الزراعة في الشتاء

يُعتبر أول شهر في فصل الشتاء (كانون الأول/ ديسمبر) أكثر الأوقات أهمية، وغالبًا عندما يأتي المطر متأخرًا، للقيام بالبذر الشتوي "شتوي أول ربطة". وفي سنة 1908، بدأ الحرث بالقرب من "حزمة"، شمال شرق القدس، في 5 كانون الأول/ ديسمبر، وبالقرب من القدس بعد 18 كانون الأول/ ديسمبر. وبعد بذر القمح الذي يسبقه بذر الباقلاء (Faba vulgaris، بالعربية "فول")، يأتي بذر الشعير والبيقة (Vicia Ervilia، بالعربية "كرسنة") والعدس (Ervum Lens، بالعربية "عدس"). أما القول الشائع: "عيد الميلاد رُدّ العدس للأولاد"، فيعني، عَرَضًا، أن من الآن فصاعدًا لن يكون هناك بَذرٌ للعدس[884]. وعلى نحو لافت يشبه ذلك القول: "في كانون صُرّ الكمون". وربما يفترض أن يعني ذلك: لا تقم ببذر الكمّون بعد الآن، على الرغم من أن سجعان[885] فهم المثل كونه موجّهًا بشكل ساخر إلى ذلك الذي لا يستطيع في هذا الوقت أن يضع الكمون في حقيبة جراء تجمد أصابعه. ولأن البذور تُحرث تربتها على الفور، فهذا شيء طبيعي، وأحيانًا يسبق ذلك حرث أولي تمهيدي[886].

في شهر الشتاء الثاني (كانون الثاني/ يناير)، أي في الـ"غطاسيات" (ص 178)، تجري عملية بذر كانون الأول/ ديسمبر التي تُعتبر "شتوِي ربطة

---

(882) يُقارن أعلاه، ص 74 وما يليها.

(883) *Geoponica* XI 2. 4. 6. 10.

(884) يُنظر ص 275.

(885) *Mitt. d. Sem. f. Or. Spr.* V II, p. 23.

(886) سيتعرض المجلد الثاني بالتفصيل إلى جميع هذه الأمور.

اِلوسطَ"، أي: "بذر شتوي أوسط"، والذي يميزه المرء من بذر الشتاء المبكر. ثم يتبع في شباط/ فراير "البذر المتأخر" ("آخر ربطة" أو "الوِخري"، وأيضًا "اللقشي")، والتي تتمتع، في بعض الظروف - تبعًا للطقس - بمزايا نافعة لنموها[887]. وحيثما يجري التفكير بإمكانية "ربطات" سبع "أوقات البذر"[888]، يُعتبر السابع أفضل وقت للبذر المتأخر، والذي يدعوه المرء "اللوزية"، لأنه يحدث خلال وقت تزهير اللوز، أو "زرع اِغطاسي" "زرع وقت عيد الغطاس". وهناك قول قديم يحذر من البذر في شباط/ فبراير[889]: "الذي يزرع في شباط ما يَحصد إلا الضراط". وفي جميع الأحوال بالكاد تأتي بالحسبان في آخر هذا الشهر، إذ يقول المرء: "طِلع الرنجُس[890] والحنون[891] ضُب اِبذارك يا مجنون"، أو: "طلع البرقوق[892] ضب اِبذارك في الصندوق". وتشير كلمة "اِبذار" هنا إلى أن الأمر يتعلق بالقمح والشعير اللذين يتم بذرهما بطريقة العزق. وهناك نمط مختلف من البذر" لِقاط"، حيث يجري إسقاط كل بذرة بشكل فردي، كما يحدث خلال بذر الصيف الذي يفترض ألّا يُستثنى. وتنتسب كلمة يسوع (يوحنا 37.35:4) إلى نهاية فصل البذر، أي أربعة أشهر قبل الحصاد، في نهاية كانون الثاني/ يناير أو بداية شباط/ فبراير، فهي تتحدث عن أن المثل القائل "واحد يزرع وآخر يحصد" لا ينطبق هنا دائمًا، خصوصًا أن البذر والحصاد يتزامنان أيضًا.

---

(887) يُنظر أعلاه، ص 166 وما يليها.

(888) Cana'an, *ZDMG*, vol. 70, pp. 171, 173.

(889) Freytag, *Arabum Proverbia* III 1, no. 1246.

(890) استخدم توفيق كنعان في:
Cana'an, *ZDMG*, vol. 70, p. 171,
كلمة "الزوزو" بدلًا من "النرجس".

(891) جميع أزهار الربيع الكبيرة تُدعى "حنون"، على سبيل المثال شقائق النعمان والأدونيس أو زهرة الدم والحوذان. يُنظر:
Dinsmore & Dalman, *Pflanzen Palästinas*, pp. 7ff.

(892) ليس البرقوق الأخضر (هكذا كنعان في *ZDPV* (1913), p. 275)، على الرغم من أنها تدعى أيضًا "برقوق"، بل شقائق النعمان الأرجوانية، وبالكاد الحوذان الآسيوية التي تظهر متأخرة، والتي تسمى بصفة خاصة هكذا.

ليس هناك من فارق زمني جوهري في الساحل، وفق معطيات ماكاليستر (Macalister) بالنسبة إلى أبو شوشة[893]؛ إذ تشير معطياته إلى أن حرثًا تحضيريًا مفصولًا عن الحرث الذي تُبذر فيه البذور بطريقة تمهيدية، بحيث إن هذا الحرث يتم في الشهر الذي يسبق. كما أن التقارير المكتوبة عن نشاط البدو بالقرب من "الطابغة" على بحيرة طبرية، والتي يعود الفضل فيها إلى زونن، تدل على تزامن جدير بالملاحظة للبذر في غور الأردن والهضاب الجبلية، والتي يمكن تفسيرها من خلال كون قدوم الأمطار هو العامل المحدد في كل مكان.

بالنسبة إلى الأزمنة القديمة، يدل تحديد "الزرع" في التكوين (22:8) في الفترة بين منتصف تشري حتى منتصف كيسلو، أو حتى من منتصف مرحشوان أو بداية تشري حتى نهاية تيبت، أو من بداية تشري حتى منتصف شِبات[894]، على ظروف ملائمة؛ ففترة (تقوفا) تشري كلها، أي تقريبًا الفترة من تشرين الأول/ أكتوبر حتى كانون الأول/ ديسمبر، يشملها الترجوم اليروشليمي الأول في فترة الزرع (الترجوم 1 عن التكوين 22:8). هذا كله سيتطابق مع الظروف الحالية، إذا اعتبر المرء أن بَذر ما قبل المطر ("عفير")[895] في تشرين الأول/ أكتوبر أو بداية تشرين الثاني/ نوفمبر "بذرًا"، وأخذ عيد العُرُش في 15 تشري على أنه الموعد الرئيس للمطر. ويتوافر لدينا موعد خاص لبذر الشعير، وهو مدروس بعناية واهتمام لتقديم الحزمة في اليوم الثاني من عيد الفصح (سفر اللاويين 10:23 وما يلي). وحري بهذا البذر أن يُبذر 70 يومًا قبل عيد الفصح، أي في 4 أو 5 شبات [شباط/ فبراير]، بالمقدار ذاته من التأخير، كي "يكون قريبًا من الشمس"، أي كي ينمو في ظل أقصى حرارة ممكنة[896]، وهذا يعني ختام بذر الحبوب في بداية شباط/ فبراير.

---

(893) يُنظر أعلاه، ص 8.

(894) Ber. R. 34 (69ª), Tos. Taan. I 7,

يُقارن أعلاه، ص 48.

(895) يُنظر أعلاه، ص 164.

(896) Men. VIII 2, Tos. Men. IX 3, b. Men. 85ª.

أما الحرث الأول ("كِراب") لبذر الصيف ("صيفي") وفي بساتين الثمار ("كِروم")، فيتم البدء به حالما يحين وقته، وعادة ما يحصل في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير. إلا أن شخصًا في كفر قدّوم تحدث عن أول حرث في الـ"كرم" بعد المطر الأول، أي في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر أو بداية كانون الأول/ ديسمبر. وعن حرث ثانٍ في الاتجاه المستعرض في نهاية كانون الأول/ ديسمبر، أي قبل مطر الشتاء الحقيقي، كي يؤدي إلى وصول أكبر قدر ممكن من الرطوبة إلى جذور الأشجار. كما أن حفر أخدود حول الشجرة يُعتبر مفيدًا، لأن[897]: "زيت زيتون شارب من مُية كانون خالِ من العكر والزيبار"، أي: "زيت زيتون شرب من ماء شهري 'كانون'، يكون خاليًا من العكر والزبارة" [العصارة]. وفي الأزمنة القديمة، يبدو أن بساتين الثمار لم تكن تُحرث، بل تُعزق، إذ يتم التمييز بين نكش بسيط (بالعبرية "قِشقيش") تحت أشجار الزيتون، والعزق (بالعبرية "عِدّير") تحت دوالي العنب (يقارن إشعيا 2:5)[898]. وهنا يفكر غولدمان[899] في الري الصناعي الذي لم يكن ممكنًا إلا بشكل استثنائي. إلا أن الحديث هنا يدور حول الحرث في أرض الشجرة[900].

عمل آخر يحصل في الفاصل الزمني بين حرث وآخر، هو تقليم الكرمة (بالعربية "تقنيب")، حيث ذُكر لي أن هذا ما يجري في كانون الثاني/ يناير في بتّير، وأول آذار/ مارس في جِفنة وشباط/ فبراير وآذار/ مارس في بيت لحم[901]. وبناء عليه، يكون قد تم ذلك قبل أن تتفتح البراعم الجديدة. وغرس الزيتون ("النَصب") يحدث عادة في كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير، ثم يأتي

---

(897) Cana'an, *ZDPV* (1913), p. 278.

(898) b. Mo. k. 3ª,

يُقارن:

Siphra 105ᶜ. Siphre 148ª,

تستخدم بشكل خاطئ "عازَق" "يحفر" بدلًا من "عاسَق" "ينشغل"، وصحيح بالتالي في مدراش تانيت. عن التثنية 24:33.

(899) Goldmann, *Der Ölbau in Palästina zur Zeit der Mishnah*, p. 15.

(900) Schebi. I 1, II 1.

(901) بحسب رسالة من القس سعيد عبود في بيت لحم.

دور أشجار التين في شباط/ فبراير، والكرمة في آذار/ مارس (رام الله)[902]. وفي مرجعيون، ذُكِرَ لي أن شباط/ فبراير لزراعة الزيتون وآذار/ مارس لتقليم الكرمة، ربما لأن لذلك صلة بالمناخ شديد البرودة في هذه المنطقة بين لبنان وجبل الشيخ. ووفقًا لِـ **جيوبونيكا** (Geoponica III 1. 2)، فإن وقت غرس الكرمة يبدأ في 14 كانون الثاني/ يناير، إلا أن واقع الأمر مرتبط بشباط/ فبراير. ويذكر القزويني أن "الروم" يبدأون بغرس الأشجار في 25 كانون الثاني/ يناير، ويورد أن حدود الشتاء تُنتهك في 12 شباط/ فبراير، وأن الأشجار تطلق أوراقًا وتهب رياح مخصبة[903]. وفي 13 شباط/ فبراير يرتفع النسغ في جذوع الأشجار نحو الأعلى، وفي 15 يبدأ نمو الورق على الكرمة[904].

وفي التقويم اليهودي، تنتمي سنة الأشجار الجديدة إلى هذه الفترة، والتي يجب التمييز بينها وبين السنة الجديدة لغرس النصوب[905] والتي تصادف في 1 تشري، وبالتالي تستند إلى الدورة الطبيعية للسنة الزراعية. وتسري السنة الجديدة للشجر على ثمارها، وربما بسبب ذلك تُفصل عن السنة الجديدة لغرس النصوب وتحديدها في 1 أو 15 شِبات[906]. ويُبرَّر هذا التاريخ بكون مطر الشتاء قد مضت، وأن معظم وقت السنة الشتوي (من كانون الثاني/ يناير حتى آذار/ مارس) لا يزال ينتظر، أو أن الأشجار التي عاشت إلى حينه على ماء السنة المنصرمة تعيش منذ الآن فصاعدًا على ماء السنة المقبلة (الذي كان قد بدأ أصلًا)[907]،

---

(902) في لبنان، تحظى زراعة أشجار التوت بقدر كبير من الاهتمام جراء تربية دود القز. ويُفترض أن يحدث ذلك في "كانون" بشكل خاص؛ إذ إن "نصبة كانون خير من نصبة خمس سنين بغيره"، أي: "شتلة كانون أفضل من شتلة عمرها خمس سنوات يزرعها الواحد في شهر غير كانون". "نصبة كانون أول خير من نصب عام الأول". "نصبة كانون الثاني بسنة بتصير تاني"، أي: "شتلة كانون الثاني تصبح خلال عام عارضة إسناد (في الصف الثاني من أجل سقف البيت)" (Ibid., pp. 665f.).

(903) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 46.

(904) Ibid., p. 76.

(905) R. h. p. I 1, Tos. R. h. S. I 8, Schebi. II 3, j. R. h. S. 57ª.

(906) R. h. S. I 1, j. Schebi. 33ᵈ, 35ᵈ, Orl. 61ª.

(907) j. R. h. S. 57ª, b. R. h. S. 14ª.

صعوبات خاصة ظهرت في خصوص الليمون ("إتروج")، الذي ينضج في الشتاء. يُنظر:
Bikk. II 6, j. R. h. S. 57ª, Bikk. 65ª.

وربما كانت هذه تبريرات متكلفة. وفي واقع الأمر أن السبب يكمن في أن النسغ يبدأ في شباط/ فبراير بالصعود إلى غصون الشجر، بحيث إن البراعم الجديدة، التي تنتمي الثمار إليها أيضًا، تبدأ انطلاقتها؛ فقوانين العهد القديم، خاصة تلك المتعلقة منها بِعُشرِ ثمار الشجر (سفر اللاويين 27:30)، تحتاج إلى ترتيب زمني واضح من أجل تطبيقها. وربما ماثلت تقاليد مدرستي هيليل وشماي الانتباه تقليدًا قانونيًا كان قائمًا فعلًا يومًا ما. وبناء عليه، يكون تاريخ هذه السنة الجديدة على صلة ببداية الربيع في 7 شباط/ فبراير في تقويم قيصر[908]، وله ما يبرره في التقويم الفلسطيني في نهاية فترة الـ"مربعانية" (ص 180) في 2 شباط/ فبراير. فمهرجان الخصب الروماني الذي يعود إلى شباط/ فبراير، يمكن الانتباه إليه هنا أيضًا. وفي القدس اليوم يحتفل اليهود السفاراد بِـ 15 شبات ويُشغلون انشغالًا خاصًا بأهمية الثمار واستخدامها، ويحبون تناول جميع أنواع ثمار الشجر ليلًا[909]، كما يفعل ذلك اليهود الأشكناز أيضًا[910]. وهذا يعني الانتقال إلى تقليد سنة جديدة[911] وإلى السنة الجديدة. وهذا الأمر لا علاقة له بعيد الربيع وبالأعياد اليونانية الخاصة بديونيسيوس[912].

أما في ما يتعلق بتربية الماشية، ففي الشتاء يشد الانتباه الدجاج الذي لا يضع بيضًا في أوقات السنة الأكثر برودة. "فِي كانون لا تبيع بيضك يا مجنون"[913]؛ إذ يحتاج المرء نفسه إلى البيض القليل الذي بحوزته، لأنه: "في كانون بِكِنّين الدجاج"، أي: "في كانون يربخ الدجاج ساكنًا". ولذلك، فإن حصول حفل زفاف في هذا الوقت لا يعود على الشهية بمنفعة. وعن ذلك يُقال: "اِللِي بِتجوز في كانون بلحس القدور" (لأن هناك القليل من الطعام)، في حين أن حفل زفاف في "نيسان" يُقدم طيبات ومتعًا مختلفة كليًا: "اِللِي بِتجوز

---

(908) Ideler, *Chronologie*, vol. 1, pp. 251f.; vol. 2, p. 143.

(909) Luncz, *Jerusalem*, vol. 1, p. 43.

(910) بير هِتِب عن شولحان عاروخ، أورح حاييم 131، 6.

(911) يُنظر أعلاه، ص 26 وما يليها.

(912) Anders Spitzer, *Das Mahl bei den Hebräern*, pp. 193f.

(913) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 33.

في نيسان بوكُل لحم وبيض وحَليب وخضران"، أي: "من يتزوج في نيسان يأكل لحمًا وبيضًا وحليبًا وخضروات!"[914]. وفي شباط/فبراير يعود الدجاج إلى الإباضة. وحين تظهر الزهور، توضع الكلمات التالية في فم الدجاج[915]: "طلع الحنون وما بيّضنا، يا عيبنا يا عزارتنا من صاحبنا"، أي: "الزهور تفتحت، ولم نضع بيضًا، أي عيب لحق بنا، واخجلاه من سيدنا!"

في ما يتعلق بالقطط، يمكن أن يلاحظ المرء في الوقت ذاته أن شهوانية الجماع لديها تشتد؛ ففي الليالي غير الماطرة، خاصة المقمرة، يصبح النوم صعبًا جراء موائها، وهو ما يصبح في القدس أمرًا لا يُطاق في القدس. وحينئذ يقول المرء: "لما بِهِل شباط الاِبساس يشنبُطن، لَمَّ بِهِل اِذار ببطِلن"، أي: "عندما يأتي شباط تتزاوج القطط، وعندما يأتي آذار تتوقف" (القُبيبة). وإلى ذلك ينضم التفسير: "دايمًا بِمَوّي وينطين علَ بعضهن البعض من شان يعاشرن ويجيبن اولاد"، أي: "دائمًا تموء القطط، وتتقافز بعضها على بعض كي تتزاوج وتضع قططًا صغيرة". كما تعني حياة جديدة في عالم الحيوان أن الذباب ("دِبّان") والبعوض ("ناموس")، والتي لم يعانِ أذاها أحد في الأشهر الأكثر برودة، تعود للتحليق. والقزويني الذي يُثني على الشتاء لأنه الوقت الذي يختفي فيه الذباب والبعوض وتغيب فيه الزواحف السامة[916]، يُسمي طلوع "سعد الأخبية" (عندما تظهر γ، ζ، π، η في برج الدلو) في 25 شباط/فبراير، موعدًا لذلك[917]. ويقال إنه سُمي بهذا الاسم لأن المستور يظهر مع حلوله. وعن ذلك يقول الشاعر: "قد جا سعد موعدًا بشرَّ، مَخبرت جنده بِحَرّة"، أي: "قد جاء 'سعد' مهددًا بالشر، قواته (الزواحف) تخبّر بالحر". وإذا كان ممكنًا لأهل المدينة النوم بعض الوقت دونما شبكة بعوض ("الناموسية")، فعليهم الآن إنزالها مرة أخرى. وإذا أراد أن يكون

(914) Stephan, *Modern Palest. Parallels to the Song of Songs*, p. 11,
حيث الجملة الثانية مذكورة في الترجمة وحدها.

(915) Cana'an, *JPOS*, vol. 3, p. 34.

(916) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 86.

(917) Ibid., p. 50.

آمنًا من الحشرات الطفيلية، فعليه أن يثبتها تحت الفرشة من جميع أطرافها. وقد يعود هذا النظام إلى اليونانيين؛ ففي الشرق تظهر لدى المصريين في هيرودوت (II 95)، الذي يفتري عليهم بأنهم يقومون في النهار بصيد الأسماك مستخدمين شبكات البعوض. وفي فلسطين ظهرت الناموسيات مع أليفانا (يهوديت 21:10، 5.9:13، 20:16)، ويجهز الترجوم أماكن نوم أبشلوم بها (صموئيل الثاني 22:16)[918]. وبحسب بعض التفسيرات، فقد امتلك داود واحدة (صموئيل الأول 16.13:19)، إلا أن الترجوم، وبشكل صحيح، كان يفكر في شيء آخر، لأن ناموسية من شعر الماعز غير قابلة للتصور. ومن المؤكد أكثر أن إليعيزر بن هيركانوس الراقد على فراش الموت رقد تحتها في القرن الثاني بعد الميلاد[919]. وربما كانت وسيلة ترف خاصة بالنبلاء، ولا سيما أن العلاقة بين الحرارة والبعوض لم تكن معروفة. إلا أن الفلاح يقوم اليوم بحماية نفسه منها بتغطية الوجه في ما عدا الأنف، لأن البعوض يتحاشى مجرى التنفس.

من المهم بالنسبة إلى الماشية أن العشب الأخضر الذي ينمو في أعقاب مطر يسقط بغزارة في الوقت الملائم ("مطر ثرياوي") يعود فيزيد إنتاج حليب الأبقار، بحيث يستطيع المرء قدر الإمكان حلبها في كانون الأول/ ديسمبر، على الرغم من أن إنتاج الحليب ("لبن") والزبدة ("زبدة") لا يؤدي حينذاك دورًا مهمًا.

أما الحملان المولودة في الحظائر الشتوية في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر، خاصة القوية منها، فيُطلق عليها "مبكرة" أو "بكيري"

---

(918) التسمية اليهودية هي "قينوف"، "قانوف"، *χωνωπειον*. يُنظر أيضًا:

Tos. Kel. B. mez. II 8,

و

Krengel, *Das Hausgerät in der Mischnah*, vol. 1, p. 23,

حيث لا يجري التشديد بشكل كافٍ على الغاية من التجهيزات.

(919) b. Sanh. 68[a],

ويغيب ذلك في المكان المشابه في:

j. Sabb. 5[b].

("بِدارة")[920]. ويتبعها حملان زمن عيد الميلاد ("ميلاديات") وزمن عيد الغِطاس ("اِغطاسيات")، والتي تُعتبر الأقوى، على الرغم من أنها لم تسمن في ظل حليب قليل وحشيش ضئيل. والماء البارد ملائم لنموها. وتحتاج ذكور الحيوانات إلى سنة كي تصبح قادرة على التزاوج، في حين أن الحملان الإناث [النعاج] المبكرة تستطيع الإخصاب بعد نصف سنة؛ فحَمْلٌ يُطرح في كانون الأول/ ديسمبر قد تصبح أنثاه حاملًا في نهاية تموز/ يوليو، وفي كانون الأول/ ديسمبر التالي تطرح من جديد "حملًا مبكرًا". ولذلك يُعتبر "الطرح المبكر" للشياه ذا أهمية خاصة للتكاثر السريع للقطيع. ولكنه يعني، حوالى موعد عيد الفصح، وجود حملان عمرها ثلاثة إلى أربعة أشهر متاحة كذبيحة لهذا العيد الأساس عند المسيحيين، وكذلك للأعياد الإسلامية في "شهر الخميس" (نيسان/ أبريل).

ويدرك السامريون أحكام الخروج (5:12) التي بموجبها على الحملان المخصصة لعيد الفصح أن تكون في سنتها الأولى، أي في عُمر يقع في نطاق السنة التقويمية التي تبدأ بـ"تشرين الأول"[921]، في حين يفكر اليهود هنا في السنة الأولى للحيوان[922]. ومع ذلك، فإن كتابات غملائيل عن الأشهر الكبيسة أثبتت أن المرء يأخذها في الاعتبار حين يتم تحديد موعد الشهر الكبيس، إذا كانت الحملان لا تزال نضرة لاستخدامها في عيد الفصح. لذلك يكون اليهود، حالهم في ذلك حال السامريين، قد استخدموا "الحملان المبكرة" كحملان للفصح[923]. ويجب أن تكون الحملان ذكورًا، وكذلك الخراف والماعز، وهو ما يلائم عادة بيع ذكور الحيوانات أو ذبحها، باستثناء الضرورية للتربية، والمحافظة على الإناث من أجل تكاثر القطعان.

---

(920) يُقارن أيضًا:

Bauer, *Volksleben*, p. 178; *ZDPV* (1915), pp. 56f.

(921) *PJB* (1912), p. 122.

(922) Tos. Para I, 6-8, Mech. Ausg. Weiß 5^b, b. Erach. 18^b.

(923) قصدت بولادة الخريف في:

PJB (1912), p. 122,

"الحملان المبكرة"، فهمها باور خطأً:

Bauer, *ZDPV* (1915), p. 57.

وبحسب هذه الحقائق، فإن أسلوب يعقوب الماكر في تحديد لون الحملان (التكوين 41:30 وما يلي) يمكن فهمه بأنه، مستخدمًا مكره وبراعته، دفع أمهات الشياه القويات وحدها، أي "المبكرات" بينها، عند التعشير إلى إنجاب حملان مرقطة. ويميز الترجوم هنا بين "حملان مبكرة" ("بَكّيريّا") كونها القوية، و"حملان متأخرة" ("لَقّيشيا") كونها الضعيفة. ويترجم سعديا "رَبيعية" إلى "حملان ربيع"، و"خريفية" إلى "حملان خريف"، ويكون قد فكر في ولادة الحملان في الربيع الحقيقي أو في الخريف قبل المطر، وهو ليس مستحيلًا بالطبع[924]. إن مكر يعقوب يقوم على افتراض أن أصحاب القطعان غير معنيين بحملان مرقطة، لأن صوفها يتمتع بقيمة أقل. وفي أيامنا هذه، يسعى المرء إلى استثناء الخراف الملونة النادرة من التكاثر بغية الحصول على نعجة بيضاء. لقد استغنى يعقوب عن اللون، لكنه عرف كيف يحصل على منفعة أخرى بوسائل لم يُسمع بمثلها اليوم. ولو اعتمد على ولادة "الحملان المبكرة"، حينئذ، آخذين في الاعتبار فترة حمل أمهات الشياه التي تستمر خمسة أشهر[925]، ستكون حيلته قد حلت في الوقت الملائم في "تموز"، ذلك الجزء من الصيف الأكثر حرارة.

ي. أعياد شتوية

في الآرامية الحديثة "تتنافس الأشهر"[926] ويُعاتب تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر الكانونين على أنهما عاقران، ولكن، في الوقت نفسه، يتم إفهامهما أن في أثنائهما "حصل ميلاد سيدنا المسيح وعمادته، وهو ما يُوجد السرور لجميع الناس". وفي سوريا وفلسطين، علاوة على عيد الميلاد وعيد الغطاس، يُفترض ذكر عيد البربارة، إذ إنه يحظى في المخيال الشعبي بأهمية لا تقل عن أهمية الميلاد والغطاس. ويُعتبر هذا العيد ("عيد البربارة")[927] في

---

(924) يُقارن أيضًا:
Bauer, *Volksleben*, p. 178; *ZDPV* (1915), p. 56f.

(925) بحسب الآراء الحالية، وأيضًا بحسب
Ber. R. 20 (41ᵇ), b. Bech. 8ᵃ.

(926) Lidzbarski, *Die neu-aram. Handschriften der Kgl. Bibliothek zu Berlin*, Text, pp. 445f.; *Übers.*, p. 347.

(927) يُقارن بهذا الشأن مجلة **المشرق** (1898)، عمود 1131 وما يليه.

17/4 كانون الأول/ ديسمبر علامة طقس[928]، وإشارة إلى بدء زيادة ضوء النهار[929].

ويقوم أهل المدن في يوم البربارة بتقديم صحون من القمح المسلوق ("سِليقة") والسكاكر ("ملِبَّس") إلى الأطفال. وفي حلب يغرز أحيانًا إكليل بـ 12 شمعة. وفي القدس، يتم طوال الليل وضع مثل هذا الصحن على أرضية الحجرة لكل فرد من أفراد العائلة للإفساح في المجال أمام مار سابا، قديس 5 كانون الأول/ ديسمبر، كي يدوسها[930]، وهو ما يذكّر بتقليد سنة جديدة (يُنظر أعلاه، ص 27 وما يليها). وينشد الأطفال في الشوارع أغاني تُشير إلى قديسة اليوم[931]، كما في حلب:

"قِدّيسة بربارة
وعند الرب مختارة
أبوكِ هالكافر
عابد الحجارة
جاب النار تَا يِحرُقهَا
صارت النار بخّورة
جاب الما تَا يغرقها
صارت الما ميرونة
جاب الحبل تَا يخنُقهَا
صار الحبل بخنوقة[932]
جاب السيف تَا يقطعهَا
صار السيف زُنّارا".

---

(928) يُنظر أعلاه، ص 177.

(929) يُنظر أعلاه، ص 172.

(930) Hanauer, *Folk-lore of the Holy Land*, p. 304.

(931) Dalman, *Pal. Diwan*, p. 162; Rogers, *Domestic Life in Palestine*, p. 388.

(932) ما يوضع على صدر الطفل في أثناء التعميد.

وهنا يبدو قتل بربارة مستحيلًا، في حين أن والدها بحسب التقليد في دمشق وحلب[933]، يريد قتلها بالسيف، وهو ما يتحدث عنه المقطع الشعري الأخير:

"قالت البنت يا رَحمان
يا خالق كل الأكوان
إقبل دمِي كالقربان
حبًا بدين النصارَى"

وفي سوريا يُسوِّد كثير من الناس وجوههم عشية العيد ويذهبون من بيت إلى بيت منادين "بِسِّيّة بِربارة"، والتي لا يبدو معناها مؤكدًا بالنسبة إلى هارفوخ[934].

وعلى ما يبدو، فإن القدس تفتقد مثل هذه المواكب. إلا أن المرء يعزو ذلك إلى أن بخور ذلك اليوم هو قوة تبريك خاصة بالعيون، ومن سخامه يكحل الناس جفونهم[935] ويستخدمونه كحلًا طوال السنة. ولا يعرف الفلاحون هذا التقليد، إلا أنهم يقومون بحمل صحونٍ من القمح المسلوق ("سِليقة") إلى الكنيسة كي تبارَك، ثم يحضرونها إلى البيت كـ"تبريك" ("بركة") ويوزعونها بين الأطفال والمعارف (رام الله). وفي دمشق، إلى جانب القمح المسلوق، تُعتبر القطايف فطائرَ العيد في ذلك اليوم[936]، وهي عبارة عن فطيرة صغيرة مصنوعة من عجين السميد الخمير غير المُحلَّى يُطوى ويُحشى بالحلوى ثم يُخبز مرة أخرى[937].

---

(933) مجلة **المشرق** (1898)، ص 1134.

(934) Harfouch, *Drogman Arabe*, p. 72.

(935) كذلك أيضًا أبيلا:
Abela, *ZDPV* (1884), p. 99,
بالنسبة إلى صيدا.

(936) Schmitz, *Das Heil. Land* (1916), p. 118,
حيث مكتوب "كَتَجِف".

(937) Almkvist, *VIII. Congr. Intern. des Oriental.* II 1, p. 399,
يتحدث عن نوع من الخبز يقطَّع إلى شرائح ويخبز بالزبدة، وهو يجانب الحقيقة.

أما تقليد "صحون بربارة" في هذا اليوم، فهو خاص بأهل المدن المسيحيين، فيبادر أحد الأشخاص إلى وضع حبوب القمح والحمص والترمس وحبوب أخرى في هذه الصحون ثم يصب الماء عليها. وتبقى هكذا بضعة أسابيع، حيث تنبت الحبوب وتكون قد اخضوضرت قريبًا من أعياد الميلاد، فتكون قد أدت غرضها. وحين تفقد جمالها، يقوم الشخص بالتخلص منها من دون أن يحمل ذلك أي معنى. وكهدية عيد، قام ذلك الشخص بإحضار مثل هذه الصحون إلى بيتي قريبًا من أعياد الميلاد. ويناظر ذلك ما كان يجري في ألمانيا في عيد القديسة بربارة، كوضع الأغصان في مزهرية مملوءة بالماء والاحتفاظ بها في غرفة مُدفّأة. وقريبًا من أعياد الميلاد تزهر شجيرة الكشمش [عنب الثعلب] والبرقوق والبرقوق السياج والخوخ واللوز والمشمش ووريدة الغار التي يمكن استخدامها زينةً للعيد(938). كذلك تُعتبر ليلة عيد القديس أندراوس (30 تشرين الثاني/ نوفمبر) ملائمة لذلك(939). وفي بوهيميا [جمهورية التشيك]، يترك الناس غصون الصفصاف ابتداءً من عيد البربارة تورق، ويقومون بضرب أنفسهم بنباتها الأخضر النضر في يوم 28 كانون الأول/ ديسمبر بسبب تأثيرها الحيوي المنعش(940). وفي ما يتعلق بصحون البربارة في الشرق، يتم التفكير بشكل مشابه في أن في اللحظة التي تصل فيها الحياة النباتية في الطبيعة إلى وضعها الأدنى، كما يحصل في الانقلاب الشتوي، تنهض حياة جديدة يُفترض أن تثمر في تجربة مماثلة لدى أهل البيت.

في المحيط اليهودي، ثمة ما له صلة بتقليد بلاد الرافدين الذي يشير إليه الـ"غاؤونيم" [الفقهاء اليهود] والمتمثل في وضع حبات فول أو بقول في سلة صغيرة في 7 أو 14 إيلول (أيلول/ سبتمبر)، أي في بداية الخريف، ثم تُرمى عشية رأس السنة (1 تشري) في النهر كقربان(941). ووجه الغرابة هنا يتمثل في

---

(938) *Greifswalder Zeitung* 4/12/1925.

(939) Mannhardt, *Wald- und Feldkulte*, vol. 1, p. 232;

يُقارن:

Buschan, *Das deutsche Volk in Sitte und Brauch*, p. 22.

(940) Mannhardt, *Wald-und*, pp. 265ff.

(941) راشي عن:

b. Sabb. 81[b].

فكرة الغفران التي يقوم عليها ضمان الحياة في السنة المقبلة. وعلى ما يبدو، وكما لو كان استوجب إرضاء قوة شيطانية، أن التفويض في المحيط اليهودي هو الذي يخلّص المرء من حكم إلهي(942). وقد جرى التفكير في حدائق أدونيس الخاصة بالقدماء التي تنتمي إلى فصل الصيف، والتي كانت خاصيتها الرئيسة التبرعم السريع والذبول السريع أيضًا(943). وربما كانت هي المقصودة في إشعيا (10:17) من خلال الإيقاظ السريع لأغراس نعمان الغريبة(944).

ما عدا ذلك، فإن للقمح المسلوق ("سِليقة") شأنًا في مراسم الموت وشعائره، إذ يُعتبر لدى الكنيسة اليونانية [كنيسة الروم] رمزًا للقيامة(945)، وربما كان في الأصل، وفي ديانات الإغريق، تقدمة إلى آلهات الأرض ومن الأزمنة القديمة يعرف المرء تقدمة اللوبيا المطبوخة في الخريف إلى هيليوس [إله الشمس في الميثولوجيا الإغريقية](946). وها نحن هنا بصدد الـ"سليقة" التي يعود استخدامها إلى طقوس رأس السنة الجديدة لدى المسلمين (يُنظر أعلاه، ص 27) التي لها صلة بقوة الطبيعة التي تلاشت، والتي يتوقع المرء قيامها ويود الاستئثار بها. أما الأضواء، فهي من أجل إله الشمس الذي يعتمد عليه نجاح الحياة الجديدة. وتذكّر أرقامُها الـ 12 بالسنة الطبيعية الجديدة التي يتحكم فيها مدار الشمس، والتي تبدأ عمّا قريب. أما تدنّي الشمس القريب من 4/ 17 كانون الأول/ ديسمبر، فيعني نقطة التحول الحاسمة، ولذلك يعتبر المرء ذلك ملائمًا لمنح العيون سطوعًا جديدًا. ويُعتبر تكحيل جفون العين في

---

(942) Dalman, *Jesaja 53*[2], pp. 32ff.

(943) Frazer, *Adonis*[2], pp. 194ff.; Mannhardt, *Wald- und Feldkulte*, vol. 2, pp. 278ff.

وبحسب [المؤرخ الروماني] أميانوس مارسيليانوس (Ammianus Marcellinus) فقد صادف عيد أدونيس في سوريا نهاية تموز/ يوليو.

(944) في ما يتعلق بِـ"غُروس نُعمانية"، يفكر سعديا في شقائق النعمان ذات اللون الأرجواني ("شَقايق نُعمان"). يُقارن بهذا الشأن:

Klausner, *Rabinowitz-Festschrift*, pp. 10ff.

(945) Palamas, *Epitomos orthodoxos christ. Leiturg.*, pp. 28f.; Du Cange, *Glossarium*;

يُنظر أدناه، كلمة *χολυβον*،

Ohnefalsch & Richter, *Kypros, die Bibel und Homer*, pp. 136ff.

(946) Stengel, *Griech. Kultusaltertümer*, p. 223.

القاهرة في "سبت النور"، أي السبت الذي يسبق عيد الفصح، تقليدًا شائعًا[947]. وفي شمال أفريقيا، يتبع كثيرون تقاليد يوم "عاشوراء"[948]، أي السنة الإسلامية الجديدة، الذي ربما كان ذات يوم جزءًا من الخريف. وعلى صلة بذلك إنتاج ماء مبارك للعيون في الأيام العشرة الأولى من شهر "مُحرَّم"، بما في ذلك يوم "عاشوراء"، في القدس[949]. وفي كل مكان، يقوم الإسناد على حياة تُوقظ من جديد. والمواكب الضخمة المصحوبة بالوجوه المسوَّدة يوم عيد القديسة بربارة تشبه المواكب من النمط نفسه التي تحصل في عالم الإغريق في الـ 12 يومًا بين عيد الميلاد وعيد الغطاس[950]، وكذلك في عيد المساخر اليهودي. وبحسب الوقت، تناظر المواكب الاحتفالية المهرجان الديونيسيوسي الريفي في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر أو بداية كانون الأول/ ديسمبر، وعيد الإله ساتورن في 17 كانون الأول/ ديسمبر الذي كان يُحتفل به في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، بما في ذلك فلسطين[951]. ووفقًا لمانهاردت (Mannhardt)[952]، ربما كان على المرء التفكير هنا في تمثيل أرواح الحياة النباتية. والتقليد المشابه في ألمانيا ربما كان نظيرًا لمواكب الأشخاص المتنكرين في الفترة التي تسبق عيد الميلاد[953]. كان ساتورن هو إله البذور التي منحها للأرض في هذا الوقت. وفي فينيقيا وُضِع ساتورن على قدم المساواة مع بعل صور وبيروت، ومن الممكن أنه كان قد وُضِع موضع المقارنة بإله الشمس وإله البرق والرعد[954]؛ فالقديسة بربارة ربما تُذكِّر بوالدة أدونيس الذي حمته الآلهة من انتقام أبيه، وربما كانت وارثة بريئة لعادات وتقاليد تمتعت في الأصل بخلفية مختلفة؛ فـ"عيد الميلاد" في

---

(947) Lane, *Customs*, vol. 2, p. 223.

(948) Doutte, *Magie*, p. 530;

أي كعقيدة السُّنّة أيضًا، وكذلك القزويني:

Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 68.

(949) Kniel, *Heil. Land* (1906), p. 163.

(950) Lawson, *Modern Greek Folklore*, p. 222.

(951) Ab. zar. I 3.

(952) *Wald- und Feldkulte* II, pp. 200ff.

(953) Buschan, *Das deutsche Volk in Sitte und Brauch*, pp. 16ff.

(954) Dussaud, *Notes de Mythologie Syrienne*, p. 139.

25 كانون الأول/ ديسمبر، بحسب التقويم اليولياني، يفوقه بريقًا عيدا البربارة والغطاس، ربما كنتيجة لاحقة لحقيقة أنه أُدخل إلى فلسطين أول مرة حوالى سنة 410، بعد أن كان الناس حتى ذلك الحين يحتفلون بعيد الغطاس كعيد ميلاد المسيح[955]. وخلافًا للشعائر الكنسية التي تقوم كنيسة المهد في بيت لحم، بشكل خاص، على إحيائها باحتفالات كبيرة[956]، يتسم العيد لدى مسيحيي القدس بتبادل التهاني والهدايا فحسب. واستخدام الأضواء ليس مألوفًا. نحن الألمان قمنا وحدنا بتزيين أشجار عيد الميلاد في البيت وفي الكنيسة وإنارتها. وربما يُفترض بكعك العيد المستدير وغير المخمّر والمرشوش بالسمسم وبذور الكراوية السوداء، والملون بالزعفران الأصفر، التذكير بضوء الشمس (القدس). وفي دمشق يهرس المرء اللحم في المهراس ويحوله إلى "كُبّة" ويطبخ حساءً مع لحم إوز، لأن من المفترض أن تكون هذه الوجبة طعامًا لامرأة تضع[957].

ولعيد الميلاد صلة بالطقس الشتوي من خلال قول قائل: "[في] عيد الميلاد - رُدّ العدس للأولاد!". وقد فسر أحدهم ذلك لي من خلال عبارة: "رُدّ القدرة" والتي فُهمت كتعليمات بالقيام بطبخ العدس بدءًا من عيد الميلاد، لأن هذا الطعام المانح للدفء يلائم الشتاء. ويعني ذلك وفقًا لباور[958] وكنعان[959] أن بذر بذور العدس يجب أن يتوقف، وهو ما يتفق مع التفسير الآخر[960]. كما يتفق مع ذلك، وفق معتقد فلسطيني قديم، أن اليوم الواقع بعد غُرّة كانون الثاني/ يناير يُعتبر يوم شؤم: "من يقوم بزرع عدس في هذا اليوم، فلن تنمو من أجله"[961]. فالانقلاب الشتوي وعيد الميلاد يتم الوصل بينهما

---

(955) Bludau, *Heil. Land* (1925), pp. 70f.

(956) Dunkel, *Heil. Land* (1905), pp. 31ff.; (1906), pp. 17ff.

(957) Bergsträßer, *Zum arabischen Dialekt von Damaskus*, vol. 1, p. 68.

(958) *Volksleben*, p. 126.

(959) *ZDPV* (1913), p. 275.

(960) يقول أيضًا: "اِذَا دخل ميلادِي خَلُّ العدس للأولادِي" (Jesushilfe Asylum).

(961) j. Ab. z. 39c;

يُقارن:

Marquardt & Wissowa, *Röm. Staatsverw.*, vol. 3, p. 267.

عندما تتم الإشارة، في المنطقة السورية، إلى أن الوقت الصحيح لميلاد ذلك الذي يفترض به إضاءة العالم هو 25 كانون الأول/ ديسمبر، لأن سيطرة الظلام فيه تمتد إلى حد أن ضوء النهار يدوم 9 ساعات فقط[962]. والنيران الضخمة التي، وفقًا للقزويني[963]، يتم إشعالها في 1 كانون الثاني/ يناير، كغرة الشهر ("قَلِنداس") في سوريا وفي جميع مناطق المسيحيين ليلًا، ستكون على صلة بالاحتفال الوثني بغرة الشهر، والتي يُرجعها المرء في فلسطين إلى آدم[964]، وكان اليهود على نحو ما ممنوعين من المشاركة فيها[965]. ويفترض وجود صلة بالانقلاب الشتوي، بحيث إن نيران عيد الميلاد، التي تستمر حتى 6 كانون الثاني/ يناير[966]، ونيران الانقلاب الصيفي في تقاليد الأزمنة الجرمانية القديمة تتماثل. وعلى ما يبدو، فإن مقاومة الكنيسة لاحتفال السنة الجديدة الوثني[967] قد وضعت حدًا لهذا التقليد الفلسطيني، والذي لم أتعرف إلى أي أثر له. وبالنسبة إلى تقاليد السنة الجديدة، يقارن، إضافة إلى ذلك، ما ورد في ص 25 وما يليها.

لدى اليهود في فلسطين وحدهم، يمكن المرء ملاحظة وجود اهتمام بالانقلاب الشتوي في 25 كانون الأول/ ديسمبر، وهو اهتمام ما عاد مفهومًا؛ فالقناديل الصغيرة المضاءة في صف من ثمانية أضواء في نوافذهم (أو أبوابهم) في عيد تدشين الهيكل من 25 كيسلو حتى 3 تيبت، لا تزال تحتفظ بالاسم القديم لعيد الأنوار (*φωτα*)[968]. هذه القناديل حري بها أن

---

(962) Müller, *Die Chronologie des Simeon Sanklajawa*, pp. 45f.

(963) Kazwini, *Kosmographie*, I, p. 76.

(964) j. Ab. z. 39c.

(965) Ab. z. I 3, Tos. Ab. z. I 4.

(966) يُقارن:
Grünbaum, *Ges. Aufsätze zur Sprach- u. Sagenkunde*, pp. 132ff.; Mannhardt, *Germ. Mythologie*, pp. 469, 520; Frazer, *Adonis* 2, pp. 254ff.

(967) يُنظر:
Bertheau, *Realenzyklopädie für prot. Theologie u. Kirche, unter* "Neujahrsfest".

(968) Josephus, *Antt.* XII 7, 7.

تُرسل ضوءها إلى الخارج بحيث لا تخدم غاية عملية(969)، ولذلك تبدو كما لو كانت تضيء الأحياء اليهودية. ويتحدثون الآن عن معجزة خلال تدشين يهوذا المكابي للهيكل، إذ مكنت بقية زيت مقدس من أن تكون كافية لإضاءة الهيكل المقدس ثمانية أيام(970). ومهما يكن من أمر، يمكن اعتبار الحراب الحديدية السبعة المطلية بالقصدير، والتي حلت في حينه في محل الشمعدان السباعي(971)، سببًا لذلك. وقد أُضيئت ثمانية قناديل، كي لا يقلَّد الشمعدان المقدس الذي كان ممنوعًا. ولا تخبرنا الروايات القديمة الخاصة بالتدشين الجديد للهيكل المقدس (سفر المكابيين الأول 52:4 وما يلي؛ سفر المكابيين الثاني 5:10 وما يلي) أي شيء عن تقليد الإضاءة بعيد الذكرى الملحق به. ولكن من المحتمل جدًا أن أحد التقاليد عائد إلى الانقلاب الشتوي، ثم نُقل إلى عيد تدشين الهيكل، مجردين إياه من خاصيته الأصلية. وعلى هذا النحو يمكن تفسير الازدياد التدريجي في الأنوار التي يفترض بها أن "تزيد ضوء الشمس، وأن تساعد في طرد أشباح الظلام. وهذا التقليد سينتمي إلى عيد بعل شمين الذي قدمه السوريون إلى المعبد قبل ذلك بثلاث سنوات، وبالضبط في 25 كيسلو(972). ويبدو أنه انتقل لاحقًا، كعيد لإله الشمس، من تدمر إلى روما(973). وقد افتُرض بهذا العيد أن يحل في محل عيد تدشين الهيكل الجديد وأن ينحيه جانبًا. لكن، بأثر رجعي عمل أحد الأشخاص على منح تقليد الإضاءة أهمية مماثلة. وبالنسبة إلى يوسيفوس، فإن عيد الأنوار هو

---

(969) j. Sabb. 4c, b. Sabb. 21b, Pes. Rabb. 2. 6 (4bf. 23a), Orach Chajjim 671ff.;

يُقارن:

Bloch, *Schaare Torath hat-Takkanoth* II 1, pp. 19ff.

(970) b. Sabb. 21b, Megillath Taanith 9.

(971) Meg. Taan. 9, b. Men. 28b,

يُقارن:

Pes. Rabb. 2 (5a),

حيث تحولت الرماح السبعة إلى ثمانية.

(972) سفر المكابيين الأول 54:1 (والصحيح 25)، 59؛ 54:4. يُقارن سفر المكابيين الثاني 2:6؛ دانيال 31:11، 11:12.

(973) Wissowa, *Religion und Kult der Römer*, p. 307.

مجرد اسم ينطبق على النور الجديد للممارسة الدينية الحرة. وبحسب سفر المكابيين الثاني (6:10) وما يلي، فإن عيد العُرُش كان هو النموذج للعيد الجديد منذ أن كان المرء يحمل الصولجان وغصونًا جميلة وسعف نخل بيده. فإذا كان هذا التقليد ذات مرة تقليدَ عيد، حينئذ يمكن الافتراض مباشرة أنه قد وُجد تقليد يطبق على إعادة إيقاظ الحياة النباتية من أجل عيد الانقلاب الشتوي.

إن أهمية اليوم الذي اختير من أجل العيد تتجلى في حقيقة أن حغاي ظهر في 42 من الشهر السادس، أي ثلاثة أشهر بعد البدء بتعمير الهيكل، وفي 24 من الشهر التاسع، أي من شهر كيسلو، كي يعلن أنه انطلاقًا من هذا اليوم سيكون هناك تحوّل في سلوك الرب (حغاي 18.10:2). وحقيقة أن نقصًا في الحبوب والثمار الذي حصل في الصيف (الآية 19) كانت نتيجةَ إهمال الناس في بناء الهيكل. وإذا كان من المفترض انطلاقًا من 24 كانون الأول/ ديسمبر فصاعدًا أن يكون الوضع مختلفًا، حينئذ يكون مفهومًا بدء سنة شمسية جديدة في 25 كانون الأول/ ديسمبر، ومعها سنة نمو جديدة للمحاصيل والثمار.

ولعيد العماد ("عيد الغطاس) في 6/ 19 كانون الثاني/ يناير صلة وثيقة بعيد الميلاد من خلال الفاصل الزمني المسمى على اسمه "اِغطاسيات". وهي تُعتبر فترة مطر غزير (ص 178) من دون أن يلتصق بها أي معتقد خاص. وعيد العماد الذي تطلق عليه الكنيسة اليونانية *τα Αγια Θεοφανεια* "عيد الأنوار" أيضًا[974]، ربما لأن المعمودية تقود من الظلمة إلى النور[975]، يُحتفل به انطلاقًا من القدس عشية العيد بتعميد جميع المشاركين في نهر الأردن. ويجري اليوم تقديس الماء، تمامًا كما كانت الحال عليه في القرن السادس[976] من خلال

(974) Kazwini, p. 96,

يُطلق القزويني على ذلك "عيد الدنح" (خطأ في التهجئة "ذِبح") والتي تفترض مسبقًا "دِنحا" السريانية.

(975) يُقارن:

Schmaltz, *PJB* (1917), pp. 89f.

(976) Antoninus, Geyer, *Itinera*, p. 166.

قذف صليب إليه[977] وتعبئة الماء في قوارير يقوم المرء باصطحابها معه إلى البيت. وفي كل مكان في الكنائس اليونانية في فلسطين، يجري تقديس الماء وتوزيعه بين المؤمنين. وفي القدس، وكذلك في دمشق، يُخبز الكعك أو يقلى في الزيت ("زَلابية") كفطائر للعيد[978]. وفي القرى تذهب البنات قبل منتصف الليل إلى العين لإحضار الماء والاستحمام. ويُعتبر ماء هذه الليلة شافيًا، سواء أكان مقدسًا أم غير مقدس. وهناك قول شائع هو أن الماء المالح، في ساعة معينة عشية هذا اليوم يصبح عذبًا وتنحني جميع الأشجار[979]. وقد سبق لكريسوستوماس (Chrysostomus) أن شهد غَرْفَ الماء ونقله إلى البيت في هذا اليوم. وفي مصر، غَرَفَ أحدهم، وفق إبيفانيوس (Epiphanius) من النيل[980]. والتقليد هذا لا بد أنه على صلة بميلاد أيون[981] الذي يُحتفل به في هذا اليوم في مصر، أو حورس ابن إيزيس[982]، إذا تعلق الأمر بتقليد سنة جديدة. فقوة الماء المُخْصِبة كانت تُعتبر فعالة بشكل خاص في الليلة التي تتجدد فيها السنة[983]. وفي مكان آخر، حيث استخدام الماء لم يكن مرجّحًا، حصل شيء يشبه ذلك، وهذا ما يُظهره عيد ولادة ذي الشرى الذي ربما كان إله الشمس

---

(977) كذلك الأمر في اليونان،

Lawson, *Modern Greek Folklore*, p. 197, Abbott, *Macedonian Folklore*, pp. 87f.

وعند الأقباط في مصر، حيث يقوم القسيس في الكنيسة بمسح أقدام المصلّين بخرقة تم تغطيسها في الماء المقدس،

Lane, *Customs*, vol. 2, pp. 227f.

(978) Schmitz, *Heil. Land* (1917), p. 117.

(979) Abela, *ZDPV* (1884), p. 86 (Sidon).

(980) يُقارن:

Holl, *Sitzungsberichte der Kgl. Pr. Ak. d. W.* (1917), p. 436.

(981) Ibid., pp. 430ff.

(982) من إبيفانيوس، باناريون (Panarion 51) شهادة للإسكندرية كعيد ليلي في الليلة التي تسبق عيد الغطاس.

(983) يتم أيضًا ربط عادات الاستحمام بمنتصف الصيف (القديس يوحنا). يُنظر:

Frazer, *Adonis* 2, p. 204ff.

وفي شمال أفريقيا مع عيد العنصرة،

Doutté, *Magie*, pp. 570, 584,

وفي فلسطين مع الخميس الذي يسبق عيد الفصح.

المحتفل به في البتراء وإلوسا في اليوم نفسه[984]. أما كيف حصل أن اختار المرء هذا اليوم بالذات، فربما يمكن تعليل ذلك بأن اليوم الـ 13 بعد الانقلاب الشتوي اعتُبر ختامًا لِسُبْع فترة 91 يومًا حتى الاعتدال الربيعي. وبذلك كان الضوء الساطع من جديد قَد أثبت انتصاره في صراعه مع الظلمة.

وقد ربط كثير من التقاليد نفسه بليلة العيد العجيبة[985]. ومن المفيد أن يجري فيها تعريض الفتائل للندى كي تحترق بزيت أقل على مدى السنة. وفي قن الدجاج، يقوم المرء بهز عصا ثلاث مرات قائلًا: "ببركة إسحاق - كل الفراخ تصير قراق" [الواحدة قرقة]: "بفضل بركة إسحق تصبح جميع الفراخ دجاجات راقدة". ومن المفيد حرق خشب التوت، لأن أشجار التوت في هذا اليوم لا تقبل أن تنحني، وعجين الخبز يختمر بلا خميرة[986].

لأن الأعياد المسيحية واليهودية وجدت مكانها في دورة السنة الطبيعية وارتبطت بها بطرق مختلفة، فهذا لا يعني أبدًا أن جوهرها الحقيقي يقع في عالم أعلى. لكن، ليس هنا هو المكان الملائم للتعرض لهذه الأمور، ولأي حد رفعت هذه الأعياد العناصر الطبيعية إلى درجة أعلى من خلال جرها إلى حقلها.

---

(984) Dalman, *Petra*, p. 50,

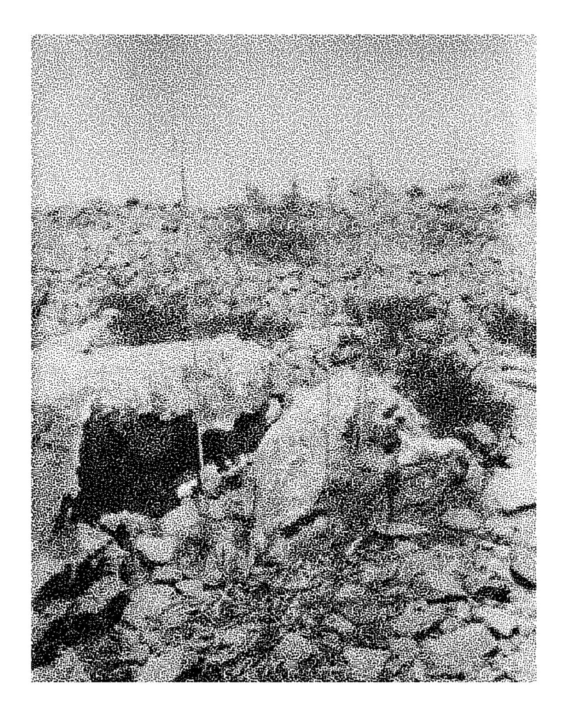
حيث يتم الحديث بشكل خاطئ عن "عيد الميلاد".

(985) Abela, *ZDPV* (1884), pp. 91, 108f.

(986) في لبنان يتحدث الناس عن أن المسيح يمر بجميع بيوت المسيحيين في عيد الغطاس، وهو ما يذكر بجولة الملاك في ليلة رأس السنة (pp. 27ff). "ليلة الغطاس المسيح بمرق على كل البيوت وبقول دايم دايم وكل الشجر بركع ما عدا التوت" (Ibid., p. 666).

ملحق الصور[1]

(1) جميع أرقام الصفحات الواردة في تعريف الصور تعود إلى النص الألماني. (المحرر)



1. عنصل بحري (Urginea maritima) بالقرب من القدس، 5 أيلول/ سبتمبر 1925.
(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 96 وما يليها)



2. أشواك يابسة (Scolymus hispanicus يسارًا، Gundelia Tournefortii يمينًا)
بالقرب من القدس، 11 تموز/ يوليو 1925.
(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 53)



3. بلوط قرمزي من "الخضر" بالقرب من "اِلصخرة"، 10 نيسان/ أبريل 1908.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 65)



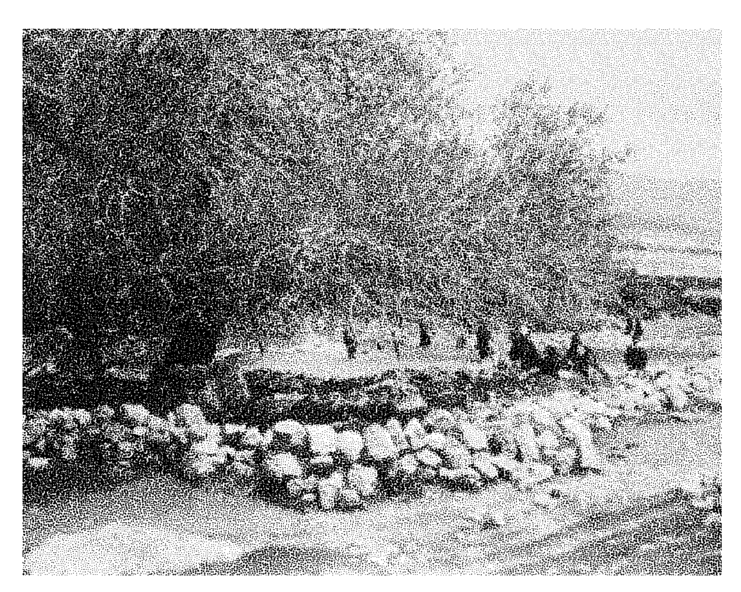
4. بلوطة إبراهيم ("بلوطة السبتة") بالقرب من الخليل.

(التقطت حوالى سنة 1880. تتبع ص 65 وما يليها)



5. شجرة بطم عند جسر بنات يعقوب في أعالي نهر الأردن
(مورقة مبكرًا)، 2 نيسان/ أبريل 1914.

(عدسة: غ. كلينغنبورغ. تتبع ص 66 وما يليها)



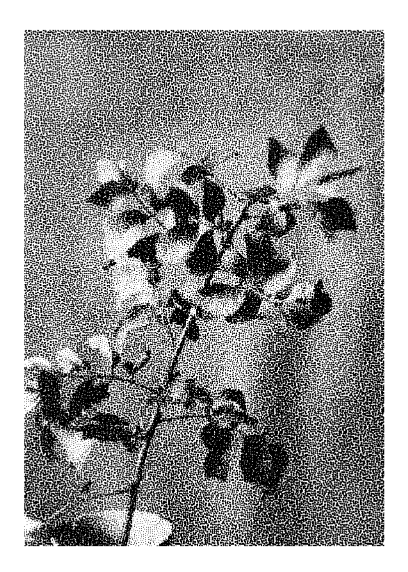
6. شجرة بطم الشيخ نام بالقرب من سوف
(لا تزال مورقة بشكل ناقص)، 14 نيسان/ أبريل 1911.

(عدسة: ت. شلاتر. تتبع ص 66 وما يليها)



7. بلوط قرمزي من سِتّ البدرية بالقرب من المالحة، كانون الأول/ ديسمبر 1909

(عدسة: ب. كاهله. تتبع ص 65 وما يليها)



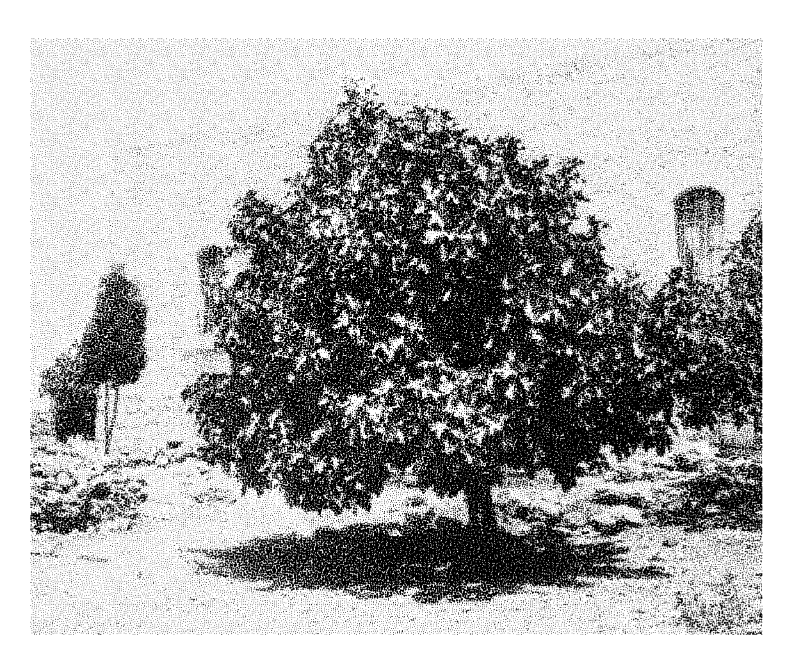
8. فرع من شجرة بطم بالقرب من المالحة، 15 آب/ أغسطس 1925.

(عدسة: ك. أو. دالمان. تتبع ص 66)

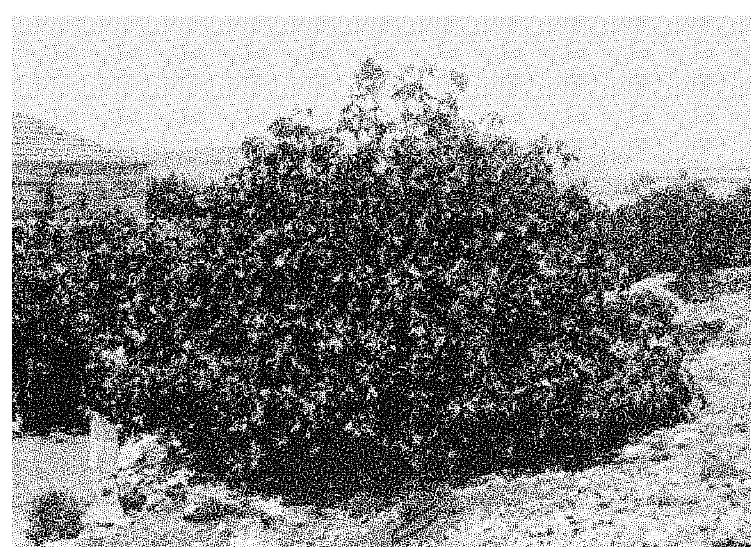


9. فرع من بلوطة قرمزية مع ثمار بلوط بالقرب من المالحة،
15 آب/ أغسطس 1925.

(عدسة: ك. أو. دالمان. تتبع ص 65)



10. شجرة تين مورقة بالقرب من القدس، 20 أيار/ مايو 1925.
(عدسة: ك. أو. دالمان. تتبع ص 57)

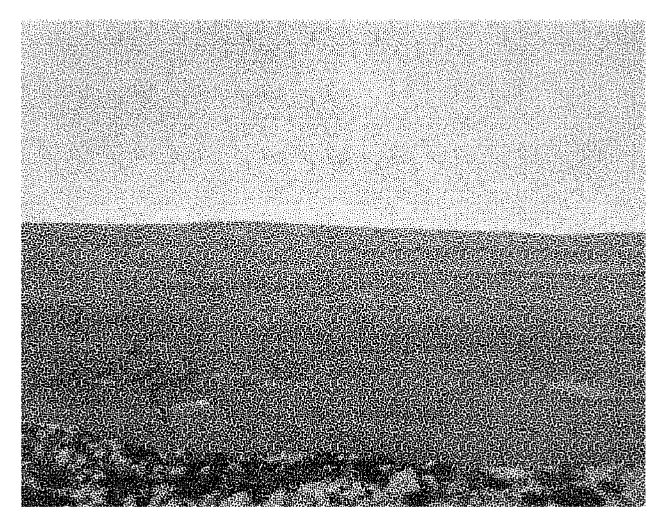


11. شجرة تين مورقة مع فروع متدلية بالقرب من القدس، 20 أيار/ مايو 1925.
(عدسة: ك. أو. دالمان. تتبع ص 57)



12. مشهد طبيعي شتوي بالقرب من العيزرية (Bethphage) (أشجار تين جرداء)، منظر من المنحدر الشرقي لجبل الزيتون باتجاه الشرق، بداية شباط/ فبراير 1908.

(عدسة: غ. ريمان. تتبع ص 99 وما يليها، ص 254 وما يليها)



13. مشهد طبيعي شتوي شرق شمال القدس من خربة كعكول، إلى اليمين قرية حزما، في الوسط جبع، في الأفق سلسلة العاصور [تل العاصور بالقرب من رام الله]، 22 كانون الأول/ ديسمبر 1906.

(عدسة: هـ. غريسمان. تتبع ص 69 وما يليها، 159 وما يليها)



14. جدول ذوبان في وادِي الجوز بالقرب من القدس،
وأشجار زيتون من الغرب، شباط/ فبراير 1911.

(عدسة: هـ. ل. لارسون، القدس. تتبع ص 231 وما يليها)



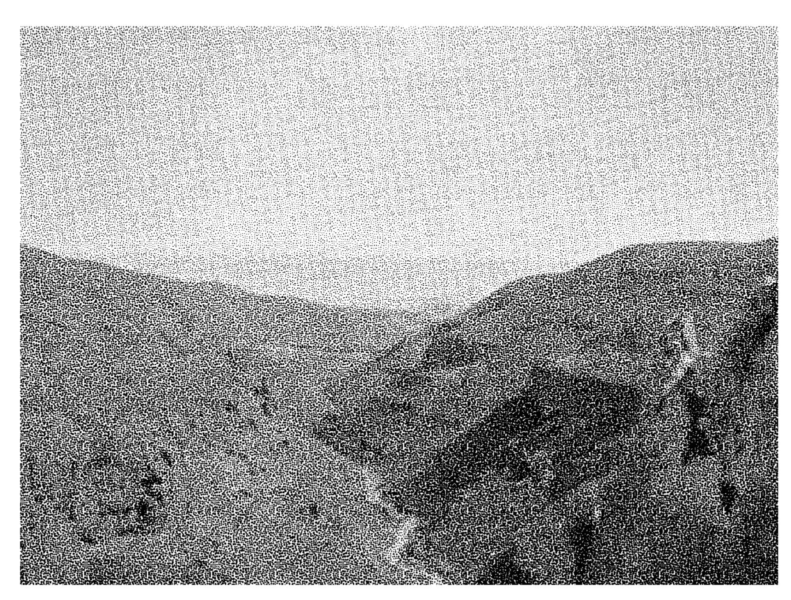
15. مشهد طبيعي شتوي مكتسيًا بالثلج،
القدس وجبل الزيتون من الغرب، شباط/ فبراير 1927.

(تتبع ص 231 وما يليها)



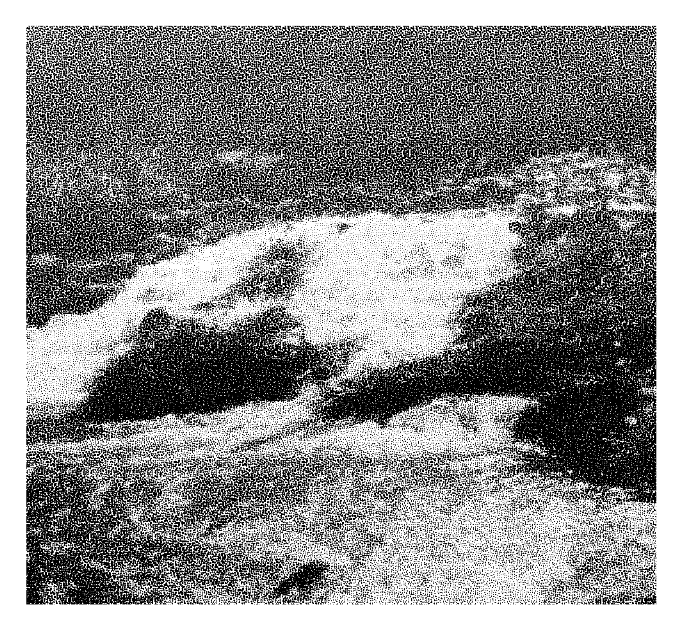
16. شتاء على نهر الأردن مع فيضان المغطس، 9 شباط/ فبراير 1909.

(تتبع ص 101 و205 وما يليهما)



17. وادي الصوينيط مع مجرى خالٍ من الماء من الغرب، 22 شباط/ فبراير 1910.

(عدسة: إي. أوريليوس. تتبع ص 200)



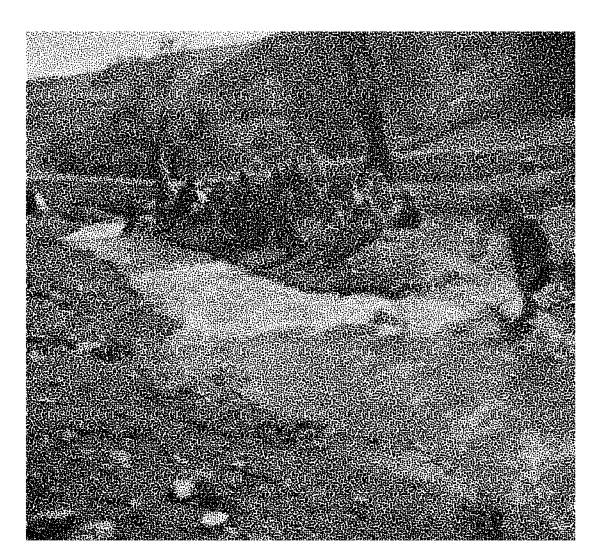
18. جريان شديد لعين الفوار في الوادي، 21 شباط/ فبراير 1911.

(عدسة: هانز شميدت. تتبع ص 201)



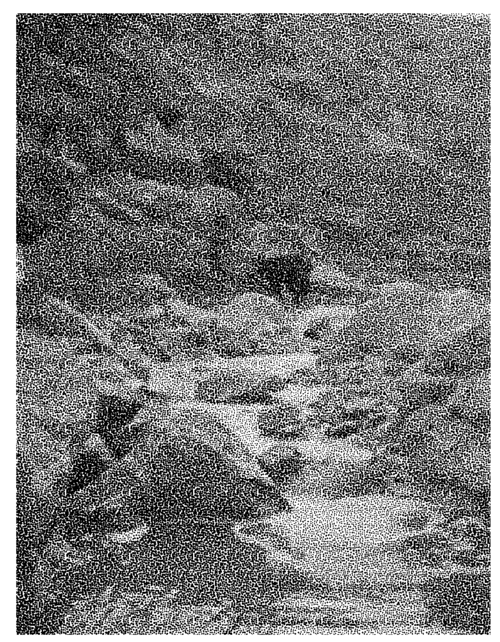
19. وادي الفوار مع جدول شتوي، سيلان من وادِي الصوينيط ومن الفوار، 21 شباط/ فبراير 1911.

(تتبع ص 201)



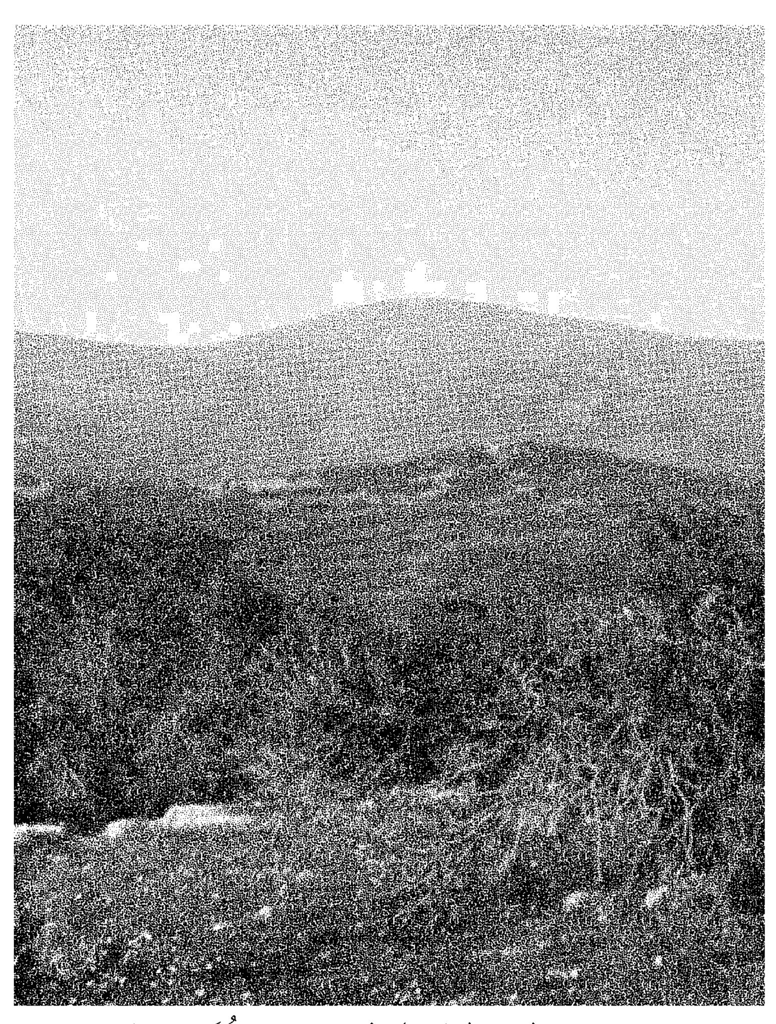
20. عين شتوية أسفل بئر أيوب، 16 شباط/ فبراير 1911.

(عدسة: هانز شميدت. تتبع ص 205)



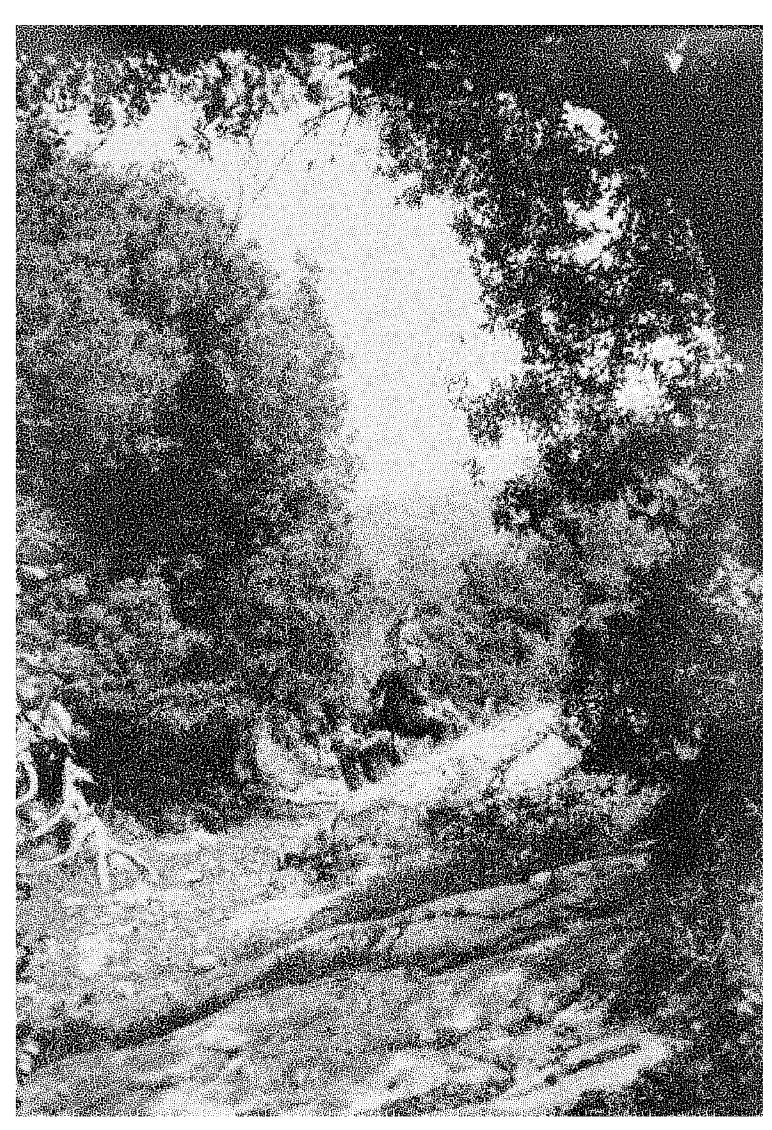
21. جدول شتوي من بئر أيوب فوق مار سابا، 16 شباط/ فبراير 1911.

(عدسة: ي. غراف. تتبع ص 205)



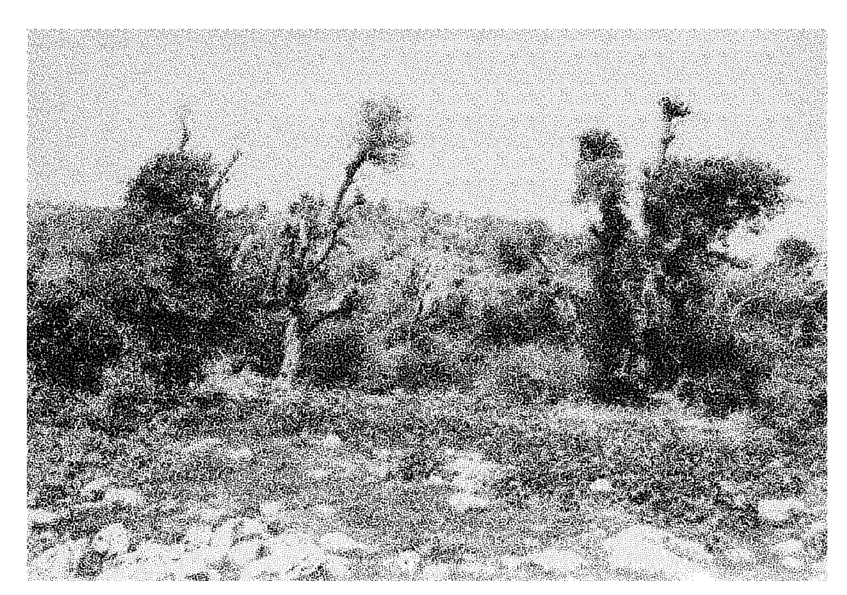
22. مشهد طبيعي لغابة بلوط قرمزي بين تُبنَة واِرحابة [محافظة إربد]، 10 نيسان/ أبريل 1908.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 80)



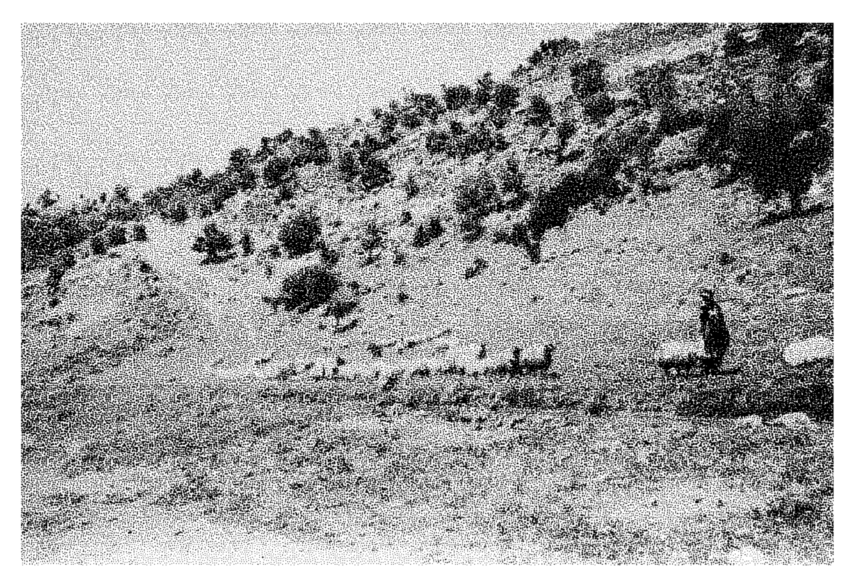
23. غابة بلوط قرمزي في وادي الطارة،
13 نيسان/ أبريل 1909.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 80)



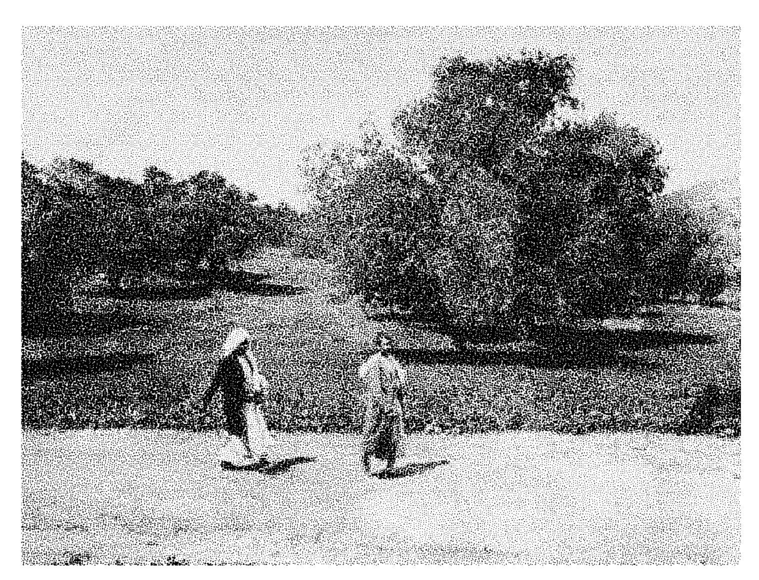
24. غابة بلوط مُدمرة بين إِرحابة والصخرة، 10 نيسان/ أبريل 1908.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 84)



25. غابة شجيرات خفيضة من البلوط القرمزي مع قطيع من الأغنام في وادي الصير، 1 أيار/ مايو 1907.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 73، 89)



26. غابة أشجار بلوط تطرح أوراقها شرق الكرمل، 23 آذار/ مارس 1900.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 74)



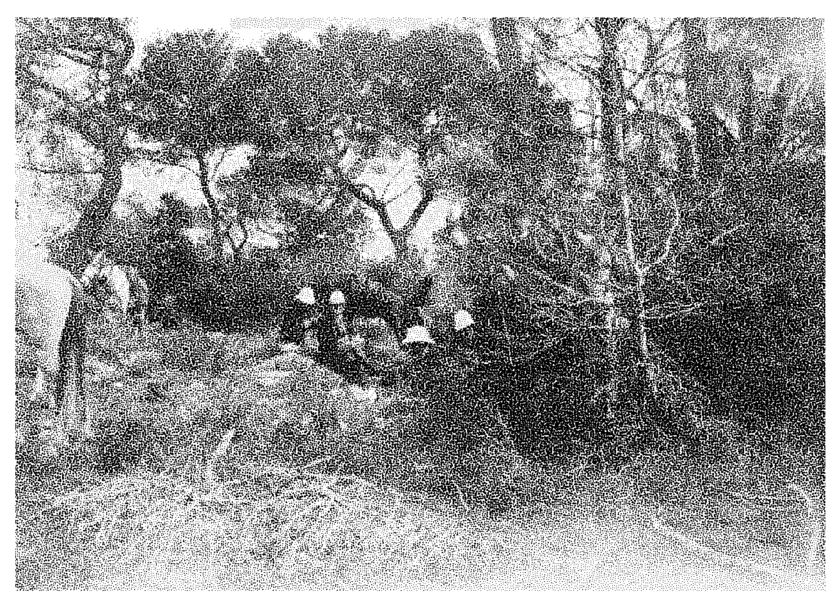
27. غابة أشجار بطم في "خور اِلهيش" إلى الشمال من البتراء، 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1909.

(عدسة: ب. كارغي. تتبع ص 81)



28. غابة أشجار عرعر إلى الشرق من بصيرا، 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1909.

(عدسة: ب. كارغي. تتبع ص 81)



29. غابة أشجار صنوبر شيخ العجم بالقرب من بيت محسير، 12 شباط/فبراير 1909.

(عدسة: إي. نستله. تتبع ص 74)



30. غابة أشجار أرز بالقرب من بشرّي في لبنان.

(تتبع ص 82)



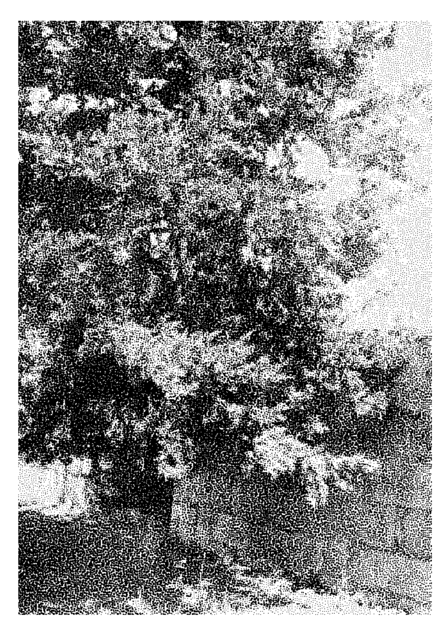
31. غصن أرز، مصح المجذومين، القدس، 1 آب/ أغسطس 1925.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 82)



32. شجرة سرو أفقية الفروع بالقرب من عين الفطاط القريبة من بصيرا، 24 آذار/ مارس 1906.

(عدسة: جيريمياس (Jeremias). تتبع ص 81)



33. شجرة سرو أفقية الفروع، مصح المجذومين، القدس، 22 تموز/ يوليو 1925.

(عدسة: غ. دالمان. تتبع ص 81)



34. غابة نخيل على نهر قيشون [نهر المقطَّع بالقرب من حيفا].

(تتبع ص 64)



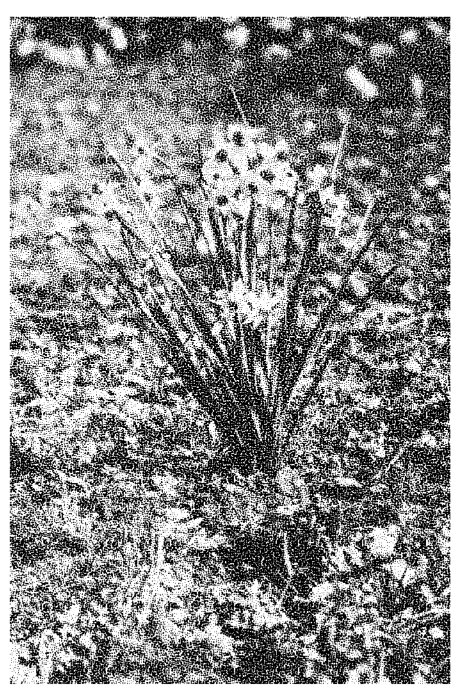
35. أشجار قيقب بالقرب من بيت محسير، 26 شباط/ فبراير 1910.

(تتبع ص 77 و260)



36. شقائق النعمان البيضاء والليلكية والأرجوانية بالقرب من كفر سبت في الجليل، 3 نيسان/ أبريل 1911.

(عدسة: ت. شلاتر. تتبع ص 23، 263)



37. نرجس بري حدائقي في القدس.

(عدسة: هـ. ل. لارسون، تتبع ص 252 وما يليها)

فهرس عام

ب

ت

غ

ف

ق

ـــــــ ك ـــــــ

ي

هذا الكتاب

ينطلق غوستاف دالمان في كتابه الموسوعي **العمل والعادات والتقاليد في فلسطين** من الحياة الطبيعية اليومية، أي من التقويم الشعبي الذي يحدد بدايات الشهور ونهاياتها. وفي الجزء الأول من هذا الكتاب يتناول فصل الخريف وألوانه وعالم النباتات والأشجار والحقول والغابات وسقوط أوراق الشجر ودرجات الحرارة والندى وتبرعم الأزهار والرياح والغيوم وأمطار الخريف والزراعة ودعوات الاستسقاء حين ينحبس المطر. ثم ينتقل إلى فصل الشتاء وأمطاره وعواصفه ورعوده والبرد والتدفئة والحياة النباتية والأعياد الشعبية. ويقارن المؤلف الأعراف والعادات الفلسطينية التي تتخلل هذين الفصلين بالأعراف الموازية في غير منطقة ولا سيما في حلب وشمال سوريا، ثم ينثني لوصف أدوات الحياة في فلسطين كالمنجل والمذراة والبيدر ورعاة الأغنام ومزمار الراعي، ويستغرق في وصف الطبيعة الفلسطينية قبل أن تدمر "الحكومة الإنكليزية والهجرة اليهودية سحر الشرق كله" على حد قول دالمان نفسه. ولعله توقع ذلك التدمير وتخوف منه ومن نتائجه فقال: "على سكان فلسطين العربية أولًا وقبل كل شيء، وبفخر له ما يبرره بشخصيتهم الفذة وماضيهم، إقامة معلم لثقافتهم من خلال رواية مطابقة للحقيقة دونما تلطيف أو تجميل قبل أن يقوم التأثير الأوروبي بتفسيخه والقضاء عليه"، وهذا ما حاول دالمان بناءه في هذا العمل النفيس. وفي هذا الكتاب المفعم بالجمال والوصف الجميل حاول غوستاف دالمان التقاط الحياة اليومية للناس بجميع تفصيلاتها ومساراتها ونبضها والاحتفاظ بذلك كله بين صفحاته كما تحتفظ الصورة باللحظة التي لا يمكن الإفلات من بهائها أو دهشتها.

المؤلف

غوستاف دالمان، لاهوتي لوثري ألماني وعالم آثار ومستعرب وخبير باللغات القديمة كالعربية والآرامية والعبرية واليونانية. ولد في سنة 1855، وجاء إلى القدس، أول مرة، في سنة 1899، ثم تسلم إدارة المعهد الإنجيلي الألماني للآثار القديمة في الأراضي المقدسة في سنة 1902. واستطاع خلال وجوده في القدس الذي امتد من 1899 إلى 1917، أن يجمع نحو خمسة آلاف كتاب عن فلسطين وسوريا، علاوة على خرائط كثيرة، ونحو خمسة عشر ألف صورة تاريخية عن فلسطين. ومع عودته إلى ألمانيا، تولى إدارة معهد أبحاث فلسطين في جامعة غرايفسفالد. نشر دالمان عددًا من الكتب المرجعية عن فلسطين منها **الديوان الفلسطيني** (1901) **ومئة صورة جوية ألمانية من فلسطين** (1925) وموسوعة **العمل والعادات والتقاليد في فلسطين** (ثمانية مجلدات)، فضلًا عن كتب أخرى عن الآرامية وعن اللهجات العربية في فلسطين، وتوفي في سنة 1941.

المترجم

محمد أبو زيد، ولد في مدينة طولكرم الفلسطينية في سنة 1955. درس الطب في جامعة برلين الحرة وتخرج فيها طبيبًا. حاز دبلومًا عاليًا في اللغة الألمانية، واهتم بالأدب الألماني وتاريخ ألمانيا. عمل طبيبًا في مراكز الهلال الأحمر الفلسطيني وجمعية إنعاش الأسرة في الضفة الغربية، ودرّس الألمانية في معهد غوته وفي مدرسة الرجاء اللوثرية في رام الله، وهو يقيم في مدينة رام الله.



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies